دائرة معارف فى سـيرة النـبي ﷺ

الجزء الثـاني

تأليـف

العلامة شبلى النعماني

العلامة سيد سليمان الندوي

تـرجمه وقدم له وعلق عليه

د. يـوسف عـامر

قسم اللغة الأردية وآدابها

كلية اللغات والترجمة

جامعة الأزهر

تقديم (المترجم)

فى هذا الجزء كتب المؤلف عن السنوات الثلاث الأخيرة فى حياة النبي ﷺ، ويبدأ بالحديث عن الأمن والأمان الذي عم شبه الجزيرة العربية بمجيء الإسلام، ثم عن قدوم وفود العرب وإعلان إسلامها، كما يكتب عن بقية الأحداث والأمور حتى وفاته ﷺ. ثم عن أخلاقه وشمائله وأولاده وأزواجه ﷺ.

فى هذا الجزء أيضا ترجم المؤلف معاني الأحاديث النبوية إلى اللغة الأردية دون إدراج نص الحديث باللغة العربية، ومن ثم حرصت فى ترجمتي على كتابة نص الحديث كما ورد فى كتب الصحاح، خاصة إذا أورد المؤلف فى المتن جملة "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" حتى يحفظه القارئ أو يطلع عليه كما هو فى نصه العربي. أما إذا أشار إلى معنى الحديث ومضمونه دون ذكر جملة "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" فى النص؛ فاكتفيت بترجمة ما كتبه فى شرح مضمون الحديث، ودونت نصه فى الحاشية، حتى يسهل حفظه بنصه.

يقتبس المؤلف آيات من الذكر الحكيم، ولكن توجد أخطاء فى تخريجها، وهو ما حرصت على تصحيحه فى هذه الترجمة.

هناك أخطاء كثيرة فى أرقام الحواشي فى النص عما ورد فى الحاشية، وهو ما قمت بالبحث عنه فى كتب السيرة والأحاديث ووافقت بين ما ذكر فى الحاشية والنص. أضف إلى هذا أنه أحيانا يذكر رقما فى النص دون حاشية له، وهو ما قمت بتحقيقه حسب المستطاع.

وفى النهاية لابد أن أشير إلى أن أي عمل بشري يعتريه النقص الغير مقصود، لذا أدعو الله تعالى أن يغفر لي أي خطأ أو سهو، وأن ينفع قراء هذا الكتاب، وأن يضيف شيئا فى معرفتهم بالسيرة النبوية، على صاحبها الصلاة والسلام .

ذو القعدة ١٤٢٥هـ / ديسمبر ٢٠٠٤م

المترجم. يوسف السيد عامر

مقدمة الجزء الثاني

نُشر الجزء الأول من كتاب "سيرة النبي ﷺ" سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٨م)، والآن يُنشر الجزء الثاني في منتصف سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م). يرغب القراء في نشر الأجزاء واحدا تلو الآخر مباشرة، ولكنهم ربما لا يعرفون تلك المشاكل التي أوجدتها الحرب العالمية في كل مجلات الحياة؛ فمع أن الحرب قد انتهت عمليا منذ أكثر من سنة تقريبا، إلا أن السلام لم يبدأ في حقيقة الأمر؛ فبانتهاء هذه الحرب لم تقل مشاكل الحياة وقضاياها. وبعد خوض تجربة الجزء الأول المضنية قررنا طباعة الجزء الثاني في مطبعة المعارف ذاتها، ولكن المشكلة التي واجهتنا هي أنه لم يكن لدينا آلة، وبعد بحث مضني حصلنا عليها، ولكن حين وجدناها، لاقتنا مشكلة قلة الورق؛ فكان من الصعب وجود نوعية الورق الذي استخدمناه في الجزء الأول، كما لم نجد ورق ٢٠٠ جراما في نفس الوقت، وحين زللت هذه المشكلة واجهتنا مشكلة ورق الغلاف، وحاولنا الحصول عليه من مصانع لكناؤ وكلكته وممباي، ولكن دون جدوى. وفى نهاية الأمر استخدمنا ما وجدناه من أوراق حتى طبع هذا الجزء.

يتحدث الجزء الأول (من الكتاب) عن فترة غزوات النبوة، أما الجزء الثاني (الذي بين أيدينا) يتحدث عن تاريخ ثلاث سنين من الحياة الآمنة من حياة النبي ﷺ، فقد تحدثنا في الجزء الأول عن أعماله ﷺ في عشرين سنة من النبوة، وفى هذا الجزء نتحدث عن أحداث الثلاث سنين الأخيرة، ثم نتحدث عن أخلاقه وخصاله ﷺ، وأزواجه أمهات المؤمنين وأولاده ﷺ.

حين حصلت على النسخة المخطوطة (بيد المؤلف) لهذا الجزء بعد وفاة المؤلف رحمه الله (شبلي النعماني)؛ أدركت بأن هناك أبوابًا لا بد من إضافتها وبدونها لا يكتمل هذا الجزء، ولكن لم أجرؤ على إضافة شيء إلى مسودة المؤلف، وفى النهاية بعد حيص بيص قررت أن أكتب هذه الأبواب وأضيفها، وبعد عدة أيام حصلت على مفكرة لمولانا شبلي صدفة، وكان قد دون معظمها وهو في سفينة قبل وفاته بخمسة أشهر، وعنوانها " المفكرة الأخيرة "، وحين قرأتها سررت كل السرور لأن المؤلف رحمه الله كان قد أشار

بها إلى أهمية إضافة تلك الأبواب التي اعتقدت أنا أهمية إضافتها، فاعتبرت أن هذا بمثابة وصية منه، أملتها عليه ملائكة الغيب بيده وقلمه من قبل، حتى تكون سببًا لاطمئناني.

لم يُكمل المؤلف رحمه الله (شبلي) باب أخلاق النبي ﷺ، فكانت هناك أبواب كثيرة في حاجة إلى إضافات، كما كانت هناك عناوين قد بدأها ولم يكملها، لذا كتبت كل هذا كتكملة للكتاب، وقمت بإضافة حواش كثيرة مهمة في أماكن متفرقة. وكما ذكرت آنفا في مقدمة الجزء الأول أني قمت بإضافة هذه الإضافات والحواشي بين قوسين ()، حتى لا تختلط عباراتي أنا المحرر بعبارات المؤلف.

المحرر

سيد سليمان الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة الإسلام الآمنة

سنة ٩ هـ، سنة ١٠ هـ، وسنة ١١هـ

استتباب الأمن ـ نشر الإسلام ـ تأسيس الخلافة ـ إتمام الشريعة

استتباب الأمن

بعد قراءة الأبواب[١] السابقة، بات من البديهي أن بلاد العرب آنذاك كانت تنعم بكل نجوم الطالع فيما يتعلق بالإمكانيات الطبيعية، بيد أن تلك النجوم لم تكن تابعة لنظام شمسي واحد. وكانت الجزيرة العربية كلها بلدًا واحدًا وأمة واحدة، ولكن في الوقت ذاته لم يذكر التاريخ أبدًا علامة لاتحاد وقومية هذا البلد، ومن الناحية السياسية لم نعم العرب أبدًا باجتماعهم تحت ظل علم ولواء واحد، وكما كانت البيوت منفصلة ومستقلة كانت الآلهة كذلك متعددة، وكان لكل قبيلة أيضاً رئيسها الخاص، فكانت هناك إمارات صغيرة لبني حمير والإذواء وبني قَيْلَة في جنوب شبه الجزيرة العربية. أما في شمالها فكانت هناك جماعات مستقلة لبكر، وتغلب، وشيبان، وأزد، وقضاعة، وكنده، ونحم، وجذلم، وبني حنيفة، وطيئ، وأسد، وهوازن، وغطفان، والأوس، والخزرج، وثقيف، وقريش، وغيرها، التي كانت تعاني جميعًا من وطأة الحروب الأهلية المستمرة ليل نهار. فبمجرد انتهاء القتال بين بكر وتغلب الذي استمر أربعين سنة، تقاتلت قبيلتي كنده وحضرموت قتالاً عنيفًا حتى أفنتهم الحرب. أما الأوس والخزرج فقد ظلا يتحاربان حتى فقدا زعماءهما واحدًا تلو الأخر. أما في الحرم فقد وقعت سلسلة " حرب الفجار " بين بني قيس وقريش في الأشهر الحرم، وهكذا كانت سائر البلاد ميدانًا للقتال المستمر. أما الجبال والصحاري فكانت مستوطنًا لقبائل المجرمين المستقلة فكانت البلاد دائماً عرضة لمخاطر القتل والسلب والنهب. وكانت القبائل كلها مكبلةً بسلسلةٍ من المعارك المتواصلة، ولم يكن قتل المئات والآلاف من البشر يكفي لإرواء ظمأ الانتقام، والثأر، والقصاص. وكانت التجارة هي مورد الكسب الوحيد للبلاد بعد السلب والنهب، ولكن كان من الصعب جداً مرور قوافل

---

[١] بداية من ص ١ وحتى ص ١٠ هذا ما قمت بإضافته أنا سيد سليمان الندوى.

التجارة من مكان لآخر. كان ملك الحيرة يتمتع بنفوذ وسطوة على شمال بلاد العرب، لذا كانت تصل قوافله التجارية بسهولة إلى أسواق عكاظ. كانت أشهر الحج مقدسة عمليًا عند العرب، ولكن رغم هذا التقديس كانوا أحيانا يزيدون في المدة وينقصون فيها من أجل إجازة الحرب. كتب أبو علي القالي في كتاب الأمالي :-

ذلك لأنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا تمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الإغارة (ج١ ص ٦)

كان فصل الربيع موسماً لانتعاش الكسب لدى كثير من قبائل المجرمين، فكان يقيم حول مكة قبائل أسلم وغفار وغيرهما من القبائل التي اشتهرت بسرقة أمتعة الحجاج.[١] ورغم أن طيئ كانت من القبائل ذات المكانة المشهورة، إلا أن لصوصها لم يكونوا أقل منها شهرة.[٢] فمنهم سليك بن السلكه وتأبط شراً شاعرا العرب المشهوران، واللذان كان

---

(١) صحيح البخاري، ذكر أسلم وغفار.وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري(٣٤٣٩) حدثنا محمدُ بن بشار حدثنا غُندَرٌ حدثنا شُعبةُ عن محمد بن أبي يَعقوبَ قال: سمعت عبدَ الرحمنِ بنَ أبي بكرةَ عن أبيه: «أن الأقرعَ بنَ حابسٍ قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: إنما بايعكَ سُرّاقُ الحجيجِ من أسلمَ وغِفار ومُزَينة ــ وأحسبه وجُهَينةَ، ابن أبي يعقوبَ شك ــ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أ رأيتَ إن كان أسلمُ وغِفارُ ومُزَينةُ وأحسبهُ وجُهينة خيراً من بني تميم وبني عامرٍ وأسدٍ وغَطفَانَ خابوا وخسروا ؟ قال: نعم. قال: والذي نفسي بيدهِ إنهم لأخْيَرُ منهم. (المترجم).

(٢) صحيح البخاري، باب علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٥١٧) حدثني محمدُ بن الحكَم أخبرَنا النَّضرُ أخبرَنا إسرائيلُ أخبرَنا سعدٌ الطائيُّ أخبرَنا مُحلُّ بن خَليفةَ عن عَديِّ بن حاتمٍ قال: «بينا أنا عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذا أتاهُ رجُلٌ فشكا إليهِ الفاقَةَ، ثمَّ أتاهُ آخرُ فشكا إليه قَطعَ السبيلِ، فقال: يا عَديُّ، هل رأيتَ الحيرةَ ؟ قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قال: فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ تَرتحلُ منَ الحيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ ــ قلتُ فيما بيني وبينَ نفسي فأين دُعّارُ طَيِّىء الذينَ قد سَعَّروا البلادَ ؟ ــ ولئنْ طالَتْ بكَ حياةٌ لتُفتَحنَّ كُنوزُ كِسرَى، قلتُ: كِسرَى بن هُرمُزَ ؟ قال: كِسرَى بنِ هُرمُزَ. ولئنْ طالت بكَ حياةٌ لتَرَيَنَّ الرجلَ يُخرجُ مِلْءَ كفِّهِ من ذهبٍ أو فضةٍ يَطلُبُ مَن يَقبلهُ منهُ فلا يَجدُ أحداً يَقبلهُ منه. وليَلقَيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يَلقاهُ وليسَ بينَهُ وبينهُ ترجمانٌ يُترجمُ لهُ، فيقولَنَّ: ألم أبعَثْ إليكَ رسولاً فيُبلِّغك ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفضِلْ عليك ؟ فيقول: بلى. فيَنظرُ عن يَمينه فلا يَرى إلا جهنَّم، وينظرُ عن يَسارهِ فلا يَرى إلا جهنَم. قال عَديٌّ: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: اتَّقُوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يَجدْ شِقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبة. قال عديٌّ: فرأيتُ الظعينةَ ترتحلُ منَ الحيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا اللهَ، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرَى

إنتاجيهما الشعري عبارة عن قصائد رائعة في تفخر بمهارتهما في السرقة والاحتيال.

بلغ تفشي الاضطراب والفوضى في البلاد إلى الحد الذي جعل عبد القيس إحدى قبائل البحرين القوية حتى سنة ٥هـ، لم تكن تجرأ على التوجه إلى الحجاز في أي شهر من الشهور عدا الأشهر الحرم،[١] خشية بطش القبائل المصرية، وبعد فتح مكة أيضاً لما بدأ الاستقرار يسود البلاد، كان السفر من مكة إلى المدينة محفوفاً بالمخاطر، فكان ما يزال هناك من يسلبون الناس أشيائهم.[٢] وبعد الهجرة بخمس أو ست سنوات كانت قوافل الشام التجارية تُسلب وتُنهب في وضح النهار.[٣]حتى بلغ الأمر إلى أن عمليات السطو

بن هُرمُزَ، ولئنْ طالت بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: يُخرجُ ملءَ كفه.(المترجم).

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان. (١٣٨٠) حدثنا حجّاجٌ حدثنا حمّادُ بنُ زيدٍ حدثنا أبو جمْرة قال: سَمِعْتُ ابنَ عبّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهما يقول: «قَدِمَ وَفدُ عبدِ القَيسِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسولَ اللّهِ، إنّا هذا الحيّ من ربيعةَ، قد حالتْ بيننا وبينكَ كفّارُ مُضَرَ، ولسنا نَخلُصُ إليكَ إلاّ في الشهرِ الحرامِ، فمرنا بشيءٍ نأخُذُهُ عنكَ وندْعو إليهِ مَن وراءَنا. قال: آمُركم بأربعٍ، وأنهاكم عن أربعٍ الإيمانِ باللّهِ وشَهادَةِ أنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ ــ وعقدَ بيدِهِ هكذا ــ وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وأن تُؤدّوا خُمُسَ ما غنمتم. وأنهاكم عن الدبّاءِ والحَنْتَمِ والنَّقيرِ والمُزَفّتِ. (المترجم).

(٢) أبو داود، كتاب الأدب، باب الحذر. وهذا نص الحديث: (٤٨٥٧) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى بنِ فَارِسٍ أخبرنا نُوحُ بنُ يَزِيدَ بنِ سَيَّارٍ المُؤدِّبُ أخبرنا إبْرَاهِيمُ بنُ سَعْدٍ قال حَدَّثَنِيهِ ابنُ إسْحَاقَ عن عِيسَى ابنِ مَعْمَرٍ عن عَبْدِ الله بنِ عَمْرِو بنِ الْفَغْوَاءِ الْخُزَاعِيِّ عن أبِيهِ، قَالَ: « دَعَانِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَقَدْ أرَادَ أنْ يَبْعَثَنِي بِمَالٍ إلَى أبِي سُفْيَانَ يَقْسِمُهُ في قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ بَعْدَ الْفَتْحِ فقَالَ: الْتَمِسْ صَاحِباً. قَالَ: فَجَاءَنِي عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ فقَالَ: بَلَغَنِي أنَّكَ تُرِيدُ الْخُرُوجَ وَتَلْتَمِسُ صَاحِباً. قال قُلْتُ: أجَلْ. قال: فَأَنَالَكَ صاحبٌ وقال فَجِئْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قُلْتُ: قَدْ وَجَدْتُ صَاحِباً. قَالَ فقَالَ: مَنْ؟ قُلْتُ: عَمْرَو بنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ. قال: إذَا هَبَطْتَ بِلاَدَ قَوْمِه فاحْذَرْهُ فإنَّهُ قَدْ قَالَ الْقَائِلُ: أخُوكَ الْبَكْرِيُّ ولا تَأمَنْهُ. فَخَرَجْنَا حَتَّى إذَا كُنْتُ بالأبْوَاءِ قال: إنِّي أُرِيدُ حَاجَةً إلَى قَوْمِي بِوَدَّانَ فَتَلَبَّثْ لِي؟ قُلْتُ رَاشِداً. فَلَمَّا وَلَّى ذَكَرْتُ قَوْلَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَشَدَدْتُ عَلَى بَعِيرِي حَتَّى خَرَجْتُ أُوضِعُهُ حَتَّى إذَا كُنْتُ بالأصَافِرِ إذَا هُوَ يُعَارِضُنِي في رَهْطٍ. قال: وَأوْضَعْتُ فَسَبَقْتُهُ، فَلَمَّا رَآنِي أنْ قَدْ فُتُّهُ انْصَرَفُوا وَجَاءَنِي فقَالَ: كانَتْ لِي إلَى قَوْمِي حَاجَةٌ. قال قُلْتُ: أجَلْ. وَمَضَيْنَا حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ فَدَفَعْتُ الْمَالَ إلَى أبِي سُفْيَانَ. (المترجم).

(٣) طبقات (الطبقات الكبرى) ابن سعد، جزء المغازي ص ٦٣،٦٤،٦٥.

وقطع الطريق كانت تتم أحياناً في مراعي دار الإسلام ذاتها.[١] ولقد كان الناس يتعجبون، عندما كان يبشرهم الرسول صلوات الله عليه بما سيعم البلاد من أمنٍ واستقرار، وأنه سيأتي زمانٌ تسافر فيه المرأة من الحيرة، وحيدة في محملها ولا تخشى إلا الله [٢] (سبحانه وتعالى). وفي سنة ٩ هـ جاء إلى الرسول ﷺ رجل يشكو: لقد سلب قطاع الطرق أمتعتي. فأخبره ﷺ بأنه قريباً سيأتي زمنٌ تسافر فيه القافلة إلى مكة دون حارس.[٣] وهكذا لم يكن الأمن والاستقرار ميسراً للناس في هذا البلد المترامي الأطراف سوى في أرض الحرم فقط، لذا ذكر الله (سبحانه وتعالى) أعظم ما أنعم به على أهل مكة في الآيتين الكريمتين :

"فليعبدوا رب هذا البيت ۞ الذي أطعمهم من جوعٍ وءامنهم من خوف" (قريش :٣-٤)

"أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويُتخطف الناسُ من حولهم" (العنكبوت :٦٧)

ماذا كان حال الإسلام نفسه ؟ ظل محمد ﷺ يعرض نفسه على جميع القبائل طيلة ثلاث سنين متتالية بعد عام الحزن أملاً منهم أن يعطوه الأمان ويتيحوا له تبليغ صوت الحق إلى الناس، لكنه ﷺ لم يجد من يناصره، ولم يكن المسلمون جميعاً يستطيعون التنفس في فضاء شبه الجزيرة العربية، لذا هاجروا إلى صحارى إفريقيا والحبشة بحثاً عن الأمن والاستقرار، أما من بقى منهم في شبه الجزيرة العربية فكان هدفاً لكافة أنواع الظلم والاضطهاد. وقد ذكر القرآن الكريم حال المسلمين هذا في قوله تعالى:-

"واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس" (الأنفال:٢٦)

نتج عن سوء الأمن والفوضى الداخلية هذا أنه لم يكن بمقدور أية حركة أن تقوم لها قائمة في البلاد دون إستراتيجية عسكرية للدفاع عن نفسها، ولقد كانت المهمة الأساسية لدى محمد ﷺ هي الدعوة إلى الإسلام، التي لم تكن بحاجة إلى سيف و خنجر أو إلى جيش وعسكر، ولكن كانت هذه الوسائل كلها ضرورية لمواجهة العدو من ناحية ولما كانت تتعرض له أرواح دعاة الإسلام من مخاطر ومهالك في شتى البقاع من ناحية

---

[١] انظر غزوة سويق وغزوة غابة.

[٢] صحيح البخاري، باب علامات النبوة. وهذا هو النص كما ورد في الحديث: " فإن طالتْ بكَ حَيَاةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ تَرتحِلُ منَ الحيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا الله." (المترجم).

[٣] البخاري، ص ١٩٠.

أخرى. كما كانت قوافل التجارة، التي يرتكز عليها اقتصاد البلاد غير آمنة، وقد سبق الحديث عن هذه الأحداث في أسباب غزوات النبي ﷺ.

المخاطر الخارجية

على أي حال، كانت هذه هي الحالة الداخلية للبلاد. أما المخاطر الخارجية فلم تكن أقل منها سوءاً، فكانت كل الأقاليم الخصيبة والخضراء في قبضة القوتين العظيمتين آنذاك الروم والفرس إذ كانوا يسيطرون على اليمن الإيرانية وعمان والبحرين منذ ستين سنة تقريباً، فيما كان يحكمها زعماء العرب صورياً تحت سيادتهما. هذا وكانت جحافل الإيرانيين قد بدأت الزحف إلى داخل البلاد بعد إسقاطها لدولة المناذرة على حدود العراق. كذلك كانوا يعتبرون الحركة الإسلامية التي كانت تنتشر في الحجاز ضمن حدودهم أيضا، ومن ثم أرسل شاه إيران سنة ٦هـ مرسوماً ملكياً للحاكم الإيراني على اليمن جاء فيه" اقبض على عبدي الذي يدعي النبوة في الحجاز وأرسله إلي".

أما الروم فكانت قد استولت على حدود الشام وخضع لها بني غسان وصغار زعماء العرب الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية من قبل. وبعد سنة ٨هـ كانت الروم تتأهب لغزو المدينة بدعم من هؤلاء الزعماء العرب المسيحيين، الأمر الذي تجلى في غزوتي تبوك ومؤتة وغيرهما.

قوة اليهود

كانت الروم قد سلبت من اليهود حكومتهم الصورية على الشام وفلسطين في القرن الثاني الميلادي فاضطروا إلى التقهقر من حدود الشام إلى داخل الحجاز، وشيدوا حصوناً تمتد من المدينة إلى الشام، واتخذوها تحصينات عسكرية ومستودعات تجارية أيضاً وكانت قريظة، وقينقاع[1]، وخيبر، وفدك، وتيماوادى[2] القرى وغيرها كبرى تكتلاتهم العسكرية. وقد أشار القرآن الكريم في الآيتين التاليتين إلى قلاع اليهود هذه:

"لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أومن وراء جدر" (الحشر:١٤).

"وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم" (الأحزاب:٢٦).

مثلما كان ثراء تجارتهم سبباً [illegible] عنصر سياسي للبلاد في إسبانيا وأوروبا في العصور القديمة، كان [illegible] في بلاد العرب. فبفضل قراهم

---

(١) للمزيد ارجع إلى معجم [illegible] عن هذه المناطق.

(٢) انظر أحوالها في كتب [illegible] قتل كعب بن الأشرف ورافع بن خديج.

المحصنة لم يألوا بالاً لقوة الإسلام، ومن ثم اضطر محمد ﷺ أن يغزوهم عدة مرات بسبب عنادهم ومكائدهم. وحين انتصر المسلمون في غزوة بدر كانوا يقولون بافتخار:"ماذا يعرف مساكين قريش بمكة عن القتال؟ فلو يواجه المسلمون حصوننا فسيعرفون ما الحرب".

موجز القول أن بلاد العرب كانت تعاني من شتى أنواع المخاطر الخارجية منها والداخلية بدرجة فشلت الوسائل الإنسانية المتاحة في معالجتها. فكانت يد الله المستترة كامنةً في يد محمد ﷺ: **وما رَميت إذ رَميت ولكن الله رمى.** ونتج عن الإصلاحات المتواصلة والجهود المستمرة لمدة ثمان سنوات بعد الهجرة أن تحول المستحيل إلى ممكن بل إلى واقع؛ فقد كان سر الضعف السياسي في بلاد العرب هو الخصومة والتنازع فيما بينهم، وكان السبب الوحيد لهذه الفُرقة والحرب الأهلية هو أن العرب جميعاً كانوا منقسمين إلى قبائل وأنساب وعروق، ولم يكن هناك رابطٌ قويّ يجمعهم ويوحدهم. فجاء رسول الله ﷺ برباط وقرابة الإسلام لتوحيد صفوف العرب جميعاً. يقول الله تعالى: " **إنما المؤمنون أخوة** "(**الحجرات: ١٠**) وفجأة، مزقت هذه القرابة الروحانية نسيج الدم والقرابة والنسل، وصارت كلمة "**لا اله إلا الله محمد رسول الله** "وحدها هي التي تحرك روح وحدة بلاد العرب كلها ولقد وصف جل شأنه هذه الوحدة في القرآن الكريم بنعمته الخاصة على العرب:-

واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً (آل عمران: ١٠٣)

ولقد قال سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله الكريم محمد ﷺ: يا محمد! لم يكن هذا عملك. فقد قامت به يد الله تعالى مقلب القلوب:-

هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبكم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّفَ بينهم إنه عزيز حكيم (الأنفال: ٦١، ٦٢)

بعد الهجرة آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار فكانت هذه هي الحلقة الأولى فيّ تلك السلسلة، أما الحلقة الأخيرة فكانت تلك الخطبة التي ألقاها النبى ﷺ بعد فتح مكة؛ وأكد القرآن الكريم في كثير من آياته أن الفتنة والفساد في الأرض أبشع الجرائم الإنسانية، كما حدد عقوبات رادعة لمرتكبيها؛ فكانت عقوبة قطع اليد للسارق، وعقوبات النفي وقطع اليد والصلب والقتل لقطع الطريق. وللقضاء على سفك الدماء نزل قانون

القصاص في سورة المائدة، وأرسل الرسول ﷺ قواته عدة مرات لتدعيم استتباب الأمن في البلاد عملياً وشن غارات على قبائل المجرمين.[1] أما القبائل التي كانت تمتهن السرقة في الحجاز فقد تابت وأسلمت.[2] وتم تشريع قوانين للفصل في القضايا الجنائية والمدنية كما تم تعيين عمالاً في كل مكان.

ولكن كان هذا كله بمثابة قيد لطبيعة البشر الظاهرية، فمهمة النبي أسمى من أن تكون مجموعة الواجبات التي يقوم بها مُشَرع ومخطط عام؛ فإن ما قام به قانون العقوبات الإسلامي، قد سبقه الأثر الروحي للقرآن الكريم وفيض إرشاد خاتم النبيين ﷺ اللذان استأصلا كل دوافع الاتهام بالجرائم. فالقانون ورهبة العقاب يمكنهما أن يحدا من الجرائم في الأسواق وأماكن التجمعات العامة فقط، لكن فيض أثر الدعوة الإسلامية قد جعل القلوب ممتثلة أمام الله البصير العليم؛ فعم الأمن والأمان البلاد. وهذا عدى بن حاتم شهد أنه رأى بأم عينه الناس وهم يسافرون فرادى من صنعاء إلى الحجاز ولا يساورهم الخوف في الطريق إلا من الله،[3] كما تنبأ الرسول ﷺ. وهاهو المؤرخ الأوربي مارجوليوث، الذي قلما اهتز قلمه لمدح رسول الإسلام ﷺ، معترفاً بهذه الحقيقة قائلاً :-

"حين توفى محمد ﷺ ما كان عمله السياسي قد اكتمل؛ فقد أسس دولةً لها عاصمتها السياسية والدينية. ووحد قبائل العرب المشتتة في أمة واحدة، ومنح العرب ديناً واحداً، وخلق بينهم رابطة أشد قوة من روابط القرابة والدم" [4].

لقد أوجد الله سبحانه وتعالى أسباباً عجيبة للقضاء على المخاطر الخارجية، فحين أراد اليهود أن يقضوا على الإسلام بإثارة قريش ومنافقي المدينة، كانت النتيجة أن أبيدوا هم أنفسهم؛ إذ وقعت غزوات متتالية من سنة ٣ هـ إلى سنة ٧ هـ حتى قُضى على قوتهم السياسية في فتح خيبر، وأخذ الروم ومسيحو العرب في حدود الشام على عاتقهم

---

[1] الق نظرة أخرى على غزوات الرسول ﷺ .

[2] صحيح البخاري، ذكر غفار وأسلم. وهذا نص الحديث: (٣٤٣٦) حدثني محمدُ بن غرَير الزُهري حدَّثنا يَعقوبُ بن إبراهيمَ عن أبيهِ عن صالحٍ حدَّثنا نافعٌ أنَّ عبدَ الله أخبرَهُ: أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر: «غفارُ غفرَ اللهُ لها وأسلَمُ سالَمها اللهُ، وعُصَيَّةُ عصَتِ اللهَ ورسولَه. (المترجم).

[3] صحيح البخاري. يقول عدى: فرأيتُ الظعينة ترتحلُ منَ الحيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا الله. (المترجم).

[4] حياة محمد لـ مارجوليوث، ص ٤٧١.

مسئولية استئصال الإسلام. وكان الغساسنة أقوى زعماء العرب المسيحيين أداة طيعة في يد الروم إذ كانت تحت إمرتهم بهرار، ووائل، وبكر، ونحم، وجذام، وعاملة وغيرها من القبائل العربية، إضافة إلى أنهم كانوا يتزعمون دومة الجندل، وآيلة، وجربا، وأذرح، وقبالة، وجرش وغيرها من صغار الزعماء المسيحيين واليهود. وفيما سبق ذكرنا كيف بدأ هجوم الغساسنة، كان حارث بن عميرة ﷺ قد ذهب إلى بلاط عامل بُصرى يحمل إليه رسالة الدعوة إلى الإسلام فقتله الغساسنة في الطريق. فأرسل محمد ﷺ كتيبةً من المسلمين قوامها ثلاثة آلاف مقاتل للثأر من الغادرين وتأديبهم. فخرج جيش جرار من الغساسنة قوامه مائة ألف مقاتل إلى الميدان وكان هناك نبـأ بأن الروم قد خرجوا أيضا في جيش بهذا العدد هم الآخرون ونزلوا في مآب على مقربة من مؤتة، ومع ذلك لم ينزعج المسلمون على قله عددهم من هذه الجموع الغفيرة انسحبوا بالجيش بمهارة من ميدان المعركة بعد أن استشهد عدد منهم. وتسمى هذه الغزوة " غزوة مؤتة ".

ثم وقعت غزوة تبوك في سنة ٩هـ فقد كانت تأتي الأخبار دوماً بأن الروم تعد جيشاً جراراً من مسيحيي العرب للهجوم على المسلمين، وقد أعطت راتب عام كامل للجيش مقدماً، كما جاء نبأ بأن الغساسنة يبذلون قصارى جهدهم في تجهيز الجيش وينعلون الخيل. ومن ثم خرج النبي ﷺ في ثلاثين ألفاً من الصحابة رضوان الله عليهم وطفقوا ينتظرون قدوم العدو قرابة عشرون يوماً، ولكن لم يأت أحد، ونتج عن هذا الزحف الإسلامي أن كثيراً من الزعماء فضلاً عن الغساسنة قد تركوا الرومان وأخذوا يناصرون الإسلام.[1] وفي سنة ١١هـ أرسل محمد ﷺ إبان مرض موته، الجيش لمجابهة الروم بقيادة أسامة بن زيد؛ ولكن هذه المهمة نفذت في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

كانت دولة الفرس قد بلغت منتهاها؛ فبمجرد وصول دعاة الإسلام سنة ١٠هـ إلى اليمن، وعمان، والبحرين تفككت دولتها دون مواجهة أو قتال.

موجز القول هو أن الأمن قد استتب في البلاد كليا بفضل الجهود المتواصلة، والتي استمرت حوالي تسع أو عشر سنوات، وبفضل العناية الإلهية، وتحطم سحر مؤامرات قريش واليهود، كما قضى على الحروب الأهلية بين القبائل، واهتدى قطاع

---

[1] وقد مر الحديث عن هذا كله تفصيلا في غزوتي مؤتة وتبوك.

الطريق واللصوص، وتم القضاء على المخاطر الخارجية؛ وأصبح الحال عندئذ مهيأ للاهتمام بالغاية المنشودة حسب الأمر الإلهي.

نشر الإسلام

كانت المهمة الجوهرية لمحمد ﷺ هي نشر الدعوة الإسلامية في كافة أرجاء العالم، ليس نشرها فحسب، بل السعي إلي دفع الناس جميعاً بكافة الوسائل المشروعة إلى اعتناق الإسلام، ومن ثم لم يكن النبي ﷺ بحاجة إلى سيف وخنجر أو جيش وعسكر لتحقيق ذلك بل كان يكفيه أن يصل نداء الحق إلى كل بقعة من بقاع الدنيا، ولكن أعداء الإسلام وقفوا حائلاً دون ذلك قرابة ثلاثة عشر سنة في مكة. كانت سائر قبائل العرب تتوافد من أقاصي البلاد في موسم الحج. وكان صلوات الله وسلامه عليه يذهب إلى كلٍ منها على حدة بغية أن يتيحوا له تبليغ رسالته التي تعيقه قريش عن تبليغها، ولكن بسبب نفوذ ومناهضة قريش لم يجد له نصيراً واحداً من بين تلك الآلاف من الناس، ومع ذلك كان الحق ينتصر لنفسه ويصل إلي القلوب فينيرها وما حولها. كان الإسلام بحاجة إلي الدعاية والإعلان فقط، وهذا ما قام به أعداء الإسلام أنفسهم، ففي موسم الحج كان زعماء قريش ينصبون خيامهم في الطريق العام حيث يزورهم الوافدون، وكان قد انتشر أمر البعثة النبوية، فكانوا يستفسرون عن حقيقة هذه البعثة، وإن لم يفعلوا هم بأنفسهم، فكانت قريش تقول لهم: ولد في مدينتنا رجل صابئ يسيء إلى آلهتنا، وبلغ به التطاول إلي سب اللات والعزى.

يُطلق على سيئ العقيدة في اللغة العربية "صابئ"، لذا لقبت قريش محمدا ﷺ بهذا اللقب، لأن بعض الفرائض الإسلامية كهيئة الصلاة مثلاً كانت تتشابه مع طقوس الصابئين، ومن ثم اشتُهِر محمد ﷺ بهذا اللقب في سائر بلاد العرب.[1] وورد في صحيح البخاري، كتاب المغازي رواية عن صحابي وهي: حين كنت صغيراً كنت من المترددين

---

[1] صحيح البخاري، كتاب التيمم.وهذا نص الحديث:(... ثمَّ سارَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فاشتكى إليه الناسُ من العَطَشِ، فنزلَ فدعا فُلاناً ــ كان يسمِّيهِ أبو رجاءٍ نَسِيَهُ عَوفٌ ــ ودَعا علياً. فقالَ: اذْهَبا فابتَغيا الماء، فانطلقا فتلقَّيا امرأةً بين مَزادتَينِ ــ أو سَطيحتَينِ ــ من ماءٍ علَى بَعيرٍ لها فقالا لها: أينَ الماءُ؟ قالتْ: عَهدِي بالماءِ أمسِ هذهِ الساعةَ، ونَفَرُنا خُلُوفٌ. قالا لها: انطلِقي إذاً. قالت: إلى أينَ؟ قالا: إلى رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم. قالتِ الذي يُقالُ له الصابئ؟ قالا: هو الذي تَعْنينَ، فانطَلِقي... الحديث). (المترجم).

على مكة؛ فكنت أسمع أنه قد ولد بها رجلٌ يدعي النبوة.[١] وحين اشتهر اسم محمد ﷺ في البلاد شهرة كبيرة، بالرغم من أثره السيئ على الناس، لم يقبل عليه ﷺ أيّ أحد؛ إلا أنه لم يخلِ هذا البلد المترامي الأطراف من أناس يرغبون في معرفة حقيقة الأمر، فكان قد ظهر في العرب أناس يكرهون عبادة الأصنام ويتحسسون الحق. وتسامى بعضهم إلى أن صاروا حنفاء، وقد سبق الحديث عنهم في بداية الكتاب. أورد حافظ ابن حجر في "الإصابة" عدة أسماء من الصحابة الذين وفدوا من اليمن وغيرها من أقاصي البلاد على رسول الله ﷺ في مكة ليستكشفوا أمره وعادوا إلى بلادهم بعد ما أسلموا سراً.[٢] فقد بدأ انتشار الإسلام بين قبيلتي أبي موسى الأشعري اليمني (وطفيل بن عمرو الدوسي اليمني) إبان إقامته ﷺ في مكة.

إسلام طفيل بن عمرو

كان طفيل بن عمرو الدوسي شاعراً عربياً مشهوراً، ولأن الشعراء كانوا ذوي شأن كبير عند العرب؛ أي كانت القبيلة تمتثل لأوامره؛ حاولت قريش بشتى الصور أن تحول دون وصوله إلى حضرة النبي ﷺ، ولكن تصادف لطفيل ذات مرة أن سمع محمد ﷺ يتلو القرآن الكريم فأسلم على الفور،[٣] وبإسلامه هذا بدأ الإسلام ينتشر بين قبيلة دوس[٤] آنذاك. وحين لم تقبل القبيلة كلها دعوة طفيل، يأس وجاء إلى الرسول ﷺ وقال: يا نبي الله، إن دوساً قد هلكت عصيت وأبت، فادع الله عليهم؛ فرفع ﷺ يديه ودعا: اللهمَّ اهدِ دَوساً وأْتِ بهم، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم، وبعدها أسلمت القبيلة كلها.[٥]

إسلام عمرو بن عنبسة

كان عمرو بن عنبسة السلمي ممن سمعوا على ألسنة الناس أنه قد ولد رجل في مكة يتحدث عن أمور شتى؛ فوفد إلى مكة بلهفة، وكان رسول الله ﷺ يستتر آنذاك تجنباً لأذى قريش. واستطاع عمرو بن عنبسة ﷺ الوصول إلى النبي ﷺ وقال: من أنت؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "أنا نبي" قال: وما نبي ؟ " فقال الرسول الكريم ﷺ :"أرسلني الله" ثم

---

[١] كتاب المغازي صـــــ٦١٥.

[٢] أضفت من هنا حتى قصة أبو ذر ﷺ.

[٣] الزرقاني.

[٤] صحيح مسلم، يُفهم هذا من سياق الحديث في كتاب الإيمان.

[٥] صحيح البخاري؛ قصة دوس.

سأل :"وبأي شيء أرسلك" فرد عليه ﷺ: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يُشرك به شيء. سأل عمرو: فمن معك على هذا؟ قال ﷺ: رجل حر (أبو بكر) وعبد (بلال) فقال عمرو: وإني متبعك فقال ﷺ :إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، فأقفل عمرو عائداً حيث أتى، ولما سمع عن انتصاره ﷺ بعد الهجرة امتثل بين حضرته الشريفة[1].

إسلام ضماد بن ثعلبه

- كان ضماد بن ثعلبه زعيماً لقبيلة أزدشنوه، وصديقاً للنبي الكريم ﷺ قبل البعثة. سمع حين وفد إلى مكة أن محمداً ﷺ قد أصابه الجنون ولأنه كان يجيد الرقية، ذهب إلى المصطفى ﷺ وقال: دعني أعالجك، فقال عليه الصلاة والسلام: **الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل، ومن يضلله فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.** فأثرت هذه الكلمات أثراً قوياً في ضماد، فطلب من الرسول ﷺ أن يكررها فكررها ﷺ وفي الثالثة أقرأها ﷺ لضماد، فأعجب بما سمع إعجاباً شديداً وقال: سمعت قول الكهنة (المنجمين) وتعاويذ السحرة وقصائد الشعراء، ولكنني ما سمعت قط كلاماً مثل هذا، ولو كان في قاع البحر لغصت إليه حتى آتي به، مد إلى يدك، فإني أبايعك على الإسلام، فبايعه الرسول ﷺ.

إسلام قبيلة أزد

ثم قال: بايعني أيضاً بالأصالة عن قبيلتي. ومن ثم أخذ البيعة من قبيلته كلها، وأسلمت على يديه. وذات مرة حين مر جيش المسلمين في إحدى الغزوات على قبيلة أزد سأل القائد: هل أخذ أحد أي شيء من هذه القبيلة. فقال جندي: لقد أخذت إبريقاً، فأمره القائد بإعادته حيث كان.

إسلام أبي ذر

إن قصة إسلام أبي ذر جديرة بالذكر هنا على وجه الخصوص.

حين ذاع هذا الخبر بين قبيلة غفار التي كانت تقيم على طريق التجارة إلى الشام قال أبو ذر- للذي كره ونفر معه من عبادة الأوثان وانشغل بالبحث عن الحقيقة ــ

[1] صحيح مسلم، باب الأوقات التي نُهي عن الصلاة فيها. (ج٦).(المترجم).

لأخيه(أنيس): اذهب إلى مكة واطلع على تعاليم الرجل الذي يدعي النبوة هناك ! فذهب أنيس إلى مكة وعاد منها يقول: إنه يدعو إلى مكارم الأخلاق، وكلامه-ليس بشعر، فلم يكتف أبو ذر بهذه الإجابة الموجزة، وذهب بنفسه، يحمل بعض الطعام وفي سقايته بعض الماء زاداً لسفره، ولما وفد على مكة خشي أن يسأل أحداً عن اسم رسول الله ﷺ والتقى بعلي في الحرم، فاستضافه ولكنه لم يجرؤ أن يسأله عن شيء طيلة ثلاثة أيام. وفي النهاية سأله علي بنفسه: "ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ "فأخبره في توجس بعد أن قطع عليه عهداً بالا يُفشي سره لأحد، واصطحبه علي ﷺ إلى رسول الله ﷺ، وعلمه النبي الكريم ﷺ الإسلام وقال: ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري، لكنه أخذته حماسه الإسلام، وقال: سأعلن إسلامي. الخلاصة أنه ذهب إلى الحرم وصاح بقوة "**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله**" وما أن سمع الناس هذا الصوت حتى أقبل عليه الناس من كل صوب وحدب يضربونه، فجاء العباس وخلصه منهم، وقال للناس: ألا تعرفون أن طريق تجارتكم يمر على أهالي غفار وهذا رجل منها، تركه الناس حينئذ، ولكن في اليوم التالي أيضاً ذهب أبو ذر إلى الحرم وأعلن إسلامه بنفس الطريقة، وكانت النتيجة أيضاً كالتي كانت بالأمس. وتصادف اليوم أيضاً أن جاء العباس وخلصه منهم.[١]

إسلام قبيلة غفار

حين عاد أبو ذر من مكة ودعا القبيلة إلى الإسلام، أسلم نصفها وقتئذ.

وقال الآخرون: سنعلن إسلامنا حين يهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة. لذا حين هاجر الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة أسلم بقية أهلها.[٢]

---

(١) اقتسبت هذه الرواية بأكملها من صحيح البخاري، ووردت في صحيح مسلم بشيء من التفصيل، إذ بها كثير من الكلمات غير الواردة في صحيح البخاري، يكتبُ الحافظ بن حجر في فتح البـــاري أنـــه يمكن التطابق بين هاتين الروايتين.

(٢) صحيح مسلم، إسلام أبي ذر. وهذا نص هو الحديث: (... فَاحتَمَلْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَاراً. فَأَسْـلَمَ نِصفُهُمْ. وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ إِيمَاءُ بْنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ. وَكَانَ سَيِّدَهُمْ. وَقَالَ نِصفُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللّه الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا. فَقَدِمَ رَسُولُ اللّهِ الْمَدِينَةَ. فَأَسْلَمَ نِصفُهُمُ الْبَاقِي. وَجَاءَتْ أَسْلَمُ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ إِخْوَتُنَا. نُسْلِمُ عَلَىٰ الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ. فَأَسْلَمُوا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «غِفَارُ غَفَرَ اللّهُ لَهَا: وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللّهُ.(المترجم).

إسلام قبيلة أسلم

كانت قبيلة أسلم تقع على مقربة من قبيلة غفار وكانت تربطهما علاقات قديمة، فأسلم أهلها تأثراً بغفار[1] (في حين أن كلتا القبيلتين كانتا مشهورتين بالسرقة قبل الإسلام، وكانتا تعلمان بالطبع أن الإسلام عدو هذا السلوك الشنيع).

إسلام الأوس والخزرج

كانت أغلب قبائل العرب تجتمع في موسم الحج. وكان الرسول ﷺ يذهب إلي كل قبيلة في مقرها ويدعوها إلى الإسلام، وهكذا أسلمت طائفة كبيرة من قبيلتي الأوس والخزرج.

نشر الإسلام إبَان الإقامة في المدينة

بعد ذلك أُرسل مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة ليدعو أهلها إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً على يديه في غضون عدة أشهر فقط عدا عشيرتين، وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة أسلم من القبائل المجاورة لها قبيلتي غفار وأسلم كما ذُكر آنفاً .

إسلام بعض القريشيين في بدر

بعد فترة وقعت "غزوة بدر" التي انهزمت فيها قريش وأسر منها المسلمون سبعين رجلاً. فبدأت قريش تتردد على المدينة سعيًا لإخلاء سبيل هؤلاء الأسرى. ومن ثم حدث نوع من العشرة والاختلاط بينهم وبين المسلمين مما أدى ببعضهم إلى الإسلام.

كان من بينهم الكثير ممن تناهى إلى سمعهم تلاوة القرآن الكريم فلانت قلوبهم الصلدة، رغم ما كانت تكنه من عداء شديد للإسلام. فهاهو جبير بن مطعم قد أتى يدفع فدية تحرير أسرى بدر وقد كان ذات يوم واحدا منهم، فسمع محمد ﷺ يتلو هذه الآيات:-

" أم خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون ۞ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون " (الطور ٣٥-٣٦)

---

[1] صحيح البخاري، ذكر اسلم وغفار. وهذا هو نص الحديث: (٣٤٣٩) حدثنا محمدُ بن بشارٍ حــدَّثنا غُنْدرٌ حدثنا شُعبةُ عن محمدِ بن أبي يَعقوبَ قال: سمعت عبدَ الرحمنِ بنَ أبي بكرةَ عــن أبيــه: «أن الأقرعَ بنَ حابسٍ قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: إنما بايعَكَ سُرّاقُ الحجيجِ من أسلمَ وغِفارَ ومُزَينةَ ــ وأحسبه وجُهَينةَ، ابن أبي يعقوبَ شك ــ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أرأيتَ إن كان أسلمُ وغِفــارُ ومُزَينةَ وأحسبهُ وجُهينة خيراً من بني تميمٍ وبني عامرٍ وأسدٍ وغَطَفانَ خابوا وخسِروا ؟ قال: نعم. قال: والذي نفسي بيدهِ إنهم لأخْيَرُ منهم. (المترجم).

إسلام جبير بن مطعم

ويصف جبير بن مطعم ما انتابه حين سمع هذه الآيات فيقول: شعَرت وكأن قلبي يُحلق في الآفاق. وردت هذه الواقعة في صحيح البخاري. تفسير سورة الطور (إن النبوءة التي تنبأ بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مكة عن حرب الروم والفرس تحققت تماماً بانتصار بدر. وطبقاً لنبوءة القرآن الكريم أحرزت الروم نصراً كاسحاً على الفرس بعد سبع سنوات. وكان من نتيجة هذه المعجزة العظيمة أن أقر الكثيرون بصدق الإسلام)

أثر نبوءة الروم

موجز القول أن الإسلام كان ينتشر هكذا تلقائياً برفق تام. وفي سنة ٥هـ تحالفت قريش، وكنانة، وغطفان، وأسد، وقبائل أخرى، وهاجمت المدينة، إلا أنهم مُنيوا بهزيمة، وتسمى هذه الغزوة بـ " الأحزاب " والتي سبق الحديث عنها بالتفصيل. قللت هذه الهزيمة من تأثير قريش على المحيطين بها. وبدأت القبائل، التي كانت على استعداد لدخول الإسلام، ولم تكن تجرؤ على الجهر بالإسلام خشية بطش قريش، في إرسال وفودها إلى حضرة المصطفى ﷺ.

إسلام قبيلة مزينة

كان أول هذه الوفود هو وفد قبيلة مزينة، الذي كان يضم أربعمائة رجل. وعبروا عن رغبتهم، وهي أنه إن يأمرهم الرسول الكريم ﷺ، بالهجرة إلى المدينة لهاجروا، ولكنه ﷺ قال: أنتم مهاجرون حيث كنتم.[١]

إسلام قبيلة أشجع

وفي الفترة ذاتها جاء وفد قبيلة أشجع يضم مائة رجل إلى المدينة وقالوا لرسول الله ﷺ إنا لا نريد محاربتك، فليُعقد بيننا ميثاق صلح فوافق النبي ﷺ. كان هؤلاء القوم ما زالوا على كفرهم حتى ذلك الحين، ولكن حين أُبرمت "معاهدة الصلح" دخلوا في الإسلام طواعية.[٢]

---

[١] طبقات ابن سعد، الجزء الأول المتعلق بالوفود.

[٢] جزء طبقات ابن سعد السابق.

إسلام قبيلة جهينة

كانت جهينة إحدى القبائل المجاورة لهذه القبائل، دعاهم الرسول ﷺ للإسلام فوفدوا من فورهم على المدينة في جماعة بلغت ألف رجل وأسلموا جميعاً، ثم شاركوا المسلمين في أكثر الغزوات[١] (لقد كان لغفار، وأسلم، ومزينة، وجهينة من الطاعة والمبادرة بالإسلام ما جعل الرسول ﷺ يدعوا لهم بالخير.[٢]

أثر صلح الحديبية

في عهد صلح الحديبية كان المسلمون والكفار، حسبما أشرنا آنفاً في حديثنا عن الحديبية، يلتقون ويتعاملون فيما بينهم بحرية بالغة، ومن ثم سنحت الفرصة للمعترضين أن يستمعوا لتعاليم المسلمين سراً وجهراً.[٣] نتج عن ذلك أن عدد الذين دخلوا الإسلام قبل ذلك رغم وجود الغزوات والسرايا، قد تضاعف في غضون عامين فقط، ولذلك حين خرج الرسول الكريم ﷺ من المدينة المنورة قاصداً أداء العمرة في عام الحديبية، كان بصحبته الكريمة ألف وخمسمائة رجل. وحين تقدم ﷺ إلى فتح مكة بعد عامين كان على رأس جيش جرار من المسلمين بلغ عشرة آلاف مقاتل.

لم يمتد نطاق صلح الحديبية إلى سائر بلاد العرب، إذ لم يشارك فيه سوى قبيلتي قريش وكنانة لذا ظل من لا يخضعون لقريش مباشرة، أو ليسوا من حلفائها، يتأهبون لغزو المدينة، وبالتالي كان عليه الصلاة والسلام يضطر إلى إرسال بعض الجيوش للدفاع. ومع ذلك كله بدأ إيفاد دعاة الإسلام إلى المناطق التي يُظن بها خيراً، كي يدعو

---

(١) الإصابة، تذكرة بشير بن عرفطة.

(٢) صحيح البخاري، ج١، ذكر غفار وأسلم وجهينة. وهذا نص الحديث (٣٤٣٥) حدثنا أبو نُعَيم حدثنا سُفيان عن سعدِ بنِ إبراهيمَ عن عبدِ الرحمنِ بنِ هُرمُزَ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «قُرَيْشٌ والأنصارُ وجُهَينة ومُزَينة وأسلَم وغِفارُ وأشجَعُ مَواليَّ، ليس لهم مَولًى دُونَ اللهِ ورسوله. (المترجم).

(٣) ورد في الطبري قول الإمام الزهري:-

فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً فالتقوا وتفاوضوا في الحديث في المنازعة، فلو يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه فلقد دخل في تنيك السنين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام وأكثر. (ص ١٠٥٥).

الناس إلى الإسلام، فكان طبيعياً أن يرافقهم مجموعة من الحراس تؤمن جانبهم. ولكن يؤثر أرباب السير أن يصفوا هذه الجماعات التبليغية بالسرايا أيضاً.

أثر فتح مكة

كان العرب جميعاً يعتبرون قريشاً متوجهاً دينياً لتوليها شئون الكعبة، ولذا كانوا يترقبون مصيرها. كان الصحابي عمرو بن سلمة ﷺ يقيم فوق ممر عام يبعُد عن المدينة. وقد ورد قوله التالي في صحيح البخاري:-

كانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق فلما كانت واقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم.[1]

وكتب ابن هشام بتفصيل أوضح:-

وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم أهل البيت والحرم وضريح وله إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقادة العرب أو ينكرون ذلك وكانت قريش هي التي نصبت الحرب رسول الله ﷺ وخلافه فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودخلها الإسلام عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوة فدخلوا في دين الله كما قال الله عز وجل. الخ[2]

خلاصة القول أن السبب الراجح لتأخر انتشار الإسلام، رغم صدقه وبساطته وفطنة العرب وألمعيتهم، كان على الأغلب هو العداء القبلي. ولذا بمجرد أن زالت عقبة الباطل الكدّاء لم يتمهل الحق في تقدمه.

بعد فتح مكة زال الخطر الذي كان يهدد الدعوة الإسلامية بقتل دعاتها بلا هوادة أينما ارتحلوا، ومن ثم أرسل الرسول ﷺ الدعاة إلى سائر بلاد العرب لنشر فضائل الإسلام وترغيب الناس فيه ودعوتهم إليه، وتقرر مشروع الدعاة كالآتي:

(١) أن يصاحبهم عدد من الجيش للحفاظ على استقلالهم وعدم تعرضهم للأذى من أية جهة حتى يستطيعوا نشر الإسلام في حرية تامة. حين أرسل ﷺ خالد ﷺ أرفق معه عدداً من الجيش، ولكن أكد عليه ألا يسلك سبيل العنف. لذا لم يهتم أحد بدعوته إلى الإسلام طيلة ستة أشهر كاملة ولم يتمكن من إنجاز شيء. فقد كان خالد بن الوليد ﷺ

---

(١) صحيح البخاري، فتح مكة.

(٢) سيرة ابن هشام، ذكر أحداث سنة ٩هـ والوفود.

قائداً مظفراً، ولم يكن واعظاً أو مرشداً. وأرسل صلوات الله وسلامه علي ﷺ الذي ما لبث يدعو القبائل إلى الإسلام حتى أسلمت البلاد جميعاً. وهؤلاء هم الدعاة الذين ذكرهم العلامة الطبري في قوله التالي:-

- **قد كان رسول الله ﷺ بعث فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل ولم يأمرهم بقتال.**

وبنفس هذا [illegible] إلى الإسلام، ولكنه حين سفك فيها الدماء، [illegible] وقال: اللهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع [illegible] قتلى الكلاب أيضاً.

كان الرسول ﷺ يختبر أحياناً [illegible] البلاد لنشر الإسلام فيها، فيعين أكثرهم حفظاً [illegible] مرة أن يرسل جيشاً كهذا [1] فاستمع إلى تلاوتهم القرآن [illegible] صغير السن فذهب إليه الرسول الكريم ﷺ وسأله كم يحفظ [illegible] البقرة وسورة كذا وكذا. فعينه الرسول ﷺ أميرا على [illegible] صـــ٢٥٩ـــ برواية الترمذي.

(٢) كان العمال، الذين يُرسلون لجباية الزكاة والخراج من البلاد الخاضعة [illegible] يُشهد لهم بعفتهم وزهدهم ونزاهتهم . وكانوا يصطحبون العلماء والوعاظ أيضاً [illegible] يدعو إلى الإسلام بجانب جباية المال وفيما يلي أسماء بعضهم:-

الاسم	البلدة	بيان حال
مهاجر بن أبي أميّة	صنعاء- اليمن	أخو السيدة أم المؤمنين أم سلمة. (رضي الله عنها).
زياد بن لبيد ﷺ	حضرموت	كان أحد الصحابة الذين شاركوا في غزوة بدر.

---

[1] بالرغم [illegible] التصريح بأن هذا الجيش كان قد أُرسل لنشر الإســـلام علـــى وجه التحديد. [illegible] والتي تعني بأن الرسول ﷺ قد بعث جماعة كبيـــرة جداً. ولكن [illegible] الإسلام فقط، إذ أنه لو كان الهدف الحرب فلما كانت الحاجة إلى [illegible] حريصاً على اختبارهم في حفظ القرآن.

خالد بن سعيد	صنعاء– اليمن	من أوائل المسلمين. وهاجر إلى الحبشة وأولَ من كتب بسم الله الرحمن الرحيم على نورق.
غدي بن حاتم ﷺ	قبيلة طي(اليمن)	صحابي جليل، وهو ابن حاتم الطائي.
علاء بن الحضرمي ﷺ	البحرين	
أبو موسى الأشعري ﷺ	زبيد وعدن	أسلم أهل زبيد وعدن جميعاً على يديه. وهو صحابي جليل معروف بعلمه.
معاذ بن جبل ﷺ	جند	
جرير بن عبدالله بجلي	ذو القلاع الحميرية	جرير صحابي معروف، يمتد نسبه إلى سلاطين ذو القلاع الحميرية اليمنية وقد سجد له ذات مره مئة ألف رجل. ولما أسلموا جميعاً على يديه اعتتق أربعة آلاف رقبة فرحاً بإسلامهم.

(٣) كان هناك أناس معينون يرسلون لنشر الإسلام، وأسماء هؤلاء الدعاة على وجه الدقة كما يلي:–

الإسم	بلد الدعوة	الإسم	بلد الدعوة
علي بن أبي طالب	قبيلة همدان وخنيمة ومذجج	خالد بن الوليد	أجوار مكة
المغيرة بن شعبةﷺ	نجران	عمرو بن العاصﷺ	عمّان
وبر بن النخيسﷺ	أنباء فارس	مهاجرين أبي أميّة	إلى الحارث بن عبد الكلال أمير اليمن.
محيصة بن مسعود ﷺ	فدك		
الأحنف	قبيلة سليم (المسند ج٥، ص٣٧٢)		

(٤) كان رؤساء القبائل يفدون إلى النبي ﷺ ليعلنوا إسلامهم، ويقيمون في المدينة عدة أيام ثم يرجعون إلى قبائلهم بهدف دعوتهم إلى الإسلام. وهذه هي أسماء هؤلاء الصحابة:-

الاسم	البلدة	بيان حال
طفيل بن عمرو الدوسي	قبيلة دوس	
عروة بن مسعود	ثقيف	
عامر بن مشهر	همدان	
ضمام بن ثعلبه	بني سعد	
منقذ بن حبان	البحرين	
تمامه بن اثال	أجوار نجد	

كان الإسلام ينتشر بسرعة في كل مكان بفضل هؤلاء الدعاة والمبلغين. وبعد فتح مكة -كما أشرنا آنفاً- تم إيفاد الدعاة إلى البلاد المتاخمة لها، فكان الناس يُقبلون على الإسلام عن تراض. وتشير هذه الآيات القرآنية الكريمة إلى هذه الواقعة:-

إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. (النصر، الآية ٢،١).

بعد فتح مكة بثلاثة أشهر نزلت سورة التوبة في موسم الحج سنة٩ هـ وبعدها أسلمت الحجاز كلها دون إستثناء.[١]

لم يُتح للإسلام الانتشار خارج نطاق الحجاز خلال إحدى وعشرين سنة من البعثة النبوية بسبب العراقيل التي وضعتها قريش واليهود في طريقه، وبدأ المسلمون قلة هنا وهناك. لكن بمجرد سقوط تلك الأسوار، امتد تأثير الإسلام- في غضون ثلاث سنوات فحسب ٨،٩،١٠ - إلى اليمن والبحرين، ويمامة، وعمان من ناحية، وحتى حدود الشام والعراق من ناحية أخرى. وقد كان بهذه الأقاليم إمارات عربية كبيرة قبل الإسلام، كما كانت خاضعة للروم والفرس أعظم قوتين في العالم آنذاك، ومع هذا كله أخذ الإسلام يعلو بصوته بدون السيف ومستظلاً بالسلام، فتجاوبت له طواعية هتافات " لبيك " من كل فج عظيم.

اليمن

اليمن أكثر بلاد العرب خصوبة ونماءً، كما أنها مركز حضاري وتجاري قديم. إذ قامت على أرضها دولتان عظيمتان هما سبإ وحمير. وقد كان أهالي الحبشة المسيحيين

---

[١] الطبري، الوقائع سنة ٩ هـ.

يحكمون اليمن منذ سنة ٥٢٥م، أي قبل ميلاد الرسول ﷺ بخمسين عاماً تقريبا. بعد ذلك حكمها الفرس، بعد ميلاد الرسول ﷺ بعدة أعوام، وذلك بتعيين حاكمٍ عليها من قِبَلهم. كانت هناك عدة معوقات للحركة الإسلامية في اليمن، منها الاختلاف في(الأنساب) وقد كان أهل اليمن قحطانيين، ودعاة الإسلام إسماعليين. كان اليمنيون يفتخرون بسلطانهم وحضاراتهم القديمة، كما كان العرب أنفسهم يشهدون بريادة اليمنيين ويعتبرونهم جديرين بحكم كافة بلاد العرب. وأي سلطة منتظمة في البلاد يمتد نسبها إلى اليمنيين. لذا حين قدم من اليمن وفد قبيلة كنده التي كانت أسرة حاكمة في اليمن، سأل رئيس ذلك الوفد الرسول ﷺ ظناً منه أنه أمير عربي قائلاً :- يا رسول الله، إنا نزعم أنكم منا قال: نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمّنا ولا ننتفي من أبينا. [١].

ربما كان العائق الأساسي لنشر الإسلام في اليمن هو أنها كانت خاضعة لإيران سياسياً ولليهودية أو النصرانية دينياً على وجه العموم، لكنه ما من عامل من تلك العوامل، حال دون قبول الحق، فلقد وصلت الدعوة الإسلامية لليمن قبل الهجرة بفترة طويلة. كان باليمن قبيلة (عظيمة) تدعى دوس، وقد تصادف لرئيسها طفيل بن عمرو أن جاء إلى مكة وأسلم. وفي تلك الفترة أيضاً زارت قبيلة كندة مكة للحج، فدعاهم الرسول ﷺ الى الإسلام، لكنهم رفضوا.[٢] في سنة ٧ هـ ذهب الرسول ﷺ إلى خيبر. وأسلمت قبيلة دوس ودخلت في دار الإسلام، كما كانت قبيلة أشعر اليمنية المعروفة في صحبة مهاجري الحبشة فأسلمت طواعيةً آنذاك، وقدمت إلى النبي ﷺ ووفد أيضاً إلى رسول الله ﷺ في صحبة هذه القبائل أبو هريرة الدوسي ﷺ وأبو موسى الأشعري ﷺ.

كانت همدان أكثر عشائر اليمن عدداً وأعظمها شأناً. أرسل إليهم الرسول ﷺ خالدًا (في أواخر سنة ٨هـ) ليدعوهم إلى الإسلام. ظل خالد ﷺ يدعوهم إلى الإسلام طيلة ستة أشهر كاملة، ولكنهم لم يسلموا. في نهاية المطاف استدعى الرسول الكريم ﷺ خالد وأرسل إليهم علي، فجمعهم وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت القبيلة عن بكرة أبيها. ولما

---

[١] بن حنبل، حديث أشعث بن قيس وزاد المعاد، ج١، ص٣٢، مصر.

[٢] بن هشام، ذكر عرض الإسلام على القبائل .

أبلغ علي رضي الله عنه عن هذه الواقعة في حضرة النبوة، سجد رسول الله ﷺ ورفع رأسه مرتين وقال: السلام على همدان.[1]

وتذهب بعض الروايات إلى أن همدان حين سمعت عن خبر الإسلام أرسلت عامر بن شهر إلى حضرة المصطفى ﷺ وقالت: إذا راق لك هذا الدين فنحن على استعداد أن نعتنقه جميعاً، وإذ لم يرق لك فنحن أيضاً نوافقك. ولما عاد عامر بن شهر من عند رسول الله ﷺ كان قلبه قد عمر بنور الإسلام، فأسلمت القبيلة كلها. ربما تكون هاتان واقعتان بالفعل، وأن هذا التوفيق قد تم بجهود كليهما(علي ﷺ وعامر بن شهر).

- ألف الناس في اليمن علي ﷺ، لذا رشحه الرسول ﷺ في ربيع الأول سنة ١٠ هـ للدعوة إلى الإسلام في قبيلة مذحج اليمنية بصحبة ثلاثمائة فارس لحراسته، وأكد عليه أنه إن لم يعتدوا عليك فلا تعتدي عليهم. حين وصل علي (ﷺ) إلى أرض مذحج عين بعض الناس لجباية المال. أثناء ذلك رأى جماعة من قبيلة مذحج فعرض عليهم دعوة الإسلام، ولكن كان جزاء هذا الإحسان أن رموه بالسهام والحجارة. فما كان من علي ﷺ إلا أنه صفّ رفاقه، ففرت جماعة مُذحج تاركين قتلاهم العشرين رجلاً، ولم يتعقبهم المسلمون، إذ كان هدفهم الدفاع عن أنفسهم فقط. وبعد ذلك وفد أشراف القبيلة بأنفسهم واعتنقوا الإسلام، وأعلنوه بالأصالة عن الآخرين.[2]

أُطلق على حكام الفرس الذين كانوا يقيمون في اليمن لقب " أبناء ". أرسل إليهم الرسول ﷺ سنة ١٠ هـ وبر بن النخيس ﷺ ليدعوهم إلى الإسلام. ونزل ضيفاً في بيت النعمان بن برزك وأرسل من عنده رسائل الدعوة إلى الإسلام. إلى كل من فيروز

---

(١) الزرقاني بسند صحيح عن البيهقي(ورد أصل الواقعة في البخاري جزء الغزوات، لكنها لم تخصص همدان ولم يذكر فيها الحديث إسلامها) وهناك روايات أخرى عن هذه الواقعة ولكنها غير صحيحة، أقرت بذلك"المواهب اللدنية" نفسها بأن مجمل هذه الروايات أن أهل همدان قد اعتنقوا الإسلام خوفاً من علي، إلا أن هذا كان من حسن ظن الرواة وليس الواقعة نفسها. (وفي رواية أخرى أنه ﷺ قد أمر همدان أن تقاتل ثقيف للأبد وتشن عليها الغارات بصفة مستمرة. لكن الحافظ ابن القيم قد صرح بأن هذه الرواية خاطئة تماماً، لأن همدان كانت قبيلة يمنية، أما ثقيف فكانت بالطائف قرب مكة، وإن مثل هذا الأمر إنما يصدر من قبيلتين متجاورتين.

(٢) وردت بعثة علي ﷺ إلى اليمن في سائر كتب الحديث، ولكننا اقتبسنا هذه التفاصيل من ابن سعد، جزء المغازي.

الديملي، ومركيود، ووهب بن منبه فأسلموا جميعاً. وكان أول من حفظ القرآن الكريم في صنعاء ابنا مركيود عطاء ووهب بن منبه.[1]

(عيّن الرسول ﷺ معاذ بن جبل ﷺ وأبي موسى الأشعري لنشر الإسلام في أرجاء اليمن كلها،[2] وأرسل كليهما إلى اليمن إقليماً إقليماً. كانت التعاليم التي أملاها الرسول ﷺ لهما وقت رحيلهما تمثل في الحقيقة المبادىء العامة لنشر الإسلام. قال النبيﷺ : يسِّرا ولا تُعَسِّرا. وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا، إنَّكَ(معاذ بن جبل) تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ. فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ. فسأل أبو موسى الأشعري: يا رسول الله إن شراباً يُصنع بأرضنا يقال له المزر، وشراب يقال له البِتْعُ مِنَ العسل فقال : «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ..[3]

نجران

يقع إقليم نجران على مقربة من اليمن، وكان مركزاً خاصاً بالمسيحيين في بلاد العرب. أرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه المغيرة بن شعبة ﷺ –الذي اعتنق الإسلام قبل صلح الحديبية سنة ٧هـ – إلى نجران ليدعوا أهلها إلى الإسلام. ولما أبدى المسيحيون اعتراضهم على القرآن، لم يتمكن من الرد عليهم وأقفل عائداً.[4] بعد ذلك كتب لهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام مخبرا إياهم أنهم إذا لم يرضوا بالإسلام فليرضوا

---

[1] الطبري ص ١٧٦٣.

[2] أضفت هذا إلي الكتاب حتى الحديث عن الإسلام في البحرين "سيد سليمان الندوى".

[3] وردت هذه الواقعة بكاملها في صحيح البخاري، جزء الغزوات. وقمنا بجمع كل الروايات الـواردة في البخاري عنها:

[4] الترمذي، تفسير سورة مريم. وهذا هو نص الحديث: (٣٢٦٨) حدثنا أَبُو سَعِيدٍ الأَشَجُّ وَأَبُو مُوسَى مُحمَّدُ بنُ المُثَنَّى، قالا: أخبرنا ابنُ إِدْرِيسَ عن أبيهِ عن سِمَاكِ بنِ حَرْبٍ عن عَلْقَمَةَ بنِ وَائِلٍ عنِ المُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ، قال: «بَعَثَنِي رَسُولُ الله إِلَى نَجْرَانَ، فَقَالُوا لِي: أَلَسْتُمْ تَقْرَأُونَ: {يَا أُخْتَ هَارُونَ} وَقَدْ كَانَ بَيْنَ مُوسَى وعِيسَى مَا كَانَ؟ فَلَمْ أَدْرِ مَا أُجِيبُهُمْ. فَرَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ فَأَخْبَرْتُهُ، فقال: «أَلاَ أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ» . قال أبو عِيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ لا نَعْرِفهُ إلاّ من حديثِ ابنِ إدْرِيسَ.(المترجم).

بسياسة الإسلام ويعطوا الجزية،[1] فأرسل أهل نجران جماعة من الرهبان ورجال الدين إلى المدينة لتقصي الأمر. وستَرِد التفاصيل عن هذا الوفد لاحقاً.

فضلاً عن النصارى كان بنجران مجموعة من السكان المشركين، كان بينهم قبيلة بني الحارث بن زياد، التي كانت تعبد الصنم مدان، مما جعلها تشتهر بعبد المدان. وقد أرسل لهم الرسول ﷺ خالد بن الوليد ﷺ في ربيع الآخر سنة ١٠هـ ليدعوهم إلى الإسلام، وما أن وصل إليهم أسلمت القبيلة كلها، وأقام خالد معهم عدة أيام علمهم خلالها القرآن الكريم وأحكام الإسلام.[2]

- ما من واقعة لاعتناق اليمنيين الإسلام عن طيب خاطر وبلا أي نوع من الترهيب، لم تستوجب العناية الإلهية. حين شاع الخبر بقدوم الأشعريين، بشر الرسول ﷺ المسلمين: أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوباً.[3] ولما أسلمت همدان سجد ﷺ شكراً لله، ودعا لهم بالسلام. وحين قدما وفدا حمير وتميم خاطب ﷺ الأول فقال: أبشِروا يا بني تميم، قالوا: أما إذ بَشَّرتَنا فأعطِنا. فتغيَّرَ وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاء ناسٌ من أهلِ اليمنِ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اقبَلوا البُشرَى إذ لم يَقبَلها بنو تميم. قالوا: قد قَبلنا يا رسول الله.[4] فقال رسول الله ﷺ بصفة عامة: الإيمانُ يَمان، والحكمة يَمانية. رجع من الدعاة الذين كانوا في اليمن علي وأبو موسى رضي الله عنهما

---

[1] الزرقاني نقلاً عن البيهقي.

[2] الزرقاني ج٣ صـ١١٩.

[3] البخاري قدوم الأشعريين أهل اليمن. وهذا نص الحديث: (٤٢٨١) حدَّثنا محمدُ بن بشار حدَّثنا ابنُ أبي عديٍّ عن شعبةَ عن سليمانَ عن ذكوانَ عن أبي هريرة رضيَ اللَّهُ عنه عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم «أتاكم أهلُ اليمنِ هم أرقُّ أفئدةً وألْينُ قلوباً. الإيمانُ يَمان، والحكمة يَمانية. والفخرُ والخيلاءُ في أصحابِ الإبل، والسَّكينة والوَقار في أهل الغَنَم».

وقال غُندَرٌ عن شعبةَ عن سليمانَ سمعت ذكوانَ عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم. (المترجم).

[4] صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق وقدوم الأشعريين.وهذا هو نص الحديث: (٤٢٧٩) حدثني عمروُ بن عليٍ حدَّثنا أبو عاصمٍ حدَّثنا سفيانُ حدَّثنا أبو صخرةَ جامعُ بن شدَّادٍ حدَّثنا صفوانُ بن محرزٍ المازنيُّ حدَّثنا عِمرانُ بن حُصَينٍ قال: «جاءت بنو تميم إلى رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فقال: أبشِروا يا بني تميم. قالوا: أما إذ بَشَّرتَنا فأعطِنا. فتغيَّرَ وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاء ناسٌ من أهلِ اليمن. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اقبَلوا البُشرَى إذ لم يَقبَلها بنو تميم. قالوا: قد قَبلنا يا رسولَ الله. (المترجم).

في موسم حجة الوداع، حيث أدوا مناسك الحج مع الرسول ﷺ. وكان في صحبتهما عدد كبير من اليمنيين حديثي العهد بالإسلام الذين حجوا أو اعتمروا.

الإسلام في البحرين سنة ٨ هـ

كانت البحرين ضمن حدود دولة الفرس، وكانت القبائل العربية هناك تستوطن الوديان، ومن أشهرها وأجلها شأناً بني عبد القيس، وبكر بن وائل، وتميم. خرج منقذ بن حبان من قبيلة عبد القيس قاصداً التجارة. وكانت المدينة تقع في طريقه فمكث بها، وعلم الرسول ﷺ بذلك فذهب إليه ودعاه إلى الإسلام، فأسلم. وتعلم سورتي الفاتحة والعلق. ثم أعطاه الرسول ﷺ أمراً كتابياً، لكنه لم يُطلع أحدًا عليه لعدة أيام بعد عودته من سفره، إلا أن زوجته لما رأته يصلي، شكت إلى والده منذر بن العائذ. فاستفسر عن ذلك من منقذ، وبعد جدالٍ بينهما اعتنق منذر هو الآخر الإسلام. ولما قرأ منقذ بن حبان كتاب رسول الله ﷺ على الناس، أسلموا جميعاً.[1]

رُوى في صحيح البخاري (كتاب الجمعة) أن أول مسجد أقيمت فيه شعائر صلاة الجمعة بعد المسجد النبوي، كان مسجد البحرين الذي يقع في جواثي. يتبين من ذلك أن الإسلام قد انتشر في البحرين في بداياته الأولى. بعد اعتناق الإسلام أرسل هؤلاء القوم وفداً من أربعة عشر رجلاً إلى محمد ﷺ، على رأسهم المنذر بن الحارث. ما إن اقتربت قافلتهم من بيت الرسول ﷺ حتى أصابتهم حالة من التهافت جعلتهم يقفزون من فوق مطياتهم ويقبلون أيدي رسول الله ﷺ، إلا أن المنذر كان يتسم بالأدب الجم. فذهب أولاً إلى مقر إقامته وأبدل ثيابه ثم امتثل أمام المصطفى ﷺ وقبل يده الشريفة.[2]

---

[1] ورد في صحيح البخاري ذكر أحد وفود قبيلة عبد القيس للزرقاني نقلاً عن الكرماني وهي في فترة لاحقة للفترة التي نتحدث عنها. وبقدر ما تثبُت رواية البخاري من أن عبد القيس قد اعتنقت الإسلام قبل هذا الوفد. ورغم أن الرواية التي وردت في الإصابة عن ابن شاهين تختلف عن رواية الزرقاني، ويوجد بينهما خلاف أيضاً حول اسم رئيس الوفد، إلا أنه مع ذلك كله تُثبت الروايات كلها أن الوفد الأول لهذه القبيلة قد قدمَ سنة ٦ هـ.

[2] الزرقاني برواية البيهقي بسند جيد.

في سنة ٨ هـ أرسل الرسول ﷺ علاء الحضرمي ؓ إلى البحرين لتبليغ الإسلام فيها. وكان حاكمها من قبل الفرس آنذاك هو المنذر بن ساوي فأسلم وأسلم معه جميع العرب وبعض الأعاجم الذين كانوا يقيمون هناك.[١]

كان في البحرين منطقة تدعى " هجر " كان يحكمها من قبل الفرس أيضاً الحاكم سيبخت. أرسل إليه الرسول ﷺ كتاباً باسمه فاعتنق الإسلام.[٢]

الإسلام في عمان سنة ٨هـ

كانت قبيلة أزد تحكم قبضتها على هذه المدينة وكان عبيد وجعفر رئيساها، وفي سنة ٨هـ أرسل إليهم الرسول ﷺ أبا زيد الأنصاري ؓ -أحد حفظة القرآن- وعمرو بن العاص برسالة الدعوة إلى الإسلام، فأسلم عبيد وجعفر، ثم أسلم على أيديهما جميع من كان هناك من العرب.[٣]

الإسلام في حدود الشام سنة ٩هـ

كان للعرب المقيمين على تخوم الشام إمارات عديدة منها معان وأقاليمها التي كان يحكمها فروه[٤] بن عمرو ؓ من قبل دولة الروم، والذي ما لبث أن عرف بالإسلام حتى أسلم وأرسل إلى الرسول ﷺ إعلان إسلامه مرفقاً ببغلٍ هدية. لما علم الروميون (المسيحيون) بإسلامه قبضوا عليه وحكموا عليه بالشنق. فجرى على لسانه هذا البيت :-

بلغ سراة المسلمين بأنني مسلم لربي أعظمي ومقامي

(كان يقيم بين الشام وشبه الجزيرة العربية قبائل عذره، وبلّي، وجذام وغيرها. وكان لعمرو بن العاص ؓ أخوال في قبيلة بلى، ومن ثم أرسل مع جماعةٍ إلى هناك، وحين وصل إلى بئر جذام توجس منهم الهجوم، وأطلع الرسول ﷺ بهذا، فأرسل ﷺ إليه أبو عبيدة على رأس عدد من الجيش لحراسته. ويُطلق على هذه الواقعة "غزوة ذات السلاسل " في اصطلاح كتاب السيرة)

---

(١) فتوح البلدان.

(٢) المرجع السابق، ذكر البحرين.

(٣) المرجع السابق، ذكر فتح عمان.

(٤) ابن هشام، إسلام فرود ؓ، ذكر الوفود.

وفـــود العـــرب

(يُطلق كتّاب السيرة كلمة " الوفود " على الذين قدموا بأنفسهم إلى حضرة النبوة لإعلان الإسلام بعد اعتناقهم له على أيدي الدعاة. وتبلغ هذه الوفود عدداً كبيراً. كتب ابن إسحاق عن خمسة عشر وفداً منهم فقط. بينما ترجم ابن سعد لسبعة عشر وفداً. وهو نفس العدد الذي تحدث عنه كلٌّ من الدمياطي، والمغلطائي، والزين، والعراقي, أما مؤلف سيرة الشامي فلم يألُ جهداً في جمع التراجم لمائة وأربعة وفداً؛ ورغم ما تخلل هذه التراجم من روايات ذات سند ضعيف، وما اتسمت به أغلب أسماء الوفود من غموض، يبقى من المسلم به أن عدد الوفود الحقيقي يفوق ما ورد في رواية ابن إسحاق. أما الحافظ ابن القيم والقسطلاني فقد اكتفيا بالحديث تفصيلياً، وبدقةٍ بالغة عن ٣٤ (أربعة وثلاثين) وفداً منهم فقط)

والحقيقة هي أن بلاد العرب جميعاً كانت تترقب مصير مكة. ولما تم فتحها صار هذا الترقب بلا جدوى، فعزمت القبائل على القدوم بنفسها إلى دار الإسلام كي تحسم أمرها هناك. وكان العرب يدركون جيداً أنه لم يعد بوسعهم أن يطغوا على الإسلام لكنهم علموا أيضاً من خلال غزوة خيبر وغيرها أنهم ليسوا مكرهين على دخول الإسلام؛ بل يمكنهم إبرام الصلح على أن يدفعوا الجزية أو على أي صيغةٍ أخرى، ويظلوا على حالتهم السالفة.

بعد فتح مكة أقبلت الوفود تترى من كل صوب وحدب، وباستثناء بعضها عادت جميعاً إلى بلادها بقلوبٍ عامرةٍ بنور الإيمان، بعد ما رأت من إعجاز في حضرة النبوة.

كانت بنو تميم، وبنو سعد، وبنو حنيفة، وبنو أسد، وكنده، وملوك حمير، وأزد، وطي أقوى قبائل العرب؛ إذ امتد نفوذها إلى أقاصِ البلاد. وقد أرسلت كلها وفوداً إلى حضرة النبوة بعضاً منها بصفة أهلية، أي كان هدفها فقط هو اتفاق مع رسول الله ﷺ بصفته فاتحاً، ولكن أغلب هذه الوفود قد جاءت للاطلاع على حقيقة الإسلام والدخول في حلقته، وقَدِم معظمها بعد فتح مكة أي في سنة ٨ هـ، سنة ٩هـ، سنة ١٠ هـ، ولكن من الجدير بنا هنا أن نتحدث عن بعض الوفود التي سبقتها مراعاةً لتسلسل الأحداث.

مزينة

كانت قبيلة كبيرة تمتد من قريش إلى مصر، وكان منها الصحابي الجليل النعمان بن المقرن[١] الذي حمل لواءها في فتح مكة، وهو أيضاً الذي فتح اصفهان. في سنة ٥ هـ أقبل على رسول الله ﷺ من هذه القبيلة وفدٌ يضم أربعمائة رجل، اعتنقوا الإسلام. كتب العراقي في السيرة المنظومة:

أوّل وفد وفد المدينة   سنة خمس وفد مزينة

بنو تميم

قدمت وفود بني تميم في عظمةٍ وخيلاء، وضمت سائر أشراف هذه القبيلة كالأقرع بن الحابس، والزبرقان، وعمرو بن الأهتم، ونعيم بن يزيد، كما كان في صحبتهم أيضاً عُيينة بن حصن الفزاري، والذي كان يغير على حدود المدينة. ورغم أن هؤلاء القوم قد قدِموا لاعتناق الإسلام، إلا أن طابع الفخر والخيلاء العربي كان ما يزال يملك عليهم أنفسهم؛ فحين دخلوا إلى حضرة النبوة أي المسجد النبوي كان الرسول ﷺ جالساً في بيته فنادوه ﷺ من وراء الحجرات أن أخرج ألينا يا محمد ﷺ، فخرج إليهم، فقالوا: جئناك نفاخرك، فأذن لهم، فقام عطارد بن الحاجب- الخطيب المشهور، والذي نال[٢] خلعة (الحرير) من بلاط أنو شيروان لبلاغته في الخطابة- وخطب خطبة بليغة عن مفاخر قوم، موجزها ما يلي:

"الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاما وجعلنا أعز أهل المشرق فمن مثلنا في الناس؟ فمن فاخر فليعدد مثل ما عددنا".[٣]

حين انتهى عطارد من الخطبة وجلس، أشار الرسول ﷺ إلى ثابت بن قيس بأن يجيب. وخلاصة خطبته ما يلي:

---

(١) الإصابة في أحوال الصحابة(ترجمة النعمان بن المقرن وابن سعد، جزء الوفود ص٣٨.

(٢) الإصابة في أحوال الصحابة.

(٣) وورد هذا النص هكذا في سيرة ابن هشام ص ١٤٠ جـ٤:" الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا، وأيسره عدة. فمن مثلنا في الناس وأولى فضلهم؟! فمن فاخر فليعدد مثل ما عددنا."(المترجم).

"الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه وأئتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله"

ولما انتهت الخطب وحان دور الشعر، قام الشاعر التميمي المعروف الزبرقان بن بدر، فأنشد قصيدة له بالأصالة عن وفده، والتي مطلعها:-

نحن الكرام فلا حي تعاد لنا   منا الملوك وفينا تنصب البيع[1]

تذهب بعض الروايات إلى أن رجلاً قَدِم إلى المدينة فألقى بها خطبة أدهشت الحضور لروعة بلاغتها، فقال الرسول ﷺ: **إن من البيان لسحرا.** ويتبين من كتاب "الإصابة في أحوال الصحابة" أن الرسول ﷺ، قد قال هذه العبارة تعليقاً على خطبة للزبرقاني هذا. موجز القول أنه لما فرغ الزبرقاني، أشار رسول الله ﷺ إلى شاعر الإسلام حسان بن ثابت، فأنشد ارتجالا القصيدة التي مطلعها:-

إن الذوائب من فهر واخوتهم   قد بّينوا سنة للناس تُتبع[2]

كان من بين أعضاء الوفد الأقرع بن حابس قاضي بلاد العرب الشهير، إذ كانت تُرفع إليه القضايا القومية، ويخضع الناسُ لكل أحكامه وقد كان مجوسياً قبل اعتناقه الإسلام، يزعم أنه حين جاء مع الوفد إلى النبي ﷺ قال النبي ﷺ :-

إن حمدي لذين وإن ذمي لشين.

حين إنتهت المبارزتان الشعرية والنثرية اعترف الوفد بأن خطيب الإسلام أخطب من خطيبهم وأن شاعر الإسلام أشعر من شاعرهم وأسلموا جميعاً.

بنو سعد

بعث بنو سعد ضمام بن ثعلبة سفيراً لهم. ولنا أن نتصور بساطة العرب وتلقائية فطرتهم من خلال الأسلوب الذي قدِم به هذا الرجل على رسول الله ﷺ والهيئة التي أدى بها وفادته.

---

[1] كتبها المؤلف تعادلنا وبالرجوع الى المصادر العربية، والتي من بينها ابن هشام، وجدنا أنها يعادلنا.

[2] بالرجوع إلى المصادر العربية، وجدنا أنها تتبع وليس كما كتبها المؤلف يتبعوا.

قد ورد ذكرها في مواضع متعددة في صحيح البخاري، وإليك الرواية التي وردت في كتاب العلم.

يقول أنس ﷺ «بَيْنما نحنُ جُلوسٌ معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في المسجدِ، دَخَلَ رَجُل على جَمَل فأناخَهُ في المسجدِ ثمَّ عَقَلَهُ ثم قال لهم: أيُّكُمْ محمد؟ ــ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم مُتَكِّىءٌ بَيْنَ ظَهْرَانيهِمْ ــ فقلنا: هذا الرجُلُ الأبيضُ المُتَّكِىءُ، فقال له الرجُل: ابنَ عبدِ المطَّلبِ؟. فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: قدْ أَجَبْتُكَ. فقال الرجلُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: إني سائلُكَ فَمُشَدِّدٌ عليكَ في المَسْألةِ، فلا تَجِدْ عليَّ في نَفْسِكَ. فقال: سَلْ عمَّا بدا لك، فقال: أسألُك بربِّك وربِّ من قَبْلَكَ، آللّهُ أرسلَكَ إلى الناسِ كلِّهِمْ؟ فقال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أنْ نُصلِّيَ الصلَواتِ الخمْسَ في اليومِ والليلة؟ قال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصومَ هذا الشهرَ منَ السَّنَة؟ قال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هذه الصَّدَقةَ منْ أغْنيائنا فتَقْسِمَها على فُقَرائنا؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اللهُمَّ نَعم. فقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بما جِئتَ به، وأنا رسولُ مَنْ وَرائي من قَومي، وأنا ضِمامُ بنُ ثَعْلبةَ، أخو بني سَعْدِ بنِ بَكر». [١]

حين قَدِم ضمام على قومه قال: بئست اللات والعزى. قالوا: مه، اتق البرص، اتق الجنون! قال: إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً [٢].

الأشعريون سنة ٧ هـ

كانت قبيلة الأشعريين من أشرف قبائل اليمن. وهي التي ينتمي إليها أبو موسى الأشعري. حين سمع أهلها عن بعثة النبي ﷺ خرج منهم ثلاثة وخمسون رجلاً قاصدين المدينة، وكان بينهما أبو موسى الأشعري. بعد أن أقلعوا بالسفينة، دفعها اتجاه الرياح إلى الحبشة حيث جعفر الطيار (ﷺ)؛ فاصطحبهم إلى شبه الجزيرة العربية، وكان قد تم فتح خيبر في ذلك الوقت, وبها كان الرسول ﷺ؛ فنال هؤلاء القوم شرف المثول بين يديه الكريمة.

---

(١) وردت هذه الرواية في أبواب عديدة في صحيح البخاري.

(٢) ابن هشام.

كانت هذه هي الرواية التي وردت في صحيح مسلم بعنوان (فضائل الأشعريين).
أما الرواية التي وردت في صحيح البخاري، هي أنه لما قَدِم وفد الأشعريين قال الرسول ﷺ لصحابته الكرام: أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً. كما رُوى في مُسند الأمام أحمد بن حنبل عن أنس رضي الله عنه أنه حين قَدِم وفد الأشاعرة، كانوا يرتجزون هذا البيت.

غداً نلقى الأحبّة محمداً وحزبه

حين وصلوا إلى حضرة النبوة قالوا: يا رسول الله! جئناك نتلقى أمور ديننا، ونسأل عن بدء الخلق. فقال ﷺ "كان اللهُ ولم يكُنْ شيءٌ غيرُه. وكان عرشُهُ على الماء".[1]

دوس سنة ٧هـ

دوس قبيلة عربية مشهورة. ينتمي إليها أبو هريرة رضي الله عنه، وكان طفيل بن عمرو شاعرها المشهور ورئيسها قد ذهب إلى مكة قبل الهجرة، ونهته قريش عن أن يذهب إلى محمد ﷺ، ولكن تصادف له ذات مرة أن ذهب إلى الحرم، والرسول ﷺ يصلي هناك، فتأثر بتلاوة القرآن الكريم، وجاء إلى محمد ﷺ وقال: وضح لي حقيقة الإسلام، فبين له النبي تعاليم الإسلام، وتلا عليه آيات الذكر الحكيم، فأسلم، وحسن إسلامه، وعاد طفيل إلى وطنه ودعا قومه إلى الإسلام، ولكن الزنا كان شائعاً بين قبيلته مما جعلهم يترددون في اعتناق الإسلام مغبة الحرمان من حريتهم. **فجاء طفيل إلى الرسول ﷺ وأوضح له ذلك** فدعا له الرسول ﷺ ": **اللهمَّ اهدِ دَوساً وائْتِ بهم ".[2] بعد ذلك اعتنق هؤلاء القوم الإسلام**

---

(١) صحيح البخاري، باب بدء الخلق. وهذا نص الحديث كاملا: (٣١٢١) حدثنا عمرُ بن حفص بن غياث حدَّثنا أبي حدَّثنا الأعمشُ حدَّثنا جامعُ بن شدّاد عن صفوانَ بن مُحرِزٍ أنهُ حدَّثهُ عن عِمرانَ بن حُصَين رضيَ الله عنهما قال: «دخلتُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعَقَلْتُ ناقتي بالباب. **فأتاهُ ناسٌ** من بني تميم فقال: اقبلوا البُشرى يا بني تميم. قالوا: قد بَشَّرتنا فأعطِنا (مرَّتين). ثمَّ دخلَ **عليه ناس من** أهلِ اليَمنِ فقال: اقبلوا البشرى يا أهلَ اليمن أن لم يقبَلْها بنو تميم. قالوا: قد قبِلْنا يا رسولَ الله. **قالوا:** جئنا نسألُكَ عن هذا الأمرِ. قال: كان اللهُ ولم يكُنْ شيءٌ غيرُه. وكان عرشُهُ على الماء. وكتبَ **في** الذِّكر كلَّ شيء. وخَلَقَ السماواتِ والأرضَ. فنادَى مُنادٍ: ذهبتْ ناقتُكَ يا ابنَ الحصَين. فانطلَقتُ **فإذا** هيَ يقطَعُ دونَها السَّراب. فواللهِ لوَدِدْتُ أني كنتُ ترَكتُها». (المترجم).

(٢) وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، باب فضل الجهاد والسير: (٢٨٧٠) ــ حدثنا أبو اليمانِ أخبرنا شُعيبٌ حدَّثنا أبو الزِّنادِ أنَّ عبدَ الرحمنِ قال: قال أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ «قَدِمَ طُفَيلُ بنُ عمرو الدَّوسيُّ وأصحابهُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسولَ اللهِ إنَّ دَوساً عَصَتْ وأبَتْ، فادْعُ اللهَ عليها، فقيل: هلَكَتْ دَوسٌ. قال: اللهمَّ اهدِ دَوساً وائْتِ بهم». (المترجم).

على يد طفيل وهاجرت منهم ثمانون عشيرةً إلى المدينة، كان من بينهم أبي هريرة ﷺ[١].

بنو الحارث بن كعب سنة ٩ هـ

كانت من أشرف قبائل نجران. أرسل الرسول ﷺ إليهم خالد بن الوليد ليدعوهم إلى الإسلام؛ فأسلموا وحسن إسلامهم، واستدعاهم الرسول ﷺ إلى المدينة؛ فقَدِم إلى حضرته ﷺ قيس بن الحصين ويزيد بن عبد المدان، ولأنهم كانوا ينتصرون على القبائل العربية في أغلب الحروب؛ سألهم محمد ﷺ: ما الذي تغلبون به الناس وتقهرونهم قالوا لم نقل فنذل ولم نكثر فنتحاسد ونتخاذل ونجتمع ولا نفترق ولا نبدأ بظلم أحد ونصبر عند البأس فقال صدقت .وأمَّر رسول الله ﷺ عليهم قيس (بن الحصين).[٢]

قبيلة طي سنة ٩هـ

كانت طي قبيلة بالغة الشهرة في اليمن. وكان يتزعمها زيد الخيل وعدى بن حاتم الطائي، وكانت حدود ملكهم مستقلة. أما زيد فكان شاعراً مشهوراً في الجاهلية، وخطيباً مفوهاً، وشجاعا، وسخيا، وحسن الطلعة. قدم فى سنة ٩ هـ إلى الرسول بصحبة بعض

---

(١) الإصابة، وزاد المعاد وابن سعد، جزء الوفود.

(٢) الإصابة وزاد المعاد.وهذا النص كما ورد فى الإصابة، ترجمة قيس بن الحصين: قيس بن الحصين بن يزيد بن شداد بن قنان ذي الغصة المازني وفد على النبي صلى الله عليه وسلم قاله بن إسحاق وقال بن حبان والدارقطني له صحبة وهو من مذحج واخرج بن شاهين من طريق المدائني عن أبي معشر عن يزيد بن رومان ومسلمة بن علقمة عن خالد بن الحذاء عن أبي قلابة وعن أبي ريحانة وغيرهم قالوا أسلم بنو الحارث فاوفدهم خالد بن الوليد ومنهم قيس بن الحصين ذي الغصة ويزيد بن عبد المدان وعبد الله بن عبد المدان وشداد بن عبد الله وعبد الله بن قراد ويزيد بن المحجل وعمرو بن عبدالله قال وقال بعضهم لما وفدوا وشهدوا شهادة الحق قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي تغلبون به الناس وتقهرونهم قالوا لم نقل فنذل ولم نكثر فنتحاسد ونتخاذل ونجتمع ولا نفترق ولا نبدأ بظلم أحد ونصبر عند البأس فقال صدقت وذكرها بن إسحاق في المغازي بغير هذا السياق كما سيأتي في ترجمة يزيد بن عبدالمدان وقال بن الكلبي رأس الحصين والد قيس بني الحارث مائة سنة وكان له أربعة أولاد كان يقال لهم فوارس الارباع كانوا إذا حضر الحرب ولى كل منهم ربعها ولما وفد قيس كتب له النبي صلى الله عليه وسلم كتابا على قومه. (المترجم).

الأشراف، فدعاهم النبي إلى الإسلام، فأسلم ومن معه، وحسن إسلامهم. وكان زيد معروف بلقب الخيل لفروسيته، ولكن الرسول لقبه بزيد الخير بدلا من زيد الخيل.[1]

عدى بن حاتم سنة ٩ هـ

عدى هو ابن حاتم الطائي المعروف، وقد كان زعيماً لقبيلة طي ويدين بالنصرانية، واعتاد أن يأخذ ربع الدخل كبقية أمراء العرب. وقد لاذ بالفرار إلى الشام إبّان زحف الجيوش الإسلامية إلى اليمن. أما أخته فقد قَدِمت إلى المدينة ضمن السبايا. فأعتقها الرسول ﷺ في إجلالٍ وتقدير وذهبت إلى أخيها وقالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرّجل نبياً فللسابق إليه فضله في أي حال. الخلاصة هي أن عدى قدم المدينة، ودخل على رسول الله ﷺ، وهو في مسجده، وسلم عليه. فرد عليه التحية وقال ﷺ: " من الرجل؟ "، ثم قام رسول الله، فانطلق به إلى بيته، فلقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها. كان عدى نفسه رئيساً، وقد رأى بلاط الروم في الشام، لذا اندهش من أن ملك ملوك العرب يساوي نفسه بامرأة عجوز. وقال في نفسه: ما هذا بملك، ثم دخل به رسول الله ﷺ بيته، وتناول وسادة من أُدم، وقدمها إلى عدى، وأصر عليه حتى جلس عليها. ثم قال ﷺ: "لمَ يا عدى!" أولم تكن تسير في قومك بالمرباع، فإن ذلك لم يكن لك في دينك (النصرانية)،[2] ثم قال: لقد حل غضب الله باليهود وضل النصارى.[3]

موجز القول أن عدى أسلم، وثبت إسلامه، إلى الحد الذي لم يدع لعصر الردة أثراً في نفسه. وكان له مسحة من سخاء أبيه. ذات مرة طلب رجل منه مائة درهم فقال: أتطلب من ابن حاتم مبلغاً ضئيلاً كهذا، والله لا أعطيك قط.[4]

وفد ثقيف

(لعلك تذكر) أنه لما رفع رسول الله ﷺ حصار الطائف وشرع في الرحيل، قال الصحابة (رضوان الله عليهم): أدع عليهم بالسوء، فدعا الرسول ﷺ:

اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم

---

[1] الإصابة، وزاد المعاد.

[2] ابن هشام، إسلام عدى بن حاتم.

[3] مسند الإمام أحمد، حديث عدى؛ الترمذي؛ تفسير سورة الفاتحة.

[4] الإصابة في أحوال الصحابة، ذكر عدى.

(فكان من إعجاز هذا الدعاء النبوي أن هذه القبيلة التي لم تخضع بالسيف. قد أخضعها جلال النبوة فجأة، وقدمت إلى المسجد النبوي، فأسلمت عن بكرة أبيها).

كان يحكم الطائف زعيمان أحدهما عروة بن مسعود الذي قال عنه كفار مكة: إذا كان شعر مكة يتنزل فإنما يتنزل عليه. رغم أن عروة لم يكن قد دخل الإسلام حتى ذلك الحين إلا أنه كان لديه استعداد لهذا وكان صلح الحديبية تتويجاً لجهود سفارته. وحين رجع رسول الله ﷺ من الطائف هدى الله عروة إلى الإسلام؛ فلحق برسول الله ﷺ قبل أن يصل المدينة، وأسلم ورجع، ثم أعلن إسلامه بعد عودته وأخذ يُرغّب الناس في الإسلام، ولكنهم أساءوا إليه كثيرا. حتى أنه لما صعد إلى علية بيته ليؤذن لصلاة الفجر انهالت عليه السهام من كل اتجاه، حتى أُستشهد، وأوصى وهو في النزع الأخير بدفنه بجانب من استشهد من المسلمين في حصار الطائف.

(لم يكن لدماء عروة أن تهدر؛ فلما سمع صخر بن عيلة رئيس أحمس أن الرسول ﷺ يحاصر الطائف خرج إليه في بعض فرسانه، ولكن تصادف وصوله بعد رحيل النبي ﷺ عن الطائف وعودته إلى المدينة. فأقسم صخر بأنه لن يتنازل عن محاصرة القلعة، ما لم يُذعن أهل الطائف للرسول ﷺ. وفي النهاية أستسلم أهل الطائف، وزف صخر البشرى إلى رسول الله ﷺ، فجمع الرسول ﷺ الناس جميعاً في المسجد النبوي وجعل يدعو عشر مرات لأحمس).[1] بعد عدة أيام تشاور أهل الطائف فيما بينهم بأنه لم يعد بوسعهم شئ بعد ما أسلمت سائر بلاد العرب، خلاصة القول أنهم قرروا بعثة وفد إلى النبي ﷺ.

حين توجه وفدهم إلى المدينة ابتهج المسلمون إلى الحد الذي جعل المغيرة بن شعبه ﷺ يسبقهم جميعاً مسرعاً إلى رسول الله ﷺ يزف إليه البشرى، فالتقى في طريقة بأبي بكر الذي ما إن علم بالأمر فاستحلفه أن يسمح له بتبليغ هذه البشرى. كان المغيرة قد أرشد هؤلاء القوم إلى التحية اللائقة برسول الله ﷺ لكنهم ألقوا التحية وفقاً لأعرافهم القديمة.

كان أمير الوفد عبد ياليل أحد أشراف الطائف المشهورين. أدخله الرسول ﷺ إلى المسجد النبوي (رغم أنه كان ما يزال كافراً) (فتأثر برؤية مدى خشوع واستغراق

---

(1) أبو داود، باب إقطاع الأرضيين. يروى عن صخر أن النبي ﷺ قال: " اللهم بارك لأحمس في خيلها ورجالها". (أبو داود، ج٢، ص١٥٦). (المترجم).

المسلمين)[١] نصب هؤلاء القوم خيامهم في صحن المسجد وأقاموا بها. ورغم وجودهم وقت الصلاة والخطبة إلا أنهم لم ينضموا إلى المصلين. جرت عادته ﷺ ألا يذكر اسمه أثناء الخطبة. فقال هؤلاء القوم فيما بينهم: إن محمداً ﷺ يطلب منا أن نقر بنبوته بينما لم يُقر هو بها في خطبته. فلما سمع الرسول ﷺ بذلك شهد بأنه محمد رسول الله.

كان عثمان بن أبي العاص أصغر السفراء سناً. وكانوا يتركونه في مقرهم حين يذهبون إلى حضرة النبوة، على أنه طفل. إلا أنه برغم صغر سنه كان أكثرهم فطنه ونزوعاً إلى البحث والتدقيق، فاعتاد أن يتسلل سراً، حين يخلد السفراء إلى الراحة وقت القيلولة، ويذهب إلى حضرة النبي المصطفى ﷺ يتلقى تعاليم الإسلام ويدرس القرآن الكريم، حتى تعلم أغلب التعاليم الضرورية.

كان الرسول ﷺ يدعو هؤلاء القوم دائماً إلى الإسلام (فكان يذهب إليهم بعد صلاة العشاء فيتحدث إليهم بعد صلاة العشاء، ويتحدث إليهم بعض الوقت واقفًا. وكان أغلب حديثه لهم عما تعرض له في مكة من أذى على أيدي قريش، وما وقع من غزوات في المدينة)[٢] فأعربوا عن استعدادهم لقبول الإسلام وفقاً لهذه الشروط:-

١- أن يُباح لنا الزنا؛ إذ أن أغلبنا يعيش دون زواج ولا غنى لنا عنه.

٢- أن يُباح لنا الربا؛ إذ أنه يمثل كل موارد الكسب والتجارة لدى قومنا.

٣- ألا تُمنع الخمر، إذ ينبت العنب في بلدتنا بوفرة، ويمثل لنا تجارةً كبرى.

لكن لم تتم الموافقة على أي من الالتماسات الثلاثة. وفي النهاية قالوا: إننا نرجع عن هذه الشروط، ولكن ما قولك في إلهنا؟ (كان اللات أكبر أصنام الطائف) فأمر النبي بهدمه. وهنا أصابتهم دهشةً بالغة بأنه هل هناك من يجرؤ على أن يمس إلههم الأعظم. فقالوا: إذا علم إلهنا بعزمك هذا فسيدمر المدينة كلها. عندئذٍ لم يتمالك عمر نفسه، وقال: ما أشد جهلكم، إن منات حجر محض، فقالوا: يا عمر! ما جئنا إليك، ثم قالوا للرسول ﷺ:

---

[١] أبو داود، باب ما جاء في خبر الطائف. يُروى عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف لما قـدموا على رسول الله ﷺ، أنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم". (أبو داود، ج٢، ص١٤٦). (المترجم).

[٢] أبو داود، باب تحزيب القرآن. روى عن أوس بن حذيفة قال: "كان كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام، وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش". (أبو داود، ج١، ص٣٢٢). (المترجم).

نيس بوسعنا أن نمس منات. افعل ما بدا لك، واعفنا من هذا التطاول. فلبى لهم الرسول ﷺ هذا الرجاء.[١]

طالب هؤلاء القوم أيضاً بإعفائهم من الصلاة، والزكاة، والجهاد. بالطبع لم يكن من الممكن اعفاؤهم من الصلاة بأية صورة إذ أنها تقام خمس مرات في اليوم، أما الزكاة فتجب في العام مرة واحدة، والجهاد فرض كفاية، وليس فرضاً على الجميع، ويفرض في أحوال معينة فقط. ومن ثم لم يتم إجبارهم على هذين الأمرين، لأنه كان من المتوقع أن تتهيأ طبيعتهم لذلك تدريجياً بعد أن يعتنقوا الإسلام. ويروي جابر: سمعت رسول الله ﷺ إثر هذه الواقعة يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا.[٢] لما حان موسم حجة الوداع بعد سنتين فقط، في الحجة لم يكن ثمَّ ثقيفي لم يعتنق الإسلام.[٣]

حين عاد الوفد، بعث الرسول ﷺ أبا سفيان، والمغيرة بن شعبه، وفقاً للشرط، لهدم أكبر أصنام الطائف(اللات). لما وصل المغيرة إلى الطائف، وأراد أن يهدم المعبد، خرجت النساء من بيوتهن عاريات الرأس تبكين، وينشدن هذه الأبيات:-[٤]

ألا أبكين دفاع

أسلمها الرضاع

لم يحنوا المصاع

كان تعدد الزوجات من العادات الشائعة بين العرب، فكان لغيلان بن مسلمة- أحد أشراف ثقيف المشهورين- عشرة زوجات، ولما أسلم، طلق سائر زوجاته، عدا أربعة منهن طبقاً للشريعة الإسلامية.[٥]

وفد نجران سنة ٩هـ

نجران إقليم مترام الأطراف يقع على بعد سبعة منازل من مكة في اتجاه اليمن، وكان يستوطنه مسيحيو العرب. وكانت به كنيسة شاهقة يسمونها الكعبة، ويعتبرونها بديلاً عن البيت الحرام، وكان يسكن بها كبار الزعماء الدينيين الذين يُلقبون بالسيد وبالعاقب.

---

[١] زاد المعاد، نقلاً عن مغازي موسى بن عقبة.

[٢] أبو داود، كتاب الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر الطائف.

[٣] الإصابة، ترجمة جبير بن حيه الثقفي.

[٤] تاريخ الطبري.

[٥] جامع الترمذي وأبو داود، كتاب النكاح.

ولم يكن في بلاد العرب برمتها مركزاً دينياً للمسيحيين يضاهي هذه الكنيسة. يقول الأعشى في شأنها:-

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها

تزور يزيد أو عبد المسيح وقيسا هم خير أوبابها

شُيدت هذه الكعبة على شكل ثلاثمائة قبة من الجلد، وكل من يدخلها فهو أمن، أما أوقاف هذه الكعبة فكانت تُدر مئتي ألف سنوياً.[1]

كتب لهم رسول الله ﷺ رسالة الدعوة إلى الإسلام، فَقدِم حُماة هذه الكعبة وأئمتها في صحبة ستين رجلاً إلى المدينة. وأنزلهم الرسول ﷺ المسجد، وبعد قليل حانت الصلاة، فأراد هؤلاء الناس الصلاة، ومنعهم الصحابة (رضوان الله عليهم)، لكن النبي ﷺ أمر أصحابه بأن يتركوهم يصلوا. فولوا وجوههم شطر الشرق وصلوا. كان أبو حارثة كبير الأساقفة رجلاً وقوراً وفاضلاً. وقد ولاه قيصر الروم هذا المنصب، وأقام له الكنائس والمعابد.[2]

سأل هؤلاء القوم الرسول ﷺ عن قضايا عديدة، فأجابهم عليه الصلاة والسلام بما أنزل الوحي، حيث نزلت ثمانون أية من سورة آل عمران إبان إقامتهم هذه. وكانت هذه الآيات تتضمن الرد على أسئلتهم. ومن هذه الآيات الكريمة، الآية التالية والتي تشرح جوهر الدعوة الإسلامية:-

"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون"(آل عمران الآية ٦٤)

حين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام؛ قالوا: إنا مسلمون منذ البداية، فسألهم عليه الصلاة والسلام كيف يكونوا مسلمين وهم يعبدون الصليب ويقولون بأن عيسى ابن الله. وحين لم يؤمنوا بهذا؛ قال لهم النبي طبقاً للوحى: فلنبتهل، أي يصطحب كلانا أبنائه ونسائه ثم ندعو بأن لعنة الله على الكاذبين:-

" فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين " (آل عمران: ٦١)

---

[1] وردت كل هذه التفاصيل في معجم البلدان، والعبارة الأولى نقلاً عن فتح الباري في ذكر وفد نجران.

[2] زاد العاد.

ولكن حين أصطخب الرسول ﷺ السيدة فاطمة الزهراء والإمامين الحسن والحسين (رضي الله عنهم)، وخرج ليبتهل، أشار على هؤلاء القوم رجل منهم بألا يبتهلوا إذ لو كان هذا الرجل نبياً حقاً، فستكون هذه هي نهايتنا. موجز القول أنهم عقدوا صلحاً على أن يدفعوا الخراج سنوياً.

بنو أسد سنة ٩ هـ

هذه هي تلك القبيلة التي كانت حليفة قريش في الغزوات، وينتمي إليها طليحة بن خويلد، الذي ادعى النبوة في عهد أبي بكر رضي الله عنه. اعتنق هؤلاء القوم الإسلام سنة ٩ هـ، وبعثوا وفدهم، ولكن نزعة الفخر كانت ما تزال تسيطر عليهم. قدِم سفرائهم إلى حضرة النبوة، وقالوا بلهجةٍ يشوبها المن: إنك لم تبعث لنا أية رسالة، بل إننا أسلمنا من تلقاء أنفسنا، فنزلت هذه الآية:

يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين. (سورة الحجرات: ١٧)

بنو فزاره سنة ٩هـ

كانت قبيلة طاغية وشديدة البأس. ينتمي إليها عيينة بن حصن، وقد أرسلت وفدها في رمضان سنة ٩هـ إبان عودة الرسول ﷺ من تبوك، وأسلمت.[1]

كنده سنة ١٠ هـ

كانت مدينة في إحدى أقاليم حضرموت (اليمن) بها دولة بني كنده. التي كان حاكمها آنذاك الأشعث بن قيس. قدموا سنة ١٠هـ على رسول الله ﷺ في ثمانين راكب بشوكة وعظمة، فدخلوا على الرسول ﷺ مسجده، وعليهم جبب الحيرة، وقد كففوها بالحرير. وكانوا قد اعتنقوا الإسلام من قبل، فلما رآهم الرسول ﷺ (وهم في هذه الحال) قال: "ألم تسلموا؟" قالوا: "بلى" قال: " فما بال هذا الحرير في أعناقكم ؟ قال: فشقوه منها، وألقوه على الأرض.[2]

زوّج أبو بكر رضي الله عنه في عهد خلافته الأشعث بن قيس من أبنته أمّ فرده، ولما عُقد النكاح نهض على الفور وذهب إلى سوق الإبل، وكلما رأى ناقة قطع سنامها بالسيف،

---

[1] الزرقاني.

[2] ابن هشام، وفد كنده.

حتىَ سقطت عشرات النياق على الأرض في فترة وجيزة. أندهش الناس، لوْ أنني كنت في إمارتي لعقرت مثل هذه ثم دفع ثمن النياق، وقال للناس: هذه وليمتكم[1]. وقد شهد موقعتي القادسية واليرموك. وكان في صفوف علي في موقعة صفين.

عبد القيس

كانت هذه القبيلة تستوطن البحرين كما ذكرنا آنفاً. وقد دخلها الإسلام منذ أمد بعيد. أول من قدم من هذه القبيلة إلى المسجد النبوي ثلاثة عشر رجلاً في حوالي سنة ٥ هـ. سألهم الرسول ﷺ: من أنتم؟ قالوا: يا رسول الله ! نحن من بني ربيعة. فقال: **مرحباً لا خزايا ولاندامى**. فقالوا: يا رسول الله! إن بلدنا (البحرين) قصية وبيننا وبينها ضول من ضول النمر. ولا يمكننا أن نأتي إلا في الأشهر الحرم، فعلمنا أموراً نعمل بها دائماً ونعلمها لأهل بلدنا أيضاً. قال: إني آمركم بأربع أن توحدوا الله، وتصلوا، وتصوموا، وتؤتوا الخمس. وأنهاكم عن أربع: الدباء، والحنتم، والنقير، والمزفت.

كانت الدباء والحنتم، والنقير، والمزفت أربعة أنواع من القدور تُعتَق بها الخمر في بلاد العرب. كان من عادته ﷺ أن يربط موعظته وإرشاده بالعيوب التي تختص بها القبيلة التي يعظها. تعجب القوم لماذا اختص الرسول ﷺ هذه القدور بالذكر. فسألوه: يا رسول الله ! ما علمك بالنقير ؟ قال: "بلى، جذع تنقرونه فتقذفون فيه من القطيعاء ثم تصبون فيه من الماء. حتى إذا سكن غليانه شربتموه، حتى إن أحدكم ليضرب ابن عمه بالسيف." وتصادف أن كان ضمن هذا الوفد رجلاً تعرض لمثل ذلك وما زالت جبهته موسومةً بأثر السيف، فكانوا يستترون عليه استحياءً.[2]

تذهب بعض الروايات إلي أن قبيلة عبد القيس هي التي سألت:[3] ففيم نشرب يا رسول

---

[1] الإصابة.

[2] صحيح البخاري وصيح مسلم, باب الإيمان.

[3] صحيح مسلم, باب الإيمان. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، ج١، ص١٨٢" عن ابن عباس قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا عذا الحي من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفار مضرْ، فلا نخلص إليك إلا في شهر الحرام، فمرنا بأمر نعمل به وندعو إليه مَن وراءنا. قال: آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله ثم فسرها لهم فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم. وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمقير". (المترجم).

الله ؟ فرد ﷺ: في أسقية الأدم.[١]

بنو عامر سنة ٩ هـ

كانت [٢] قبيلة بني عامر فرعاً لقبيلة العرب المشهورة قيس بن عيلان. وكان لبني عامر ثلاثة رؤساء آنذاك هم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وجبار ابن سلمي. كان عامر وأربد طلاب جاه فقط، إذ كان عامر هذا هو الرجل الذي تسبب في العديد من الفتن قبل ذلك, وها هو الآن قَدِم، وهو يريد الغدر. أما جبار وسائر أفراد القبيلة فكانوا يريدون المودة بِنية خالصة.

وصل عامر المدينة ونزل ببيت امرأة من بني سلول. وكانا جبار والصحابي الجليل كعب بن مالك ﷺ يتّبعان العادات القديمة، فنزل الأول مع ثلاثة عشر رجلاً في بيت الثاني، واحتفالا بهذه المناسبة صحبهم كعب إلى النبي. وأثناء الحديث خاطب بنو عامر الرسول ﷺ وقالوا: **أنت سيدنا.** فقال: السيد الله تبارك وتعالى. فقالوا: أنت أفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً. فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان.[٣]

قال عامر بن طفيل: يا محمد هناك ثلاثة أمور:- إما أن تقاسمني فتحكم أنت البدو وأحكم أنا الحضر، وإما أن تجعلني خليفة لك، وان لم توافق على هذا فآتى بغطفان وأهاجمك. كان عامر قد قال لأربد: إني سأشغل عنك محمداً، فإذا فعلت ذلك، فاعلُه بالسيف. فجعل عامر ينتظر، فإذا بأربد لا يحير شيئاً. حيث زاغ بصره. فلما خرجا قال رسول الله ﷺ:" اللهم اكفني عامر بن الطفيل" فأصيب عامر بالطاعون. وكان التزام الفراش أمراً مخزياً عند العرب، فقال عامر: ارفعوني على الفرس، فرفعوه، فمات عليه. أما جبار وعامة رجال القبيلة فقد عادوا من دار الإسلام أثرياء بثروة الإيمان.[٤]

---

[١] ورد ذكر وفد عبد القيس هذا في صحيح مسلم وسائر كتب الصحاح الأخرى. وتحدث أبن منده والدولابي وغيرهما عن وفد آخر لهذه القبيلة ضم أربعين رجلاً. ولذا أقر القسطلاني بأن هذه القبيلة كان لها وفدان. الأول حوالي سنة ٥ هـ والثاني سنة ١٠ هـ. وهذا بالضبط ما أورده الحافظ بن حجر في كتاب المغازي؛ إلا أنه حاول أن يثبت في شرح الإيمان أن كلتا الروايتين رواية واحدة.

[٢] قمت بإضافة هذا. "سيد سليمان الندوى".

[٣] المشكاة، باب المفاخرة نقلاً عن أبي داود.

[٤] اُقتبست عامة الوقائع من ابن إسحاق والزرقاني. أما خطبة عامر وواقعة موته، فقد وردتا في صحيح البخاري.

وفود حمير وغيرها

لم تكن في حمير إمارة مستقلة. بل أقام فيها أحفاد ملوك بنيَ حمير دويلات صغيرة، وأُطلق على هؤلاء الأحفاد مجازاً لقب "الملوك"، وكانوا يلقبون في اللغة العربية بلقب "قيل". وهم لم يفدوا بأنفسهم بل بعثوا رسلاً عنهم تقول: لقد اعتنقنا الإسلام.

وقَدِمت في تلك الفترة أيضاً وفود بهرا، وبني بكار وغيرها.

تأســـيس الدولـــة الإلهـــية

الاستخلاف في الأرض

" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ " (النور: ٥٥)

(ينبلج[١] الفجر المنير بعد الليالي الحالكة، وتُرسل الشمس ضيائها بعــد انقشـــاع الغيوم. كان العالم غارقاً في ظُلمات القهر والهوان والآثام، وإذا بفجر الخير والمحبة يشق هذه العتمة ويُفسح الطريق لأشعة شمس الحقيقة والوئام كي تملأ الدنيا بنورها الفيّــاض. وكما أن العرب أخذوا يعبدون إلها واحداً أصبحوا الآن تحت لواء دولة وحكومة واحــدة. فلقد وعدهم الله سبحانه وتعالى باستخلافهم في الأرض، كما في الآية الكريمة:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَـا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْـدِ خَـوْفِهِمْ أَمْنـاً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)(النور: من الآية٥٥)

لم تكن الدولة الإلهية والاستخلاف في الأرض من حتميــات النبــوة، ولكــن إذا اصطدمت الدعوة الإلهية بسياسة البلاد أو تعرقلت مسيرة البشرية الروحية بسبب تفشـــي الفوضى والاضطراب في البلاد. عندئذ تتشد هذه المسيرة من ينجو بهـــا مـــن كبوتهـــا ويمضي بها قدماً، فيبعث الله أنبيائه مكلفاً إياهم بهذه المهمة ومثـــال ذلـــك أن أرســـل الله إبراهيم[٢] وموسى فخلصا قومهما من عبودية النمرود وفرعون. كان من الأنبياء من لـــم

---

[١] أضفت هذا الباب كله. (سيد سليمان الندوي).

[٢] جدير بالذكر أن إبراهيم عليه السلام لم يكن محاربا في يوم من الأيام؛ بل كان مسالمًا، ولم يرد في كتب التفاسير الإسلامية أو اليهودية أنه عليه السلام خاض أي نوع من أنواع الحروب، كما أنه عليه السلام لم يدخل في حرب مباشرة مع ملوك الشام، وإنما ذهب لفك أسر لوط ابن أخيه فور سماعه خبر سبيه هو وقومه، وفقا لما ورد في التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٤، الفقرات ٨ – ٢٤. وهذا نصه بالعبرية:

ויהי בימי אמרפל מלך – שנער אריוך מלך-אלסר כדרלעומר מלך עילם ותדעל מלך גוים : עשו מלחמה את – ברע מלך סדום ואת – ברשע מלך עמורה שנאב מלך אדמה ושמאבר מלך צביים ומלך בלע היא – צוער : כל – אלה חברו אל – עמק השדים הוא ים המלח : שתים עשרה שנה

עבדו את – כדרלעומר ושלוש – עשרה שנה מררו : ובארבע עשרה שנה בא כדרלעומר המלכים אשר אתו ויכו את – רפאים בעשתורת קרנים ואת – הזוזים בהם ואת – האימים בשוה קריתים : ואת החורי בהררם שעיר עד איל פארן אשר על – המדבר : וישובו ויבואו אל – עין משפט הוא קדש ויכו את – כל – שדה העמליקי וגם את – האמורי הישב בחצצון תמר : ויצא מלך – סדום ומלך עמורה ומלך אדמה ומלך צביים ומלך בלע הוא – צוער ויערכו אתם מלחמה בעמק השדים : את כדרלעומר מלך עילם ותדעל מלך גוים ואמרפל מלך שנער ואריוך מלך אלסר ארבעה מלכים את – החמשה : ועמק השדים בארות בארות חמר וינוסו מלך – סדום ועמורה ויפלו – שמה והנשארים הרה נסו : ויקחו את – כל – רכוש סדום ועמורה ואת – כל – אכלם וילכו : ויקחו את – לוט ואת – רכושו בן – אחי אברם וילכו והוא ישב בסדום : ויבוא הפליט ויגד לאברם העברי והוא שוכן באלוני ממרא האמורי אחי אשכול ואחי ענר והם בעלי ברית – אברם : וישמע אברם כי נשבה אחיו וירק את – חניכיו ילדי ביתו שמונה עשר ושלוש מאות וירדוף עד – דן : ויחלק עליהם לילה הוא ועבדיו ויכם וירדפם עד – חובה אשר משמואל לדמשק : וישב את כל – הרכוש וגם את – לוט אחיו ורכושו השיב וגם את – הנשים ואת – העם : ויצא מלך – סדום לקראתו אחרי שובו מהכות את – כדרלעומר ואת – המלכים אשר אתו אל – עמק שוה הוא עמק המלך : ומלכי – צדק מלך שלם הוציא לחם ויין והוא כוהן לאל עליון : ויברכהו ויאמר ברוך אברם לאל עליון קונה שמים וארץ : וברוך אל עליון אשר – מגן צריך בידך ויתן – לו מעשר מכל : ויאמר מלך – סדום אל – אברם תן – לי הנפש והרכוש קח – לך : ויאמר אברם אל – מלך סדום הרמותי ידי אל – יהוה אל עליון קונה שמים וארץ : אם – מחוט ועד שרוך – נעל ואם – אקח מכל – אשר – לך ולא תומר אני העשרתי את – אברם : בלעדי רק אשר אכלו הנערים וחלק האנשים אשר הלכו אתי ענר אשכול וממרא הם יקחו חלקם :

جدير بالذكر أيضا أن المؤلف ذكر أن عدد جيش إبراهيم عليه السلام هو ٤٠٠ جندي، في حين أن إبراهيم عليه السلام لم يكن لديه جيش، وإنما عدد من الغلمان المتمرنين الذين يعملون على خدمته ويبلغ عددهم ٣١٨ غلام، وفقا لما ورد في التوراة، إصحاح ١٤، فقرة ١٤. وهذا نصه بالعبرية:

וישמע אברם כי נשבה אחיו וירק את – חניכיו ילדי ביתו שמונה עשר ושלוש מאות וירדוף עד – דן :

أما فيما يتعلق بوعد الرب لإبراهيم عليه السلام بالأرض فقد ورد في التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٥، الفقرات ٧، ١٨. وهذا نصه بالعبرية:

ויואמר אליו אני יהוה אשר הוצאתיך מאור כשדים לתת לך את – הארץ הזואת לרשתה :

ביום ההוא כרת יהוה את – אברם ברית לאמור לזרעך נתתי את – הארץ הזואת מנהר מצרים עד – הנהר הגדול נהר – פרת :

يكن له نصيب في الحكم مثل عيسى ويحيى وكان منهم من كان في منصب تملك مقاليد الأمور في بلادهم مثل موسى وداود وسليمان عليهم السلام، ولكن رغم أن محمد ﷺ وعيسى ويحي فضلاً عن موسى وداود(عليهم جميعاً السلام) أيضاً كانوا يمتلكون زمام خزائن بلاد العرب، إلا أن بيت النبوة لم يكن عامراً بفراش وثير أو طعام شهي، ولم يكن على بدنه الكريم خلعةً ملكية أو درهماً أو ديناراً، وفي ذلك الوقت نفسه كان كسري وقيصر ينخدعان بذلك كله، كان قد ظهر ذلك الملاك السماوي المعصوم البريء، يتيم مكة ذو الملابس الخشنة.

- وفيما يلي الحكمة من إقامة الدولة الإسلامية كما عبر عنها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:-

" أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ" (سورة الحج ٣٩-٤١)

يوضح مجمل هذه الآيات علة وكيفية الغزوات في الإسلام، وواجبات الاستخلاف في الأرض وأهداف الدولة الإسلامية ومميزاتها عن سائر دول العالم. وسيرد الحديث بالتفصيل عن كل هذه النقاط في الجزئيين التاليين لهذا الكتاب. أما في هذا المقام فنحن بصدد الحديث إجمالياً وتفصيلياً عن أنظمة بلاد العرب.

تبين مما سبق أن الأمن قد استتب وقتئذ في سائر بلاد العرب. وانتهت الأزمات السياسية، كما انتشر دعاة الإسلام في جميع أرجاء البلاد. وصارت القبائل تتوافد من أقاص البلاد إلى المسجد النبوي. وكان فتح مكة، الذي تم في سنة ٨ هـ، بمثابة اليوم الأول للدولة الإسلامية. بعد ذلك عيّن الرسول ﷺ جُباةً للزكاة بين القبائل، بيد أن عناصر الخلافة الإلهية لم يكتمل تمامها إلا في أواخر سنة ١٠ هـ قبيل حجة الوداع.

ربما تظن بعض العقول الأوربية غير الفاحصة أن تلك المرحلة الجديدة من حياته ﷺ كانت نموذجًا مبهراً لحياة الملوكية الآسيوية. أما أصحاب العقول الدقيقة العارفون بالحقيقة، يعلمون جيدًا أن ملك العرب كان يسير في طرقات المدينة بملابس بالية، ويقوم

(المترجم).

بما يقود به العبيد والمساكين، فقد كان يملك القلوب بلا حاجة إلى خدم أو حشم أو إلى جاه أو مال، لا يَعتيه أن يقف على بابه حاجب أو بواب، في غنى عن القصر وبمنأى عن السلطان. لم يكن في دولته ﷺ هيئة للشرطة أو مكاتب إدارية عليا، أو عدد كبير من المسئولين، أو وزراء للشورى، أو سياسيين، أو قضاه متخصصين. لقد كان هو ﷺ بذاته كياناً واحداً مسئولاً عن كل الواجبات والمهام، ولكن برغم ذلك كله لم يكن يعتبر نفسه جديراً بأن يزيد عن عامة المسلمين مثقال شعرةٍ إبل، فأمام عدله تتساوى فلذة كبده فاطمة رضي الله عنها مع أي مجرم عادي.

كانت الغاية الجوهرية لبعثته ﷺ هي الدعوة إلى الدين، وتهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس؛ أما بقية المهام والواجبات فكانت ضمنيةً فحسب. ومن ثم نظَّم ﷺ شئون البلاد الداخلية بقدر ما كان هناك من عوائق تعرقل دعوة التوحيد بسبب اضطرابات البلاد الداخلية. ومع ذلك لم يكن هذا الأمر أيضاً على جانب كبير من الأهمية.

شئون البلاد الداخلية

رغم أن عمره ﷺ كان قد بلغ ستون عاماً آنذاك إلا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بنفسه بكل مهام هذه الحكومة وهو في هذا السن. فيعّين الولاة والعمال، ويحدد المؤذنين والأئمة، ويرشح جباة الزكاة والجزية، ويعقد الصلح مع الأقوام الأخرى، ويوزع الضياع والممتلكات على قبائل المسلمين، ويُعد الجيش، ويبُت في القضايا، ويقضي على الحروب الأهلية بين القبائل، ويتخذ القرارات بشأن وضع منح للوفود، ويُنسّق أمور حديثي العهد بالإسلام، ويُصدر الفتاوى الشرعية، ويُطبق حدود الجرائم، ويقوم بأعمال الرقابة الإدارية على كبار المسئولين السياسيين في البلاد، فقد كان يولي بعض الصحابة على الأقاليم البعيدة، ويقوم هو ﷺ بنفسه بمهام ومسئوليات المدينة وما حولها.

كان من شأن الضغوط الجسيمة التي شكلتها أعمال ومهام هذه الحكومة الإلهية على ذهنه وقلبه ﷺ أن انهارت صحته ﷺ تماماً؛ إذ نستوضح من عامة الروايات أن الرسول ﷺ كان يصلي التهجد قاعداً في أخريات حياته ﷺ نظراً لضعف بدنه، ولكن ما الذي تسبب في هذا الضعف البدني. يجيب على ذلك ما صدر على لسان السيدة عائشة. والذي لا يفوقه أي تعبير عن حجم أعماله ﷺ الحياتية:-

عن عبد الله بن شقيق قال سألت عائشة أفكان يصلي قاعداً قالت حين حطمه الناس.[1]

قيادة الجيش

كان كبار الصحابة يقودون الجيش أو السرايا في الغزوات الصغيرة، لكنه ﷺ كان يقود الجيش بنفسه الطاهرة في الغزوات الكبرى. ومن ثم كان ﷺ قائداً للجيش في بدر، وأحد، وخيبر، وتبوك، وفي فتح مكة. هذا ولم يقتصر هدف قيادته ﷺ هذه على حث الجند على القتال والظفر بالنصر فقط بل كان هدفه ﷺ أيضاً من هذه القيادة أن يكون حارساً روحانياً وأخلاقياً للجيش. فالملاحظات التي أخذها على أدق تجاوزات مجاهدي الإسلام، قد وردت صريحة في الأحاديث. وصارت نواةً لقانون الحرب في الإسلام.

الإفتاء

(كان العديد من الصحابة يُصدرون الفتوى بتعهد في عهد رسول الله ولكن في الغالب الأعم كان رسول الله ﷺ هو الذي يقوم بهذه المهمة ولم يكن يحدد وقتاً معيناً لإصدار فتواه، بل كان يصدرها في كل حين وفي جميع الأحوال، أي أنه كان يجيب على الناس كلما سألوه عن أحكام الإسلام وتعاليمه، ولذلك أورد الإمام البخاري هذه الفتاوى في كتاب العلم مصنفاً إياها في أبواب عديدة (حسب موضوعها). وهكذا كانت الفتوى إحدى مهام الخلافة، وطورها عمر ﷺ في عهده إلى حد كبير، وأقام لها شعبة مستقلة بذاتها).

الفصل في القضايا

تأسس منصب القضاء في عهد رسول الله ﷺ فعين ﷺ بنفسه علي ﷺ و معاذ بن جبل قضاةً على اليمن، فيما كان ﷺ يفصل هو بنفسه في سائر قضايا المدينة وما حولها، ولم يكن هناك ما يحول بينه وبين الناس، فقد أورد الإمام البخاري باباً خاصاً بهذا الصدد بعنوان:- **باب ما ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له بوّاب.**

وبناء عليه، لم يكن بوسعه ﷺ أن ينعم بالسكينة في بيته. كانت قضايا النساء تُقدم عموماً في حجرات النساء. وتزخر كتب الحديث بعدد كبير من الأحكام التي أصدرها ﷺ، بحيث إذا جُمعت فستملأ صفحات مجلد ضخم. وعلى أي حال فقد وردت القضايا المدنية

[1] أبو داود، كتاب الصلاة، باب صلاة القاعد.

في أحاديث في كتاب البيوع، كما وردت القضايا الجنائية في كتاب القصاص والديات وغيرهما.

التوقيعات والفرمانات

(كانت هذه المسألة على جانب كبير من الأهمية لدرجة أنه رغم عدم إنشاء ديوان خاص بصيغ جديدة في عهد رسول الله ﷺ، إلا أن الفرمانات قد ظلت على صورتها الأولى، وعُهد بها إلى زيد بن ثابت ثم تلاه معاوية. علاوةً على أن بقية الصحابة كانوا يقومون بها أيضاً بين حين وأخر. ويندرج بصددها:- خطابات الدعوة إلى الإسلام التي كان الرسول ﷺ يرسلها إلى السلاطين والملوك، والمعاهدات التي أبُرمت مع الأقوام الأخرى والتعاليم التي أُرسلت إلى قبائل المسلمين والفرمانات للعمال والجُباة، ودفتر الجند وبعض الأحاديث التي أملاها ﷺ على بعض الصحابة. وقد أفرد الزرقاني وغيره باباً خاصاً لأحكامه ﷺ وفرماناته.)

الضيافة

انمحت تقريباً الصفة الشخصية لرسول الله ﷺ بعد توليه منصب النبوة (إن جاز هذا التعبير) لأن الناس الذين كانوا يأتون إليه ﷺ بشأن ما يتعلق بالبعثة أو الدولة الإلهية وكان الرسول ﷺ يقوم باستضافتهم. كان أغلب الضيوف من المُقبلين على اعتناق الإسلام الذين تكلّف باستضافتهم بلال ﷺ منذ بدء البعثة بأمر من رسول الله ﷺ، لذا حين كان يدخل على رسول الله ﷺ مسلمٌ فقيرٌ ويتراءى بدنه شبه العاري أمام رسول الله ﷺ، كان صلوات الله وسلامه عليه يأمر بلال ﷺ بأن يقترض بعض المال ويُدبر لباساً وطعاماً لهذا الفقير. ولما يتيسر له ﷺ مالاً فيما بعد يُسدد به هذا القرض، حتى أنه ﷺ كان يُنفق ما يُهدى إليه في هذا المضمار.[1] كان الرسول ﷺ يحضّ الصحابة رضوان الله عليهم على تصدق لهذا الغرض، فتُجمع منهم الأموال وتنفق على مساعدة فقراء المهاجرين. ومن ذلك أن دخل على محمد ﷺ ذات مرة جماعة حفاة عراة من المهاجرين، يحمل كل منهم في

---

[1] أبو داود، كتاب الخراج والإمارة، باب في الإمام يقبل هدايا المشركين.وهذا نصّ الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص١٥٢،١٥٣.(عن عبد الله الهوزني قال: لقيت بلالا مؤذن الرسول بحلب، فقلت: يا بلال حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟ قال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله تعالى إلى أن توفي رسول الله ﷺ، وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً يأمرني فأنطلق فأستقرض فأشترى له البردة فأكسوه وأطعمه... الحديث). (المترجم).

عنقه جراب سيف، ولا يكتسي بدنه إلا برداء واحد. فتغير وجه رسول الله ﷺ حين رأى حالتهم الرثة هذه، وأمر بلال أن يؤذن بالصلاة، وبعد أن فرغ من الصلاة. خطب في صحابته وحثهم على أن يمدوا يد العون لهؤلاء القوم، فقام رجل أنصاري بصرة كادت كفه أن تسقط بها وأفرغه أمام رسول الله ﷺ فتحمس بقية الحاضرين، حتى رأيت كومتين من طعام وثياب أمام هؤلاء المهاجرين المعوزين.[1]

بعد فتح مكة بدأت الوفود القومية والدينية تترى من جميع أنحاء البلاد، فكان الرسول ﷺ يستضيفهم بنفسه، ويوفر لهم الرواتب وتكاليف السفر وفق الضرورة، مما كان له عظيم الأثر على القبائل. وقد بلغت عنايته ﷺ بالوفود إلى أن أحد الوصايا الأخيرة التي أوصى بها حال وفاته هذه الوصية:-

أجيزوا الوفود بنحو ما كنت أجيزهم.[2]

عيادة المرضى

(كانت عيادة المرضى والمشاركة في تجهيز وتكفين الموتى فرضاً دينياً، ومن ثم لما هاجر محمد ﷺ إلى المدينة، بات من المعتاد لأهل المحتضر أن يخبروا رسول الله ﷺ، فيذهب إليه ويستغفر له الله.[3] ولكن عيادة المرضى كانت تدخل أحياناً ضمن مهام الخلافة، لأنه لما كان بعض الصحابة يريدون أن يتصدقوا أو يوقفوا ممتلكاتهم حال احتضارهم أو مرضهم، كان الرسول ﷺ يوجههم إلى الأسلوب الأمثل للقيام بذلك، ولما كان ﷺ لا يتبع جنازة المدينين، يضطر ورثتهم أو الصحابة الآخرون إلى سداد تلك الديون، وهكذا كان يتم البت في بعض المعاملات وفض بعض المنازعات. وقد وردت في الأحاديث أمثلة عديدة لذلك.

---

(1) مسند أحمد بن حنبل، ج ٤، ص ٣٥٨.

(2) صحيح البخاري، ج١، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب. وهذا نص الحديث. ٩٤١ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَوْمُ الْخَمِيسِ وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ دَمْعُهُ الْحَصَى فَقُلْتُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ قَالَ اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعُهُ فَقَالَ ائْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِلُّوا بَعْدِي فَتَنَازَعُوا وَمَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، وَقَالُوا مَا شَأْنُهُ أَهَجَرَ اسْتَفْهِمُوهُ قَالَ دَعُونِي فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ أُوصِيكُمْ بِثَلاثٍ أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ قَالَ وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثَةِ أَوْ قَالَهَا فَأُنْسِيتُهَا *(المترجم).

(3) المسند ج ٣ صـ ٦٦.

الاحتساب

كان للاحتساب إدارة مستقلة بذاتها في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية. وكانت هذه الإدارة تقوم بمراقبة شتى معاملات التقايض والبيع والشراء والأخلاق والأعراف بين كافة الفصائل والأعراق أي على نطاق واسع، ولكن هذه الإدارة لم تكن قائمةً في عهد رسول الله ﷺ، فقد كان ﷺ يقوم بمهامها بنفسه، فكان يؤاخذ الناس فيما يتعلق بواجباتهم الدينية وسلوكياتهم الأخلاقية بين الوقت والآخر، كما كان ﷺ يراقب المعاملات التجارية، إذ كانت المعاملات التجارية في بلاد العرب بحاجة قصوى إلى التعديل والإصلاح، وبمجرد أن هاجر ﷺ إلى المدينة قام بتنفيذ ما تراءى له من تعديلات، ومن هنا يرجع الفضل في تطبيق الناس لهذه التعديلات إلى منهج الاحتساب. فكان الرسول ﷺ يراقب جميع الشئون والمعاملات بحزم بالغ، ويأمر الناس بتنفيذ التعديلات التي أجريت عليها، ويفرض العقوبات على من لا يراعي منهم فقد ورد في كتاب البيوع بصحيح البخاري ما يلي:-

"لقد رأيتُ الناسَ في عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يَبْتَاعونَ جِزافاً ـ يَعني الطَّعامَ ـ يُضربونَ أن يَبيعوهُ في مَكانِهم حتى يُؤْوُوهُ إلى رِحالِهم»[1] كان ﷺ يذهب أحياناً إلى السوق بنفسه ليستطلع أحوال الناس. وذات مرة كان يمر بالسوق فرأى صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني.[2]

كانت محاسبة العمال من أهم مهام الاحتساب، فلما كان العمال يأتون لتسديد أموال الزكاة والصدقات التي جمعوها، كان ﷺ يسألهم كيف جمعوها، ليطمئن أنهم لم ينتهجوا سلوكاً جائراً في ذلك. ومن هذا أنه ﷺ كلّف ابن اللتبية بتحصيل الصدقات، فقام بمهمته، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ، فسأله ﷺ كيف قام بها، فقال: هذا مال المسلمين، أما هذا فقد أُهدي إليّ؛ فقال ﷺ: " مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي أَفَلا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي

---

[1] وهذا نص الحديث، باب من رأى إذا اشترى طعاما جزافا: (٢١١٣) ـــ حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليثُ عن يونُسَ عن ابنِ شهاب قال: أخبرني سالمُ بنُ عبدِ الله أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ الله عنهما قال: «لقد رأيتُ الناسَ في عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يَبْتَاعونَ جِزافاً ـ يَعني الطَّعامَ ـ يُضربونَ أن يَبيعوهُ في مَكانِهم حتى يُؤْوُوهُ إلى رِحالِهم». (المترجم).

[2] صحيح مسلم، ج١، صـــ ٥٣، كتاب الإيمان.

بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لا ؟! ثم أتبع ﷺ ذلك بخطبة عامة، أدان فيها هذا السلوك بشدة.[1]

الإصلاح بين الناس

جاء الإسلام للقضاء على التفرقة بين عامة الناس بصفة عامة ومحو الخلافات بين العرب بصفة خاصة. وعليه، عتبر الرسول ﷺ أن هذا فرض من الفروض الواجبة عليه، فكان إذا تناهى إلى علمه ﷺ شيئاً عن مثل هذه المنازعات، قدّم تسويتها على جميع المهام الدينية الأخرى. ومثال ذلك أنه حين نشب نزاع بين عدة رجال من قبيلة بني عمرو بن عوف، وعلم الرسول ﷺ به، ذهب إليهم في بعض أصحابه (رضوان الله عليهم) للإصلاح بينهم، واستغرق هذا الأمر وقتاً طويلا حتى حان وقت الصلاة، فأذن بلال ﷺ، ولكن الرسول ﷺ لم يأت حتى بعد اختتام الآذان، فانتظر الحاضرون قليلاً، ائتموا بأبي بكر ﷺ. فإذا برسول الله ﷺ يدخل عليهم ويخترق الصفوف حتى وقف في الصف الأول، ورغم أن أبا بكر ﷺ لم يكن يتلفت في الصلاة إلا أن الناس أخذت تصفق بقوة؛ فاضطر أن ينظر وراءه، فوجد الرسول ﷺ واقفاً. وبالرغم من أن النبي ﷺ أشار إليه بأن يظل واقفاً كما هو؛ إلا أنه اعتبر أن إمامته الناس في وجود النبي ﷺ سوء أدب، لذا تراجع للخلف، وتقدم النبي ﷺ ووقف مكانه إماما.[2]

---

[1] البخاري، ج٢ صـ ١٠٦٩، كتاب الأحكام. وهذا نص الحديث (١٠٦٥): حَدِيثُ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلا مِنَ الأَسْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَمْرٌو وَابْنُ أَبِي عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي أُهْدِيَ لِي قَالَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي أَفَلا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ • (المترجم).

[2] البخاري، ج١، صـ٣٦، كتاب الصلح. وهذا نص الحديث. ٢٢٤ حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَهَبَ إِلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمْ فَحَانَتِ الصَّلاةُ فَجَاءَ الْمُؤَذِّنُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ أَتُصَلِّي بِالنَّاسِ فَأُقِيمُ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسُ فِي الصَّلاةِ فَتَخَلَّصَ حَتَّى وَقَفَ فِي الصَّفِّ فَصَفَّقَ النَّاسُ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ لا يَلْتَفِتُ فِي الصَّلاةِ فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ التَّصْفِيقَ الْتَفَتَ فَرَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِ امْكُثْ مَكَانَكَ فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ يَدَيْهِ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

ونشب خلاف ذات مرة بين أهل قباء، بلغ من احتدامه أن تراشق الناس بالحجارة، ولما علم الرسول ﷺ بذلك ذهب إليهم وصحابته الكرام (رضوان الله عليهم) ليصلحوا بينهم.[1] ومع أن البخاري قد كتب هاتين الواقعتين منفصلتين، إلا أن شارحي الحديث يذهبون في تحقيقاتهم إلى أن هذين جزءين لواقعة واحدة. وورد في روايات أخرى للبخاري أن الرسول ﷺ قد قطع تلك المسافة البعيدة مشياً على الأقدام.

كان لكعب بن مالك ﷺ ديناً عند ابن أبي حدرد، فطالبه به في المسجد، فأراد حدرد أن يعفيه من بعض القرض، لكنه أبى، فاحتدم النقاش بينهما وعلت أصواتهما، فخرج إليهم الرسول ﷺ، ونادى كعب ﷺ، فلباه، فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ قَالَ كَعْبٌ قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُمْ فَاقْضِهِ.[2]

وهكذا كانت تقع أحداث يومية لا حصر لها من هذا النوع من الأحداث. عيّن ﷺ كبار الصحابة وذوى الكفاءات منهم في مناصب عديدة للقيام بالمهام الأخرى في المدينة وخارجها. وكانت وظيفة الكتابة هي أهم الوظائف من أجل كتابة الوحي، والرسائل، والأحكام والفرمانات. ولم يكن التعليم رائجاً بصفة عامة بين العرب قبل الإسلام، ولكنه كان من بين الأشياء التي أنعم بها الإسلام على العرب. وتقرر أن تكون فدية أسرى بدر هي تعليم أطفال المدينة، ومن هنا تعلم زيد بن ثابت الذي أُسندت إليه مهمة كتابة الوحي. ويثبت من رواية لأبي داود أن تعليم الكتابة كان من بين ما يتعلمه أصحاب الصفة.

عَلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ اسْتَأْخَرَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى اسْتَوَى فِي الصَّفِّ وَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَثْبُتَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ مَا كَانَ لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لِي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرْتُمْ التَّصْفِيقَ مَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيُسَبِّحْ فَإِنَّهُ إِذَا سَبَّحَ الْتُفِتَ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا التَّصْفِيحُ لِلنِّسَاءِ *(المترجم).

[1] البخاري.

[2] وهذا نص الحديث: ٨٨٧ حَدِيثُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ وَنَادَى كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فَقَالَ يَا كَعْبُ فَقَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ قَالَ كَعْبٌ قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُمْ فَاقْضِهِ * (المترجم).

الكتّاب

كانت الكتابة بمثابة مهمة نيابة عن رسول الله ﷺ، ولذا كان يُعهد بها إلى كبار الصحابة في أي أوقات متباينة كان أول من شُرف بهذا المنصب شرحبيل ﷺ بن حسن الكندي الذي كان من أوائل المسلمين، وهو أول من قام بكتابة الوحي في مكة. أما عبد الله بن أبي سرح ﷺ فكان أول كاتب في قريش. كما نال شرف هذا السبق في المدينة أُبي بن كعب. هذا وقد عُهد بهذا المنصب في أوقات متباينة إلى كلٍ من أبي بكر، وعمر، وعلي، وعثمان، والزبير بن العوام، وعامر بن فهيره، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس بن شماس، وحنظلة، وابن الربيع الأسدي، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحه، وخالد ابن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، وعلاء بن الحضرمي، وحذيفة بن اليمان، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت (رضوان الله عليهم). وكانوا أحياناً يقومون جميعا بهذه المهمة. فمن ذلك أن كتب على رضى الله عنه بيده ميثاق صلح الحديبية، وكان عامر بن فهيرة يكتب الرسائل إلى الملوك، فيما كتب أبي بن كعب الرسالة التي بعثها الرسول ﷺ إلي أمراء عمان، وكتب ثابت بن قيس الخطاب الذي أُرسل إلى قطن بن حارثة، ولكن زيد بن ثابت كان يتولى هذه المهمة في الغالب حيث ذاع اسمه بين الصحابة مقترناً بها.[١]

امتاز زيد بن ثابت عن سائر هؤلاء الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) بأنه تعلم اللغة العبرية بأمر من رسول الله ﷺ، إذ اقتضت الضرورة ذلك حيث زادت علاقات ومعاملات الرسول ﷺ مع اليهود -الذين كانت العبرية لغتهم الدينية- بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، ومن ثم أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت تعلم العبرية، وتمكن زيد ﷺ من إجادتها في خمسة عشر يوماً.

الحكام والولاة

كانت مهام مثل الفصل في القضايا، وإقامة العدل، وإقرار الأمن، ورفع النزاع، تستلزم بالطبع العديد من الولاة والحكام، ومن ثم قام الرسول ﷺ بتعيين العديد من الصحابة حكاماً وولاة على مختلف أنحاء البلاد. وفيما يلي أسماء من شَرُف بهذا المنصب:

---

[١] وردت أسماء هؤلاء الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) وأحوالهم تفصيلا في "الزرقاني" ج١ صـ٣٧٣.

باذان بن سامان ﷺ	يرجع نسبه إلى بني بهرام كور، وهو أول من شرف بالإسلام من ملوك العجم، ثم عينه الرسول ﷺ والياً على اليمن.
شهر بن باذان ﷺ	عينه النبي ﷺ والياً على صنعاء بعد باذان بن سامان.
خالد بن سعيد بن العاص	عينه النبي ﷺ والياً على صنعاء بعد وفاة شهر بن باذن.
مهاجر بن أمية المخزومي ﷺ	عينه النبي ﷺ والياً على كنده وصدف، لكنه ما كاد أن يرحل حتى وافته المنية.
زياد بن لبيد الأنصاري ﷺ	كان والياً على حضرموت.
أبو موسى الأشعري ﷺ	كان والياً على زبيد، وعدن، وزمعة، وغيرها.
معاذ بن جبل ﷺ	والي جند.
عمرو بن حزم ﷺ	والي نجران.
يزيد بن أبي سفيان ﷺ	والي تيما.
عتاب بن أسيد ﷺ	والي مكة
علي بن أبي طالب ﷺ	تولى أخماس اليمن
عمرو بن العاص ﷺ	والي عمان
علاء بن الحضرمي ﷺ	والي البحرين

كان يتم تعيين هؤلاء الولاة؛ أي الحكام، مع أتساع رقعة البلاد، ووفقاً لما تقتضيه الضرورة. كانت اليمن أكثر بلاد العرب اتساعا وتحضرا التي استظلت بلواء الإسلام في عهد النبي ﷺ، حيث كان هذا البلد قد نعم بمملكة لفترة طويلة من قبل، ومن ثم قسمها رسول الله ﷺ إلى خمسة قطاعات وجعل على كل واحد منها حاكمه الخاص. فكان خالد بن سعيد حاكماً على صنعاء، ومهاجر بن أبي أمية حاكماً على كندة، وزياد بن لبيد حاكماً على حضرموت، ومعاذ بن جبل حاكماً على جند، وأبي موسى الأشعري حاكماً على زبيد، وزمعة، وعدن، والمدن الساحلية.[1]

---

[1] الاستعاب، تذكرة معاذ بن جبل ﷺ.

على أية حال، اقتضت حكمته ﷺ أنه كلما عين مهاجراً عاملا على أي بلدٍ ما عيّن معه أنصارياً أيضاً،[1] وفضلاً عن إدارة البلاد، والفصل في القضايا، وجباية الخراج، وغيرها من الأمور الأخرى كان نشر الإسلام، وتعليم سننه وفرائضه أكثر المهام، التي كانت منوطة بهولاء العمال، أولويةً. ونظراً لذلك كما ذكرنا سابقاً كان هؤلاء الرجال دعاة للدين ومعلمين للأخلاق في نفس الوقت الذي كانوا فيه حكاماً وولاة على الأقاليم. ورد في الاستيعاب في الحديث عن معاذ بن جبل ﷺ:ـــ

وبعثه رسول الله ﷺ قاضياً إلى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم وجعل إليه قبض الصدقات من العمّال الذين باليمن

لذا حين كان هؤلاء الولاة يهمون بالرحيل إلى حيث وُلوا، كان رسول الله ﷺ يخبرهم بكل هذه المهام والواجبات. ومن ذلك أنه ﷺ أوصى معاذ بن جبل ﷺ بهذه الوصية:ـــ

إِنَّكَ(معاذ بن جبل) تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ. فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ. "[2]

كان القيام بمثل هذه الواجبات يستلزم إطلاعاً واسعاً، وبُعد نظر، وقدرةً على الاجتهاد. ومن ثم كان النبي ﷺ يختبر منهج هؤلاء الرجال في الحياة ومدى ما لديهم من معرفة علمية. ومن هذا أن محمد ﷺ اختبر معاذ حين تأهب للرحيل لمعرفة كفاءته ومقدرته على الاجتهاد. فورد في الترمذي:-

---

[1] مسند ابن حنبل ج٥ صــ ١٨٦.

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: ٩ حَدِيثُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ *(المترجم).

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن «كيف تصنع إن عرض لك قضاء قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو. قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم».[1]

لكن السعي إلى الاستحواذ على قلوب العرب كان يتطلب فوق كل ما سبق الرفق والسماحة والهوادة واللين التي يستحيل تقريباً اقترانها بما تتطلبه السلطة السياسية من سلطة وسطوة، ولذا كان رسول الله ﷺ يُلفت انتباه الحكام مراراً إلى كل تلك الأمور. فحين أمر ﷺ معاذ بن جبل ﷺ وصحابياً آخر بالرحيل لتولى حكم اليمن، أوصاهما أولاً بوصية عامة قال فيها: «**يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا».(مسلم ج٢ ص٦٣ كتاب الإيمان).**[2]

ولم يكتف بذلك، فلما وطأ معاذ بن جبل ﷺ ركاب المسافرين، **اختصه النبي ﷺ** بقوله:ـ

أحسن خلقك للناس. (ابن سعد، تذكرة معاذ بن جبل)

---

[1] وهذا نص الحديث: (٢١٦٣٠) ــــ حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي عون عن الحارث بن عمرو بن أخي المغيرة بن شعبة عن ناس من أصحاب معاذ من أهل حمص عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن **فقال**: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ **قال**: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو. قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم». (المترجم).

[2] وهذا نص الحديث: (٤٤٨٠) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ : حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ بَعَثَهُ وَمُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا». كما ورد عنه ﷺ ١٠٠٣ حَدِيثُ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ".(المترجم).

إذا صح أن أية حكومة أو سلطة مهما بلغت من العطف والرحمة، تضطر حين تستولي على بلد ما أن تنتهج العنف رغماً عنها لإخضاع المتمردين، فإنه من الطبيعي أن العرب كانوا أحق الناس بذلك، ولكن هذه التعاليم المقدسة التي أوصى بها رسول الله ﷺ لم تدع مجالاً لعنف الولاة في أية بقعة من بقاع العرب. لدرجة أن الصحابة (رضوان الله عليهم) كانوا يتعجبون بشدة حين شهدوا مظالم عمال الدولة فيما بعد، وكانوا يمنعوها حسب تعليمات رسول الله ﷺ، ومن ذلك أن هشام بن حكيم بن حزام، رأى ذات مرة بعض أنباط الشام وقد أرغموا على الوقوف في قيظ النهار، فسأل الناس عن علة ذلك، فقالوا: إنما يُعاملون بهذه القسوة كي يدفعوا الجزية، فلما سمع ذلك، قال:

أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا.[١]

جباة الزكاة والجزية

رغم أن حسن إسلام العرب وقوة إيمانهم قد حفزهم على القدوم بأنفسهم لسداد الزكاة والصدقة، فبمجرد اعتناق أية قبيلة للإسلام كانت تفد إلى حضرة رسول ﷺ لتقدم بنفسها صدقات قومها وتنعم ببركة دعائه ﷺ، ولكن لم يكن هذا النهج كافياً لبلد تترامى أطرافه، وتتشعب حكومته، لذلك عيّن الرسول ﷺ . فضلا عن الولاة في غرة المحرم سنة ٩ هـ صيارفة، يختص كل منهم بإحدى القبائل فيسافر إليها بنفسه ويطوف بها فيجمع من أهلها زكاتهم وصدقاتهم ثم يعود فيقدمها إلى رسول الله ﷺ. وعلى كلٍ فقد كان أشراف القبائل هم جباتها ونتبين من الأحاديث أنهم كانوا يعينون بصفة مؤقتة.

على أي حال عين الرسول ﷺ هؤلاء المندرجة أسماؤهم للقيام بهذه المهمة في بلدان[٢] وقبائل شتى:-

الاسم	منطقة التعيين	الاسم	منطقة التعيين
عدي بن حاتم	طيئ وبني أسد	أبو جهم بن حذيفة	بنو ليث
صفوان بن صفوان[١]	بنو عمرو	رجل هذيمي	بنو هذيم

---

[١] صحيح مسلم، باب الوعد الشديد لمن عذب الناس بغير حق.

[٢] وردت أغلب أجزاء هذا الفهرس في الطبقات الكبرى لابن سعد، جزء المغازي صـ١١٥. أما عمر بن الخطاب وأبي عبيده بن الجراح رضي الله عنهما فقد ورد ذكرهما في كتاب الصدقات، بصحيح البخاري، كما ورد ذكر بعض هؤلاء الصيارفة في كتاب الخراج، بصحيح أبي داود، أما بقيتهم فقد ورد ذكرهم في ذكر المصدقين وأمراء النبي ﷺ، في زاد المعاد، فتوح البلدان للبلاذري.

مالك بن نويره	بنو حنظلة	عمر بن الخطاب ﵁	المدينة المنورة
بريده بن حضيب الأسلمي	غفار وأسلم	أبو عبيدة بن الجراح	مدينة نجران
عباد بن بشر الأشهلي	سليم ومزينة	عبدالله بن رواحة	مدينة خيبر
رافع بن مكيث الجُهني	جهينة	زياد بن لبيد	حضرموت
الزبرقان بن بدر	بنو سعد	أبو موسى الأشعري	إقليم اليمن
قيس بن عاصم	بنو سعد	خالد ﵁	إقليم اليمن
عمرو بن العاص	بنو فزارة	ابان بن سعيد	البحرين
ضحاك بن سفيان الكلابي	بنو كلاب	محمد بن جزء الأسدي	جباية الخمس
بسر بن سفيان الكلابي	بنو كعب	عمرو بن سعيد بن العاص	تيماء
عبدالله بن اللتيه	بنو ذبيان	عيينة بن حسن الفزازي	بنو تميم

كان النبي ﷺ يحرص على الأمور التالية في تعيين هؤلاء الجباة:-

١- يتم تسليمهم فرماناً موضحاً به الأنصبة الشرعية للزكاة حسب حجم الممتلكات! ولم يكن مسموحاً بانتقاء هذه الأنصبة من بين الممتلكات أو جباية ما يزيد عنها، إذ كان هناك أمر مطلق: **إياك وكرائم أموالهم** يطبقه هؤلاء العمال بحزمٍ شديد، ولا يستبيحون التجاوز عنه. فلما أراد بعض الناس أن يدفعوا ما يزيد عن الحق الشرعي عن تراض منهم، أبى هؤلاء العمال ذلك. يقول سويد بن غفلة: جاءنا صيرفي رسول الله ﷺ، و حين ذهبت إليه وجلست بجواره ذكر لي أولاً أنواع الحيوانات التي لا يُسمح بأخذها في الفرمان، وفي الوقت نفسه حين دخل رجل ومعه مجموعة من أجود سلالات الإبل، وقدمها له، أبي أن يأخذها. وهكذا أيضاً قدم له رجل عنزةً عشراء، فقال له: حرام علينا أخذها.[٢]

٢- اقتصرت ثروة العرب على قطعان الإبل والغنم، التي كانت ترعى على سفوح الجبال والبوادي، وكان صيارفة الدولة الإسلامية يتجشمون مشقة الذهاب إلى تلك

---

(١) الإصابة، باب صفوان.

(٢) النسائي صـ ٣٩٣.

الوديان ليجمعوا الزكاة بأنفسهم، ولا يُجبرون الناس على إحضار حصة ثروته الأموال أو الحيوانات إليهم، مثلما تجبر الحكومات الدنيوية الناس. يقول صحابي: بينما كنت أرعى الغنم في إحدى شعاب الجبل، جاءني رجل يمتطي ناقته، وقال: إني مبعوث رسول الله ﷺ، وجئتك هنا لجباية صدقة غنمك، فقدمت له شاةً ذات صغار، وحلوب، فقال: نهيت عن أخذها، فأعطيته حملاً آخر، فوضعه على ناقته ورحل.[1]

٣- رغم أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا يبتعدون بأنفسهم عن أخذ كل أنواع المال الحرام بسبب عفتهم ونزاهتهم. ومن ذلك، فإنه لما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة إلى يهود خيبر ليناصفهم محصولهم الزراعي وفق الميثاق المبرم بينهم وبين المسلمين، حاول اليهود أن يعطوه رشوةً، فقال مستنكراً:" يا أعداء الله! أتريدون إطعامي المال الحرام".[2] رغم كل هذه النزاهة التي اتسم بها الصحابة الكرام(رضوان الله عليهم) كان رسول الله ﷺ يحاسب الصيارفة منهم بعد عودتهم بنفسه. ومن ذلك أنه ﷺ بعث ذات مرة ابن اللتبية ليجمع الصدقات، ولما عاد وحاسبه ﷺ، قال: هذا مالكم، وهذا هدية أُهديت لي، فقال رسول الله ﷺ «فهلا جلستَ في بيتِ أبيك وبيتِ أمك حتى تأتيكَ هديتكَ إن كنتَ صادقاً؟ ولم يكتف ﷺ بذلك، فخطب خطبة عامة شدد فيها على نهي الناس جميعاً عن أخذ مثل هذا المال.[3]

---

[1] النسائي صـ٣٩٣.

[2] فتوح البلدان صـ٣١.

[3] صحيح مسلم ج ٢ صـ١١٣. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، باب محاسبة الإمام وعماله: (٧٠٣٧) حدَّثنا محمدٌ أخبرَنا عَبدة حدثَنا هشام بن عُروةَ عن أبيه عن أبي حُمَيد الساعديِّ «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم استعملَ ابن الأُتبيَّةِ على صدقاتِ بني سُلَيم، فلما جاء إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وحاسبه قال: هذا الذي لكم، وهذه هدية أُهديتْ لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فهلا جلستَ في بيتِ أبيك وبيتِ أمك حتى تأتيكَ هديتكَ إن كنتَ صادقاً؟ ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناسَ وحمِدَ اللّه وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني أستعمل رجالاً منكم على أمور مما ولا ني اللّه، فيأتي أحدكم فيقول: هذا لكم وهذه هدية أهديت لي، فهلا جلسَ في بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيهُ هديته إن كان صادقاً؟ فواللّه لا يأخذُ أحدكم منها شيئاً ــ قال هشام: بغيرِ حقه ــ إلا جاء اللّه يَحمله يومَ القيامة. ألا فلأعرفن ما جاء اللّهَ رجلٌ ببعير له رُغاء، أو ببقرةٍ لها خوار، أو شاةٍ تَيعر ــ ثم رفع يدَيهِ حتى رأيت بياضَ إبطَيْه ــ ألا هل بلَّغتُ؟»». (المترجم).

٤- كان النبي ﷺ يحرم أموال الزكاة والصدقات على آل بيته. لذا لم يُعين صيرفيا منهم. فذات مرة دخل عليه ﷺ عبد المطلب بن زمعة بن الحارث وفضل بن العباس- ابن عمه ﷺ وابن أخيه ﷺ - وقالوا: قد صرنا في سن الزواج، ونرجو أن نتكرم بتعييننا صيارفة كبقية الناس حتى يمكننا أن ندخر من راتبها بعض المال فندبر مؤونة النكاح. لكنه ﷺ قال: إنَّ الصَّدَقَةَ حَرامٌ على محمدٍ وعلى آهل محمد.[1]

٥- كان النبي ﷺ يختار العمال بنفسه، ومن يتقدم بنفسه هذا المنصب، لا يُقبَل طلبه. ومن ذلك أن جاء رجلان مع أبي موسى الأشعري وطلبا أن يكونا عاملين، قال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري:" ما تقول يا أبا موسى؟ "، قال: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما وما شعرت أنهما يطلبان العمل، ورفض النبي ﷺ طلبهما معاً قائلاً: لن نستعمل على عملنا من أراده ولكن اذهب أنت يا أبا موسى فبعثه على اليمن.[2]

٦- كان العمال ينالون رواتبهم وفق احتياجاتهم الضرورية. فكان الرسول ﷺ يعلن على الملأ قوله: من يكتسب أكثر من النسبة التي حددناها، فهو خائن للأمانة، وبين ﷺ بنفسه نصاب الحاجة فقال:[3]

من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم؛ فليكتسب خادماً، وإن لم يكن له مسكن، فليكتسب مسكناً ومن اتخذ غير ذلك فهو غال.

وقد حصل عمر بن الخطاب ﷺ على مثل هذه المكافأة في عهد رسول الله ﷺ، ولذا لما كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يقبلونها في عهد خلافته من قبيل الزهد والورع والتنزه عنها كان عمر ﷺ يستدل بمنهج رسول الله ﷺ هذا.

القضاة

(فضلاً عن كل هذه المناصب، قامت بعض المناصب الأخرى على صورتها البدائية. فعلى سبيل المثال كان رسول الله ﷺ يقوم بنفسه بالفصل في القضايا في الغالب الأعم، ولكنه ﷺ أحياناً ما كان يُسند هذه المهمة إلى هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم التالية أسماؤهم:- أبو بكر، عمر، عثمان، علي، عبد الرحمن بن عوف، ابن كعب، معاذ

---

[1] الصحاح، كتاب الصدقات.

[2] صحيح مسلم ج٢ صـ ١٠٩.

[3] ورد كلا الحديثين في باب أرزاق العمال، أبو داود ج ٢.

بن جبل رضي الله عنهم). وعلى الرغم من أن الشرطة لم تقم لها إدارة مقننة في عهد الخلفاء الراشدين، وأن بدايتها الفعلية كانت في عهد بني أمية،[1] إلا أن نموذجها الأول قد ظهر في عهد رسول الله ﷺ، وكان يقوم بمهامها قيس بن سعد ﷺ، ولذلك كان ملازماً لرسول الله ﷺ على الدوام.[2]

السياف

تولى مهمة إعدام المجرمين كلاً من:- الزبير ﷺ، علي ﷺ، والمقداد بن الأسود ﷺ، ومحمد بن سلمة، وعاصم بن ثابت، والضحاك بن سفيان الكلابي.[3]

المعاهدة مع الأقوام الأخرى

لم يعد للشرك وجود في بلاد العرب آنذاك، ولم يتبق سوى بضعة مستوطنات مجوسية، ونصرانية، ويهودية في مناطق متفرقة. كان بها مجموعة كبيرة من أولئك الذين أشرقت قلوبهم بنور الإيمان، لكنهم ما زالوا في مجملهم في غياهب الظلمات. إلا أنهم لم يستطيعوا التمرد على القوة الكاسحة للدولة الإلهية. فاستسلمت كل القبائل العربية للإسلام طواعيةً عدا يهود الحجاز. ولذا أخذ الإسلام على عاتقة كافة مسئوليات الحفاظ على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأديانهم لقاء إلزامهم بدفع جزية رمزية(ديناراً واحداً سنوياً على كل رجل قادر عاقل بالغ)، ولا يلزم هذه القيمة أن تكون في صورة أموال نقدية، بل غلب على الجزية أن تتحدد وفقاً لمحاصيل ومنتجات المنطقة التي تجبى منها.[4]

كانت أولى مواثيق الصلح التي عقدها رسول الله ﷺ مع الأقوام الأخرى هي تلك التي عقدها ﷺ مع يهود خيبر، وفدك، ووادي القرى، وتيماء في سنة ٧ هـ فيما لم تكن آية الجزية قد نزلت بعد. وعليه، استقرت الشروط التي ارتضاها الطرفين، بعد نزولها

---

(١) فتح البخاري ج ١٣ صـ ٦١٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأحكام. روى عن أنس أن قيس بن سعد كان يكون بين يدي النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرط من الأمير.(البخاري، ج٤، ص٣٥٧)(المترجم).

(٣) زاد المعاد، ابن القيم.

(٤) المصدر السابق ج١ فصل الجزية.

أيضاً.[1] وكان الشرط الأساسي أن تُعامل تلك الأقوام كرعايا، ويحتفظوا بنصف محاصيلهم، ويعطون النصف الأخر للمسلمين.[2]

نزلت آية الجزية سنة ٩هـ فأجريت كل المعاهدات طبقاً لما تضمنته، وقدم مسيحيو نجران إلى المدينة يطلبون الصلح، فوافقهم رسول الله ﷺ. كانت شروط هذا الصلح كالتالي:- أن يعطوا المسلمين ألفي قطعة من الملابس سنوياً على أن يكون ذلك على قسطين، أحدهما في شهر رجب. وإذا نشبت ثورة أو فتنة في اليمن يُعيرون المسلمين هناك ثلاثين كيساً من الذهب، وثلاثين فرساً، وثلاثين عدداً من كل أنواع الأسلحة على أن يتكفل المسلمون بردها. وذلك كله لقاء ألا تُهدم كنائسهم، ولا يُطرد قساوستهم أو أساقفتهم، ولا يُكرهون على الخروج عن دينهم، ماداموا لا يتعاملون بالربا، ولا يشقون عصا الطاعة للمسلمين.[3]

كان كثير من المسيحيين واليهود يستوطنون القرى على حدود الشام. وفي غزوة تبوك تقرر في رجب سنة ٩هـ ديناراً سنوياً على كل رجل بالغ من الملاك المسيحيين واليهود في دومة الجندل، وأيلة، ومقناء جربا, وأذرح، وتباله، وجرش الذين لم يعتنقوا الإسلام، ورضوا بدفع الجزية، كما ألزموا باستضافة المسلمين حين يمرون عليهم[4] وهم مسافرين. ومن التسهيلات التي حظوا بها أن يسددوا الجزية في صورة أقمشة معافرية إذا

---

[1] زاد المعاد، ابن القيم ج١.

[2] صحاح البخاري ومسلم وأبي داوود، ذكر خيبر. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص١٤١" عن عبد الله بن عمر قال:لما افتتحت خيبر سألت يهود رسول الله ﷺ أن يقرهم على أن يعملوا على النصف مما خرج منها، فقال رسول الله: " أقركم فيها على ذلك ما شئنا" فكانوا على ذلك"(المترجم). وفتوح البلدان للبلاذري، ذكر فدك ووادي القرى وتيماء.

[3] أبو داود، كتاب الخراج، باب أخذ الجزية. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص١٤٩.(عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حُلة، النصف في صفر والبقية في رجب يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد أو غدرة على أن لا تهدم لهم بيعة، ولا يخرج لهم قس، ولا يفتنوا عن دينهم ما لم يحدثوا حدثا أو يأكلوا الربا)(المترجم).

[4] فتوح البلدان، للبلاذري.

لم يستطعوا سدادها نقداً.[١] هذا وقد عُقد الصلح مع مجوس البحرين على جزيةٍ بنفس هذا النصاب.[٢]

أنواع الوارد والصادر

بناءً على الأغراض والمصالح المختلفة، اقتصرت موارد الدخل في الإسلام على خمسة أنواع فقط هي ١-الغنيمة ٢-الفيء ٣-الزكاة ٤- الجزية ٥- الخراج. وكانت جميعها سنوية عدا الموردين الأول والثاني. فكانت الغنيمة تُكتسب عند إحراز النصر فقط، وكان من السائد بين العرب أن يأخذ قائد الجيش ربع الغنيمة، والذي يطلق عليه المرباع، أما بقية الغنيمة فكان يأخذ منها كل رجل ما يقع تحت يده، ولم يكن ثمَّ نظام مقنن لتوزيعها. بعد غزوة بدر اختص الله سبحانه وتعالى نفسه بالغنيمة، وحددَّ خمسها لُينفق على مصالح المسلمين في الدولة الإلهية بسم الله ورسوله فقال تعالى:-

" يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول " (سورة الأنفال: ١)

ومعنى ملكية الله ورسوله، أن الغنيمة ليست ملكية خاصة للجنود؛ بل لأمير المؤمنين أن ينفقها وفق ما يتراءى له، بما يناسب المصلحة العامة. وقسّم الله سبحانه وتعالى نصاب الخمس[٣]، في هذه الآية الكريمة:-

" واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل " (سورة الأنفال: ٤١)

بخلاف واقعةً أو واقعتين استثنائيتين، أعطى رسول الله ﷺ في إحداهما أموال الغنيمة للمهاجرين وفي الأخرى لحديثي العهد بالإسلام في مكة، كان منهجه ﷺدائما هو أنه يقسم بعد الخمس كمية قليلةً تلو الأخرى بالتساوي على الجنود للفرسان منهم ثلاثة أسهم وللمشاة سهم واحد. وورد في بعض الروايات أن الفرسان كانوا يحصلون على

---

[١] أبو داود، باب أخذ الجزية.

[٢] أبو داود، باب أخذ الجزية من المجوس فقد روى عن معاذ أن النبي ﷺ لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً،أو عدله من المعافري.(أبو داود، ج٢، ص١٤٩)(المترجم)، وتاريخ البلاذري، ذكر البحرين.

[٣] أبو داود، حكم أرض خيبر، متفق عليه.

سهمين فقط[1]. وكان لا يدخل في المصاريف الشخصية عموماً إلا نصاباً ضئيلاً من الخمس، وكان يُنفق في الغالب على مستحقيه المذكورين بالآية السابقة.

الزكاة

كانت فرضاً على المسلمين فقط، وكانت تُجبى من أربعة وجوه:- ١- الأموال النقدية، ٢- الثمار والمحاصيل، ٣- الماشية(عدا الخيل)، ٤- عروض التجارة. ولا تجب الزكاة على ما يقل عن مائتي درهم من الفضة، أو عشرين مثقالاً من الذهب، أو خمسة من الإبل. ويلزم للمحاصيل التي تُدفع عنها الزكاة أن يكون وزنها خمسة أوسق (٣٠٠صاعاً حسبما حقق ذلك الإمام الترمذي) فأكثر. كان يُجبى نصف الخمس عن الذهب والفضة. أما نصاب الزكاة عن الماشية فكان يحدد حسب أعدادها وأنواعها التي وردت بالتفصيل في سائر كتب الحديث والفقه. أما الأراضي فنوعان:- إحداهما التي تُروى بماء المطر أو بالماء الجاري فقط،[2] فيجبى عنها عشر محصولها. أما الأخرى فهي التي تسقي بالري، فيجبى نصف العشر من المحصول[3] ولم تُفرط الزكاة على الخضراوات.[4]

كانت للزكاة ثمانية مصارف، ذكرها القرآن الكريم بالتفصيل وهي: ١ــ الفقراء. ٢ــ والمساكين. ٣ــ والمؤلفة قلوبهم. ٤ــ وفي الرقاب. ٥ــ والغارمين. ٦ــ وابن السبيل. ٧ــ والعاملين عليها. ٨ ــ وفي سبيل الله. على أي حال كانت أموال الزكاة تنفق على مستحقيها في ذات الأماكن التي جُمعت منها. وقد اعتاد الصحابة الكرام(رضوان الله عليهم) على هذا الفرض لدرجة أنه لما ولى زياد صحابياً آخر عاملاً على إحدى البلاد، وعاد منها بعد أن قام بمهامه، طالبه زياد بالنقود التي جمعها، فقال: وضعناها حيث كنا نضعها على عهد رسول الله ﷺ [5]. ولما بُعث معاذ بن جبل عاملاً على اليمن، أوصاه رسول الله ﷺ عن أصول جمع الزكاة.

---

[1] أبو داود، كتاب الزكاة، باب العروض إذا كانت للتجارة. فعن سمرة بن جندب قال: أما بعد، فإن رسول الله كان يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذي نُعد للبيع. (أبو داود، ج١، ص٣٥٧). (المترجم).

[2] صحيح البخاري، ج١ صــــ٢٠١.

[3] الترمذي، كتاب الزكاة.

[4] نفس المصدر السابق.

[5] أبي داود، كتاب الزكاة، باب الصدقة تحمل في البلد إلى بلد.

تُؤخذ الجزية من الرعايا غير المسلمين لتأمينهم والسهر على راحتهم، ولم يكن لها في البداية نصاباً محدداً، فأمر رسول الله ﷺ أن يجبي دينار واحد عن كل رجل قادر بالغ ولم يكن على الصبيان أو النساء من جزية، كان نصاب جزية أيله ٣٠٠ ديناراً، أما أكبر نصاب للجزية في عهد رسول الله ﷺ فهو الذي كان يجبى من البحرين.

الخراج هو النسبة المتفق عليها(بين الدولة والمزارع) التي تؤخذ من محصول المزارع غير المسلم لقاء حق ملكية الدولة. كان هذا الخراج يجبى من خيبر وفدك، ووادي القرى، وتيماء وغيرها، فلما كان يحين وقت حصاد الفواكه والزروع كان رسول الله ﷺ يرسل صحابياً، فيقدر نصاب الخراج بعد معاينته للحدائق والحقول، ويكون التقدير بأقل من ثلث المحصول رداً للشبهات.[1] كان الخراج يجبى من الآخرين وفق الشروط المنصوص عليها، أما في خيبر وغيرها فقد عُقد الصلح على أن يدفعوا نصف محاصيلهم. كانت أموال الجزية والخراج تنفق على مرتبات الجند والنفقات الحربية، إذ كان جميع الصحابة (رضوان الله عليهم) جنوداً متطوعين عند الضرورة. وعندئذ كان رسول الله ﷺ يقسم كل ما جُمع من أموال الجزية والخراج على الجميع. في بادئ الأمر كان رسول الله ﷺ يعطي جزء من هذه الأموال للموالي، فكان هناك دفتر مسجل فيه أسماء الرجال، وينادي عليهم بحيث يكون للمتزوج نصابان وللعازب نصاب واحد.

الضياع والأراضي البور

كانت أغلب أراضي العرب صحراوية جرداء، وما كان فيها من مساحات خضراء كان تحت وطأة الاستعمار الأجنبي. أما بقية الأراضي فكانت بوراً، فلم تمارس الزراعة إلا في المدينة والطائف، أما بقية بلاد العرب فكانت تعيش على الاكتساب من التجارة أو السلب والنهب. كان سر حياة العرب غير الآمنة أنهم لم يحترفوا أية مهنة بعينها؛ لذا كان استتاب الأمن يستلزم الاهتمام بالأرض وخصوبتها، فقد أصبح هناك الكثير من الأراضي الخالية، بعد جلاء الأقوام الأجنبية عن الحجاز واليمن، التي كان إصلاحها أمراً ضرورياً.

ومن ثم حث الرسول ﷺ الصحابة الكرام(رضوان الله عليهم) على ذلك فقال:-

من أحيا أرضاً ميتة فهي له، من أحاط حائطاً على أرض فهي له.

---

[1] نقلاً عن المصدر السابق، باب في الحرص.

وتدعيماً لهذا الترغيب، قام رسول الله ﷺ بعد ترتيبات خاصة، وقرر بأن حقول وأراضي نخيل بني النضير وقريظة تابعة لملكية الدولة الإسلامية، ووزّعها ﷺ من جهته على المهاجرين والأنصار. أما أرض خيبر فكانت بعضها خالصة لهم ووُزعت بقيتها على المهاجرين والأنصار الذين شاركوا في صلح الحديبية، فيما ظل اليهود عملياً يساهمون معهم في زراعتها، وكانوا يأخذون نصف محصولها ويعطون النصف الآخر للملاك المسلمين. أما الأراضي التي كانت عامرة فقد أبقى ﷺ ملكيتها في يد صاحبها الأصلي وفق عدة شروط. ومن ذلك ما تم الاتفاق عليه في عك، وذى خيوان وأيله، وأذرح، ونجران وغيرها. منح الرسول ﷺ الصحابة الكرام(رضوان الله عليهم) الأرض البور كضياع فأعطى ﷺ وائل قطعة أرض في حضرموت. وأعطى ﷺ بلال بن الحارث المازني ﷺ قطعة أرض تصلح للزراعة وعدة عيون. وأعطى ﷺ الزبير بن العوام ﷺ ضيعةً قرب المدينة وأخرى لعمر بن الخطاب ﷺ في خيبر. كما منح بني رفاعة مساحة أرض قرب دومة الجندل.

كانت الضياع تُعطى بسخاءٍ وتوسع بحيث يأخذ كل رجل، وفق إمكانياته، المساحة التي يتخيرها ويمكنه تحديد رقعتها. فذات مرة أمر الرسول ﷺ الزبير ﷺ أن يعدو بفرسه في أرض ما، وحيثما أمكنه أن يصل تصير الأرض ضمن ضيعته، فعدا ﷺ فرسه، ولما توقف الفرس عند حد معين، قذف ﷺ سوطه عليه وتقررت مساحة ضعيفة حتى هذه النقطة التي سقط عليها السوط. كانت آبار المياه أشد حاجة تستلزمها أرض العرب الجافة. ولذلك حين قال ﷺ ذات مرة:- **من سبق إلى ما لم يسبقه إليه مسلم فهو له**، أسرع الناس جميعاً فخططوا وحددوا آبارهم.

أُشتهر هذا السخاء إلى الحد الذي جعل أهالي البلاد البعيدة يقبلون على رسول الله ﷺ يلتمسون منه، امتلاك الضياع. فقدم إليه ﷺ الأبيض بن حمال من اليمن, وطلب منه ﷺ عين ملح، فأجاب ﷺ طلبه إلا أن صحابياً قال: إن ما أعطيته يا رسول الله إياه من ضياع يوجد بها بئر كبير للمياه. فاستعاده الرسول ﷺ منه لأن البئر كان بمثابة مرفقاً عاماً.

كان كل هذا السخاء والجود خاصاً بالأشياء التي لا تمت بصلة للمرافق العامة. فكان الرسول ﷺ يستبقى جميع الأشياء التي كانت تفيد المصلحة العامة على وضعها السالف. درج العرب منذ القدم على أن يحددوا مراعياً لماشيتهم، وأسموها "الحمى".

وكانت الإبل في بلاد العرب تتغذى على شجرة الأراك التي لم يكن عليها أي نوع من مثل هذه المحاذير والحدود، ولما أراد الأبيض بن الحمال أن يضمها إلى حماه منعه الرسول ﷺ قائلاً: **لا حمى في الأراك**. كان شائعاً أيضاً لدى العرب أن يخصص الأشراف وذوو النفوذ منهم مراعياً معينة لترعى فيها ماشيتهم، ولا يسمحون للآخرين باجتيازها مما تسبب في عناء عامة الناس لذا أبطل رسول الله ﷺ هذه العادة أيضاً.[1]

هكذا أيضاً كانت في بلاد العرب منطقة أُعتبرت مرعى عليم، وكانت تتاخمها قبيلة بكر بن وائل من جهة، وبني تميم من الجهة الأخرى، وطلب حريث بن حسان هذه الأرض لبكر بن وائل، فقال: يَارَسُولَ اللهِ ﷺ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ بِالدَّهْنَاءِ أَنْ لاَ يُجَاوِزْهَا إِلَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ مُسَافِرٌ أَوْ مُجَاوِرٌ فقالَ اكْتُبْ لَهُ يَاغُلاَمُ بالدَّهْنَاءِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ أَمَرَ لَهُ بِهَا شُخِصَ بِي وَهِيَ وَطَنِي وَدَارِي، فَقُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ إِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْكَ السَّوِيَّةَ مِنَ الأَرْضِ إِذْ سَأَلَكَ إِنَّمَا هَذِهِ الدَّهْنَاءُ عِنْدَكَ مُقَيَّدُ الْجَمَلِ ومَرْعَى الْغَنَمِ وَنِسَاءُ بَنِي تَمِيمٍ وَأَبْنَاؤُهَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَقَالَ أَمْسِكْ يَاغُلاَمُ صَدَقَتِ المِسْكِينَةُ المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ يَسَعُهُمَا المَاءُ وَالشَّجَرُ، وَيَتَعَاوَنونَ عَلَى الْفَتَّانِ».[2]

---

[1] وردت كل هذه الوقائع في أبواب كتاب الخراج، أبو داود. كما ورد في أبي داود، ج٢، ص١٦٠: أن رسول الله قال: " لا حمى إلا لله ولرسوله". (المترجم).

[2] وهذا نص الحديث كا ملا كما ورد فى سنن أبي داود: (٣٠٧٢) ـــ حدثنا حَفْصُ بنُ عُمَرَ وَ مُوسَى بنُ إِسْمَاعِيلَ ــ المَعنى وَاحِدٌ ــ قالاَ أخبرنا عَبْدُ الله بنُ حَسَّانَ الْعَنْبَرِيُّ قال حَدَّثَتْنِي جَدَّتَايَ صَفِيَّةُ وَ دُحَيْبَةُ ابْنَتَا عُلَيْبَةَ، ، وكَانَتَا رَبِيبَتَيْ قَيْلَةَ بِنْتِ مَخْرَمَةَ، وكَانَتْ جَدَّةَ أَبِيهِمَا، أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُمَا قَالَتْ: « قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، قَالَتْ، تَقَدَّمَ صَاحِبِي ــ تَعْنِي حُرَيْثَ بنَ حَسَّانَ وَافِدَ بَكْرِ بنِ وَائِلٍ ــ فَبَايَعَهُ عَلَى الإِسْلاَمِ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَارَسُولَ الله اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ بالدَّهْنَاءِ أَنْ لاَ يُجَاوِزْهَا إِلَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ مُسَافِرٌ أَوْ مُجَاوِرٌ فقالَ اكْتُبْ لَهُ يَاغُلاَمُ بالدَّهْنَاءِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ أَمَرَ لَهُ بِهَا شُخِصَ بِي وَهِيَ وَطَنِي وَدَارِي، فَقُلْتُ: يَارَسُولَ الله إِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْكَ السَّوِيَّةَ مِنَ الأَرْضِ إِذْ سَأَلَكَ إِنَّمَا هَذِهِ الدَّهْنَاءُ عِنْدَكَ مُقَيَّدُ الْجَمَلِ ومَرْعَى الْغَنَمِ ونِسَاءُ بَنِي تَمِيمٍ وَأَبْنَاؤُهَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَقَالَ أَمْسِكْ يَاغُلاَمُ صَدَقَتِ المِسْكِينَةُ المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ يَسَعُهُمَا المَاءُ وَالشَّجَرُ، وَيَتَعَاوَنونَ عَلَى الْفَتَّانِ». (المترجم).

الشئـــون الــدينية

كان تنسيق الشئون الدينية للمسلمين أمراً ذا حتمية قصوى بين كل المهام الإدارية التي كانت ممارستها ضرورية لتوطيد استتباب الأمن في البلاد. كان لدى اليهود عشــيرة معينة للقيام بمهامهم الدينية، بحيث لم يكن لأية جهة أخرى الحق في القيــام بهــا. أمــا النصارى فلم تكن لديهم عشيرةٌ محددةٌ لذلك، بيد أنه قد انبثقت من بينهم طبقــة خاصــة أقرت المهام الدينية حقاً لها. أما الهندوس، فكل الطبقات لديهم ليست جــديرةً بالمناصــب والمهام الدينية عدا البراهمة، ولكن الشريعة التي أرسى محمد رسول الله ﷺ دعائمها فــي العالمين، لم تكن بحاجة إلى تحديد طبقةٍ أو أفراد عشيرةٍ بعينها للقيــام بهــذه الخــدمات الدينية، بل لكل امرئٍ نطق شهادة الإسلام الحق الكامل في ذلك.

دعاة الإسلام

.كتب مؤرخ غربي مشهور أن الإسلام حين جاء المدينة، ترك منصب ومقام النبوة واتجه إلى الملوكية والسلطنة، وأصبح يعنى وقتئذ، التسليم والإقرار بحكومة محمد (صلى الله عليه وسلم)[1] بدلا من الإيمان بالله تعالى. كان هدف الإسلام هــو الــذي ذكــره الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة:-

" الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر". (الحج: ٤١)

وعليه، كان كل مسلم واعظاً ومحتسباً، داعيةً للدين وعالما بأمور الشريعة، وبعد أن بلغ الجهل بين العرب قبل الإسلام إلى اعتبار القراءة والكتابــة مثلبــةً عنــد أغلــب الأشراف، سار كل بيت مدرسة للفقه والحديث والتفسير. مع ذلك، ولأنه لم يتوفر الوقــت الكافي للتفقه والتدريس لدى كل فرد، تقرّر أن يكون بين كل جماعة وقبيلة مجموعة مــن الناس كي تقوم بمهمة الدعوة والتعليم. ومن ثم جاء في القرآن الكريم:-

"وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون" (التوبة: ١٢٢)

---

[1] انظر مقالة السيد فلهاوزن عن الإسلام (دائرة المعارف).

تعاليمه وتربيته ﷺ

ولأن الغاية المنشودة كانت هي إعداد جماعة لا تكتفي بمعرفتها لأوامر ونـــواهي الشريعة فقط بل يغلب عليها الطابع الإسلامي بفضل ملازمتها الدائمة للرسول ﷺ، ولأنها تتحلى بكامل الصفات النبوية من قول وعمل وطريقة الحديث، والسلوك والخلـــق، وآداب المجلس؛ حتى يمكنها أن تمثل أسوة حسنة ونموذجاً حياً للأمة بأسرها. لذا كانـــت تـــأتي جماعة بذاتها من كل قبيلة عربية إلى رسول الله ﷺ، لتنعم بتعاليمه النورانية.

كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبيﷺ فيسألونه عمّا يريدون من أمر دينهم ويتفقهوا في دينهم.[1]

كان الرسول ﷺ يرشد دعاة الإسلام – الذين كان يُرسلهم إلى سائر العرب– إلـــى أن يُحفزوا الناس على التخلي عن أوطانهم والسفر إلى المدينة للإقامة بها، وذلك ما سُمي بالهجرة. ومن ثم كانت البيعة نوعان، بيعة الأعراب، وبيعة الهجرة. فكانت بيعة الأعراب للبدو الذين كانوا يقيمون في المدينة عدة أيام فقط لتلقي العلم. وقد ورد في مختصر مشكل الآثار: أنه حين أسلم عقبة الجهني سأله الرسول ﷺ أيبايع بيعة الأعراب أم بيعة الهجرة؟ ثم كتب المؤلف يقول:–

إن البيعة من المهاجر توجب الإقامة عنده ﷺ ليصرف فيما يصرف فيه مـــــن أمـــــور الإسلام وبخلاف البيعة الأعرابية.

وعليه كانت عشائر عربية كثيرة تهاجر من أوطانها إلى المدينة. فلما قَدِم أبو موسى الأشعري ﷺ كان في صحبته ثمانون رجلاً، استوطنوا جميعاً المدينة. هذا ويتبين من خلاصة الوفاء أنه كان يوجد بالمدينة مساجد خاصة بقبيلة جهينة وغيرها من القبائل التي كانت قد هاجرت إلى المدينة وشيدت لنفسها مساجد مستقلة بعد أن كان المسجد النبوي لم يعد يسع الجميع.

وكانت هناك طرقاً عديدة للتعليم والإرشاد.

إحداها أنهم كانوا يتعلمون المسائل الضرورية في الفقه والعقائد في غضون عشرة أو عشرين يوماً أو شهراً أو شهرين، ثم يعودون إلى قبائلهم ليعلموهم. ومن ذلك أن مالك بن الحويرث قَدِم في رفقة وفد فأقاموا عشرون يوماً، تلقوا خلالها التعاليم الضرورية، ولما همّوا بالرحيل قال لهم الرسول ﷺ:

---

[1] تفسير خازن، سورة التوبة، وما كان المؤمنون لينفروا كافة.... الآية.

ارجعوا إلى أهليكم فعلّموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي.(البخاري، باب رحمة البهائم)

والطريقة الثانية كانت خاصة بالتدريس؛ وهى أن أناس كانوا يقيمون بالمدينة بصفة دائمة يتلقون قواعد الشريعة ومكارم الأخلاق. فكانت لهم صُفةٌ خاصة يدرسون فيها، وكان أكثر هؤلاء من الذين تحرروا من أسر كل ما يربطهم بالحياة الدنيوية الزائفة، ووهبوا أغلب أوقاتهم للزهد والعبادة وخدمة العلم.

ورد في المشكاة، كتاب العلم، أن الرسول ﷺ دخل المسجد ذات مرة وكان به حلقتان، حلقة ذكر وحلقة درس، فذهب عليه الصلاة والسلام وجلس في حلقة الدرس. كان يطلق على طلاب العلم في اصطلاح ذلك الزمان "القراء". ومن ثم يرد هذا الاسم في مواضع عديدة بالبخاري. وكان الرجال- الذين ذهبوا إلى عرينة للتعليم والإرشاد واستشهدوا[١] غدراً على أيدي المشركين- ممن تلقوا العلم في تلك الحلقات التعليمية. وأقترن ذكرهم في كتب الحديث بلقب (القراء) هذا. كتب أرباب السيرة أن الرجل الذي يتزوج من بين هؤلاء الناس كان يخرج منها وينضم إليها آخرون بدلاً منه.

على الرغم من أهل الصُفة كانوا معدمين لدرجة أنه لم يكن لدى أحدهم أكثر من ثوب واحد، كانوا يربطونه من العنق ويسدلونه إلى الركبتين بحيث يصلح رداءً وإزاراً في آن واحد، ومع ذلك لم يكن هؤلاء الرجال يألون جهداً، بل كانوا يجمعون الحطب من الغابات ويبيعونه، فيتصدقون بنصف ثمنه فيما يُوزع النصف الآخر فيما بينهم. ومن ثم كان الليل وقتاً للدرس وتحصيل العلم. يتضح من بعض الروايات أن عبادة بن الصامت ﷺ كان من بين معلمي هذه الفصول الدراسية إذ كان يُعرف بعلمه، وهو من أرسله عمر ﷺ إبان خلافته إلي فلسطين من أجل تعليم الناس هناك الفقه والقرآن الكريم. روى

---

[١] صحيح البخاري، غزوة بئر معونة. وهذا نص الحديث (٣٩٩٩) حدَّثنا أبو مَعْمر حدَّثنا عبدُ الوارث حدَّثنا عبدُ العزيز عن أنسٍ رضيَ اللّه عنه قال: «بعثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم سبعينَ رجُلاً صالحاً لحاجة يُقالُ لهم القرّاء، فعرَض لهم حيّانِ من بني سُلَيم، رِعلٌ وذكوانُ، عندَ بئر يقال لها بئرُ مَعونة، فقال القومُ: واللّه ما إياكم أردنا، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي صلى الله عليه وسلم، فقتلوهم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم شهراً في صلاةِ الغداة، وذلكَ بَدءُ القُنوت، وما كنّا نَقنتُ». قال عبد العزيز: وسألَ رجلٌ أنساً عن القنوت: أبعدَ الركوع، أو عندَ فراغٍ من القراءة؟ قال: لا. بل عند فراغٍ من القراءة. (المترجم).

عن عبادة بن الصامت في أبي داود:ـــ **علّمت أناساً من أهل الصفة القرآن والكتاب فاهدى إليّ رجل منهم قوساً (صـــــ١٢٩ ج٢)**

وفي رواية أخرى أن الرسول ﷺ لم يأذن لعبادة ﷺ بقبول هذه الهدية. ويتبين أيضاً من بعض الروايات أنه فضلاً عن حلقات أصحاب الصفة العلمية، كان ثمّ مكان آخر يأوي إليه أصحاب الصفة ليتعلموا فيه ليلاً، فقد ورد في مسند الإمام ابن حنبل:-

عن انس، كانوا سبعين فكانوا إذا جهم الليل انطلقوا إلى معلّم لهم بالمدينة فيدرسون الليل حتى يصحبوا (٣٤٠صـــــ١٣٧٧)

ندر شيوع القراءة والكتابة عند العرب، ولكن حين ظهر الإسلام بدا مقترناً بفن الكتابة. فكان تدوين القرآن الكريم من آجلّ الضروريات شأناً. وعليه اهتم الرسول ﷺ منذ البداية بتوسيع نطاق الكتابة. وقد ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن غزوة بدر أن من لم يستطع دفع الفدية من الأسرى، أُطلق سراحه على أن يمكث في المدينة فترة يُعلم خلالها عدداً من المسلمين الكتابة. ويُؤكد حديث أبي داود المذكور آنفاً أن الكتابة كانت ضمن ما كان يتعلمه أصحاب الصفة. إذ أن عبادة بن الصامت ﷺ كان يقوم بتعليم الكتابة بجانب القرآن الكريم.

بناء المساجد

كان الرسول ﷺ ينفر بطبعه من الجاه والخيلاء، ولذا لم يكن يحبذ إنفاق المال على الطين والحجارة، ولكن لأن ذكر الله والتسبيح بحمده كان الغاية المنشودة لكل الأمور الإسلامية. لذا كان المسجد أول ما تُعنى به القبائل بمجرد إسلامها، علاوة على أنه لم يكن مقراً لإقامة الصلاة فحسب، بل كان في الحقيقة أيضاً أداةً تُسهم بصورة فعّالة في تأصيل أواصر الوحدة والعلاقات الاجتماعية بين أفراد القرية أو الحي من المسلمين، إذ كانوا يلتقون فيه خمس مرات يومياً، ومن ثم كان الرسول ﷺ يؤكد بشدة على صلاة الجماعة وكان في المدينة ذاتها قبائل كثيرة، وكان لكل منها حيها الخاص بها وبه مسجدها.

كتب أبو داود في كتاب المراسيل بسند أن المدينة وحدها كانت تُعمر في عهد رسول الله ﷺ بتسعة مساجد، يتصدر كل مسجد منها حياً من الأحياء. وأسمائها كالتالي:- مسجد بني عمر، مسجد بني ساعده، مسجد بني عبيد، مسجد بني سلمة، مسجد بني رايح، مسجد بني زريق، مسجد غفار، مسجد أسلم، مسجد جهينة، وبالإضافة إلى ذلك ورد في روايات متفرقة أسماء مساجد لقبائل عديدة من بينها: مسجد بني خدارة، مسجد بني أمية

(قبيلة أنصارية)، مسجد بني بياضة، مسجد بني الحبلى، مسجد بني عصية، مسجد أبي فيصلي، مسجد بني دينار، مسجد أبي بن كعب، مسجد النبعة، مسجد بني عدي، مسجد بلحارث بن خزرج، مسجد بني حطمة، مسجد الفضيخ، مسجد بني الحارثة، مسجد بني ظفر، مسجد بني عبد الأشهل، مسجد واقم، مسجد بني معاوية، مسجد بني قريظة، مسجد بني وائل، مسجد الشجرة.[1]

يثبت من الروايات أيضاً أن بناء المساجد خارج نطاق المدينة المنورة قد اقترن بنشر الإسلام، ومن ثم عمُرت ربوع العرب ببيوت الله التي يرفع فيها اسمه خمس مرات في اليوم والليلة. لذلك اعتاد الرسول ﷺ في غزواته أن ينتظر طوال الليل فإذا ما سمع آذان الفجر، يشن الهجوم. ومن هذا أنه في غزوة، تناهى إلى سمعه الكريم ﷺ نداء الله أكبر فقال ﷺ : عَلَى الْفِطْرَةِ، ولما سمع بعدها **أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ** قال ﷺ : «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ» فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى[2].وهذا أيضاً ما أُمر به كل مجاهدي الإسلام، ففي ذات مرة أرسل النبي ﷺ إحدى السرايا موصياً إياها بـــ:ـــ **إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم صوتاً فلا تقتلوا أحداً.**[3]

نستنتج من هذه الروايات أمرين أحدهما: مدى اتساع رقعة الإسلام في عهد النبوة، والثاني: أن القبائل التي كانت تدخل الإسلام، كانت تبني مساجد خاصة بها، وكان يرفع فيها الأذان خمس مرات في اليوم والليلة .

على الرغم من أن المساجد التي بنيت في ذلك الحين لم تصمد طويلاً أمام عوامل التعرية نظراً لما شاع وقتئذ من شظف العيش الذي ترتب عليه بالطبع بساطة بناء هذه المساجد. وبذا اندثر جزء كبير من هذه الباقيات الصالحات، ودفن معها اسمها وتاريخ

---

[1] اقتبست كل هذا التفاصيل نصياً من شرح البخاري،ج٢،صـــــ٤٢٨ .

[2] صحيح مسلم، الجزء الأول، كتاب الأذان، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سُمع فيهم الأذان. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٧٩٨) وحدّثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ يَعْنِي ابنَ سَعِيدٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللّهِ يُغِيرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَكَانَ يَسْتَمِعُ الأَذَانَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَاناً أَمْسَكَ، وَإِلاَّ أَغَارَ، فَسَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ: فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «عَلَى الْفِطْرَةِ» ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ» فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى. (المترجم).

[3] أبو داود، كتاب الجهاد في دعاء المشركين.

بناءها. إلا أن تواريخ إنشاء المساجد التي صمدت لفترة طويلة تُبين أن سائر أنحاء العرب لم تكن تخلو من هذه الآثار الدينية.[١]

حين أسلمت قبيلة عبد القيس البحرينية، بنت مسجدها الذي شهد أول صلاة للجمعة بعد مسجد رسول الله ﷺ . فورد في كتاب الجمعة بالبخاري:ـ

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثي من البحرين.

ولما أسلم أهل الطائف، أشار عليهم الرسول ﷺ أن يقيموا مسجدهم في الموضع الذي كان فيه إلههم.[٢] روي عن ناطق بن علي أنه قال: حين امتثل قومي بين يدي رسول الله ﷺ وقلنا ! أَنَّ بِأَرْضِنَا بَـيْعَةً لَنَا، فأعطانا ﷺ ماء وضوئه، وقال: «اخرجوا فَإِذَا أَتَيْتُمْ أَرْضَكُمْ فَاكْسِرُوا بِـيعَتَكُمْ وَانْضَحُوا مَكَانَهَا بِهَذَا الْمَاءِ وَاتَّخِذُوهَا مَسْجِدا».. فعاد هؤلاء القوم إلى بلدهم، وبنوا مسجداً وفق ما أرشدهم إليه الرسول ﷺ.[٣]

رغم أن بلاد العرب جميعاً كانت تعمُر بالكثير من مِثل هذه المساجد إلا أننا لا نستبين أية معلومات من كتب الحديث إلا عن المساجد التي بُنيت في المدينة وما حولها. ورد في صحيح مسلم أن قرية الأنصار التي كانت تتاخم المدينة، قد أُرسل إليها منادياً من قبل رسول الله ﷺ، في إحدى أيام عاشوراء فنادى فيهم: من كان صائماً فليتم صومه، ومن أفطر فليصم بقية يومه.

---

[١] النسائي، كتاب المساجد، ج١ ص١١٨

[٢] زاد المعاد، ج١ صـــــ٤٨٥ برواية أبي داود الصياصي.

[٣] سنن النسائي، كتاب المساجد ص١١٨. وهذا نص الحديث: (٦٩٩) أَخْبَرَنَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ عَنْ مُلَازِمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَدْرٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ طَلْقٍ عَنْ أَبِـيهِ طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: خَرَجْنَا وفدا إِلَى النَّبِـيِّ صلى الله عليه وسلم فَبَايَعْنَاهُ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّ بِأَرْضِنَا بِـيعَةً لَنَا فَاسْتَوْهَبْنَاهُ مِنْ فَضْلِ طَهُورِهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ وَتَمَضْمَضَ ثُمَّ صَبَّهُ فِي إِدَاوَةٍ وَأَمَرَنَا فَقَالَ: «اخرجوا فَإِذَا أَتَيْتُمْ أَرْضَكُمْ فَاكْسِرُوا بِـيعَتَكُمْ وَانْضَحُوا مَكَانَهَا بِهَذَا الْمَاءِ وَاتَّخِذُوهَا مَسْجِدا». قُلْنَا: إِنَّ الْبَلَدَ بَعِيدٌ وَالْحَرَّ شَدِيدٌ وَالْمَاءَ يَنْشُفُ فَقَالَ: «مُدُّوهُ مِنَ الْمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ إِلاَّ طِيبا». فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا بَلَدَنَا فَكَسَرْنَا بِـيعَتَنَا ثُمَّ نَضَحْنَا مَكَانَهَا وَاتَّخَذْنَاهَا مَسْجِدا فَنَادَيْنَا فِيهِ بِالأَذَانِ قَالَ: وَالرَّاهِبُ رَجُلٌ مِنْ طَيِّءٍ فَلَمَّا سَمِعَ الأَذَانَ قَالَ: دَعْوَةُ حَقٍّ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ تَلْعَةً مِنْ تِلَاعِنَا فَلَمْ نَرَهُ بَعْدُ. (المترجم)

بعد ذلك طبّق الصحابة الكرام الأمر الذي ورد في هذا الإعلان بجزم تام فصاموا، وعوّدوا أولادهم بالصيام، حتى أنهم كانوا يصطحبوهم إلى المساجد، فإذا ما بكوا من الجوع حاولوا إرضائهم بالحلوى.(١)

أفرد الإمام البخاري في صحيحه باباً كاملاً بعنوان: "هل من الممكن نسبة المساجد إلى أفراد أم لا ؟ وذُكر صراحةً في الأحاديث التي أوردها في هذا الباب مسجد بني الزريق. كان أنس بن مالك ﷺ يصلي العصر مع رسول الله ﷺ ثم يذهب إلى قريته فيجد الناس ينتظرونه في مسجدهم. فيقول لهم: لقد قُضيت الصلاة في المسجد النبوي عندئذ كانوا يقيموا الصلاة.(٢) يتضح جلياً من هذه الروايات أن مساجد هذه القبائل كانت مستقلة بذاتها. كما يثبت أيضاً من روايات كُتب الصحاح أن بعض الناس كانوا يصلون في جماعة رسول الله ﷺ ثم يذهبون إلى مساجد أحيائهم فيؤمون قومهم فيها. وهذا ما كان يفعله معاذ بن جبل. فضلاً عن القبائل التي كانت تستوطن المدينة، كانت قبائل المهاجرين تبني مساجد لها أيضاً. ورد في طبقات ابن سعد هذا القول:ـــ

ولجهينة مسجد بالمدينة(٣)

فضلاً عن استيفاء الاحتياجات الدينية لدى القبائل كان السبب الرئيسي الآخر وراء بناء المساجد، هو أن الصحابة (رضوان الله عليهم) كانوا يتبركون ببناءها في المواضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ. وقد أفرد الإمام البخاري في صحيحه بابا مستقلاً بعنوان " **باب المساجد التي على طريق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ**، وأدرج فيها أسماء المساجد العديدة التي بنيت بصدد ذلك، وعدّدها الحافظ ابن حجر كالتالي:ـــ

مسجد قباء، مسجد الفضيح، مسجد بني قريظة، مشربه أم إبراهيم، مسجد بني ظفر أو مسجد بغله، مسجد بني معاوية، مسجد فتح، مسجد القبلتين. كما كتب الحافظ ابن

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه. وهذا نص الحديث (٢٦٢٢) ـــ وحدثني أَبُو بَكْرِ بْنُ نَافِعٍ الْعَبْدِيُّ. حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ بْنِ لاَحِقٍ. حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ ذَكْوَانَ عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ، قَالَتْ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللّهِ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَىٰ قُرَىٰ الأَنْصَارِ، الَّتِي حَوْلَ الْمَدِينَةِ: «مَنْ كَانَ أَصْبَحَ صَائِماً، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ. وَمَنْ كَانَ أَصْبَحَ مُفْطِراً، فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِه». فَكُنَّا، بَعْدَ ذَلِكَ، نَصُومُهُ. وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا الصِّغَارَ مِنْهُمْ، إِنْ شَاءَ اللّهُ، وَنَذْهَبُ إِلَى الْمَسْجِدِ. فَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ. فَإِذَا بَكَىٰ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ الطَّعَامِ، أَعْطَيْنَاهَا إِيَّاهُ عِنْدَ الإِفْطَارِ. (المترجم).

(٢) مسند ابن حنبل ج٣ صـــ٢٣٢.

(٣) طبقات ابن سعد، ج٤ صـــ١٧

حجر(١) أيضاً أن المساجد المبنية بأحجار منقوشة سواء كانت في المدينة أو ما جاورها، قد شُرِّفت جميعاً بصلاة رسول الله ﷺ فيها، إذ أن عمر بن عبد العزيز قد تحقق هذا الأمر من أهل المدينة أنفسهم وقتما كان يجدد هذه المساجد.(٢)

تعيين أئمة الصلاة

كان من الطبيعي أيضاً أن يقترن بناء المساجد بتعيين أئمة يختص كل منهم بإحدى الصلاة. وبصفة عامة فقد جرت عادته ﷺ أن يقوم بتعيين الإمام من بين القبيلة التي كانت تصلي الصلاة خلفه، على أن يكون أكثرهم حفظاً للقرآن الكريم، ويتساوى جميعهم في نيل هذا الشرف صغيراً كان أو كبيراً، عبداً أو سيداً. وقبل أن يهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كان إمام المهاجرين فيها سالماً مولى أبي حذيفة ﵁. ولما أسلمت قبيلة جرم كان عمرو بن سلمة الجرمي صبياً صغيراً لا يتعدى السبع أو الثمان سنوات من عمره، ولكنه كان أكثر أهل قبيلته حفظاً للقرآن الكريم، ومن ثم عُين إماماً. ووضع الرسول ﷺ عدة أصول وضوابط لاختيار الإمام حسبما جاء في هذه الرواية:-

عن أبي مسعود الأنصاري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء، فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً. (مسلم)

كان الرسول ﷺ يسأل أية قبيلة تمثل بين يديه عن أكثرهم حفظاً للقرآن الكريم، فإن كان منهم من يتمتع بهذه الصفة كانوا يذكرون اسمه فيوليه الرسول ﷺ شرف هذا المنصب، لذلك عُين عثمان بن أبي العاص ﵁ إماماً على أهل الطائف. أما إذا تساوي الجميع في الشروط السابقة، كان ﷺ يأمرهم بأن يأتموا بأكبرهم سناً، فهذا ما أمر به محمد ﷺ مالك بن الحويرث ﵁ حين قدم إلى المسجد النبوي من قبل قومه.

يبدو أنه تم تعيين أئمة في كل المساجد التي بنيت سواء كانت في المدينة أو على حدودها أو في أي من الأقاليم العربية. أما القبائل التي كان يتعين فيها عمالاً فأئمتها هم عمالها أنفسهم.(٣) باستثناء المناطق الكبيرة، إذ كان كل منصب منهما مستقلاً بذاته، فكان

---

(١) فتح الباري، ج١ صـ٤٧١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) مسند بن حنبل ج٤ صـ ٢١٨.

عمرو بن العاص عاملاً على عمان، فيما كان أبو زيد الأنصاري[1] إماماً عليها، ولكن من المؤسف أن أسماءهم لم ترد تفصيلياً في كتب الحديث والسير. وهذه أسماء بعضهم، والتي اقترنت بوقائع معينة:-

الاسم	منطقة التعيين	بيان حال
مصعب بن عمير ﷺ	المدينة المنورة	كان يؤم الأنصار قبل الهجرة النبوية. (ابن هشام، ذكر بيعة العقبة).
سالم مولى أبي حذيفة ﷺ		كان إمام المهاجرين قبل مجيء الرسول ﷺ المدينة (البخاري وأبو داود).
ابن أم مكتوم ﷺ	المدينة المنورة	لما كان الرسول ﷺ يخرج من المدينة في غزوات كان يصحبه معظم الصحابة، إلا أن عبد الله بن أم مكتوم كان يمكث في المدينة نظراً لكفاف بصره، ولذا كان الرسول ﷺ يعينه إماماً على المدينة خلال هذه الفترة. (أبو داود).
أبو بكر الصديق ﷺ	المدينة المنورة	كان يؤم الناس بالمسجد النبوي إذا لم يحضر الرسول ﷺ (صحيح البخاري).
عثمان بن مالك ﷺ	بنو سالم	كان إمام قبيلته (أبي داود والنسائي).
معاذ بن جبل ﷺ	بنو سلمة	كان إمام قبيلته (البخاري وغيره).
أنصاري ﷺ	مسجد قباء	كان إمام قبيلته (البخاري).
عمرو بن سلمة ﷺ	بنو جرم	كان إمام قبيلته (أبي داود والنسائي).
أسيد بن حضير ﷺ	بنو جرم	كان إمام قبيلته (أبي داود).
أنس بن مالك ﷺ	بنو النجار	كان إمام قبيلته (هناك في شك في اسم الإمام).
الصحابة الآخرون	بنو النجار	كان إمام قبيلته(المسند ج٣صـ ٢٣٢).
مالك بن الحويرث ﷺ	بنو النجار	كان إمام قبيلته(أبي داود).
عتاب بن أسد ﷺ	مكة المكرمة	كان إمام قبيلته (النسائي) [1]

---

[1] فتوح البلدان، للبلاذري.

عثمان بن أبي العاص	الطائف	كان إمام قبيلته (ذكر وفد الطائف).
أبو زيد الأنصاري ﷺ	عمان	كان إمام قبيلته(البلاذري، ذكر عمان).

المؤذنون

لم يكن يتم اختيار رجل معين لرفع الأذان، ولكن قياساً على عدة أمثلة يتبين أن الرسول ﷺ قد جعل رفع الآذان منصباً مستقلاً بذاته في المساجد الكبرى. ومن ذلك أنه ﷺ قد أولى شرف هذا المنصب في مكة المكرمة والمدينة المنورة لهؤلاء الصحابة التالية أسمائهم:-

الاسم	المنطقة	المسجد
بلال بن رباح ﷺ	المدينة المنورة	مؤذن المسجد النبوي
عمرو بن أم كلثوم القرشي ﷺ	المدينة المنورة	مؤذن المسجد النبوي
سعد القرط ﷺ	صعيد المدينة	مؤذن مسجد قباء
أبو محذورة[٢]الجمحى القرشي ﷺ	مكة الكرمة	مؤذن المسجد الحرام

---

(١) وردت هذه الأسماء في كتاب الصلاة في الكتب المذكورة.

(٢) النسائي صـــ ١٨٠.

تأسيس وإتمام الشريعة

" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً " (المائدة: ٣)

لم يكن كل هذا التنسيق والتنظيم غاية الإسلام الحقيقية، بل كان ذلك كله -كما ذكرنا سابقاً- سعياً لنشر الأمن في ربوع البلاد وبناء دولة منتظمة ومقننة تتيح للمسلمين أداء واجباتهم الدينية دون قيد أو عناء. ورد في صحيح البخاري أن رجلاً سأل عبد الله بن عمر عن تفسير قوله تعالى:-

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله (البقرة : ١٩٣)

فقال: قد فعلنا على عهد رسول الله، إذ كان الإسلام قليل، فكان الرجل يُفتن في دينه، إما يقتلوه وإما يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.[١]

قضيت السنوات الثماني التالية للهجرة في رد هذه الفتن، والتصدي لجلبة وفوضى المعترضين، وتدعيم استتاب الأمن في البلاد، ومن ثم كان الجهاد أبرز الفرائض الإسلامية التي تجلت في كل زمان ومكان طوال تلك الفترة الطويلة التى استمرت ثمان سنوات. ولعل هذا هو السبب في اشتمال التاريخ على مئات الصفحات التي تسرد أدق تفاصيل الغزوات. بينما لم ترد إلا عدة سطور فقط عن الصلاة والصيام والزكاة؛ فيقال مثلاً عن اختتام إحدى السنوات أن عدد ركعات الصلاة قد زاد في هذه السنة فصار أربع ركعات بدلاً من اثنتين.

لا يرجع ذلك بالطبع إلى أن كُتاب السيرة (لا سمح الله) لم يألوا بالاً لأهمية وعظمة الفرائض الأخرى، بل واقع الأمر هو أن أغلب الفرائض قد فُرضت في فترة متأخرة نظراً للانشغال بالجهاد (وما كانت عليه البلاد من فوضى)، أما ما فُرض قبل ذلك فقد تم إتمامه تدريجياً في فترة قُضى القسط الأوفر من ليلها ونهارها في صد سهام المعترضين المتعاقبة.

لم تنزل في تلك الآونة الأحكام التشريعية المرتبطة بقانون الدولة ودستورها لأن الإسلام لم يكن يمثل حتى ذلك الحين قوة السطوة، أما الفرائض والتعاليم الدينية البحتة

---

[١] البخاري، ج١ صـ ٦٧٠، تفسير سورة الأنفال.

فكانت تتنزل تباعاً في رفقٍ وهوادة، مما أدى إلى إتمام معالمها وإتمام صورتها مرتبطة بالوقائع اليومية التي كانت تتنزل بسببها. كانت أعظم حكمة في نزول الأحكام تدريجياً أن الهدف منها لم يكن مقتصراً على إخبار العرب بها فقط؛ بل كان الهدف منها تهيئتهم للالتزام بها في حياتهم العملية، ولذا كان تدرجها بالغ الدقة والترتيب والهوادة في آن واحد. وما أجمل ما عبرت به السيدة عائشة عن هذه الحكمة، حيث قالت: نزلت آيات العقاب، والثواب أولاً، ولما لانت القلوب نزلت الأحكام، وإلا ما كان أحد لينصاع لتحريم[1] الخمر إذا نزل في بادئ الأمر.

- موجز القول أنه نظراً لكل العلل السابقة لم تصل أغلب الفرائض والأحكام الإسلامية إلى منتهاها إلا حين استتب الأمن في سائر أرجاء البلاد. فمثلاً لم يفرض الصيام أصلاً طوال فترة الإقامة في مكة المكرمة، وفرض في المدينة المنورة. أما الزكاة فلم تفرض إلا بعد ثمان سنوات. وكان السبب في ذلك أن القتال المستمر قد أدى إلى تدهور أحوال المسلمين التي لم تكن تتناسب مع وجوب الزكاة آنذاك. هذا ولم يُفرض الحج أيضاً حتى ذلك الحين، لأن المسلمين لم يكن بوسعهم أن يطئوا الأرض الحرام قبل فتح مكة. أما الصلاة فهي فرض يومي اقترن بظهور الإسلام، إلا أن إتمامه قد تم تدريجياً بعد ست أو سبع سنوات من الهجرة، إذ أنه حتى سنة ٥ هـ كان يجوز التحدث في الصلاة، وكان المصلى يرد السلام على أي قادم يلقى عليه التحية أثناء صلاته، حسبما ورد من روايات في أبي داوود وغيره.[2]

---

[1] صحيح البخاري، باب تأليف القرآن. وهذا نص الحديث كامل: (٤٨٧٣) حدثنا إبراهيمُ بن موسى أخبرنا هشام بن يوسُفَ أنَّ ابن جُرَيج أخبرهم قال: وأخبرني يوسفُ بن ماهَك قال: إني عِندَ عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عِراقيّ، فقال: أي الكَفَنِ خيرٌ؟ قالت: ويحك وما يضرك، قال: يا أمَّ المؤمنين أريني مُصحفك، قالت: لِمَ؟ قال: لَعَلّي أؤلف القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غير مَؤلف قالت: وما يَضرُّكَ أيهُ قرأتَ قبلُ إنما نَزَلَ أول ما نزل منه سورة من المفَصل فيها ذِكرُ الجنةِ والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نَزَلَ الحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوّلَ شيءٍ لا تشربوا الخَمرَ لقالوا لا نَدَعُ الخمر أبداً، ولو نزل لاتزنُوا لقالوا لا نَدَعُ الزّنا أبداً، لقد نَزَلَ بمكَّةَ على محمد صلى الله عليه وسلم وإنّي لجاريةٌ ألعبُ، بل الساعةُ موعدُهُم والساعةُ أدهَى وأمَرُّ. وما نَزَلت سورة البقرة والنساءِ إلا وأنا عنده. قال: فأخْرجت له المصحف، فأمْلَت عليه آيَ السُّور. (المترجم).

[2] أبو داود، باب رد السلام في الصلاة. وهذا نص الحديث: (٩٢٣) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله بن نُمَيْرٍ أخبرنا ابنُ فُضَيْلٍ عن الأعمَشِ عن إبْرَاهِيمَ عن عَلْقَمَةَ عن عَبْدِ الله، قال: « كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَى رسولِ الله

خلاصة القول هو أنه حين قضى على قوة الشرك بعد فتح مكة، واستتب ...
في شتى ربوع البلاد، آن الأوان لإتمام الشريعة وأدق تفاصيل الأحكام الدينية. وكان عدد
كثير من الأحكام التي لم تكن قد فُرضت بعد؛ مثل الزكاة والحج، وتحريم الربا وغيره
كما كان هناك كثير منها أيضاً قد فُرضت دعائمها الأساسية ولم تبلغ منتهاها.[1]

صلى الله عليه وسلم وَهُوَ فِي الصَّلاَةِ فَيَرُدُّ عَلَيْنَا، فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ سلمْنَا عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا وقال: إِنَّ فِي الصَّلاَةِ لَشُغْلا».(المترجم).

[1] سبق الحديث ضمنياً عن نزول بعض أحكام الإسلام وتاريخ إتمامها التدريجي في وقائع متفرقة من الجزء الأول. وسيجد القراء اختلافا في التواريخ والسنوات التي نزلت فيها الأحكام بين ما سبق وبين هذا المقام في موضع أو موضعين، وسبب ذلك أننا نقلنا في الجزء الأول عن جمهور المؤرخين وأرباب السيرة، وقمنا هنا بسرد تفاصيل ما حققناه بعد استنباطه من كتب الحديث وكتب أسباب النزول. والسبب في ذلك هو أن تاريخ وسنوات نزول الأحكام لم ترد صراحةً في كتب الحديث بل إنها قياسات واستنباطات المحدثين والرواة، ومن ثم حاولنا هنا، رغم ما يشوب هذه الاستنباطات من اختلاف، أن نجزم في هذا الأمر استدلالا بالأدلة الصحيحة والمعتبرة منها. والعصمة بيد الله (سيد سليمان الندوي).

الإيمان[1] وأركان الإسلام الأساسية

العقائد هي أولى فروض الإسلام، وتعني الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والحشر والنشر وغيرها، فأول ما نزل من القرآن على محمد ﷺ قوله تعالى:- اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الذي لم يشتمل على أية عقيدة معينة سوى عظمة الله سبحانه وتعالى، أما ما نزل من القرآن في المرة الثانية، فهو قوله تعالى[2]:-
يا أيها المدثر۞ قم فأنذر۞ وربك فكبر۞ وثيابك فطهر۞ والرجز فاهجر۞ (سورة المدثر: ١-٥)

أما الآيات الكريمة التي نزلت بعد ذلك على مدار الإقامة في مكة، فكان أغلبها عن الإيمان والعقيدة، فكانت تتحدث عن نقائض وذم الشرك وعبادة الأوثان، وعظمة وجلال الله، وأهوال يوم القيامة ونعيم الجنة وجحيم النار، وخصائص بعثة رسول الله ﷺ وأدلة حتميتها.[3] موجز القول هو أنه رغم معرفة الناس لكل أركان الإيمان منذ بداية الإسلام، إلا أنه يبدو أيضاً من خلال تقصّ الآيات المكية أن الحديث عن كل ركن منها منفصلاً عن الآخر، إذ أن الحديث المتتابع عن الإيمان والعقائد قد ورد في سورتي البقرة والنساء اللتان نزلتا بالمدينة. وبينما ركزّت السور المكية على الإيمان بالله ورسوله واليوم

---

[1] أضفت من هنا حتى نهاية باب التيمم "سيد سليمان الندوي".

[2] صحيح البخاري، تفسير سورة المدثر.

[3] البخاري، باب تأليف القرآن.وهذا نص الحديث: (٤٨٧٣) حدثنا إبراهيمُ بن موسى أخبرنا هشام بن يوسُفَ أنَّ ابن جُرَيج أخبرهم قال: وأخبرني يوسفُ بن ماهَكٍ قال: إني عِندَ عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عِراقيّ، فقال: أي الكَفَنِ خيرٌ؟ قالت: ويحك ومايضرك، قال: ياأمَّ المؤمنين أريني مُصحفكِ، قالت: لمَ؟ قال: لَعَلّي أؤلف القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلف قالت: ومايَضُرُّك أيهُ قرأتَ قبلُ إنما نَزَلَ أول مانزل منه سورة من المفصل فيها ذكرُ الجنةِ والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نَزَلَ الحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوّلَ شيءٍ لاتشربوا الخمرَ لقالوا لانَدَعُ الخمر أبداً، ولو نزل لاتزنُوا لقالوا لانَدَعُ الزّنا أبداً، لقد نَزَلَ بمكّةَ على محمد صلى الله عليه وسلم وإنّي لجاريةٌ ألْعبُ، بل الساعةُ موعدُهُم والساعةُ أدهى وأمَرُّ. ومانَزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عندَه. قال: فأخْرجت له المصحف، فأمْلت عليه آيَ السُّور.. (المترجم).

الآخر وزخرت السور المدنية بمجموعة التعاليم الخاصة بكل الأركان الأولى لكل من الإيمان والإسلام.

وإليك أولى آيات سورة البقرة التي ذكرت أركان الإيمان والإسلام الأولى، قال تعالى:ـ

الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون ۞ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ۞. (البقرة:٣-٤)

ثم تكرر الحديث عن هذه الأركان في منتصف السورة فقال تعالى:ـ

" لكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنَّبِيِّينَ " (البقرة : ١٧٧)

بعد ذلك ذُكرت الصلاة والصيام والزكاة وبعض التعاليم الأخلاقية. فنزلت آياتها مع آية تحويل القبلة سنة ١هـ . ثم ورد تفصيلها في الآيات الأخيرة من السورة. والتي نزلت في الغالب بعد عدة سنوات من الهجرة حسب روايتي السيدة عائشة(رضي الله عنها)، وابن عباس ﷺ، قال تعالى:-

" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله " (البقرة:٢٨٥)

وإليك آية سورة النساء التي عرضت تفصيلا أركان الإيمان الذي يجب أن يتحلى به المسلم، قال تعالى:ـ

يا أيها الذين آمنوا أمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نَزّلَ على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً۞. (النساء:١٣٦)

وردت وقائع كثيرة في أحاديث كتاب الإيمان، جاء فيها أن الناس كانوا يستفسرون من رسول الله ﷺ عن معنى الإسلام والإيمان، وأنه ﷺ قد أجاب عليهم بإجابات مختلفة الصيغة وفقاً لطبيعة السائل أو طبيعة الفترة أو المناسبة التي سأل فيها، قال رسول الله ﷺ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَاسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وأَنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، ويُقِيمـوا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزّكَاةَ.[1]

---

[1] وهذا نص الحديث كاملا: (٢٥) حدَّثَنا عبدُ اللّهِ بنُ محمد المُسْنَدِيُّ قال: حدَّثَنا أبو رَوحٍ الْحَرَمِيُّ بنُ عُمَارة قال: حدَّثَنا شُعبةُ عن واقدِ بنِ محمدٍ قال: سَمِعْتُ أَبِي يحدِّثُ عن ابنِ عُمَرَ أَنَّ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَاسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وأَنَّ محمداً رسولُ اللّهِ،

ذات مرة دخل علي رسول الله ﷺ مسلم أعرابي، وسأل: ما الإسلام ؟ فأخبره الرسول ﷺ بثلاثة أمور:" خمس صلوات في اليوم والليلة، صوم رمضان، وإيتاء الزكاة."

وقَدِم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ في سنة ٥هـ وقال: لا يسعنا الحضور دائماً بسبب مناهضة الأعداء لنا، لذا علمنا بعض الأحكام والتعاليم لنعلمها للذين لا يستطيعون الحضور، فقال ﷺ:ـ

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخُمُس من المغنم(١)

وبينما كان الرسول ﷺ جالساً بين جماعة من أصحابه (رضوان الله عليهم) دخل عليه رجل وقال : ما الإيمان؟. فقال ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». فقال الرجل : وما الإسلام؟ فقال ﷺ : «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدا رَسُولُ اللّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُـؤْتِي الزَّكَاةَ،وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً». قال الرجل: وما الإحسان ؟ فقال ﷺ : «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ».(٢)

ويُقيموا الصلاةَ، ويُؤتوا الزّكاةَ. فإذا فَعلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم إلاَّ بِحَقِّ الإسلام، وحسابُهم علَى اللّه».(المترجم)

(١) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (٢٠٢٩) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يحيى عن شعبة حدثني أبو جمرة و ابن جعفر قال : حدثنا شعبة عن أبي جمرة قال : سمعت ابن عباس يقول : « إن وفد عبد القيس لما قدموا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ممن الوفد ــ أو قال ــ القوم ؟ قالوا : ربيعة قال : مرحباً بالوفد ــ أو قال : القوم ــ غير خزايا ولا ندامى، قالوا : يا رسول الله، أتيناك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، ولسنا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فأخبرنا بأمر ندخل به الجنة ونخبر به من وراءنا ؟ وسألوه عن أشربة ؟ فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله، قال : أتدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخُمُس من المغنم، ونهاهم عن الدبّاء والحنتم والنقير والمزفت، ــ قال : وربما قال : والمقيّر ــ قال : احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم » . (المترجم)

(٢) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٥٩) ــــ حدّثني أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا وَكِيعٌ. عَنْ كَهْمَسٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَعْمَرَ ح وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللّهِ بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ. وَهٰذَا حَدِيثُهُ: حَدَّثَنَا أَبِي. حَدَّثَنَا كَهْمَسٌ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ بِالْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ

هذه هي الصورة الكاملة لأركان الإسلام على وجه التقريب. والأرجح أن هذه الأسئلة والأجوبة كانت قُبيل فتح مكة أي قبل سنة٧ هـ، إذا لم يرد فيها الحديث عن الحج، ومع ذلك يبدو أيضاً أن السكينة بين المسلمين وقتئذ قد بلغت المدى الذي سمح بإعلاء شرط الخضوع والخشوع كشرط جوهري لإتمام كمال العبادة. وكان آخر إعلان عن أركان الإسلام، قوله ﷺ :-

بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان.

وبالتدريج تلى الحديث عن أركان الإيمان والإسلام إجمالاً، بالحديث عنها وعما يتعلق بها من مسائل أخرى تفصيلاً، فقال رسول الله ﷺ: «الإيمانُ بِضْعٌ وستُّونَ شُعْبةً، والحياءُ شُعْبةٌ مِنَ الإيمان». وقال ﷺ أيضاً: "المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِه."

فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هٰؤُلاَءِ فِي الْقَدَرِ. فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي. أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ. فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَيَّ. فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ! إِنَّهُ قَد ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ. ــ وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ ــ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ. وأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولٰئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ! لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبا فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ الله مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ . فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ؟. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدا رَسُولُ اللّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ!. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟. قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا. وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ، الْعَالَةَ، رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ. فَلَبِثْتُ مَلِيّا. ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ. أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». (المترجم).

كما أخبر ﷺ أيضاً رداً على رجل آخر اطعام المساكين والقاء السلام على من يعرف ومن لا يعرف. وقال ﷺ أيضاً : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.[1]

خلاصة القول أن أركان الإسلام وفروعها قد بلغت كمالها بهذه الصورة التدريجية إلى أن حانت تلك الساعة من يوم ٩ ذي الحجه سنة ١٠هـ، التي قال فيها الله سبحانه وتعالى:ـ[2]

" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي " (المائدة:٣)

---

[1] وردت كل هذه الأحاديث في صحيح البخاري، كتاب الإيمان.

[2] صحيح البخاري، تفسير هذه الآية.

مر في الحديث أن الإسلام بني على خمس، أي أنه علاوة على التوحيد تدخل الأركان الأربعة الأخرى أي الصلاة والصوم والحج والزكاة في العبادات، وتأتي الصلاة في مقدمتها ولصحة الصلاة شروط أولها وأهمها شرط الطهارة.

الطهارة

والطهارة تعنى طهارة الجسم والملبس من كل نجس ظاهريا ومعنويا وللطهارة أهمية بالغة في الإسلام فجاء حكمها بعد حكم التوحيد مباشرة في المرة الثانية للوحي يقول الله تعالى:-

يا أيها المدثر ۞ قم فأنذر ۞ وربك فكبر ۞ وثيابك فطهر ۞ والرجز فاهجر ۞ (سورة المدثر: ١-٥)

ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد من طهارة الثياب هنا طهارة القلب، كما أن المراد من الرُجز هنا عبادة الأوثان، ولكن يمكننا مع ذلك أن نُقدر مدى أهمية الطهارة من واقع هذه الآيات الكريمة. فالوضوء قبل الصلاة فرض، وقطع الدليل على وجوبه هذا منذ بدء البعثة الإسلامية، فورد في كتب التاريخ والسير وبعض روايات الحديث أن جبريل عليه السلام قد علّم النبي ﷺ الوضوء مع بدء الوحي.[١] وأورد الحاكم في المستدرك رواية عن ابن عباس ﷺ يتبين منها أن الرسول ﷺ، كان يتوضأ قبل الهجرة،[٢] ولكن الأمر بالوضوء في القرآن الكريم قد نزل في المدينة بإجماع المحدثين، فقال تعالى:-

" يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين " (المائدة:٦)

وردت هذه الآية الكريمة في سورة المائدة، التي نزلت أغلب آياتها بعد الهجرة بأربع أو خمس سنوات. وهناك تصريح في صحيح البخاري بأن هذه الآية الكريمة قد نزلت مع آية التيمم، التي نزلت سنة ٥ هـ. وعليه، يرى أغلب العلماء أن الوضوء كان

---

[١] ابن هشام وفتح الباري نقلاً عن مغازي ابن المعية والإمام أحمد ج٤ صـ١٦١ وابن ماجه.

[٢] فتح الباري ج١ صـ٢٠٥ والطبراني في الأوسط.

معمولاً به منذ بدء الإسلام، ولكنه لم يُفرض في القرآن الكريم إلا بعد الهجرة بأربع أو خمس سنوات، ويبدو أن الناس في بادئ الأمر كانوا يتعجلون في الوضوء، فيبللون بعض العضو ولا يبللون البعض الآخر، فبينما كان الرسول ﷺ عائداً من إحدى أسفاره في سنة ٦ هـ أو ما بعدها، أقبل بعض الناس على بئر فغسلوا وجوههم وأيديهم بتعجل، فابتلت بعض أعقابهم، وظل بعضها جافاً، فقال رسول ﷺ:ـ[١]

ويل للأعقاب من النار، أسبغوا الوضوء.

منذ تلك اللحظة صار إسباغ الوضوء؛ أي تأدية جميع فرائض الوضوء بطمأنينة وتأن، أمراً واجباً. وذكر رسول الله ﷺ فضائل إسباغ الوضوء. في بادئ الأمر كان الناس يجددون وضوءهم وقت الصلاة سواء كان منتقضاً أم لا، ولكن في النهاية انتفت فكرة وجوب الوضوء[٢] مع كل صلاة من أذهان المسلمين حيث أعلن الرسول ﷺ عن ذلك عملياً عند فتح مكة.[٣]

التيمم

يستلزم الوضوء ماءً غير مستعمل، ولكن من الصعب وفرته في كل أوقات السفر، فضلاً عن أن استخدام المياه أحياناً يكون ضاراً في حالة المرض؛ لذا نزلت آية التيمم سنة ٥ هـ.

" ... وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حَرَجٍ ولكن يُريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون." (سورة المائدة:٦)

وسبب نزول هذه الآية هو أن النبي ﷺ كان عائداً من غزوة بني المصطلق سنة ٥ هـ، وكانت في صحبته أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها)، فلما دنت القافلة من المدينة، تصادف سقوط عقد أم المؤمنين (رضي الله عنها) في مكان ما، فاضطرت القافلة بأسرها أن تنزل بهذا المكان. وحان وقت الصلاة فلم يجدوا ماءً، واضطرب الصحابة جميعاً، وعلم الرسول ﷺ بذلك، فنزلت هذه الآية الكريمة، وسعد المسلمون كثيراً بهذه

---

[١] صحيح مسلم، باب وجوب غسل الرجلين.

[٢] فتح الباري نقلاً عن أبي داود وأحمد.

[٣] صحيح المسلم.

الرخصة الربانية، فقال الصحابي أسيد بن حضير ﷺ :" يا آل أبي بكر. قد حلت علــيكم البركة."

الصلاة

فُرضت مع بدء بعثة رسول الله ﷺ، فنزل الأمر بها في المرة الثانية من نــزول الوحي، قال تعالي

" وربَّكَ فَكَبِّرْ " (سورة المدثر:٣)

فماذا يمكن أن يُقصد بهذا التكبير غير الصلاة ؟ ولكن نظراً لأن الدعوة الإسلامية قد ظلت سرية لثلاث سنوات، ولم يكن من الممكن إقامــة الصــلاة جهــراً خشــية أذى المشركين؛ لذا كان الأمر بمداومة الصلاة بالليل فقط، ولم تفرض أية صلاة في النهــار. وقد ورد هذا الأمر صريحاً في سورة المزمل، إحدى أوائل السور التي نزلت في القرآن الكريم، قال تعالى:-

يا أيها المزمل ۞ قم الليل إلا قليلاً ۞ نصفه أو انقُص منه قليلاً ۞ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ۞ انَّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً ۞ إنَّ ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا ۞ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ۞ واذكر اسم ربك وتبتل إليــه تبتــيلا ۞ (ســورة المزمل[1] :١-٨)

بعد ذلك فُرضت ركعتان في الصباح وأخرتان في المساء، **فقال تعالى:-**

واذكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً۞ ومن الليل فاسجد له وسبِّحْهُ ليلاً طــويلاً۞ (ســورة الإنسان : ٢٥، ٢٦)

---

[1] هناك خلاف بين المحدثين حول تاريخ بيان الصلاة، فقد أورد ابن حجر في فتح الباري (ج١ صـــــ٣٩٣) خلاصة هذا الأمر حول هذه المسألة، وترجمتها الحرفية كما يلي: ذهبت جماعة منهم أنه لم تفرض صلاة أخرى قبل الإسراء والمعراج مع صلاة الليل غير المؤقتة. ويرى الحربي أنه قد فرضت ركعتان في الصباح وأخرتان في المساء. وروى الإمام الشافعي عن بعض أهل العلم أن الصلاة كانت مفروضة في بادئ الأمر بالليل كله، ثم نُسخ هذا الحكم بقوله تعالى: " **فاقرءوا ما تيسر من القرآن**" وظلت الصلاة مفروضة في قسط قليل من الليل فقط، ثم نُسخ هذا الحكم أيضاً بالصلوات الخمس. إن ما أوردناه حول تحديد تاريخ الصلاة إنما هو سرد لتفاصيل بعض آيات القرآن الكريم، وبهذا التفصيل يتضح السبب في اختلاف بيانات أوقات الصلاة في القرآن الكريم. (سيد سليمان الندوي).

[illegible] صلاة الليل [illegible] لمدة سنة كاملة، إذ تقول السيدة عائشة [illegible] [illegible] رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو [illegible] [illegible]. وفرض الأمر الذي يتضمنه قوله تعالى:[1]

"إن ربك يعلم [illegible] تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثُلُثَه وطائفة من الذين معك والله [illegible] الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ " (المزمل: ٢٠)

يُطلق على صلوات النوافل بالليل " صلاة التهجد " . وبعدها فرضت ثلاث صلوات في الليل أيضاً هي :- صلاة الفجر، صلاة المغرب، صلاة العشاء، فقال تعالى:-

" أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل " (سورة هود: ١١٤)

أما الصلوات الخمس فقد فُرضت[2] حين عُرج برسول الله ﷺ في السنة الخامسة[3] من بعثته ﷺ وتضمنت سورة الإسراء وصف المعراج، ونزلت بها هذه الآية الكريمة:-

" أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ۞ ومن الليل فتهجد به نافلةً لك " (الإسراء : ٧٨-٧٩)

لكن ظل عدد الركعات في الصلاة الواحدة ركعتين كما هو، ولما عمت السكينة نسبياً بعد الهجرة إلى المدينة، فُرضت أربع ركعات بدلاً من اثنتين.[4]

مع ذلك كله، لم تتوفر لديهم على مدار فترة من الزمن، تلك الطمأنينة اللازمة لأركان الصلاة الأساسية كالخشوع والوقار وما إلى ذلك، ولذا لم تُفرض عليهم هذه الأركان والآداب في بادئ الأمر بل تدرج وجوبها حتى بلغت كمالها. فكان الناس في بدء البعثة، يرفعون بصرهم إلى السماء في صلاتهم. حتى قال رسول الله ﷺ:

ما بال أقوام يرفعون البصر إلى السماء في صلواتهم.[5]

---

(١) أبو داود، [illegible] في الصلاة بالليل، مسند أحمد ج ٦، صـ٥٤.

(٢) فتح الباري [illegible]

(٣) [illegible] في السنة التاسعة من البعثة النبوية. (سيد سليمان الندوي).

(٤) صحيح [illegible]

(٥) [illegible]

حتى أن الناس ظلوا زمناً يتحدثون في صلواتهم، فإذا ما تذكر أحدهم شيئاً وهو يصلي، تحدث به لغيره، وإذا حيّاه أحد رد عليه التحية وهو يصلي أيضاً. كما كان المصليان المتجاوران يتبادلان أطراف الحديث في صلاتهما. ولكن لما قدم مهاجرو الحبشة سنة ٦ هـ ودخلوا المسجد النبوي فيما كان الرسول ﷺ يصلي فيه، ألقوا عليه التحية كالمعتاد، فلم يرد ﷺ عليهم. وبعد أن فرغ ﷺ من صلاته قال: «إِنَّ فِي الصَّلاَةِ شُغْلاً». [١]ومنذ ذلك الوقت حُرِّم الكلام أو رد السلام في الصلاة بتاتاً.

يقول معاوية بن الحكم: صليت مع رسول الله ﷺ فعطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فعرفت أنهم يصمتوني، فالتزمت الصمت. ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة، لم يعاقبني أو يوبخني أو يسبني بفضل خلقه العظيم، وإنما قال: إن هذه الصلاة لا يحل فيها شيء من كلام الناس هذا؛ إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن.[٢]

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح مسلم: (١١٥٣) ـــ حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ ابْنُ نُمَيْرٍ وَ أَبُو سَعِيدٍ الأَشَجُّ وَأَلْفَاظُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ قَالُوا: حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ : حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ فِي الصَّلاَةِ. فَيَرُدُّ عَلَيْنَا. فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ، سَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فِي الصَّلاَةِ، فَتَرُدُّ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «إِنَّ فِي الصَّلاَةِ شُغْلاً». (المترجم).

[٢] أبو داود، كتاب الصلاة.وهذا نص الحديث كاملا: (٩٣٠) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا يَحْيَى ح. وأخبرنا عُثْمَانُ بنُ أبي شَيْبَةَ أخبرنا إسْمَاعِيلُ بنُ إبْرَاهِيمَ المَعْنَى عن حَجَّاجٍ الصَّوَّافِ حدثني يَحْيَى بنُ أبي كَثِيرٍ عن هِلاَلِ بنِ أبي مَيْمُونَةَ عن عَطَاءِ بنِ يَسَارٍ عن مُعَاوِيَةَ بنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قال: « صَلَّيْتُ مَعَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ، مَا شَأْنُكُم تَنْظُرونَ إلَيَّ. قال: فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ يُصَمِّتُونِي. قال عُثْمَانُ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُسَكِّتُونِي لَكِنِّي سَكَتُّ. فَلَمَّا صَلَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بِأَبِي وَأُمِّي مَا ضَرَبَنِي وَلا كَهَرَنِي وَلا سَبَّنِي، ثُمَّ قال: إنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لا يَحِلُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ هَذَا إنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، أو كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. قُلْتُ: يارسولَ الله إنَّا قَوْمٌ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَنَا الله بِالإسْلاَمِ، وَمِنَّا رِجَالٌ يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قال: فلا تَأْتِهِمْ. قال قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ. قال: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ في صُدُورِهِمْ فلا يَصُدُّهُم قال قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ. قال: كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ. قال قُلْتُ جَارِيَةٌ لِي كَانَتْ تَرْعَى غُنَيْمَاتٍ قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ إذْ اطَّلَعْتُ عَلَيْهَا اطِّلاَعاً فإذَا الذِّئْبُ وَأَنَا مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا

لم يكن التشّهد على الصورة التي هو عليها الآن. فقد كان يُذكر فيه أسماء العديد من الناس، فيقال: السلام على فلان وفلان، ثم تلى ذلك تعليم ألفاظ التحيات التي نردّدها الآن في صلواتنا.[1]

ورد في الأحاديث أن الرسول ﷺ كان يرفع الصبيان على كتفه وهو واقف في الصلاة، وينزلهم عند سجوده، ثم يعاود رفعهم حين يقف في الركعة الثانية، وأن السيدة عائشة (رضي الله عنها) كانت تأتي من خارج البيت، وتطرق الباب، فيتجه إليه رسول الله ﷺ ويفتحه وهو يصلي والصبيان على كتفه.[2] وفقاً لهذه الأحاديث يرى كثير من الفقهاء أن كل هذه الأفعال تجوز في صلاة النوافل، واختصوا النوافل لأن الصلوات التي كان يقوم فيها رسول الله ﷺ بمثل هذه الأفعال كانت كلها نوافل وليست فروضاً. لكننا نرى أن هذا التأويل ليس صحيحاً. فقد جاء حديث صراحةً أن الرسول ﷺ دخل المسجد حاملاً إمامة بنت أبي العاص على كتفه وصلى.[3] ولكننا مع ذلك أيضاً نرى كل هذه الروايات تتعلق بتلك الفترة التي كان يجوز فيها الكلام والقيام بمثل هذه الأفعال في الصلاة. وبالتدريج بلغ من كمال الصلاة إلى أن صارت في معظمها خضوعاً وخشوعاً ومراقبة واستغراقاً.

ونزلت في القرآن الكريم هذه الآية: " **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلواتهم خاشعون** " ومن ثم حُرّم التلفت في الصلاة أو أي فعل يتنافى مع الخضوع والخشوع. ووجب القيام بكل أركان الصلاة في طمأنينة وسكون إلى أن بلغ الأمر برسول الله ﷺ أن قال لرجل- دخل المسجد، وصلى دون أن يعطي لكل ركن حقه- ارجعْ فصَلِّ فإنكَ لم تُصلِّ،، فصلَّى الرجل كما صلى في المرة الأولى، فقال رسول الله ﷺ: ارجعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ (ثلاثاً)، وفي المرة الثالثة قال الرجل: والذي بَعثكَ بالحقِّ ما أُحسِنُ غيرَه،

يأسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صكَّةً فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فَقُلْتُ: أفَلاَ أعتقُهَا؟ قال: أئتِني بِهَا، قال فَجِئتُهُ بِهَا، فقال: أينَ اللهُ؟ قالت: في السَّمَاءِ، قال: مَنْ أنَا؟ قالت: أنْتَ رسولُ الله، قال: أعتقْهَا فإنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». (المترجم).

[1] أبو داود، كتاب الصلاة،، باب التشهد.

[2] أبو داود، كتاب الصلاة، باب العمل في الصلاة. يقول أبو قتادة: رأيت رسول الله ﷺ يصلى للناس وأمامه بنت أبي العاص على عنقه، فإذا سجد وضعها. (أبو داود، ج١، ص٢١١). (المترجم).

[3] المصدر السابق. وورد في أبي داود، ج١،ص٢١١." روى عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي والباب عليه مغلق، فجئت فاستفتحت فمشى ففتح لي، ثم رجع إلى مصلاه.". (المترجم).

فعلّمني، فقال: إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فكبِّرْ، ثمَّ اقرأْ ما تَيسَّرَ معكَ منَ القرآنِ، ثمَّ اركعْ حتى تطمئنَّ راكعاً، ثمَّ ارفعْ حتى تَعدلَ قائماً، ثمَّ اسجُدْ حتى تطمئنَّ ساجداً، ثمَّ ارفعْ حتى تطمئنَّ جالساً، وافعلْ ذلكَ في صلاتِكَ كلِّها». وقد وردت هذه الرواية في صحيح البخاري وغيره[1] بشيء من التفصيل.

موجز القول هو أنه يمكننا أن نتصور ما كانت عليه الصلاة من خلال هذه الرواية: كان رسول الله ﷺ يصلي في مسجده ذات مرة، وصدفة جاءت قافلة تجارية من الشام، فانفض إليها كل المصلون عدا اثنتا عشر رجلاً منهم فقط، فنزلت فيهم هذه الآية الكريمة[2]:-

" وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة " (سورة الجمعة: ١١)

كما يمكننا أيضاً أن نقدّر الحال الذي آلت إليه الصلاة بفضل تعاليم رسول الله ﷺ حين نعلم أن أنصارياً كان يُطعن بالسهام ثلاث مرات، فلا يختم صلاته لأن استمتاعه الروحي بتلاوة السورة التي بدأها كان يفوق ألم الجراح التي أُثخن بها. وأبلغ من ذلك أن يسقُط عمر بن الخطاب ﷺ مثُخناً بجراحه ويتململ ألماً، ويتراءى هذا المشهد المهيب للجميع، فلا يلتفت إليه أحد، ذلك لأن القلوب قد اعترتها خشية إلهية واستغراق لم تسمح لها أن تعير انتباهها لأحد آخر.

---

[1] صحيح البخاري، باب أمر النبي ﷺ من لا يتم الصلاة، باب الإعادة.وهذا نص الحديث كاملا: (٧٤٨) حدثنا محمدُ بنُ بَشّارٍ قال: حدَّثنا يحيىٰ عن عُبيدِ اللهِ قال: حدَّثني سعيدُ بنُ أبي سعيدٍ عن أبيهِ عن أبي هُريرةَ «أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم دخلَ المسجدَ، فدخلَ رجُلٌ فصلَّى، فسلَّمَ علَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فردَّ وقال: ارجِعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ، فرَجَعَ يُصلِّي كما صلَّى، ثم جاءَ فسلَّم علَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال: ارجِعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ (ثلاثاً). فقال: والذي بَعثكَ بالحقِّ ما أُحسِنُ غيرَه، فعلِّمني: فقال: إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فكبِّرْ، ثمَّ اقرأْ ما تَيسَّرَ معكَ منَ القرآنِ، ثمَّ اركعْ حتى تطمئنَّ راكعاً، ثمَّ ارفعْ حتى تَعدِلَ قائماً، ثمَّ اسجُدْ حتى تطمئنَّ ساجداً، ثمَّ ارفعْ حتى تطمئنَّ جالساً، وافعلْ ذلكَ في صلاتِكَ كلِّها» (المترجم).

[2] صحيح البخاري، كتاب البيوع، تفسير الآية المذكورة.روى عن جابر قال: بينما نحن نصلى مع النبي ﷺ، إذ أقبلت من الشام عير تحمل طعاماً فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً فنزلت: " وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها". (البخاري، ج٢،ص٦).(المترجم).

كان من المستحيل إقامة الصلاة في جماعة من أربعة أفراد في مكة. ومن ثم لم تُفرض فيها صلاة الجمعة (لأن الجماعة هي أولى شروط صلاة الجمعة)، أما في المدينة المنورة فقد أسلمت جماعة كبيرة من الأنصار، لم يكن أحد منهم ليُخلّ في أداء الصلاة، ولذا أدى المسلمون الذين هاجروا إلى المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها أول صلاة جمعة بإيعاز من أسعد بن زرارة في منطقة بياضة،[1] وأمهم مصعب بن عمير، وكان عدد المصلين أربعين مسلماً. ثم هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، أقام بقباء أولاً. وحدّد عن عمد يوم الجمعة للرحيل منها. فلما وصل إلى حي بني سالم حان وقت الصلاة فأقام بها أول صلاة للجمعة، وكان ذلك في أواخر ربيع الأول سنة ١ هـ.[2] كان أكبر تجمع للمسلمين في بلاد العرب خارج نطاق المدينة متمركزاً في جواثي، التي كانت تقع في البحرين. ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن جواثي كان بها أول مسجد أقيمت فيه صلاة الجمعة بعد المسجد النبوي.[3] ولكن يبدو أن صلاة الجمعة لم يكن لها لدى المسلمين الاهتمام اللائق، فقد ذكرنا في السطور السابقة أن الرسول ﷺ ذات مرة كان يؤم الناس في صلاة الجمعة بالمسجد، وفي رواية أخرى كان يلقي خطبة الجمعة، وتصادف قدوم تجار غلال من الشام، فانفض الناس جميعاً ولم يتبق في جماعة المسجد سوى اثنا عشر رجلاً. وفي رواية أخرى تبقى في المسجد أربعون رجلاً.[4] ولذا نزلت هذه الآيات الكريمة:ـ

يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ۞ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون۞ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ۞

(سورة الجمعة ٩-١١)

---

[1] أبو داود، وابن ماجة، والدار قطني، كتاب الجمعة علاوة على عبد الرازق وأحمد وخزيمة وفق ما نُقل في فتح الباري.

[2] الطبري ص ١٣٥٦.

[3] صحيح البخاري، باب الجمعة.ورد في البخاري، ج١، ص٢٤٨.(عن ابن عباس قال: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ، في مسجد عبد القيس بجواثى من البحرين). (المترجم).

[4] الدار القطني، كتاب الجمعة.

بعد ذلك بلغ إجلالهم وحبهم للصلاة أن صارت كل كنوز العالم عندهم لا تساوي شيئاً أمامها. وأثنى الله تعالى عليهم فقال تعالى:ـ

" **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله " (سورة النور:٣٧)**

أُقيمت صلاة العيد أيضاً بعد دخول المدينة، ولكنها لم تُسن في ذات السنة التي قَدِم فيها رسول الله ﷺ إلى المدينة، بل في السنة الثانية من الهجرة[1] وذلك لأن صلاة العيد تلي صوم رمضان الذي لم يُفرض إلا في السنة الثانية من الهجرة.

صلاة الخوف

(لا يمكن أن تفوت الصلاة في أي حال من الأحوال. فهناك حكم بأنه في حالة الخوف أي في الحرب مثلاً ينقسم الجيش كله إلى مجموعتين، تقف إحداهما أولاً مسلحةً خلف الإمام وتصلي صلاة القصر، ثم تعقبها الأخرى التي كانت تقف في مواجهة العدو فتتراجع عن الخطوط الأمامية، لتحل الأولى مكانها وتصلى هي أيضاً الصلاة قصراً. أما الإمام فيظل في مكانه. ورد في عدد من الروايات أنه إما أن تصلي كل جماعة منهما الركعتين خلف الإمام أو أن تصلي ركعةً خلف الإمام وأخرى فرداً فرداً. أو أن الأصل فيها أنه لا تجب في هذه الحالة إلا ركعة واحدة. وقد كتب أبو داود جميع هيئات صلاة الخوف برواية الصحابة (رضوان الله عليهم) وروى كل منها على حدة. أما نحن فنرى أنه لا يوجد اختلاف بينهم جميعاً، فالأمر هنا يتوقف على حالة الحرب، وما يتراءى للإمام في حينها، فإذا كانت الحرب على أشدها يصلى كل جندي في موقعه بالإشارات، وقد وردت صيغة صلاة الخوف تفصيلاً في سورة النساء. وقد نزل الأمر بصلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع سنة ٥ هـ، ويُطلق بعض الرواة على هذه الغزوة مسمى غزوة نجد. ووردت رواية في أبى داود عن أبى عباس الزرقي، يتبين منها أن آية صلاة الخوف قد نزلت في منطقة عسفان إبان وقت صلح الحديبية أي في سنة ٦ هـ، ولكن أغلب رواة الحديث وأرباب السيرة يذهبون إلى أن هذا الأمر قد نزل في غزوة ذات الرقاع.[2]

---

[1] الطبري صـ١٢٨١ طبعة أوربا.

[2] انظر كتب أحاديث صلاة الخوف، والطبري: ج٣ صـ٤٥، وابن سعد: ج٢ صـ٤٣.

كانت قريش تصوم يوم عاشوراء قبل ظهور الإسلام، وفيه كان يسدل كساء[١] على الكعبة، وكان الرسول ﷺ يصوم هذا اليوم أيضاً، ولا غرو في أن يتبعه الصحابة(رضوان الله عليهم) فيصومون هذا اليوم. وفي الغالب أن الصوم الذي ذُكر في الخطبة التي ألقاها جعفر ﷺ عن الإسلام أمام نجاشي الحبشة في السنة الخامسة من البعثة النبوية- أي قبل الهجرة بثمان سنوات- هو صوم يوم عاشوراء هذا، ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة؛ ووجد اليهود أيضاً يصومون هذا اليوم، سأل ﷺ الناس عن علة ذلك، فقالوا: إنه اليوم الذي نجا فيه موسى من يد فرعون. فقال ﷺ نحن أحق بموسى منكم، ومن ثم واصل رسول الله ﷺ صيام يوم عاشوراء(في المدينة أيضاً) وأمر صحابته الكرام(رضوان الله عليهم) بذلك. ولما فُرض صوم رمضان في سنة ٦ هـ صار صوم عاشوراء مستحباً، أي من شاء صيامه صامه ومن لم يشأ لم يصم[٢]، ولكن رسول الله ﷺ واصل بنفسه الطاهرة صيام هذا اليوم على الدوام. وفي سنة ١١ هـ قال المسلمون: يا رسول الله! إن اليهود يقدسون هذا اليوم تقديساً فأخبر ﷺ: بأنه سيصوم فى السنة القادمة اليوم التاسع. ولكن ﷺ توفى في السنة ذاتها.

كان الصوم عند اليهود هو الامتناع عن الطعام ومعاشرة النساء بعد صلاة العشاء، وهذه هي طريقة الصوم التي كُلفَ بها المسلمون في بدء الإسلام. وظلت أكثر المبادئ مراعاةً في فرض أحكام الإسلام ما ورد في هذه الآية الكريمة:ـ

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر (سورة البقرة: ١٨٥)

وما ورد أيضاً في هذا الحديث الشريف: **لا صرورة في الإسلام (أبو داود، أحمد بن حنبل)**

---

(١) مسند ابن حنبل: ج١ صـ٢٢٤ (معجم كبير الطبراني)

(٢) أبو داود، كتاب الصوم. عن ابن عمر قال: **كان عاشوراء يوما نصومه في الجاهلية، فلما نزل** رمضان قال رسول الله ﷺ:" هذا يوم من أيام الله، فمن شاء صامه ومن شاء تركه"(أبو داود، ج١، ص٥٦٩)(المترجم).

وعلى ذلك نزلت هذه الآية الكريمة: " **أحل لكم ليلة الصيام الرَّفَث[1] إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يَتَبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**" (سورة البقرة: ١٨٧)

لم يكن العرب معتادين على الصوم، فكان شاقاً عليهم في بدء وجوبه. ولذلك لم يُفرض الصوم دفعة واحدة بل اكتملت صورته تدريجياً، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أمر الناس في بادئ الأمر بصوم ثلاثة أيام في السنة، وحين فُرض الصوم كان للناس الخيار بين أن يصوموا أو يستعيضوا عن الصوم بإطعام مسكين. وبالتدريج اعتاد الناس على الصيام فنزلت هذه الآية:ـ

" **فمن شهد منكم الشهر فلْيَصُمْه** ".[2] **(البقرة: ١٨٥)**

بذلك قطع بفرضية الصيام، وبقيت الكفارة. اللهم إلا من كان مريضاً أو على سفر فعليه قضاء صومه في أيام أُخر. ولما كانت الرهبانية فضيلةً عظمى عند الأمم الأخرى وبخاصة النصارى، كان المتقون من المسلمين يتجشمون المشقة في الصيام أكثر من غيرهم، إلا أن رسول الله ﷺ كان يمنعهم عن ذلك بين فينة وأخرى. ومن ذلك أن كان رسول الله ﷺ في إحدى أسفاره، ورأى رجلاً يتوسط زحاماً من الناس وقد رفعوا فوقه ظلة، فسأل ﷺ عن علة ذلك، وأُخبر أن هذا الرجل قد صام في الحرّ. فقال " ليس من البر الصيام في السفر ". [3] وأراد بعض الناس أن يواصلوا الصوم، أي يصوموا ليلهم ونهارهم، ولا يفطرون بينهما، فمنعهم رسول الله ﷺ من ذلك.

---

[1] أبو داود، كتاب الصوم، باب مبدأ فرض الصيام، (وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن صرمة بن قيس الأنصاري أتى امرأته وكان صائما فقال: عندك شيء؟ قالت: لا، لعلي أذهب فأطلب لك شيئاً، فذهبت وغلبته عينه، فجاءت فقال: خيبة لك، فلم ينتصف النهار حتى غشي عليه، وكان يعمل يومه في أرضه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت: أُحل لكم ليلة الصيام... الآية). (أبو داود، ج١ص٥٤١). (المترجم). وأسباب النزول للسيوطي. صـ٢٧.

[2] أبو داود، كتاب الصلاة، باب كيفية الأذان. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج١، ص١٢١.(روى أن رسول الله ﷺ كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ويصوم يوم عاشوراء، فأنزل الله تعالى: "كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم" إلى قوله: "طعام مسكين" فكان من شاء أن يصوم صام، ومن شاء أن يفطر ويطعم كل يوم مسكيناً أجزاه ذلك). (المترجم).

[3] صحيح البخاري، كتاب الصوم.

كان المفهوم السائد عن الصوم هو الإفراط في إلحاق المشقة بالنفس طلباً للثواب، وهذا ما جعل رسول الله ﷺ يوجب كل الرخص المتاحة في الصيام، فلم يُفرض الصيام في السفر أو المرض.

وكان مسموحاً بتناول الطعام والشراب وممارسة كافة الأعمال والأفعال طوال الليل حتى الفجر الصادق، كما بين الرسول ﷺ فضل السحور وبركته فقال: إن تناول الطعام قبيل الفجر يشد العود طول النهار.

كانت الغاية من الصوم هي كف النفس عن المعاصي فقط، فالصوم مما يعين على ذلك، ولهذا قال رسول الله ﷺ : "من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".[1]

الزكاة

كان حض المسلمين وحثهم على الصدقة أمراً نافذاً منذ بدء الإسلام. فقد ورد في السور المكية لفظ الزكاة صريحاً، ولُوم من امتنع عن إعطاء الصدقات، قال تعالى:

" أرأيت الذي يكذب بالدين ۞ فذلك الذي يدع اليتيم ۞ ولا يَحِضُّ على طعام المسكين "(سورة الماعون:١-٣)

كما نزلت في المدينة المنورة آيات كريمة تضاعف من التأكيد على ذلك. وفرضت زكاة الفطر في السنة الثانية من الهجرة،[2] وكان عامة المسلمين وبخاصة المهاجرين منهم مبتلون بعوز وفقر شديد في بدء العهد بالهجرة. فكل الوقائع الواردة في الأحاديث، عن شظف العيش لدى الصحابة رضوان الله عليهم، وضيق ذات أيديهم، على كثرتها تنتمي إلى هذه الفترة. ومن ثم نزل الأمر بوجوب التصدق بكل ما يزيد عن الاحتياجات الضرورية وإلا فالويل لمن يفعل ذلك. وبصدد ذلك نزلت هذه الآية الكريمة:[3]

" والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله " (سورة التوبة:٣٤)

وبنفس هذا المعنى، نزلت هذه الآية الكريمة أيضاً:

" يسألونك ماذا ينفقون قل العفو " (سورة البقرة:٢١٩)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم.

(٢) الطبري، طبعة أوربا.

(٣) صحيح البخاري، مقولة عبد الله بن عمر ﷺ.

كان كثير من الناس يتصدقون، ولكنهم كانوا يحتفظون بكرائم أموالهم. ويتصدقون بأتلفها وأردئها، فنزل هذا الأمر الإلهي:

"يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض" (سورة البقرة: ٢٦٧)

ولمزيد من التوكيد، نزل الأمر بأن من لا يتصدق بما يجب، فلا مثوبة له، قال تعالى:

" لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تُحِبونَ " (سورة آل عمران :٩٢)

بلغ حب الناس للصدقات، ورغبتهم في أعمال الخير، أن المعوزين لنفسهم لم يذهبوا إلى الأسواق ويقومون بالأعمال الشاقة؛ كنقل أمتعة وأثقال الناس على أكتافهم إلا ليتصدقوا بالأجر الذي يتقاضوه لقاء ذلك.[١]

ومع ذلك كله لم تُفرض الزكاة كما هي الآن حتى سنة ٨ هـ، ولما فرضت بعد فتح مكة تحددت مصارفها الشرعية وعيّن[٢] رسول الله ﷺ صيارفةً (في محرم سنة ٩هـ) لجباية الزكاة من كل البلاد الخاضعة للدولة الإسلامية. وهذه هي مصارف الزكاة:ــ

" إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم "(سورة التوبة:٦٠).

وردت أنصبة الزكاة بالتفصيل في الأوامر النبوية، التي اقتبس منها كتاب الزكاة في الفقه الإسلامي.

الحج

كان إبراهيم عليه السلام أول من بنى بيتاً لعبادة الله ودعا إليه الناس جميعاً، قال سبحانه وتعالى:

" وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات " (سورة الحج: ٢٨)

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الزكاة.

[٢] الطبري، طبعة أوربا ج٤صـ١٧٢٢، (ابن سعد، جزء المغازي، صـ ١١٥).

لنبيّ العالم بأسره الدعوة العامة التي نادى بها إبراهيم الخليل. فكان الناس يفدون كل سنة من أقاصي بلاد العرب ليقيموا شعائر الحج، ولكن حدث تغيير مؤسف، فتحول البيت الذي أقيم خصيصاً لإعلاء كلمة التوحيد إلى معبد لثلاثمائة وستين صنماً. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى طُرد من هذا البلد أحق الناس بالإشراف عليه، وظلوا لثمان سنوات كاملة لا يجرؤن على رفع أبصارهم تجاهه، إلى أن حان الوقت لظهور الحق ففتحت مكة، وسنحت الفرصة لخليفة إبراهيم وأتباعه أن يعيدوا إحياء الشعائر الإبراهيمية، لذا فُرض الحج سنة ٩هـ.[1] ومع ذلك لم يؤدِ رسول الله ﷺ هذا الفرض في هذه السنة؛ إذ كان العرب يطوفون بالكعبة عرايا وكان رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يطيق رؤية هذا المشهد المخزي بعينه، لذا أرسل أبا بكر، وعليًا ﷺ في أيام الحج إلى الكعبة كي يناديا في الناس بألا يطوف أحدهم بالكعبة عرياناً بعد ذلك.[2]

وهناك سبب آخر، وهو أن شهر الحج كان قد تراجع إلى ذي القعدة وفقاً لضابطة النسيء. فتوافق أداء الحج في سنة ٩ هـ مع هذا الشهر، بينما أن الشهر الحقيقي للحج هو ذي الحجة. لذا انتظر رسول الله ﷺ سنة وأقام شعائر الحج في ميعادها الأصلي.[3]

تعديلات الحج

رغم أن المشركين قد حافظوا على أداء شعائر الحج، إلا أنهم أيضاً قد حرفوها تماماً وألحقوا بها قدراً هائلاً من البدع جعلها سبباً للعذاب بدلاً من الثواب. إن أكثر الأمور صدارة في الإسلام هو أن الغاية من الحج وسائر العبادات هي ذكر الله والتوجه إليه، ولكن العرب كانوا يجتمعون في الحج فيتفاخرون بأنسابهم وعظائم أعمال أسلافهم بدلاً من أن يذكروا الله. وبناء عليه، نزلت هذه الآية:

" فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذِكْراً "[4] **(سورة البقرة : ٢٠٠)**

---

[1] زاد المعاد، ج١ صـ١٨٠.

[2] صحيح مسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

[3] وقول رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: **الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض أثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**، إشارة إلى هذا.

[4] أسباب النزول للواحدي.

كانت طريقة الحج عند أهل المدينة على وجه الخصوص هي أن يطوفوا بمنات، ومن ثم، حين كانوا يحجون إلى الكعبة كانوا لا يطوفون بين الصفا والمَروة، في حين أنه من بين أهداف الحج إحياء ذكرى إبراهيم ﷺ، فالسعي بين الصفا والمروة تذكار لهذا العهد، ومن ثم نزل قوله تعالى:

" إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما "(سورة البقرة:١٥٨)[1]

ومن الطرق التي كانت شائعة أيضاً وقتئذ، أن أغلب الناس الذين لم يكن لديهم زاداً للسفر(كاليوم)، كانوا يذهبون إلى الحج هكذا دون أن يتزودوا بشيء، ويقولون إنا متوكلون. فكانوا في الغالب يضطرون إلى التسول والافتقار إلى إعالة الأصدقاء لهم، فنزلت هذه الآية الكريمة، قال تعالى:

" وتزودوا فإن خير الزاد التقوى "[2] (سورة البقرة: ١٩٧)

يَحرُم حلق الرأس أو تشذيب الشعر في الإحرام، ولكن أعراب الجاهلية كانوا يتشددون في ذلك، لدرجة أن بعض الناس كانوا مصابين بأذى يقع في رؤوسهم يهددهم بفقدان بصرهم، ومع ذلك لم يجرءوا على حلق شعرهم. أما الإسلام فإنه يراعي أولاً وقبل كل شيء ألا تكون عباداته وأحكامه تكليفاً لما لا يطاق، لذلك نزل قوله تعالى:

" فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك " (البقرة: ١٩٦)

كما كانوا يلطخون الكعبة بدماء ما يقدمونه قرباناً ظناً منهم أن ذلك مثوبة لهم، وعليه نزلت هذه الآية الكريمة[3]:

---

[1] إن الترجمة الشائعة لكلمة جناح في القرآن الكريم هي "هزح" أو الخسارة. وعليه تكون الترجمة: لا هزح في الطواف بالصفا والمروة، ولكن كلمة لا جناح قد وردت بمعنى الواجب والمستحب أيضاً.

[2] صحيح البخاري، كتاب الحج، باب تزودوا فإن خير الزاد التقوى. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، ج١، ص٤٠٤. (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى"). (المترجم).

[3] تفسير البيضاوى (أخذت هذه الشعيرة عن اليهود، لاويين ٦:١٧، أخبار الأيام الثاني ٢٩-٢٢). التوراة، سفر اللاويين، إصحاح ١٧، فقرة ٦ . وهذا نصه بالعبرية:

וזרק הכהן את - הדם על - מזבח יהוה פתח אהל מועד והקטיר החלב לריח ניחח ליהוה :

الكتاب المقدس، سفر أخبار الأيام الثاني، إصحاح ٢٩، فقرة ٢٢ . وهذا نصه بالعبرية:

" لن ينالَ الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم "(سورة الحج: ٣٧)

لا تقتصر هذه الآية الكريمة على تحريم هذا الفعل فحسب؛ بل تخبر أيضاً بأن القرابين ليست شيئاً مقصوداً في ذاته؛ بل إن الأصل فيها، والذي يقبله الله سبحانه وتعالى هو مدى تقوى وصلاح من يقوم بها.

كان أعظم ما خالفت فيه قريش مبادئ الإسلام في شعائر الحج هو أنهم كانوا لا يذهبون إلى عرفات، الذي كان بمثابة مقر العبادة الأساسي للحج وكانوا يقولون نحن أهل الحرم وليس بوسعنا أن نذهب خارج حدوده ففي ذلك إهانة وتحقير لأسلافنا، ومن ثم، كانوا يذهبون إلى المزدلفة فقط ويمكثون بها، فيما كان العرب جميعاً يجتمعون في عرفات ثم يعودون منه إلى منى والمزدلفة، ولما كان الإسلام دين المساواة وكل الناس سواسية في عبادته،[١] نزل قوله تعالى:

" فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم " . (سورة البقرة: ١٩٨ــ ١٩٩).

ولأنهم كانوا يعتقدون بأن حيوان القربان مقدم لله (تعالى الله عن ذلك) لذا كانوا لا يمتطوه، متحملين مشقة السير على أقدامهم، وظل هذا العرف رائجاً حتى ظهور الإسلام. وذات مرة رأى رسول الله ﷺ رجلاً في رحلة الحج مصطحباً ناقة الضحية، ويسير هو مترجلاً، فقال له رسول الله ﷺ: "اركبها"، فقال: " إنها بدنة"، فكرر رسول الله ﷺ الأمر، فاعتذر الرجل بنفس العذر، فأمره رسول الله ﷺ بشيء من التوبيخ: " اركبها"[٢]

هذا وكانوا قد ابتكروا نوعاً من الحج أسموه الحج المصمت، وهو أن من يحج لا يتفوه بشيء من بدء حجته حتى نهايتها. أما الإسلام فقد حرّم ما لا يطاق. فورد في صحيح البخاري أن أبا بكرؓ رأى ذات مرة امرأةً من بني أحمس تدعى زينب، لا

וישחטו הבקר ויקבלו הכוהנים את - הדם ויזרקו המזבחה וישחטו האלים ויזרקו הדם המזבחה וישחטו הכבשים ויזרקו הדם המזבחה :(المترجم).

[١] صحيح البخاري،ج١، كتاب الحج. وهذا نص الحديث: (٦٧٩ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الْحُمْسَ. وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَةَ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلامُ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ فَيَقِفَ بِهَا ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ). (البخاري، ج١، كتاب الحج. المترجم).

[٢] صحيح البخاري، كتاب الحج.

تتحدث مع أحد. ولما استفسر عن الأمر، علم أنها نوت الحج المصمت، فقال أبو بكر ﷺ: هذا لا يجوز، فهو عادة جاهلية.[١]

كانت أشد الأمور خزياً أن كافة العرب، عدا قريش وأحمس كانوا يطوفون بالكعبة وهم عرايا رجالاً ونساءً، فبمجرد أن يدخلوا نطاق الحرم كانوا جميعاً يخلعــون ثيــابهم ويستعيرون ثياباً من أي قرشي، فإن لم يجدوا يطوفون بالكعبة عرايا، وهكذا أيضاً كانت النساء يطفن وهن عاريات، وينشدن هذا البيت:

اليوم يبدو بعضه أو كُلّهُ وما بدا منه فلا أحلّه

وعليه نزلت هذه الآية الكريمة[٢]:

" يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد " (سورة الأعراف:٣١)

ومن ثم بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ في سنة ٩ هــ **وأعلن فــي ذروة** موسم الحج بألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.[٣]

---

[١] صحيح البخاري، ج١ صـــــ٥٤١.

[٢] **وردت هذه الواقعة كاملة، وسبب نزول الآية الكريمة في كتاب سنن النسائي، مناسك الحج.**

[٣] ورد باب لا يطوف بالبيت عرياناً في صحيح مسلم، والبخاري وسائر كتب الحديث. وهذا نص الحديث:(٧٦٣ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي أَمَّرَهُ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ فِي رَهْطٍ يُؤَذِّنُونَ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ لا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ). (المترجم).

وفقاً للتدرج المتبع في إتمام الشريعة نزلت أحكام الميراث، والنكـــاح والطـــلاق، والقصاص، والتعزيرات (وغيرها) بعد البعثة بفترة طويلة. وسبب ذلك أن تطبيق مثـــل هذه الأحكام كان يحتاج إلى قوة نافذة لم تكن قد تيسرت للإسلام بعد. بدأت قوة الإســـلام السياسية تكتسب قوتها بعد غزوة بدر. كانت الأحكام التي نزلت في السنة الأولى والثانية من الهجرة هي تحويل القبلة، وفرض الصوم وزكاة الفطر، وصلاة العيد، والأضـــحية. ولما بدأت أعمال التجارة الإسلامية تتوسع في السنة الثالثة، كان قانون الميراث هو أول ما نزل في القرآن الكريم في هذا الصدد.

الميراث

(كان أفراد الأسر الإسلامية في بادئ عهدهم بالمدينة متبايني الديانة، فربما كـــان الأب مسلماً والابن كافراً، أو أحد الأخوة مسلماً والآخر مشركاً. كيف كان يمكـــن تنفيـــذ قانون الميراث بين الأقارب في ظل هذا الوضع ؟ لهذا حين هاجر رســـول الله ﷺ إلـــى المدينة المنورة آخى بين المهاجرين والأنصار، وطبقاً لهذه المؤاخاة تقـــررت الضـــابطة التي تقول بأنه إذا توفي أنصاريٌ يرثه أخاه المهاجر.[1] وقد جرى العرف قـــديماً لـــدى العرب بأن يتعاهد الرجلان فيما بينهما أنه إذا مات أحدهما يرثه الآخر. وبالفعل كـــان إذا مات أحدهما ورثه الآخر، ولكن في سنة ٣ هـــ نزلت هذه الآية القرآنية الكريمة فنسخت هذا العُرف)، يقول تعالى:

" **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** "(سورة الأنفال: ٧٥)

وعلى ضوء ذلك أيضاً مُنع الميراث بناء على المؤاخاة، واقتصر الميراث علـــى الأهل وذوي الأرحام. (كان القرآن الكريم قد أمر بتطبيق قاعدة الوصية قبل نزول آيـــة الميراث، وهى أن يوصي المرء قبل وفاته بالأنصبة التي توزع بها ممتلكاته بعد وفاتـــه)

---

[1] هذا ما قاله المفسرون، ولكن وردت رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما في صحيح البخاري وغيره تقول بأن. هذا الحكم قد نسخ بالآية الكريمة المذكورة.

وبالفعل كانت ممتلكاته توزع بعد وفاته بنفس الطريقة التي [illegible]
الوصية قبيل الوفاة فرضاً على كل مسلم، قال تعالى :

" كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين"(سورة البقرة: ١٨٠)

وُضح في القرآن الكريم قانون الشهادة على من يموت في السفر. وكان إخفاء هذه الشهادة أو تزويرها جريمة من الناحية القانونية. وورد في سورتي البقرة والمائدة الحديث عنها تفصيلا. زاد عدد المسلمين بدرجة كافية بعد غزوة بدر، إذ اعتنقت الأسر جميعاً بسائر أفرادها الإسلام، ومن ثم أصبحت الحاجة ملحة لوضع قانون خاص بالميراث. فضلاً عن أنه كانت هناك صعوبة بالغة في قاعدة الوصية، حيث لم يكن من الممكن إجراء أي ضوابط أخرى لتوزيع التركة في حالة الموت المفاجئ للمورث. فعلى سبيل المثال، كان مئات المسلمين يشاركون في الجهاد، فمن سيعرف من، ومن سيشهد على من. في مثل هذه الحالات وبعدم تنفيذ الوصية يستولي على التركة من له الكلمة العليا بين الأقارب. وهذا ما حدث بالفعل إثر غزوة أحد، فكان الصحابي سعد بن الربيع ﷺ، الذي كان بالغ الثراء، (قد استشهد في هذه الغزوة، ولجأت زوجته إلى رسول الله ﷺ تقول: قد استشهد سعد في سبيلكم، وخلف ورائه بنتين، ولكن أخيه قد استولى على تركته كلها، فقال رسول الله ﷺ: سيقضي الله أمره، وفي الغالب تلي ذلك نزول[1] هذه الآية الكريمة، سنة ٤ هـ، والتي ورد فيها سائر أحكام الميراث، قال تعالى:

" يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين " الخ(النساء:١١)

---

[1] رويت ثلاث وقائع في كتب الحديث عن سبب نزول آية الميراث، أولها أن هذه الآية قد نزلت حين مرض جابر ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة. وردت هذه الرواية في كتب الصحاح الستة، ولكن في الحقيقة قد حدث قدرٌ ما من التسامح مع رواة هذه الرواية لأن الميراث قد طُبق قبل سنة ١٠ هـ فضلاً عن أن جابرﷺ لم يكن له ولد حتى ذلك الحين مما يدعم صحة القول بأن واقعة جابر تتعلق بإحدى حالات الميراث وهي (الكلالة) حسبما تصرح بذلك روايات مسلم الأخرى في (كتاب الفرائض). أما الرواية الثانية حول سبب نزول هذه الآية، أنها نزلت أثر أم كحبة بعد وفاة زوجها عبد الرحمن أخو حسان بن ثابت ﷺ، وقد روى هذه الرواية الطبري وغيره، ومع أنها ضعيفة، إلا أنه من الممكن أن تحدث وقائع عديدة مثل واقعة سعد بن الربيع. أما الرواية الثالثة حول نزول هذه الآية الكريمة، فهي واقعة سعد بن الربيع التي وردت في أبو داود، والترمذي، والحاكم، والمستدرك.(سيد سليمان الندوي).

فاستدعى رسول الله ﷺ أخو سعد وقال: أعط ثلثي تركة سعد لابنته، وثمنها لزوجته، وما يتبقى بعد ذلك فهو حقك.

كان العرب يحرمون النساء من الميراث زعماً بأن الميراث حق لمن يحمل السيف. وكان هذا هو العرف السائد بين أغلب أمم العالم الأخرى. فكان هذا هو اليوم الأول الذي تُنصف فيه القوارير.

الوصية

بعد نزول أحكام الميراث، ظلت الوصية جائزة كما هي، ولكن لما كان هناك تخوف من ضياع حق الورثة بسببها؛ لذا كانت هناك حاجة لتحديد الوصية. وفي سنة ١٠هـ مرض سعد (والد عاد)، فجاء النبي ﷺ لعيادته، فقال لرسول الله ﷺ: إنني أحتضر وليس لي إلا بنت واحدة فقط، وأريد أن أتصدق بثلثي مالي، فلم يجز له الرسول ﷺ ذلك، فقال: فليكن النصف، فلم يرض رسول الله ﷺ بذلك أيضاً، فقال: فليكن الثلث، فقال رسول الله ﷺ: الثلث والثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس.[1] ومع ذلك أباح له أن يتصدق بهذا النصاب، ومنذ ذلك الحين حُرمت الوصية بأكثر من الثلث.

الوقف

الوقف إحدى القضايا بالغة الأهمية في الشريعة، وقد نقّح الإسلام هذه المسألة إلى الحد الذي ليس له مثيل في قوانين الديانات الأخرى. ومن ثم، قال السيد شاه ولي الله في كتابه "حجة الله البالغة": إن الإسلام هو مؤسس طريقة الوقف. وتاريخ الوقف في الإسلام موغل في القدم، ففي السنة الأولى من الهجرة أسس رسول الله ﷺ المسجد النبوي في المدينة المنورة على أرض كان يمتلكها يتيمين، وأراد رسول الله ﷺ أن يعطيهم ثمنها، فقالوا: **لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله**

كان ذلك أول وقف في الإسلام، وكان في أبسط صورة. وقد أورد الإمام البخاري هذا الحديث دليلاً على الوقف المشاع. وفي سنة ٤ هـ أو سنة٥ هـ نزلت هذه الآية الكريمة، فقال تعالى: **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**

---

[1] صحيح البخاري، ج١، كتاب الوصايا.

فذهب الصحابي الجليل أبو طلحة ﷺ إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله ! إن بيرحا[1] أحب الأراضي إلى قلبي، وأنا متصدق بها في سبيل الله، وأسأل الله الأجر والثواب، فانفق ريعها في أي المصارف شئت. فأوقف ريعها على أقاربه وفق نصيحة رسول الله ﷺ.

ظل المصطلح المستخدم تعبيراً عن الوقف حتى ذلك الحين يعني فقط مجرد الإقرار بسحب الممتلكات من حيز التصرف الشخصي إلى الملكية العامة في سبيل الله. ولكن في سنة ٧ هـ وبعد غزوة خيبر، أصبحت حقيقة الوقف واضحة جلية. فلما حصل عمر ﷺ على أرض في خيبر، وأراد وقفها، ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال له:

إن شئت جلست[2] أصلحها وتصدق بها.

لذلك تم وقف تلك الممتلكات وفقاً للشروط التالية:[3]

إنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث.

النكاح والطلاق

إن أحكام التعديل التي نزلت بشأن النكاح سيرد تفصيلها تحت عنوان التعديلات، ونحن هنا نكتب فقط عن صور النكاح في العرب قبل الإسلام، والتي كانت كلها مشابهة للزنا عدا واحدة فقط، وهى التي أجازها الإسلام في بادئ الأمر. كان زواج المتعة[4] الذي ينحدر إلى عصر الجاهلية يحرم أحياناً ويحلل في أحيان أخرى، إلى أن قُطع بتحريمه في غزوة خيبر سنة ٧ هـ. ومع ذلك أيضاً اقتضت الضرورة أن يقول عمر ﷺ في عهد خلافته على المنبر: إني أحرّم زواج المتعة، أي إنني أعلن اليوم تحريم زواج المتعة الذي لم يُشَع في البلاد حتى الآن بالقدر الكافي.

أما الأحكام الأخرى المتعلقة بالنكاح والطلاق مثل بيان المحارم الشرعية، عدم تحريم زوجة الابن المتبني، وتحديد تعدد الزوجات، وعدد مرات الطلاق، ومدة العدة، وضرورة الصداق، والظهار- وهو إحدى طرق الطلاق-، وفيه يُشبه الرجل زوجته بالمحرمات من النساء عليه، واللعان -أي اشتباه الزوج في عفة زوجته- وإدعاء كلاً

---

(١) اسم أرض تقع في المدينة المنورة.

(٢) أي إن شئت أبقيت أصلها وتصدق بمنافعها.(المترجم).

(٣) وردت كل هذه الأحاديث في صحيح البخاري، باب الوقف.

(٤) الزواج المؤقت.

منهما بصدقه وتكذيب الآخر. وسترد كل هذه التفاصيل ضمن حديثنا عن التعديلات. أما هنا فيكفي فقط أن نقول بأن هذه الأحكام كلها مذكورة في القرآن الكريم وكان نزولها في سنة ٤،٥هـ.

الحدود والتعزيرات[١]

ما من شئ بين كل كنوز العالم أثمن من روح النفس البشرية. نزلت أغلب قوانين الحدود والتعزيرات بعد الهجرة بعدة سنوات، ولكن الأمر بتحريم قتل النفس البشرية كان قد نزل بمكة. حيث كان إحدى الأحكام الأخلاقية التي تلقاها رسول الله ﷺ من ربه حين عُرج به إلى السماوات العلا، قال تعالى:

" ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً " (سورة الإسراء: ٣٣)

كان لدى العرب أيضاً بعض قوانين القتل والقصاص قبل ظهور الإسلام، كما كان لدى اليهود، الذين كانوا يتمتعون بمكانة رفيعة في هذه البلاد، مجموعة الحدود والتعزيرات التي وردت في التوراة. لكنه في الواقع لم يكن العرب يتمتعون بسلطة مقننة أو بروح أخلاقية، ومن ثم لم يستطيعوا تنفيذ هذه الأحكام. بمجرد دخول المسلمين إلى المدينة لجأ اليهود إلى مقر رسول الله ﷺ ليفصل لهم في قضاياهم. فكان صلوات الله وسلامه عليه يفصل في قضاياهم عموماً وفقاً لأحكام التوراة.

كان مقتل رجل واحد من العرب يثير سلسلة من مئات الحروب الأهلية بين القبائل لذلك لما صار للإسلام قوة وشكيمة بعد غزوة بدر، نزل حكم القصاص، ولعلك تذكر أن يهود بني قريظة وبني النضير كانوا يقيمون على حدود المدينة، وكان بنو النضير يعدون أشراف من بني قريظة، ومن ثم إذا قتل قريظي نضيري قتلته بنو النضير أما إذا قتل نضيري قريظي، فإنهم يدفعون فدية عبارة عن مائة وسق من التمر. وقعت حادثة من هذا النوع بعد قدوم رسول الله ﷺ. فنزلت فيها بعض آيات سورة المائدة، منها هذه الآية الكريمة،[٢] يقول تعالى:

---

[١] أضفت من هنا حتى نهاية باب الحلال والحرام."سيد سليمان الندوى".

[٢] أبو داود، كتاب الديات. عن ابن عباس قال: كان قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قُتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فودي بمائة وسق من تمر، فلما بعث النبي ﷺ قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا: ادفعوه

" وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس و العين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص " (المائدة: ٤٥)

ومع أن هذا الأمر كان لليهود، إلا أنه قد نزلت آيه أخرى أوضحت هذه المسألة تماماً، يقول تعالى:

" يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى " (البقرة:١٧٨)

أقر هذا الحكم قانون العدل والمساواة في الدنيا إلى أبد الآبدين.

لم يكن عند اليهود قانون الفدية[1] (الدية)، ولكنه كان لدى العرب، وأقره الإسلام بعد أن أدخل بعض التعديلات، يقول تعالى:

" فمن عُفي له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان "(سورة البقرة:١٧٨)

لم يكن هناك حتى ذلك الحين تفريقاً بين القتل العمد والقتل الخطأ. وفي سنة ٦ هـ قُتل مسلم بيد مسلم آخر خطأً، كما قُتل قرشيّ على يد مسلم أنصاري، وأرضى رسول الله ﷺ أخ القتيل بإعطائه الدية، ولكن بعد ذلك أسلم أخو القتيل هذا نفاقاً وقتل هذا الأنصاري وفر إلى قريش. وبناء على هذه الأحداث، نزلت عدة أحكام بشأن القتل الخطأ، يقول تعالى:

" وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قَتَلَ مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يَصدَّقُوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله وكان الله عليماً حكيماً ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً " (النساء: ٩٢-٩٣)

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا كان آخر أحكام القتل والقصاص.

أما تحريم النفس فقد أُعلن عند فتح مكة، حين قال رسول الله ﷺ: إن كل دماء الجاهلية

إلينا نقتله. فقالوا: بيننا وبينكم النبي ﷺ فأتوه، فنزلت (وإذا حكمت فاحكم بينهم بالقسط... الآية). (أبو داود، ج٢، ص٤٧٧). (المترجم).

[1] صحيح البخاري، كتاب التفسير، آية : كتب عليكم القصاص. يقول ابن عباس: "كان في بني إسرائيل القتل ولم تكن فيهم الدية"(البخاري، ج٣، ص١٤٢)(المترجم).

تحت قدمي هاتين، وبعدها حدد[1] رسول الله ﷺ دية للقتل الخطأ تشابه دية القتل العمد. فكانت دية القتل الخطأ أربعمائة دينار لأهل القرية.[2]

لم يتعين حد على قطاع الطرق حتى سنة ٦ هـ، قدم بعض أهالي قبيلتي عكل وعرينه إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم، ولم يلائمهم مناخ المدينة، فسمح لهم رسول الله ﷺ بالإقامة في مرعى خارج المدينة. وفي واقعة ما قتل هؤلاء القوم بعض الرعاة المسلمين بضراوة بالغة بعد أن لقنوهم شتى صفوف العذاب وسلبوا بعيرهم ثم لاذوا بالفرار. ولما تم ضبطهم وإحضارهم إلى رسول الله ﷺ، أمر ﷺ بقتلهم بنفس التعذيب الذي قتلوا به الرعاة المسلمين. ومع أن ذلك كان قصاصا إلا أنه كان مشوباً بقدر من القسوة. ولذا نزل عتاب من الله وأنزل[3] أحكامه الخاصة بقطاع الطرق والمجرمين، يقول تعالى:

" إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض " (سورة المائدة: ٣٣)

يأتي المال في الدرجة التالية للنفس. كانت عقوبة قطع يد السارق نافذةً عند العرب قبل ظهور الإسلام، ولما ظهر الإسلام أقرّها أيضاً، فقال تعالى: **السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما.** في فتح مكة، سنة ٨ هـ ارتكبت هذه الجريمة امرأة مخزومية، ولأنها كانت تنتمي من أسرة من الأشراف، أُصيب المسلمين بحالة من الهلع والاضطراب. وشُفع لها عند رسول الله ﷺ بأسامة بن زيد ﷺ الذي كان يحبه حبا جما. فغضب رسول الله ﷺ، وجمع الناس وخطب فيهم خطبةً قال فيها: إنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن

---

[1] أبو داود، كتاب الديات، باب في دية الخطأ شبه العمد. قال رسول الله: "ألا إن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أولادها."(أبو داود، ج٢، ص٤٩٢) (المترجم).

[2] أبو داود، ديات الأعضاء. كما ورد في أبي داود، ج٢، ص٤٩٥." كان رسول الله يقوّم دية الخطأ على أهل القرى أربعمائة دينار". (المترجم).

[3] أبو داود، كتاب الحدود، باب المحاربة. ورد في أبي داود، ج٢، ص٤٤٤(عن ابن عمر أن أناسا أغاروا على إبل النبي ﷺ فاستقوها وارتدوا عن الإسلام، وقتلوا راعي رسول الله ﷺ مؤمنا فبعث في آثارهم، فأخذوا فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم)(المترجم).

فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. وكان من أثر هذه الخطبة أن كان الناس ينفذون هذا الحكم كما هو.[١]

لم يوضع عند العرب عقاب للزنا. أما اليهود فكان محدداً لديهم "الرجم" كعقاب للزاني وفقاً لما جاء في التوراة، ولكنهم لم يستطيعوا تطبيق هذا الحكم نظراً لضعف نفوسهم. فكان اليهود الذين يستوطنون حدود المدينة قد استبدلوا الرجم بوضع سواد على فم المذنب ويطوفون به في الأسواق والحواري للتشهير به، ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة، رفعوا إليه قضية لأحد المخطئين. كان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة في الغالب. فسألهم الرسول ﷺ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الزِّنَا؟ فأخبروه بعُرفهم هذا، فطلب الرسول ﷺ التوراة وأقرأهم إياها، فأخفوا آية الرجم بأصابعهم، ولكن أحد اليهود الذين أسلموا أخرج هذه الآية وتلاها. فقال رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَى مَا أَمَاتُوا مِنْ كِتَابِكَ».[٢] ولذلك أمر الرسول ﷺ برجم هذا الرجل، وبالفعل تم رجمه.

في سنة ٥ هـ نزلت سورة النور التي تحدد فيها مائة جلدة جزاءً للزاني أو الزانية. يقول عمر ﷺ إن القرآن الكريم أقرّ جزاء الرجم ثم نُسخت تلاوته[٣] بعد ذلك. على أي حال يثبت من الأحاديث أن على الزاني الأعزب مائة جلدة وعلى المتزوج الرجم.[٤] ومن ذلك أن مسلماً اقترف هذا الإثم في سنة ٧ هـ، ورغم عدم معرفة الناس بذلك إلا أنه فضل عقاب الدنيا على عذاب الآخرة وأتى إلى رسول الله ﷺ وهو في جمعٍ من الناس وقال: يا رسول الله ! إنني آثم فطهرني، فاستقصى رسول الله ﷺ الأمر، وأمر برجمه.[٥]

---

[١] صحيح البخاري.غزوة الفتح.

[٢] أبو داود، في رجم اليهوديين.

[٣] صحيح البخاري، رجم المحصن. عن جابر بن عبد الله أن رجلا من أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ فرجم وكان قد أحصن. (البخاري، ج٤، ص٢٦٩). (المترجم).

[٤] ورد ذلك في سائر كتب الحديث.

[٥] لم ترد أية تفاصيل في أي من الكتب بشأن تحديد سنة ٧ هـ، وقد فصلها شراح الحديث قياساً على أن أبا هريرة ﷺ كان في المدينة في ذلك الوقت، ومن الثابت أنه كان قد قَدِم إلى المدينة في نفس السنة التي شُهدت فتح خيبر.

وقد تم تحريم الخمر سنة ٥ هـ. ولم يكن هناك عقاب خاص بشرب الخمر في عهد رسول الله ﷺ. يُجلد مقترفي هذا الإثم أربعون جلدة. وقد جعلها عمر ﷺ في عهده ثمانين جلدة.[١]

نزل جزاء القذف أي رمي المحصنات، سنة ٥ هـ[٢]، يقول تعالى:

والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً. (سورة النور: ٤)

إن كل هذه الحدود والتعزيرات التي ذكرناها قد وُضعت للحفاظ على أغلى ثلاثة أشياء في الحياة: النفس، والمال، والعرض. ومن ثم، بعد نزول هذه الحدود، قال رسول الله ﷺ في الشهر الحرام وداخل ربوع الحرم، إبان حجة الوداع سنة ١٠ هـ: " أيها المسلمون ! كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه، كحرمة يومكم هذا من شهركم هذا في حرمكم هذا".

---

(١) أبو داود، إذا تتابع في الخمر. ورد في أبي داود،ج٢،ص٤٧٥ "أن عمر رضي الله عنه ضرب أربعين صدرا من إمارته ثم جلد ثمانين في آخر خلافته". (المترجم).

(٢) وقعت حادثة الإفك في هذه السنة، فنزلت فيها هذه الآية، ومن هنا تحدد لها سنة ٥ هـ.

الحلال والحرام من الأطعمة

لم يكن العرب يخشون شيئاً في مسألة الطعام والشراب، كما لم يكن عندهم أصنافاً محرمةً أو محللةً، فقد كانوا يأكلون حتى الميتة أو حشـــرات الأرض. اللهـــم إلا بعـــض الحيوانات التي كانوا يتركونها لأنها تحمل اسم آلهتهم، ولاعتقادهم بأن ذبحها إثـــم، كمـــا كانوا ينذرون بعض الحيوانات، ويبيحون أكلها للرجال دون النساء. وإذا أنجبت صـــغيراً ميتاً فيأكله الرجال والنساء، وأما إذا كان حياً يأكله الرجال فقط. وكانـــت هنـــاك أيضـــاً طقوساً وثنية أخرى من هذا النوع، تناولتها بالتفصيل سورة الأنعام التي نزلت في مكـــة. ومع أن أغلب أحكام الإسلام قد نزلت بالمدينة المنورة إلا أن أحكـــام تحـــريم وتحليـــل الأطعمة قد بدأ نزولها في مكة، ومن ذلك أنه بعد دحض طقوس المشركين هذه في سورة الأنعام، ورد بها هذا الحكم، يقول تعالى:

" قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مســـفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن أضطر غير باغٍ أو عادٍ فإن ربك غفور رحيم "   (الأنعام : ١٤٥)

كان أكثر ما أثار عجب المشركين هو أن يقال على ما يموت بنفسه حـــرام ومـــا تقتله بيدك حلال، مع أنه لا يوجد فرق بينهما، فنزلت فيهم هذه الآية الكريمة، قال تعالى:

" فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم " (سورة الأنعام:١١٨-١١٩)

بعد ذلك نزلت بمكة المكرمة أيضاً آية سورة النحل: **فكلوا مما رزقكم الله.. إلـــى** آخر الآية، حيث تكرر فيها نفس هذا الحكم السالف، وحُرمت فيها هذه الأشـــياء الأربعـــة ذاتها: الميتة، الدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. ثم أُعيد تكرار الحديث عن هـــذه المحرماث الأربعة في سورة البقرة، وهي أول سورة نزلت بالمدينة المنورة، وذلك فـــي قوله تعالى: **إنما حَرَمَّ عليكم الميتة.** وقلما ميزّ العرب بين الحلال والحرام، وكان السبب في ذلك فقرهم وعوزهم فضلاً بالطبع عن بداوتهم وجهلهم، ولذلك كان وعي المســـلمين بالتفريق بين الحلال والحرام يتنامى مع تحسنّ أحوالهم الاقتصادية، كان الناس على وجه

العموم يظنون بأن الميتة هي الحيوان الذي يمرض فيموت، ولذلك كانوا لا يحرمــون أي حيوان يموت بأي سبب آخر. وبعد الهجرة بأربع أو خمس سنين نزل تفصيل في صورة المائدة عن الميتة: **المنخنقة، والموقودة، والمتردية، والنطيحة وما أكل السبع،** موضــحاً أنه لا يحل منها **إلا ما ذكيتم.**

وفي سنة ٧ هــ حين انتصر المسلمون في خيبر وآلت إليهم ضياعها تم التفريق بين الحلال والحرام، وأُعلن أنه يحرم من اليــوم أكــل الحميــر، الســباع والوحــوش، والجوارح. وبعد فتح مكة سنة ٨ هــ اعتنقت قبيلة طي التي كانت تــدين بالنصــرانية–الإسلام، كما أسلم بعض مسيحيو الشام أيضاً. وكان هؤلاء القوم يربون كــلاب الصــيد ويصطادون بها. وبإسلامهم علموا أن الميتة حرام، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وعرضــوا عليه أمرهم، فنزلت فيهم هذه الآية الكريمة، قال سبحانه وتعالى:

" يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات " (المائدة:٤)

وبعد ذلك ورد أنه إذا كان حيوان الصيد مروضاً ويذكر اسم الله عليه حال إطلاقه للصيد فإن صيده حلال أكله.[١]

تحريم الخمر

يرى المعترضون أن أكبر سبب لانتشار الإسلام هو أن أغلب أحكامه، (مثل حكم تعدد الزوجات وغيرها) كانت تؤيد الأنانية؛ ولذا لم يجد العرب غضاضةً في قبوله، إذ أنه كان يُعبر عما يجيش في نفوسهم من رغبات. وسوف نتحدث عن هذا الأمر فيمــا بعــد. وهنا نتحدث فقط عن واقعة تحريم الخمر من الناحية التاريخية. لم يكن هناك شئ أحــب إلى نفوس العرب أكثر من الخمر، ومن ثم كان جميعهم مصابًا بهذا المرض. والخمر أهم موضوعات الشعر العربي، وقد نزلت سائر أحكام الإسلام تدريجياً ووفقاً للمصلحة العامة، ومن ثم حُرمت الخمر تدريجياً.

كان شرب الخمر يشيع بالمدينة المنورة أكثر من غيرها، فكان علية القوم والسادة يشربون الخمر علانية. وفي الوقت ذاته كان بين العرب أيضاً أناس صالحين قد تركــوا شرب الخمر واعتبروه منافياً للتقوى، وحتى ذلك الوقت لم يكن الإسلام قد أصدر حكمــه بصدد هذا الأمر، فبدأ الناس يتساءلون عن حكم شرب الخمر، فقال عمر ؓ:

اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاءً.

---

[١] للإطلاع على أسماء المصادر، انظر في التفاسير عن أسباب نزول هذه الآيات.

فنزلت هذه الآية الكريمة:

" يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما " (سورة البقرة: ٢١٩).

ظل الناس يشربون الخمر أيضاً حتى بعد نزول هذه الآية الكريمة. وذات مرة دعا أنصاري علي ﷺ وعبد الرحمن بن عوف إلى وليمته التي كان بها خمرٌ أيضاً، وبعد الطعام حان وقت صلاة المغرب، وصلى علي ﷺ بالناس، ولكنه أخطأ في التلاوة بسبب الثمالة. فكرر عمر دعاءه وقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاءً. فنزلت هذه الآية الكريمة:-

" لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون " (سورة النساء: ٤٣)

بعد نزول هذه الآية الكريمة، كان كلما حان وقت الصلاة، ينادي المنادي، بأمر من رسول الله ﷺ، بألا ينضم إلى الصلاة سكران.[١] ولكن لأن هذا الحكم لم يكن معمماً، كان الناس يشربون الخمر ويتشاربونها بدون حرجٍ في كل حين عدا وقت الصلاة. فكرر عمر ﷺ دعاءه مرة ثالثة. وكان بعض الناس في ذلك الحين يشربون الخمر ويثملون إلى الحد الذي يجعلهم يتقاتلون فيما بينهم.[٢] فنزلت هذه الآية الكريمة:[٣]

" يا أيها الذين أمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون " (سورة المائدة: ٩٠،٩١)

---

(١) وردت هذه الواقعة كاملة في كتاب الأشربة، أبو داود. وهذا نص الحديث (٣٦٧١) حدثنا عَبَّادُ بنُ مُوسَى الْخُتُّلِيُّ قَالَ أخبرنا إِسْمَاعِيلُ ــ يَعني ابنَ جَعْفَرٍ ــ عن إِسْرَائِيلَ عن أَبي إِسْحَاقَ عن عَمْرِو عن عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا في الْخَمْرِ بَيَاناً شِفَاءً، فَنَزَلَتْ الآيَةُ الَّتي في الْبَقَرَةِ: {يَسْأَلُونَكَ عن الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} الآيةُ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا في الْخَمْرِ بَيَاناً شِفَاءً، فَنَزَلَتْ الآيَةُ الَّتي في النِّسَاءِ {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ يُنَادِي: أَلاَ لا يَقْرَبَنَّ الصَّلاَةَ سَكْرَانٌ. فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فقالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا في الْخَمْرِ بَيَاناً شِفَاءً، فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا». (المترجم).

(٢) صحيح مسلم ج ٢ صـ ٣٢٨ ذكر سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٣) لم ترد الآيات كاملة في أبي داود؛ بل ذُكر بعضها وأُشير إلى الآية كلها.

بعد نزول هذه الآيات الكريمة قُطع بتحريم الخمر، وفي الوقت ذاته كلف رسول الله ﷺ مناديا بأن يطوف في أزقة وطرقات المدينة كلها معلناً بأن الخمر حرام من اليوم، ومع ذلك كله استمرت تجارة الخمر وتم تداول بيعها وشرائها، حتى حُرم ذلك أيضاً في سنة ٨ هـ، حيث جمع رسول الله ﷺ الناس في المسجد النبوي، وأعلن لهم ذلك في حينه.[١] بعد ذلك، وإبّان فتح مكة من نفس العام، حرم رسول الله ﷺ على الملأ تجارة هذه الأشياء، التي يَحْرم أكلُها أو اقتنائها. فقال ﷺ:

إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام.[٢]

- تدبر أن هذا كله يوضح كيف اقترن التطبيق العملي لتحريم الخمر بالإعلام العام عنه، ومع ذلك لم تتحدد حتى الآن السنة التي حدث فيها ذلك؟ فهناك اختلاف كبير بين المحدثين وأهل الرواية في هذا الأمر.[٣]

كتب الحافظ ابن حجر في فتح الباري، كتاب التفسير، سورة المائدة، باب ليس على الذين آمنوا التالي:

والذي يظهر أن تحريمها كان عام الفتح منه ثمان كما روى أحمد من طريق عبد الرحمن بن وعلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أو دوس فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال: يا فلان أما علمت أن الله حرمها. الخ

نرى أن رأى الحافظ ابن حجر وبرهانه يفتقدان الصواب؛ فما يثبت من هذه الرواية فقط هو أن هذا الرجل لم يكن قد تدارك إلى علمه تحريم الخمر حتى فتح مكة.[٤]

---

[١] صحيح البخاري (تفسير آية الربا، روى في باب تحريم بيع الخمر بصحيح مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: بعد نزول الآيات الأخيرة من سورة البقرة التي ورد بها حكم تحريم الربا، أعلن رسول الله ﷺ أن هذه الآيات قد نزلت في سنة ٨ هـ. " سيد سليمان الندوي ".

[٢] صحيحا البخاري ومسلم، باب تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام.

[٣] ذُكر في عدة مواضع من الجزء الأول لكتاب سيرة النبي ﷺ تاريخان لتحريم الخمر، الأول لجمهور كتاب السيرة، والثاني وفق تحقيق العلامة ابن حجر. أما التحقيق الأصلي لمؤلفي سيرة النبي ﷺ فهو ما ذُكر هنا مع آراء جمهور المحدثين في هذا الباب كما سيتبين فيما بعد. " سيد سليمان الندوي ".

[٤] إن هذا القياس الذي يذهب إليه المؤلف صحيح تماماً، فالرجل الذي تتحدث عنه في هذه الواقعة كان من قبيلة ثقيف أو من قبيلة دوس، وأسلمت قبيلة ثقيف في سنة ٨ هـ، ومع أن دوس كانت قد أسلمت قبل ذلك، إلا أنها كانت تقع على مسافة بعيدة جداً من المدينة، هذا فضلاً عن أن هناك مفارقةً أخرى

فمن أين يثبت إذن أن التحريم بدوره لم يكن قد نزل حتى ذلك الوقت أيضاً، فهناك كثير من الأحكام لم يتناهى خبرها إلى أهالي البلاد القصيّة إلا في فترةٍ متأخرة. وفضلاً عن أنه قد تبين من خلال بعض رواياته هو نفسه، أن تحريم الخمر قد نزل قبل فتح مكة. فإنه لا يمكن بأية صورة أن يظل شيئاً نجساً كالخمر محللاً حتى سنة ٨ هـ، ويتم تحريمه قبل وفاة الرسول ﷺ بسنتين فقط، والأصل في ذلك أن الخمر قد حُرمت في السنة الثالثة أو الرابعة من الهجرة.(١)

لم يلتفت إليها المحدثون وهي أنه حسبما أوردنا سابقاً في المتن، فإنه رغم تحريم الخمر سنة ٤ هـ إلا أن تجارتها لم تُلغَ. وكان هذا الرجل تاجر خمر، وقد تزامن حظر تداول الخمر مع تحريم الربا، الذي كان من آخر ما نزل من الأحكام، أي أنه قد تم تحريم شرب الخمر في المدينة المنورة سنة ٨ هـ؛ ولكن النبي ﷺ قد أعلن عنه إبّان فتح مكة، حسبما ورد صراحة في الصحيح من الأحاديث (انظر صحيح البخاري، تفسير آية الربا، وباب بيع الميتة والأصنام. صحيح مسلم، باب تحريم بيع الخمر) والحافظ ابن حجر هو الذي يؤيد أن تحريم الخمر قد نزل في سنة ٨ هـ، فقد كتب ذلك بنفسه في الجزء الأول صـ ١٦١ رداً على القاضي عياض. **قلت ومن الممكن أن يكون تحريم التجارة فيها تأخر عن وقت تحريمها والله أعلم**. وورد في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ رواية (باب تحريم الخمر، يتضح منها أن تحريم شرب الخمر وحظر تداولها قد نزلا معاً. ولكن ما ورد من روايات بعد ذلك عن السيدة عائشة رضي الله عنها وعن جابر بن عبد الله ﷺ، تثبت أنه قد حدث قدرٌ من التسامح في الرواية الأولى، إما مع أبي سعيد الخدري أو مع من تلاه من الرواة، وهذا هو الحق. فضلاً عن أن حديث الإمام أحمد الذي استدل به الحافظ بن حجر على أن تحريم شرب الخمر قد نزل في فتح مكة، قد ورد أيضاً في صحيح مسلم (باب تحريم بيع الخمر)، ولكن لم يتحدد فيه فتح مكة.

(١) أكبر دليل على ذلك هو أنه لما نزل تحريم شرب الخمر، تسائل الناس: وما بال إخواننا المسلمين الذين شاركوا في غزوة أحد وهم شاربو خمرٍ واستشهدوا على حالتهم هذه؟ فنزل فيهم قول الله تعالى: **"ليس على الذين آمنوا"**، ويتبين من هذا أن واقعة تحريم الخمر كان له وطيد الصلة بغزوة أحد، وقد نزلت في زمانها. وردت رواية عن جابر ﷺ في تفسير الآية المذكورة بصحيح البخاري:

صبح ناس غداة الخمر فقتلوا من يومهم جميعاً شهداء وذلك من قبل تحريمها.

ولْتربط هذه الرواية برواية أنس ﷺ التي وقعت بعدها:-

فقال بعض القوم قتل قوم وهي في بطونهم قال فانزل الله وليس على الذين آمنوا. . الخ

تحريم الربا[١]

كان الربا أيضاً إحدى مساوئ الأخلاق الذميمة التي كانت تسري في طبيعة العرب مسري الدم في العروق. ومن ثم نزلت أحكام تحريمه بتدريج بالغ. كانت قريش على عمومها تمتهن التجارة. وكان أمراؤهم وأثرياؤهم التجار يُقرضون الفقراء والمزارعين بفائدة ربوية معينة، وإذا لم يستردوا القرض، يزداد رأس المال الأساسي كل عام.[٢] وقد كان العباس عم النبي ﷺ نفسه (قبل الإسلام) صاحب تجارة وأعمال ربوية على مستوى كبير.[٣] وحين هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وجد أنواعاً رائجةً من الربا بسبب التجار اليهود. وكان أول ما أُطلق عليه رسول الله ﷺ وصف الربا هو تجارة النسيء في الذهب والفضة.[٤] ثم حُرّمت فائدة الضعفين والأربعة أضعاف ونزلت هذه الآية الكريمة:

" يا أيها الذين أمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون "(آل عمران: ١٣٠)

بعد ذلك حظر رسول الله ﷺ التقايض بالنقص أو بالزيادة بين الأشياء المتماثلة النوع.[٥] وفي سنة ٧ هـ بدأ المسلمون يتعاملون مع التجار اليهود عقب غزوة خيبر. وفي غضون ذلك أعلن رسول الله ﷺ أن بيع قيمة الدراهم والدنانير الذهبية بالنقص أو بالزيادة[٦] رباً أيضاً. أما الأحكام التفصيلية بشأن تحريم الربا، فقد نزلت سنة ٨ هـ. فكانت أول آية تنزل في سورة البقرة بعد آل عمران، قوله تعالى: " **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف " (البقرة : ٢٧٥)**

---

(١) أضفت هذا الموضوع من أوله إلى أخره " سيد سليمان الندوي ".

(٢) موطأ الإمام مالك، باب الربا.

(٣) ابن جرير الطبري، آية الربا.

(٤) صحيح مسلم، باب الصرف.

(٥) كتاب البيوع، كتب الصحاح.

(٦) صحيح مسلم، باب بيع القلادة فيها خرز.

كان الناس يعترضون لاعتبارهم أن الربا نوع من أنواع التجارة، وما دامت التجارة حلال، فلِمَ الربا حرام؟ وسيرد الرد على هذا السؤال في الأجزاء التالية لهذا الكتاب. ونحن هنا بصدد تاريخ تحريم الربا فقط. على أي حال لم تكن الآية السابقة تحريماً قطعياً للربا. ففي النهاية وبعد فترة وجيزة نزلت الآية الكريمة سنة ٨ هـ تقريباً (على الأغلب)، يقول الله تعالى:-

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون "

(سورة البقرة : ٢٧٨-٢٧٩)

حين نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ سائر المسلمين في المسجد وتلى عليهم هذا الحكم.[١] وفي سنة ٩ هـ عقدت معاهدة صلح مع أهل نجران، كان من بين بنودها ألا يتعاملوا بالربا.[٢] وفي حجة الوداع ذي الحجة سنة ١٠ هـ ألغى رسول الله ﷺ كل المعاملات الربوية التي كانت شائعةً في بلاد العرب قبل نزول هذه الآية الكريمة.

يقول ابن عباس ﷺ: إن تحريم الربا كان الحلقة الأخيرة من سلسلة الأحكام الإسلامية[٣].

---

[١] صحيح البخاري ومسلم، باب تحريم بيع الخمر. وهذا نص الحديث: (٢١٩٨) حدثنا مُسلم حدَّثنا شُعبةُ عنِ الأعمشِ عن أبي الضُّحىٰ عن مَسْروقٍ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: «لمّا نَزَلَتْ آياتُ سورةِ البقرةِ عن آخِرِها خَرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: حُرِّمَتِ التجارةُ في الخَمرِ» (المترجم).

[٢] أبو داود، باب أخذ الجزية. وهذا نص الحديث: (٣٠٤٣) حدثنا مُصَرِّفُ بنُ عَمْرٍو الْيَامِيُّ أخبرنا يُونُسُ يَعْنِي ابنَ بُكَيْرٍ أخبرنا أَسْبَاطُ بن نَصْرٍ الْهَمْدَانِيُّ عن إِسْمَاعِيلَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الْقُرَشِيِّ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قالَ: « صَالَحَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَهْلَ نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّةٍ. النِّصْفُ في صَفَرٍ وَالبقيةُ في رَجَبٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَى المُسْلِمِينَ وَعَارِيَةَ ثَلاَثِينَ دِرْعاً وَثَلاَثِينَ فَرَساً وَثَلاَثِينَ بَعِيراً وَثَلاَثِينَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ السِّلاَحِ يَغْزُونَ بِهَا وَالمُسْلِمُونَ ضَامِنُونَ لَهَا حَتَّى يَرُدُّوهَا عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ بِالْيَمَنِ كَيْدٌ ذَاتُ غَدْرَةٍ عَلَى أَنْ لاَ تُهْدَمَ لَهُمْ بَيْعَةٌ، وَلاَ يُخْرَجَ لَهُمْ قَسٌّ، وَلاَ يُفْتَنُوا عن دِينِهِمْ، مَا لَمْ يُحْدِثُوا حَدَثاً، أَوْ يَأْكُلُوا الرِّبَا». قال إِسْمَاعِيلُ: فَقَدْ أَكَلُوا الرِّبَا. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: إِذَا أَنْقَضُوا بَعْضَ ما اشْتُرِطَ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أَحْدَثُوا. (المترجم).

[٣] تفسير آية: "واتقوا الله". (سورة البقرة).

السنة الأخيرة، حجة الوداع، اختتام البعثة النبوية
ذي الحجة سنة ١٠ هـ الموافق سنة ٦٣٢ م

" إذا جاء نصر الله والفتح ۞ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ۞ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ۞ " (النصر:١-٣)

يبدو أن أول ما يتبادر إلى الذهن، أنه كان يجب أن يُنصح بالشكر على النصر والفتح، فما هي مناسبة تسبيحه واستغفاره سبحانه وتعالي؟ لذا سأل عمر ﷺ الصحابة عن معنى هذه الآية، وهم في صحبة، فقال الحضور معان متباينة. فنظر عمر ﷺ إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وكان صغير السن فتردد في الإجابة، ولكن عمر ﷺ شجّعه عليها، فقال: إن هذه الآية إعلان[١] عن قرب وفاة رسول الله ﷺ لأن الاستغفار خاص بالموت.

بعد نزول هذه السورة علم رسول الله[٢] ﷺ بقرب حلول وقت الرحيل. ولذا كان من الضروري إعلان كل المبادئ الأساسية للشريعة والأخلاق أمام العالم أجمع. وكان

---

[١] صحيح البخاري، تفسير سورة إذا جاء. وهذا نص الحديث: (٤٨٥٠) حدَّثنا عبدُالله بن أبي شيبةَ حدَّثنا عبدُالرحمن عن سُفيانَ عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس «أنَّ عُمرَ رضي الله عنه سألهم عن قوله تعالى: {إذا جاء نصرُ الله والفتح} قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: أجلٌ، أو مَثَلٌ ضُرِب لمحمد صلى الله عليه وسلم، نُعِيَت له نفسُهُ».(المترجم).

[٢] كتب الواحدي في أسباب النزول أن هذه السورة قد نزلت قبل وفاة رسول الله ﷺ بسنتين، ولكن ابن القيم قد كتب في زاد الميعاد أنها نزلت في سنة ١٠ هـ وفي أيام التشريق بعينها. وهذه الرواية الثانية في الحقيقة للبيهقي وقد صرح ابن حجر والزرقاني بأن سندها ضعيف. ولذا فإن رواية الواحدي صحيحة. وقد أورد السيوطي في أسباب النزول أيضاً، نقلاً عن عبد الرازق، هذه الرواية والتي تقول بأن سورة الفتح قد نزلت إثر فتح مكة مباشرةً. وفضلاً عن تصريحات الأئمة وإشارات الأحاديث، فإن ما جاء في هذه السورة نفسه يوضح أنها نزلت مقترنة بفتح مكة؛ أي قبل سنتين أو سنتين وتسعة أشهر تقريبا قبل حجة الوداع، والروايات التي تقول بأن هذه السورة قد نزلت قبل وفاة الرسول ﷺ بعدة أيام، ضعيفة من حيث الرواية والدراية. (سيد سليمان الندوي).

رسول الله ﷺ لم يؤد فريضة الحج منذ هجرته[١] إلى المدينة. فقد وقفت قريش حائلاً دون ذلك لفترة من الزمن. وسنحت الفرصة بعد صلح الحديبية، ولكن اقتضى الصالح العام أن يؤدي هذا الفرض آجلاً.

على أي حال، أُعلن في ذي القعدة[٢] أن الرسول ﷺ ذاهب إلى مكة بنية الحج. وبسرعة انتشر هذا الخبر وتدفقت جموع العرب من كل صوب وحدب لتشرف برفقة الحبيب ﷺ في رحلته هذه، وفي (يوم السبت) الموافق ٢٦ ذي القعدة اغتسل[٣] رسول الله ﷺ وارتدى ملابس الإحرام، وخرج من المدينة بعد صلاة الظهر، وأمر أمهات المؤمنين (رضوان الله عليهن) جميعاً بصحبته. ولما وصل ﷺ إلى منطقة ذي الحليفة (ميقات المدينة)، والتي تبعد عنها نحو ستة أميال، (أقام الليل كله فيها، ثم اغتسل ثانية في اليوم الثاني، وعطرت[٤] السيدة عائشة (رضي الله عنها) بدنه الشريف بيدها) ثم صلى رسول الله ﷺ ركعتين وامتطى القصواء بملابس الإحرام وقال بصوت عالٍ:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لك، لا شريك لك.

ويقول جابر راوي هذا الحديث: حين رفعت بصري رأيت على مدده زحاماً شديداً[٥] من الناس، عن يميني ويساري وأمامي ومن خلفي. وكلما قال رسول الله ﷺ لبيك؛ تتجاوب أصداء هذا النداء المهيب فترتعد به الصحاري والجبال.

---

[١] ورد في سنن ابن ماجة (باب حجة النبي ﷺ) أن الرسول ﷺ قد حج قبل الهجرة حجتين. أما ما ورد في بعض الأحاديث بأن النبي ﷺ قد حج حجةً واحدة (الترمذي، باب كم حج النبي ﷺ، وأبو داود، وقت الإحرام) فالمقصود به بعد الهجرة.

[٢] وردت حجة الوداع تفصيلاً في أبي داود وصحيح مسلم، وعنها أن الإمام باقر ﷺ لما كان قد فقد بصره، سأل جابر ﷺ عن أمر حج رسول الله ﷺ، ففتح جابر ﷺ نحر قميص الإمام باقر ﷺ ووضع كفه بلطف على صدره، حباً في آل بيت رسول الله ﷺ، وقال : ابن أخي سل عما بدا لك؟ ثم ذكرت كل تفاصيل حجة الرسول ﷺ . أما تحديد الأوقات فقد ورد أيضاً في البخاري ومسلم بروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما، و أنس ﷺ، والسيدة عائشة رضي الله عنها وقد أفرد الإمام النسائي باباً خاصاً في كتاب المناسك عن أوقات الرسول ﷺ بعنوان: باب الوقت الذي خرج فيه النبي ﷺ .

[٣] صحيح البخاري ومسلم.

[٤] ورد ذكر الغسل في طبقات ابن سعد، ذكر حجة الوداع صـ ١٢٤.

[٥] شارك في هذه الحجة مائة ألف مسلم على الأقل.

كان الناس قد بنوا مساجد في المواضع التي كان رسول الله ﷺ قد صلى فيها إبّان فتح مكة تبركاً. فكان رسول الله ﷺ يذهب إلى المساجد ويصلي بها، ولما وصل إلى سرف اغتسل، ودخل إلى مكة المكرمة في صبيحة اليوم الثاني الذي وافق يوم الأحد الرابع من ذي الحجة. وفي هذه الرحلة المباركة قُطعت المسافة من المدينة المنورة إلى مكة في تسعة أيام، ولما علم بنو هاشم بخبر قدوم رسول الله ﷺ خرجوا فرحين، ومن فرط حب رسول الله ﷺ لهم، أجلس[1] أحدهم أمامه وآخر خلفه فوق ناقته. وحين وقع نظره على الكعبة، دعا الله تعالى أن يزد فى إجلال وتعظيم هذا البيت ". ثم طاف بالكعبة الشريفة، ولما فرغ من الطواف صلى ركعتين في مقام إبراهيم وتلا هذه الآية الكريمة:

" واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى "

ولما بلغ الصفا قال:

«نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ ثُمَّ قَرَأَ قوله تعالى: " إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ».[2]

ولما رأى الكعبة من هناك، قال:

" لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده "

نزل رسول الله ﷺ من الصفا إلى المروة فدعا فيه ولبىّ أيضاً، وكان العرب يعتقدون أنه لا يجوز أن تقام العمرة في أيام الحج، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الطواف بين الصفا والمروة أمر الناس الذين لم يكن لديهم أضحية، بأن يتموا شعائر العمرة ثم يخلعوا ملابس الإحرام، فاعتذر بعض الصحابة عن الإذعان لهذا الأمر وفقاً للتقاليد الشائعة، فقال رسول الله ﷺ: وَلَوْلاَ الْهَدْيُ لَحَلَلْتُ[3]. وكان علي ﷺ قد بُعث إلى اليمن من

---

[1] النسائي، باب استقبال الحج. وهذا نص الحديث: (٢٨٩٦) أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ وَهُوَ ابْنُ زُرَيْعٍ عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، : أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ اسْتَقْبَلَهُ أُغَيْلِمَةُ بَنِي هَاشِمٍ قَالَ: فَحَمَلَ وَاحِدًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَآخَرَ خَلْفَهُ.(المترجم).

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٢٩٧٢) أَخْبَرَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: أَنْبَأَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا جَابِرٌ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الصَّفَا وَقَالَ: «نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ ثُمَّ قَرَأَ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ».(المترجم).

[3] وهذا نص الحديث كما ورد في سن الترمذي: (٢٨٠٦) أَخْبَرَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: أَهْلَلْنَا أَصْحَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِالْحَجِّ خَالِصًا لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُهُ خَالِصًا وَحْدَهُ فَقَدِمْنَا مَكَّةَ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ مَضَتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ فَأَمَرَنَا

قبل ذلك، فقَدِم إلى مكة في هذا الوقت مستصحباً الحجاج اليمنيين، ولأنه كان لديهم الأضاحي، لذا لم يخلعوا ملابس الإحرام. وفي الخميس الموافق الثامن من ذي الحجة أقام رسول الله ﷺ مع سائر المسلمين في منى. وفي اليوم التالي التاسع من ذي الحجة صلى معهم الفجر ثم انطلق من منى.

كان من عادة أهل قريش أنهم إذا خرجوا من مكة للحج أن يقيموا بعرفات بدلا من يقيمون بالمزدلفة ــ والتي كانت على حدود الحرم ــ فكانوا يرون أنهم إذا أدوا مناسك الحج في أية منطقة أخرى عدا الحرم فستختل عظمة تفردهم. لكن الإسلام الذي جاء لإرساء مبادئ المساواة العامة لم يكن ليُحلِّل هذا التخصيص. لذلك (أمر الله تعالى:) "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس". وقَدِم رسول الله ﷺ مع جموع المسلمين إلى عرفات.[1] (وأمر أحدهم أن يقول في الناس:[2])

قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم

أي أن وقوف الحجيج بعرفة إحياء لذكرى إبراهيم عليه السلام **فهو الذي خصصه لهذا الغرض. وفي منطقة نمره بعرفات، أقام رسول الله ﷺ في خيمة. ولما حان وقت الظهيرة امتطى ناقته (القصواء) وجاء في الميدان وخطب وهو على ناقته.**

كان هذا هو أول يوم يتجلى فيه الإسلام بكامل رفعته وجلاله ويمحق كل طقوس الجاهلية الواهية، فقال رسول الله ﷺ:

ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع (صحيح مسلم وأبو داود[3])

النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «أَحِلُّوا وَاجْعَلُوهَا عُمْرَةً» فَبَلَغَهُ عَنَّا أَنَّا نَقُولُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَرَفَةَ إِلاَّ خَمْسٌ أَمَرَنَا أَنْ نَحِلَّ فَنَرُوحَ إِلَى مِنًى وَمَذَاكِيرُنَا تَقْطُرُ مِنَ الْمَنِيِّ فَقَامَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَخَطَبَنَا فَقَالَ: «قَدْ بَلَغَنِي الَّذِي قُلْتُمْ وَإِنِّي لأَبَرُّكُمْ وَأَتْقَاكُمْ وَلَوْلاَ الْهَدْيُ لَحَلَلْتُ وَلَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ» قَالَ: وَقَدِمَ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ: «بِمَا أَهْلَلْتَ؟» قَالَ: بِمَا أَهَلَّ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «فَأَهْدِ وَامْكُثْ حَرَامًا كَمَا أَنْتَ» قَالَ: وَقَالَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ عُمْرَتَنَا هَذِهِ لِعَامِنَا هَذَا أَوْ لِلأَبَدِ قَالَ: «هِيَ لِلأَبَدِ». (المترجم).

[1] صحيح البخاري، باب الوقوف بعرفه.

[2] أبو داود، موضع الوقوف بعرفه.

[3] هذه الجمل وما تلاها من جمل عربية مقتطفات من خطبة رسول الله ﷺ (وهذه الجمل لم ترد مجموعة في حديث واحد ولذلك اضطررنا لجمعها من عدة مصادر) وقد وردت هذه الخطبة في صحيح البخاري وصحيح مسلم(باب حجة النبي وباب الديات، وفي أبي داود (باب الأشهر الحرم وحجة النبي

كانت أكبر عقبة كدّاء في رحلة الكمال الإنساني هي التمييز بين الطبقات، التي كانت تدعمها جميع الأمم والدول والديانات في العالم بشتى الصور. فكان هناك أباطرة الدولة المجوسية التي لم يكن لأحد كلمة أمامهم، كما لم يكن مباحاً لأحدٍ أن يتحدث مع سدنة الديانات في أمور الدين. وكان يُنظر للأشراف على أنهم كائن أسمى من بسطاء الناس. وبالطبع كان يستحيل مساواة العبيد بأسيادهم، أما اليوم، فقد سقطت كل هذه الفروق والامتيازات والحدود، فقال ﷺ:

«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى.[1](مسند أحمد)

ﷺ) وغيرها بروايات ابن عباس ﷺ، و ابن عمر ﷺ، و أبي إمامه الباهلي، و جابر ﷺ، و أبي بكر ﷺ، وغيرهم من الصحابة الكرام. وهناك بعض عبارات مشتركة بين هذه الروايات مثل قوله ﷺ: **إن مالكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة... الخ**، وبعضها مختلف. فضلاً عن ذلك هناك عبارات أخرى غير هذه أو ذاك واردة في كتب السيرة والغزوات. والأصل في ذلك أنها كانت خطبة طويلة. فكل راو منهم روى العبارة التي تذكرها. وهذا ما دفعنا إلى جمع هذه الأجزاء والقطع من مصادر مختلفة، أشرنا إليها في مواضعها، هذا ولم يذكر المؤلف بعض العبارات الهامشية للخطبة. وهناك اختلاف آخر في الروايات. فبينما يذكر جابر ﷺ في روايته، و ابن عباس ﷺ في إحدى الروايات، أن الخطبة كانت يوم عرفة أي ٩ ذي الحجة، يذكر أبو بكر ﷺ وابن عباس ﷺ في روايات أخرى أنها كانت يوم النحر أي ١٠ ذي الحجة. كما قالت بعض الروايات أن الخطبة كانت في أيام التشريق، وقد أوردها ابن إسحاق على أنها خطبة مسلسلة، ووردت عدة فقرات من خطبة حجة الوداع في ابن ماجه، والترمذي ومسند أحمد، والتي لم يُصرح فيها بالتاريخ الذي ألقى فيه الرسول ﷺ هذه الخطبة. على أي حال يثبت من كل سائر الروايات والمسانيد والصحاح الستة أن الرسول ﷺ قد خطب عدة مرات في هذه الحجة. الأولى في يوم عرفة ٩ ذي الحجة، والثانية في يوم النحر ١٠ ذي الحجة، والثالثة في أيام التشريق ١١ أو ١٢ ذي الحجة، وفي هذه الخطب بعض الأمور المشتركة وأمور أخرى ذات مقام خاص. ومن الممكن جداً أن يكون كما صرّح بعض المحدثين أنه لما كان الزحام شديداً للغاية وكانت الرسالة التي كان يبغي رسول الله ﷺ إبلاغها لأمته بالغة الأهمية، كرر رسول الله ﷺ بعض عبارات خطبته. "سيد سليمان الندوي".

[1] أورد الإمام أحمد هذه العبارات عن طريق التابعي أبو نضرة، الذي روى بدوره عن صحابي سمع بنفسه خطبة حجة الوداع من الرسول ﷺ. نقلاً عن منتقى الأخبار، ابن تيميه مع نيل الأوتار.

إن كل مسلم أخو المسلم وإن المسلمين أخوة. (مستدرك الحاكم ج١ صـ٩٣ والطبري وابن إسحاق)

أرقاءكم أرقاءكم أطعموهم مما تأكلون وأكسوهم مما تلبسون. (ابن سعد بسند).

كان في بلاد العرب، إذا قتل أحدٌ آخرًا وجب على القبيلة كلها جيلاً بعد جيل الثأر لهُ، لدرجة أنه مع مرور مئات السنين، يظل هذا الواجب كما هو، مما كان ينتج عنه سلسلة غير نهائية من المعارك تلوث أراضي العرب بالدماء على الدوام. أما اليوم فقد حان الوقت الذي تُلغى فيه هذه العادة القبلية التي كانت أدعى ما يبعث على الفخر عند القبائل من بين أعتق التقاليد العربية. (وأول من يقدم نفسه نموذجاً لهذا هو منادى البعثة النبوية نفسه) فقال رسول الله ﷺ :-

وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ[1] الْحَارِثِ. (صحيح البخاري ومسلم وأبو داود برواية جابر)

كانت تنتشر في بلاد العرب شبكة من المعاملات الربوية تُشد بها أعصاب الفقراء ويظلون دائماً عبيداً لدائنيهم. أما الآن فقد حان هذا اليوم الذي تُفكك فيه خيوط هذه الشبكة. ولإتمام هذا الواجب أيضاً، يُطبقه معلم الحق على عشيرته قبل الجميع، فقال ﷺ:

وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُ رِبَانَا، رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.[2] (صحيح مسلم وأبو داود)

كانت النساء حتى ذلك اليوم ممتلكات منقولة يمكن المقامرة بها في الميسر. أما اليوم فهو أول يوم يُتوج فيه هذا الكائن المقهور، هذا الجنس الضعيف، هذا الجوهر الرصين بتاج التقدير والإجلال، فقال ﷺ:

فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ (صحيح مسلم وأبو داود)

وقال أيضاً:

---

[1] كان ربيعة من بني قريش وكان الثأر لدمه يتوارث كواجب عصبي (كان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وتذكر بعض الروايات أن الحديث هنا عن مقتله، ولكن هذا غير صحيح، فلقد ظل ربيعة حي يرزق حتى عهد خلافة الفاروق ﷺ، وتوفي في سنة٢٣ هـ. أما الصحيح أنه كان للربيعة ولدٌ اسمه إياس، وكان يتربى في قبيلة بني سعد فقتلته هذيل. انظر أبو داود، صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ، والزرقاني ج٨ صـ٢٠١.

[2] كان العباس ﷺ عم الرسول ﷺ يتعامل بالربا قبل إسلامه، وكانت له فوائد ما تزال عالقة في رقاب كثير من الناس، انظر تفسير آية الربا.

إن لكم على النساء حقاً ولهن عليكم حقاً[1] (الطبري، ابن هشام وغيره)

لم يكن لدى العرب أي اعتبار للأرواح ولا الأموال، فمن أراد قتل امرئ قتلـه، ومن أراد مال أحد سلبه، أما اليوم فهذا أمير الأمن والسلام يتلو على العالم أجمع رسـالة السلام، قال ﷺ :

إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوَالَكُم عَلَيْكُم حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُم هٰذَا في شَهْرِكُم هٰذَا في بَلَدِكُم هٰذَا.[2]

ظهر في العالم ديانات عظمى قبل الإسلام، إلا أن دعائمها لم تؤسس على المبادئ التحريرية لرب الشريعة نفسه، فقد أضاع هوس العباد حقائق الإرشادات التي أرسلها رب العباد. أما نبي الديانة الأبدية، فهاهو اليوم بعد انقضاء حياته يُسلم بيده مجموعة التعـاليم الربانية التي تلقاها إلى أمته مؤكداً، قال ﷺ:

وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ. كِتَابُ اللَّهِ. (الصحاح)

بعد ذلك أعلن رسول الله ﷺ عدة أحكام أصولية، فقال:

إن الله عز وجل قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث. الولد للفراش، وللعـاهر الحجر، وحسابهم على الله. من دعى إلى غير أبيه وانتهي إلى غير مواليه فعليه لعنـة الله. ألا لا يحل لامرأة أن تعطي من مال زوجها شيئاً إلا بإذنه. الدين مقضيٌّ، والعاريـة مؤداة، والمنحة (مردودة والزعيم غارم).[3]

قال هذا، ثم خاطب الجموع، فقال: **وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي. فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ (صحيح مسلم، أبو داود)**

فقال الصحابة (رضوان الله عليهم) إنا سنقول أنك بلغت رسالة الله وأديت أمانتك، فرفع ﷺ إصبعه إلى السماء وقال ثلاث مرات:

«اللَّهُمَّ اشْهَدْ. اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (صحيح مسلم وأبو داود)

---

[1] بعد ذلك سرد ﷺ واجبات الزوج والزوجة بالتفصيل.

[2] صحيح البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم.

[3] ورد هذا في سنن ابن ماجه، باب الوصايا ومسند أبو داود و الطيابسي، برواية أبي إمامة البـاهلي، وبإيجاز في أبي داود، كتاب الوصايا. كما روى ابن سعد وابن إسحاق بسندٍ أن الرسول ﷺ قال هـذا في خطبة عرفات.

وفي ذلك الوقت ذاته، حيث كان رسول الله ﷺ يقوم بأداء هذا الواجب النبوي، نزلت هذه الآية الكريمة:[1]

" **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** "

كان المشهد الباعث على الدهشة والعبرة أنه في الوقت الذي كان يعلن فيه سيد العالم أوامر ربه لحشد من مئات آلاف الناس كان مسند عرشه (عبارة عن رحل ومنشفة عرق) لا يزيد ثمنه عن درهم واحد.[2]

فرغ النبي ﷺ من الخطبة وأمر بلال ﷺ برفع الآذان وصلى الظهر والعصر جمعاً، ثم امتطى ناقته ودخل إلى موقف عرفات، وهنا وقف واستقبل القبلة ثم أخذ يدعو الله لفترة طويلة. ولما أوشكت الشمس على الغروب، تأهب الرسول ﷺ للرحيل من هناك، فأجلس أسامه بن زيد ﷺ خلفه على الناقة. شد رسول الله ﷺ خطام الناقة حتى كاد عنقها أن يصل إلى رحلها، وأصيب جموع الناس بالهلع، فأشار الرسول ﷺ بساعده الأيمن، وفي البخاري، بالسوط فيما يعني التهدئة وقال بلسانه الشريف:

السَّكِينَةُ أيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةُ أيُّهَا النَّاسُ.[3]

نزل رسول الله ﷺ في الطريق فتطهر، وقال أسامة: يا رسول الله ! إن وقت الصلاة يوشك على الانقضاء، فأشار رسول الله ﷺ إلى أن وقت الصلاة يأتي لاحقاً.

وبعد فترة وجيزة وصل الرسول ﷺ مع سائر القافلة إلى مزدلفة، فصلوا فيها المغرب. بعد ذلك ذهب الناس إلى محط ركابهم وأجلسوا الركاب، فما كادوا يفتحون أمتعتهم حتى نودى على الفور لصلاة العشاء. ولما فرغ النبي ﷺ اضطجع واستراح حتى الصباح، ولم ينهض للعبادة ليلا حسب عادته اليومية. وقد كتب المحدثون أن هذه هي الليلة الوحيدة التي لم يصل فيها رسول الله ﷺ صلاة التهجد. وفي الصباح الباكر نهض ﷺ فصلى صلاة الفجر جماعةً. ولما كان مشركو قريش يرحلون عن المزدلفة حين يكتمل شروق الشمس وتلتمع أشعتها ونورها على صخور الجبال المحيطة. وكانوا يقولون حينئذ بصوت عالٍ ألا جبل شبيرا تلألأ بالشمس، رحل الرسول ﷺ قبل شروق الشمس لكي يُبطل هذه العادة. وكان هذا يوم السبت الموافق العاشر من ذي الحجة.

---

(1) صحيح البخاري ومسلم،وأبو داود وغيرهم وبتصريح خاص في ابن سعد.

(2) طبقات ابن سعد، صـ١٢٧ (كتاب الشمائل للترمذي وابن ماجه).

(3) البخاري ومسلم وأبو داود.

كان الفضل بن عباس ﷺ ابن عم رسول الله ﷺ معه على الناقة. وكان أهل الحاجة يقبلون عن اليمين وعن اليسار مستفسرين عن أمور الحج، وكان الرسول ﷺ يجيبهم ويعلمهم مناسك الحج بكل دقة. ومن طريق وادي محشر قدم رسول الله ﷺ إلى موضع رمي الجمرات، وقال لابن العباس ﷺ، الذي كان صغير السن وقتئذ: «أُلْقُطْ لِي حَصًى، ورمى رسول الله ﷺ الجمرات وهو يقول للناس:[1]

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ [2]الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ (ابن ماجة والنسائي)[3]

وفي غضون ذلك قال رسول الله ﷺ أيضاً:

«لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ. فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هٰذِهِ». (مسلم وأبو داود)[4]

ولما فرغ رسول الله ﷺ من رمي الجمرات ذهب إلى باحة منى، فكان يحيطه من كل جانب حوالي مائة ألف مسلم، عن يمينه المهاجرون، وعن يساره الأنصار وفي الوسط صفين لعامة المسلمين. وكان الرسول ﷺ ممتطياً ناقته، فيما كان زمامها في يد بلال ﷺ وكان أسامة بن زيد يلحق بهم في الخلف مستظلاً بثوب. ولما رفع رسول الله ﷺ بصره ورأى هذا الحشد العظيم تجسدت أمام ناظريه نتائج ٢٣ سنة قضاها في القيام بواجبات البعثة. فهاهو نور الاعتراف والإذعان للحق ينير العالم من الأرض إلى السماء. وهاهو ختم ختام النبوة يُصكّ، في ديوان القضاء، على جلائل دعوات الأنبياء السابقين، وهاهي

---

[1] النسائي.

[2] كتبها المؤلف " فإنما أهلك قبلكم " والصحيح ما قمنا به في المتن بعد الرجوع إلى المصادر العربية. (المترجم).

[3] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن ابن ماجه: (٣١٠٣) حدثنا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ. حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ عَوْفٍ، عَنْ زِيَادِ بْنِ الْحُصَيْنِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ، غَدَاةَ الْعَقَبَةِ. وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: «أُلْقُطْ لِي حَصًى» فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ، هُنَّ حَصَىٰ الْخَذْفِ. فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ وَيَقُولُ: «أَمْثَالَ هٰؤُلاَءِ فَارْمُوا» ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ».(المترجم)

[4] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٣٠٩١) حدثنا إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَ عَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ. جَمِيعاً عَنْ عِيسَى بْنِ يُونُسَ. قَالَ ابْنُ خَشْرَمٍ: أَخْبَرَنَا عِيسَىٰ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ. أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِراً، يَقُولُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ يَرْمِي عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ. فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هٰذِهِ». (المترجم)

الدنيا بعد آلاف السنين من إبداعها تسمع على لسان كل ذرة في الكون بشارة إتمام دين الفطرة. وفي ذروة هذه الأجواء الروحانية حلقت على لسان الحق تمتمات وتسبيحات بأعمال محمد رسول الله ﷺ.

والآن قد حان بدء شريعة جديدة ونظام جديد وعالم جديد، ومن ثم قال ﷺ:

«إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدارَ كهيئته يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ والْأَرْضَ» (برواية أبي بكرة)

كان تقويم الخليل إبراهيم لموسم الحج قد تراجع عن موعده، والسبب في ذلك أنه لم يكن مباحاً في ذلك العهد أي نوع من سفك الدماء.[1] ولذا كانت أهواء العرب الدموية تُخَفِّض عدد أيامه أحياناً وتزيدها في أخرى وفقاً للاستراتيجية الحربية. أما الآن فقد حان اليوم الذي تتحدد الأشهر الحرم أمام هذا الجمع العظيم، فقال رسول الله ﷺ:

السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً، مِنها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلاثٌ مُتَوالِياتٌ: ذو القَعْدَةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بَيْنَ جُمادى وشَعْبانَ».. (برواية أبي بكرة)[2]

ثمة ثلاثة أشياء يتمحور حولها العدل والظلم في الدنيا بأسرها هم: المال، والعرض، والدم. ومع أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد تحدث عنهم في خطبة الأمس، إلا أن صدأ القرون الذي اعتلى العرب يحتاج على تكرار التوكيد. وهو اليوم قد انتقى لهم أسلوباً بيانياً بليغاً وطريفاً أيضاً.

---

[1] يرجع احترام العرب وتقديسهم لأشهر الحج هذه إلى زمن موغل في القدم، فقد كانت كل فرق العرب سواء كانت يهودية أو نصرانية أو من اتباع أية ديانة أخرى تُكن جميعاً وبالتساوي كل إجلال وتقدير لها، ولذا كانوا يحرمون الحروب والمنازعات في هذه الشهور، ويحفل الشعر العربي القديم بالحديث عنها. كما ورد ذكر هذه العقيدة العربية في تاريخ الروم؛ ففي سنة ٥٤١ م كان الروم يقومون بتجهيز هجوم على الشام وفلسطين، وفي الوقت نفسه كانوا يخافون من هجوم العرب. فأخبرهم قائد بن رومي، كان على دراية بأحوال العرب الداخلية، بأنه لا خطر من العرب في هذه الفترة لأنه قريباً سيحل عليهم شهرين ينشغلون فيهما بالعبادة ولا يتسلحون بأي نوع من الأسلحة. نتائج الإفهام، محمود باشا الفلكي صـ٣٥ نقلاً عن الجمعية الأسيوية العامة (إبريل سنة ١٨٤٣ م). "سيد سليمان الندوي".

[2] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح ابن حبان: (٥٨٧٣) أخبرنا الحسينُ بنُ عبدِ الله القَطَّانِ، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ هانيء، حَدَّثنا عَبْدُ الوهَّابِ الثقفيُّ، حَدَّثنا أيوبُ، عن محمد بنِ سيرينَ، عن ابنِ أبي بَكْرَةَ عن أبي بَكْرَةَ، عَنِ النبيِّ قالَ : «إنَّ الزَّمانَ قَدِ اسْتَدارَ كهيئته يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ والْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنا عَشَرَ شَهْراً، منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلاثٌ مُتَوالِياتٌ: ذو القَعْدَةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بَيْنَ جُمادى وشَعْبانَ».(المترجم).

خاطب رسول الله ﷺ الناس فسألهم: أتدْرونَ أيُّ يومٍ هـذا؟ فقـال النـاس: اللّـهُ ورسولهُ أعلمُ، فصمت قليلاً. فظن الناس أنه سيسمى هذا اليوم اسماً آخـر. وبعـد فتـرة صمت، قال: فإنَّ هذا يومٌ حرام. فقال الناس: نعم بلا ريب، ثم قال: أ فتدرون أيُّ شـهرٍ هذا؟ فردوا بنفس الطريقة، وصمت رسول الله ﷺ بعض الوقت أيضاً ثم قال: شهرٌ حرام. فقالوا: نعم بلا ريب. ثم سألهم: أ فتدرون أيُّ بلدٍ هذا؟ فأجابوا بنفس الإجابـة، وصـمت رسول الله ﷺ بنفس الطريقة أيضاً، ثم قال: بلدٌ حرام. فقالوا: نعم ولا ريب. ولمـا تـيقن الاعتقاد في قلوب السامعين أن لهذا اليوم، ولهذا الشهر، ولهذه البلدة قداسة التحـريم، أي أنه لا يجوز في هذا اليوم وفي هذا المكان القتال وسفك الدماء، عندئذ قال رسول الله ﷺ: **فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هـذا فـي بلدكم هذا.**[1] **(برواية أبي بكرة)**

لقد ظل هلاك الأمم وضياعها دائماً نتيجةً لاقتتالها وتناحرها وتبادلها لإراقة الدماء فيما بينها. وهاهو النبي الذي جاء لإرساء دعائم أمةٍ أبديةٍ، يقول لأتباعه بصوت مرتفع: **ألا لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، وستلقون ربكم فيسـألكم عـن أعمالكم. (برواية أبي بكرة)**

كان الملمح المشترك للظلم والجور في كافة أرجاء العالم أنه إذا بدر إثماً من أحد أفراد قبيلة ما، كان كل فرد في هذه القبيلة يُعد مجرماً مسئولاً عن هذا الإثم، وفي الغالب كان الملك يعاقب من يستطع أن يتسلط عليه من أفراد القبيلة بلا ذنب، خاصـة إذا كـان المجرم الحقيقي قد تمكن من الاختباء أو لاذ بالفرار. فكان الابن يشنق في جريمة ارتكبها أباه، كما كان الأب يتعرض للجزاء في جريمة لابنه، كان هذا القانون المفرط في العسف

---

[1] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (١٧٢٢) حدثنا محمدُ بنُ المُثنّى حدثنا يَزيدُ بنُ هارونَ أخبرَنا عاصمُ بنُ محمدِ بن زيدٍ عن أبيهِ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللّهُ عنهما قال: قـال النبـيُّ صلى الله عليه وسلم بمِنًى: أتدْرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ قالوا: اللّهُ ورسولهُ أعلمُ، فقال: فإنَّ هذا يومٌ حرام. أ فتدرون أيُّ بلدٍ هذا؟ قالوا: اللّهُ ورسولهُ أعلم، قال: بلدٌ حرام. أ فتدرون أيُّ شهرٍ هـذا؟ قـالوا: اللّـهُ ورسولهُ أعلم، قال: شهرٌ حرام. قال: فإنَّ اللّهَ حرَّم عليكم دِماءكم وأموالَكم وأعراضَكم كحُرمةِ يومِكم هذا، في شهركم هذا، في بلدِكم هذا» وقال هِشامُ بنُ الغازِ: أخبرَني نافعٌ عنِ ابنِ عمرَ رضـيَ اللّـهُ عنهما «وقفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يومَ النحرِ بينَ الجَمَراتِ في الحجةِ التي حجَّ بهذا، وقال: هذا يومُ الحجِّ الأكبر. فطَفِقَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقولُ: اللّهمَّ اشهدْ. ووَدَّعَ الناسَ فقالوا: هذه حَجَّـةُ الوَداع». (المترجم)

والجور هو الذي تُجرى به الأحكام في شتى بقاع الدنيا. ومع أن القرآن الكريم كان قد استأصل هذا الظلم للأبد، على ضوء من القانون الرحب الذي سنه قوله تعالى: **ولا تزر وازرة وزر أخرى**، إلا أنه لما كان خاتم النبيين يُنسق في ذلك الوقت نظاماً سياسياً جديداً كان لا يمكن أن ينسى هذه المبادئ، فقال ﷺ:

أَلاَ لاَ يَجْنِي جَانٍ إِلاَّ عَلَى نَفْسِهِ، أَلاَ لاَ يَجْنِي جَانٍ عَلَى وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدِهِ.(ابن ماجه والترمذي)

كان أكبر سبب في تفشى الفوضى بين العرب والفشل في وضع نظام مقنن للحكم فيها، هو أن كل شخص منهم يدعى ألوهيته وفوقيته، ويعتبر إذعانه وانقياده لأي أحد آخر من باب العار والمذلة. فقال ﷺ:

«إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ أَسْوَدُ يَقُودكُمْ بِكِتَابِ اللَّه، فاسْمَعُوا وأَطِيعُوا» (صحيح مسلم)[1]

في ذلك الوقت كانت شتى بقاع صحارى العرب قد أشرقت بنور الإسلام، وصارت الكعبة مركزاً لملة إبراهيم عليه السلام إلى أبد الآبدين، وقد قوضت كل قوى الفساد والفتن، ومن ثم قال النبي ﷺ:

أَلاَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَداً. وَلَكِنْ سَيَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَيَرْضَىٰ بِهَا.(ابن ماجه والترمذي)

وفي النهاية، ذكرهم البني ﷺ بأركان الإسلام الأساسية، فقال:

اعبدوا ربكم، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم. (مسند أحمد، ج٥، صـ ٢٥١، ومستدرك الحاكم، ج١، صـ ٣٩٨، صـ ٤٧٣).[1]

---

[1] وقد ورد هذا الحديث في صحيح ابن حبان وهذا نصه كاملا: (٤٤٧٤) أخبرنا أبو يعلى، قال: حدثنا عبدُ الجبَّار بنُ عاصم أبو طالب، قال: حدثنا عُبَيْدُ اللّه بنُ عمرو، عن زيد بن أبي أُنيسة، عن يحيى بن الحُصين عن أمّ الحُصين أنّها حدّثته، قالت : حَجَجْتُ مَعَ رسولِ اللّه حَجَّةَ الوداعِ، فرأيتُ أُسامة أو بلالًا يَقُودُ بخِطَامِ ناقةِ رسولِ اللّه، والآخرُ رَافِعٌ ثوبهُ يَسْتُرُهُ به من الحَرّ حتّى رمى جَمْرَةَ العقبة، ثم انصرف، فوقفَ النّاسُ، وقد جعلَ ثوبَه من تحت إبطه الأيمن على عاتقه الأيسر، قال: فرأيتُ تَحْتَ غُضروفه الأيمنِ كهيئة جُمْعٍ، ثم ذكرَ قولًا كثيراً وكانَ فيما يقولُ : «إنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ أَسْوَدُ يَقُودكُمْ بِكِتَابِ اللَّه، فاسْمَعُوا وأَطِيعُوا» ثم قال: «هَلْ بَلَّغْتُ».(١:١٢) (المترجم).

قال هذا وأشار إلى جموع الناس فقال:

ألا هل بلغت

فقال الجميع: نعم! فقال:

اللهم اشهد.

ثم خاطب الناس فقال:

فليبلغ الشاهد الغائب.

وفي نهاية الخطبة ودَّع رسول الله ﷺ سائر المسلمين.[٢]

- بعد ذلك ذهب رسول الله ﷺ إلى موضع الأضاحي، وقال: إن منى لم تخصص للأضاحي بل يجوز التضحية في كل أحياء منى ومكة. كان مع رسول الله ﷺ مائة ناقة للأضحية، ذبح بعضها بيديه، ووكل علي ﷺ بذبح بقيتها، وأمره أن يتصدق بلحمها وجلدها وكل ما فيها حتى أنه أمره أيضاً ألا يدفع أجرة الجزار منها بل بمنأى عنها.

ولما فرغ ﷺ من الأضحية، استدعى معمر بن عبد الله وحلق رأسه، ومن فرط محبته أهدى بيده الشريفة بعض شعره إلى أبي طلحة الأنصاري ﷺ وزوجته أم سليم وبعض ممن كانوا بجواره،[٣] وقام أبو طلحة ﷺ بتوزيع الباقي على سائر المسلمين لكل منهم شعرتين. بعد ذلك ذهب رسول الله ﷺ إلى مكة المكرمة، وطاف بالكعبة. ثم ذهب إلى بئر زمزم.

كان بنو عبد المطلب هم المسئولون عن سقاية الحجيج من بئر زمزم. ولذلك كان أفراد هذه القبيلة في ذلك الوقت يستخرجون الماء ويسقونه للناس. فقال رسول الله ﷺ: انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن تغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ".

---

[١] يتبين أن هذه الخطبة كانت طويلة جداً، فورد في صحيح مسلم في (الحج) أنه **قال قولاً كثيراً**. وقد ورد في (حجة الوداع) بصحيح البخاري أن الرسول ﷺ تحدث في هذه الخطبة عن الدجال أيضاً، ولكنه لم يُعين أنه ﷺ قال هذا في خطبة أي يوم.

[٢] صحيح البخاري، باب الخطبة أيام منى.

[٣] صحيح مسلم، أبو داود. وهذا نص الحديث (١٩٨٣) حدثنا مُحمَّدُ بنُ الْعَلاَءِ أخبرنا حَفْصٌ عن هِشَامٍ عن ابنِ سِيرِينَ عن أَنَسِ بنِ مَالِك، : «أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم رَمَى جَمْـرَةَ الْعَقَبَـةِ يَـوْمَ النَّحْرِ، ثُمَّ رجَعَ إلى مَنْزِله بِمِنى فَدَعَا بِذِبْحٍ فَذَبَحَ، ثُمَّ دَعَا بالْحَلاَّقِ فَأَخَذَ يَشُقُّ رَأْسَهُ الأَيْمَنَ فَحَلَقَهُ فَجَعَلَ يَقْسِمُ بَيْنَ مَنْ يَلِيه الشَّعْرَةَ وَالشَّعْرَتَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ بِشِقِّ رَأْسِهِ الأَيْسَرِ فَحَلَقَهُ ثُمَّ قال: هٰهُنَا أَبُو طَلْحَةَ، فَدَفَعَـهُ إلى أبي طَلْحَةَ». (المترجم).

استخرج العباس ﷺ بعض الماء في الدلو وقدمه لرسول الله ﷺ، فاستقبل القبلة وشرب الماء واقفاً. ثم عاد من هناك إلى منى فصلى بها الظهر.[1]

أقام رسول الله ﷺ بمنى بقية أيام التشريق؛ أي حتى يوم ١٢ ذي الحجة. فكان يخرج منها بعد الزوال من كل يوم لرمي الجمرات ثم يعود إليها. وورد حديث في أبي داوّد (باب الخطبة بمنى)، يتضح منه أن الرسول ﷺ قد خطب خطبة بمنى في ١٢ ذي الحجة أيضاً، بنفس الألفاظ التي مرت سلفاً في الخطبة الأولى بإيجاز. وبعد الزوال من يوم الثلاثاء الموافق ١٣ ذي الحجة خرج رسول الله ﷺ من منى وأقام بوادي محصب،[2] وبه أقام الليلة، نهض ﷺ في الجزء الأخير من السحر، وذهب إلى مكة المكرمة وطاف بالكعبة الطواف الأخير وصلى صلاة الفجر. ثم أخذت كل قافلة تنطلق إلى بلدها، ورجع الرسول ﷺ مع المهاجرين والأنصار إلى المدينة. وفي الطريق كانت تقع منطقة تدعى خُم، تبعد عن الجحفة ثلاثة أميال، وبه غدير. وتُذكر هذه المنطقة في عموم الروايات " بغدير خم". وهناك جمع النبي ﷺ سائر أصحابه، وخطب فيهم خطبة موجزة:-

«أَمَّا بَعْدُ. أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ. وَأَنَـا تَـارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ. فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ. وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ وَأَهْلُ بَيْتِي. أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي."

كرر رسول الله ﷺ الجملة الأخيرة ثلاث مرات. هذه هي رواية صحيح مسلم (مناقب علي ﷺ) أما في النسائي، ومسند الإمام أحمد، والترمذي، والطبراني، والطبري، والحاكم وغيرها) فقد وردت عبارات أخرى ذُكرت فيها منقبة علي ﷺ، وأكثر عبارة مشتركة بين هذه الروايات، هذه العبارة:-

مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ، اللهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ».

---

[1] ورد حديث ابن عمر ﷺ في صحيحي البخاري ومسلم وهو أن رسول الله ﷺ صلى الظهر كما هو في منى بهذا اليوم، ولكن الحديث المطول إلى جابر الذي ورد في قصة حجة الوداع، تحدد فيه أنه ﷺ صلى الظهر في مكة، وهذا أيضاً ما يتبين من رواية للسيدة عائشة، وعلى ذلك يوجد اختلاف بين المحدثين في ترجيح إحدى القولين على الآخر وأسبابه. وقد رجح العلامة ابن حزم الرواية الثانية، فيما أثبت العلامة ابن القيم في زاد المعاد ترجيح القول الأول، وبعد مقارنتنا لأدلة الفريقين سلمنا برأي ابن القيم." سيد سليمان الندوي ".

[2] ولهذا الوادي مسميات أخرى؛ مثل بطح وخيف بن كناد.

لم يُصرّح في الأحاديث عن المناسبة التي قيلت فيها هذه العبارة، وقد ورد في صحيح البخاري أن علي ﷺ كان قد أُرسل إلى اليمن في تلك الفترة ورجع منها لأداء فريضة الحج. وكان قد قام بعمل ما من واقع سلطته في اليمن ولم يستحسنه بعض رفاقه في السفر. وذهب أحدهم إلى رسول الله ﷺ فشكى إليه الأمر، فقال ﷺ: " فإن له الخمس أكثر من ذلك".[١] ولا غرو في أن يرد رسول الله ﷺ بمثل هذه العبارة على شكوى من هذا النوع تُرفع في هذا المقام.

ولما وصل رسول الله ﷺ قرب المدينة، قضى الليل في ذي الحليفة. وحين طلع الصباح وأشرقت الشمس من ناحية، ودخلت قافلة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة من الناحية الأخرى، وحين وقع نظره ﷺ على المدينة، قال:[٢]

الله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئٍ قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

---

[١] صحيح البخاري، بعث على إلى اليمن، والترمذي، مناقب علي ﷺ.

[٢] نقلت جميع وقائع حجة الوداع من صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبو داود والنسائي. وللمزيد عن كل واقعة على حدة، انظر: الأبواب المختلفة لكتاب الحج في هذه الكتب المذكورة.

الوفـــــاة

قال الله تعالى " إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ " (الزمر: ٣٠)

ربيع الأول سنة ١١ هجرية الموافق مايو سنة ٦٢٣ ميلادية

كانت روح النبي ﷺ الطاهرة في حاجة للبقاء في عالم الأبدان حتى تؤدى فرضـــها في إتمام الشريعة وتزكية النفوس على الوجه الأكمل، وهذا ما قد تم فعلاً في حجة الوداع؛ حيث أُعلن على الملأ في عرفات بعد إقامة التوحيد الكامل وأصول مكارم الأخلاق بطريقة عملية أن

" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً "(المائدة:٣)

ولقد أنبأ نزول سورة الفتح بعض الصحابة بقرب وفاة النبيﷺ،[١] وكان ﷺ طبقاً لما جاء في سورة النصر " **فسبح بحمد ربك واستغفره**" (سورة النصر: ٣) يقضى أكثر أوقاته في التسبيح والتهليل.[٢] فكان من عادته ﷺ اعتكاف العشرة أيام الأُخر من رمضان في كل عام. لكنه ﷺ اعتكف في رمضان عام ١٠هــ عشرين يوماً، وكان يراجع القــرآن الكـــريم كاملاً كل رمضان مع جبريل مرة واحدة، لكنه ﷺ حصل على هذا الشـــرف مـــرتين عـــام الوفاة،[٣] كما أنه ﷺ أعلن في حجة الوداع أثناء تعليمه مناسك الحج قوله: لَعَلِّي لا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هذَا. وقد ورد في بعض الروايات أشار إلى أنه ربما لا يستطيع الحج بعد ذلك.[٤] وقد قال ﷺ ألفاظاً من هذا القبيل في خطبة غدير خم أيضاً.

مر في الحديث عن غزوة أحد أنه لم تُصلَّ صلاة الجنازة على شهداء أُحـــد، ولأن غزوة أحد كانت هي الغزوة التي استشهد فيها كثير من المسلمين، لذا كان يتذكرها النبي ﷺ حتى هذه اللحظة أيضاً.

---

[١] صحيح البخاري، تفسير إذا جاء.

[٢] ورد هذا النوع من الروايات في الطبري وابن خزيمة وابن مردويه، وورد بإيجاز في صحيح البخاري في تفسير إذا جاء.

[٣] صحيح البخاري، باب الاعتكاف وباب تأليف القرآن.

[٤] مسلم وأبو داود والنسائي، كتاب الحج.

وفي حجة الوداع شرَّف الرسول ﷺ المسلمين جميعاً برؤيته. وودَّعهم بحزن، كما أنه ﷺ زار ــ للمرة الأخيرة بعد ثمانية أعوام ــ شهداء أُحد، الذين سعدوا بالبشرى التي بُشروا بها في قوله تعالى: "بل هم أحياء عند ربهم". (سورة آل عمران: ١٦٩) لذا شرفهم النبي ﷺ بزيارة قبورهم ودعا لهم بالمغفرة.

وودعهم بتلك الطريقة الحزينة التي يودع بها المحتضر أحباءه.[١] وبعد ذلك ألقى خطبة قال فيها: إني سابقكم إلى الحوض وإن سعته كسعة ما بين "ايله" و"الحجفة". وأعطيت مفاتيح خزائن الدنيا كلها، وإني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، لكني أخشى عليكم أن تُفتَنوا بالدنيا وتتناحروا عليها فيما بينكم، فتهلكوا كما هلكت الأمم من قبلكم. يقول الراوي: كانت تلك هي المرة الأخيرة التي سمعت فيها رسول الله ﷺ يخطب.[٢]

مر في الحديث عن الغزوات أن زيد بن حارثة ﷺ كان قد أُستشهد على يد عرب حدود الشام، وكان النبي ﷺ يريد القصاص منهم، لذا أمر قبل مرضه بيوم واحد أسامة بن زيد بقيادة الجيش والذهاب للثأر لأبيه من هؤلاء الأشرار،[٣] وفي منتصف ليل ١٨ أو ١٩ صفر سنة ١١ هجرية.[٤]

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الجنائز، وصحيح مسلم، باب إثبات الحوض.

[٢] وهذا نص الحديث(١٣٢٠) حدَّثنا عبدُ اللهِ بنُ يوسُفَ حدَّثنا الليثُ حدَّثني يزيدُ بنُ أبي حبيبٍ عن أبي الخيرِ عن عُقبةَ بنِ عامرٍ «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خرَجَ يوماً فصلَّى على أهلِ أُحُدٍ صَلاتَهُ على الميِّتِ، ثمَّ انصرَفَ إلى المِنبرِ فقال: إني فرَطٌ لكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإني واللهِ لأنظُرُ إلى حَوضِي الآنَ، وإني أُعطيتُ مَفاتيحَ خَزَائنِ الأرضِ، أو مفاتيحَ الأرضِ. وإني واللهِ ما أخافُ عليكم أنْ تُشرِكوا بَعدِي، ولكنْ أخافُ عليكم أنْ تنافَسوا فيها». (المترجم)

[٣] ويروى الواقدي وابن إسحاق أن رسول الله ﷺ كان قد أمر كلاً من أبي بكر و عمر رضي الله عنهما بالمشاركة في تلك الغزوة، ولكن هذه الروايات لا سند لها، ومن ثم رفضها العلامة ابن تيميه بشدة، إذ أنه لا يمكن أن يقال مثل هذا عن عمر. أما أبو بكر فقد عينه رسول الله ﷺ إبَّان مرضه إماماً للناس في الصلاة. وهذا ما ثبت برواية صحيحة. وعليه، فلو يُسلم أن أبا بكر كان قد أُمر بالذهاب والمشاركة في الغزوة في بداية الأمر، فإن رسول الله ﷺ قد استثناه فيما بعد.

[٤] وتختلف الروايات في تحديد أيام المرض الأولى للنبي ﷺ ومدته وتاريخ وفاته ﷺ. وقبل الحديث عن هذا الأمر المختلف فيه، لا بد لنا أن نوضح تلك الأمور التي اتفقت عليها كل الروايات، وأجمع عليها المحدثون وأرباب السير وهي كالتالي:-

١- إن سنة الوفاة هي سنة ١١هـ.

٢- كانت الوفاة في شهر ربيع الأول.

٣- وقعت الوفاة ما بين ١ و ١٢.

٤- كانت يوم الاثنين (صحيح البخاري، ذكر الوفاة، كتاب الجنائز).

ويثبت من أكثر الروايات أنه ﷺ مرض لمدة ثلاثة عشر يوماً. وعليه، إذا أردنا تحديد تاريخ وفاة رسول الله ﷺ بأسلوب دراسي محقق، فسوف يتضح أيضاً تاريخ بداية مرضه. وطبقاً لرواية صحيحة ظل رسول الله ﷺ مريضاً في بيت السيدة عائشة لمدة ثمانية أيام (من يوم الاثنين إلى الاثنين من الأسبوع التالي)، وتوفى هناك، لذا فأيام مرضه ثمانية أيام. وطبقاً لما ورد في أكثر الروايات، يجب أن تكون هناك خمسة أيام أخر. وهذا ما يتضح أيضاً من القرائن، لذا فأيام مرضه هي ١٣ يوماً. قضى منها رسول الله ﷺ الخمسة أيام الأخر في حجرات أزواجه الأخريات. وطبقاً لهذا فإن مرض رسول الله ﷺ يبدأ من يوم الأربعاء. ويوجد اختلاف بين الرواة حول تحديد تاريخ وفاته ﷺ. كما أنني لم أحصل على أية رواية تتعلق بتاريخ وفاته ﷺ رغم مطالعتي لكل كتب الحديث النبوي. أما أرباب السير فلديهم ثلاث روايات: ١- الرواية الأولى تقول الأول من ربيع الأول. ٢- الثانية تقول الثاني من ربيع الأول. ٣- الثالثة تقول الثاني عشر من ربيع الأول.

ولترجيح إحدى هذه الروايات الثلاث، لا بد من الاستفادة بضوابط وأصول علم الدراية والرواية. الرواية التي تقول بأن وفاته ﷺ كانت في الثاني من ربيع الأول رواية هشام بن محمد بن سائب الكلبي والتي رويت عن أبى مخنف (الطبري ص ١٥ – ١٨). ومع أن أكثر المؤرخين القدامى من مثل اليعقوبي والمسعودى وغيرهما قد قبلوا هذه الرواية. إلا أن هذين الراويين معروفان بالكذب وغير ثقة عند المحدثين. وقد نقل ابن سعد والطبري أيضاً هذه الرواية عن الواقدى (جزء الوفاة)، ولكن أشهر رواية للواقدى والتي نقلها عن أشخاص كثيرين هي رواية ١٢ من ربيع الأول. إلا أن البيهقي نقل في الدلائل عن مسند صحيح سليمان التيمي رواية الثاني من ربيع الأول (نور النبراس لابن سيد الناس، الوفاة). لكن رواية غرة ربيع الأول مروية عن أفضل ثقاة أرباب السيرة؛ موسى بن عقبه، وعن المحدث المشهور؛ الإمام الليث المصري (فتح الباري، والوفاة). وكتب الإمام السهيلي في روض الأنف أن هذه الرواية هي الأقرب إلى الحق (جـ ٢، الوفاة). وكان الإمام السهيلي هو أول من اكتشف بالدراية هذا الأمر وهو أن الرواية القائلة بـ ١٢ ربيع الأول غير صحيحة قطعاً لثبات صحة أمرين: الأول: أن يوم الوفاة كان يوم الاثنين (صحيح البخاري، ذكر الوفاة، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة). وقبله بثلاثة أشهر تقريباً كان اليوم التاسع من شهر ذي الحجة سنة عشرة هجرية يوم جمعة (الصحاح، قصة حجة الوداع، وصحيح البخاري تفسير اليوم أكملت لكم دينكم) وإن تحصي المدة من يوم جمعة شهر ذي الحجة سنة ١٠ هـ إلى ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ فلن تجد إطلاقاً أن تاريخ ١٢ من ربيع الأول يوم الاثنين، سواء كانت شهور ذي الحجة ومحرم وصفر ٢٩ يوماً أو ثلاثين يوماً. لذا فهذا التاريخ ليس صحيحاً إطلاقاً حسب علم الدراية. والثاني من ربيع الأول يمكن بالحساب أن يوافق يوم الاثنين حينذاك إذا ما كانت الشهور الثلاثة ٢٩ يوماً لكن هاتين الحالتين لم تقعا. وبقيت الحالة الثالثة الأكثر وقوعاً وهي أن يكون شهران ٢٩ يوما وشهر ثلاثين. وفي هذه الحالة سيكون يوم التاسع والعشرين من ربيع الأول يوم

ذهب رسول الله ﷺ إلى جنة البقيع التي كانت بها مقابر عامة المسلمين. وأثناء عودته تكدرت طبيعته. وكان هذا يوم نوبة السيدة ميمونة،[1] وكان يوم أربعاء، فظل رسول الله ﷺ لمدة خمسة أيام محافظاً على الذهاب إلى حجرات أزواجه المطهرات كل في يومها التزاماً بالعدل والإنصاف رغم مرضه الشديد. وحين اشتد عليه المرض يوم الاثنين، استأذن النبي ﷺ أزواجه المطهرات أن يقيم عند السيدة عائشة رضي الله عنها. علماً بأن صاحب الخلق الرفيع ﷺ لم يجهر بطلب الإجازة بل قال: أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟ وكان اليوم التالي

اثنين. وهو ما رواه رجال ثقاة. وسيتضح من الجدول التالي أنه لو كان التاسع من ذي الحجة يوم جمعة فمتى سيكون يوم الاثنين طبقاً لهذا الحساب من أوائل ربيع الأول

العدد	الحالة الافتراضية	الاثنين	الاثنين	الاثنين
١-	لو أن ذا الحجة ومحرم وصفر ثلاثون يومًا	٦	١٣	
٢-	لو أن ذا الحجة ومحرم وصفر ثلاثون يومًا	٢	١٩	١٦
٣-	لو أن ذا الحجة ٢٩ ومحرم ٢٩ وصفر ٣٠ يومًا	٠١	٨	١٥
٤-	لو أن ذا الحجة ٣٠ يوما ومحرم ٢٩ وصفر ٢٩	١	٨	١٥
٥-	لو أن ذا الحجة ٢٩ ومحرم ٣٠ وصفر ٢٩	١	٨	١٥
٦-	لو أن ذا الحجة ٣٠ يوماً ومحرم ٢٩ وصفر ٣٠	٧	١٤	
٧-	لو أن ذا الحجة ٣٠ ومحرم ٣٠ وصفر ٢٩ يومًا	٧	١٤	
٨-	ذو الحجة ٢٩ ومحرم وصفر ٣٠ يومًا	٧	١٤	

في ضوء تلك التواريخ المقترحة يخرج عن البحث يوم (٦، ٧، ٨، ١٣، ١٩، ١٤، ١٥) لأنه إضافة لأسباب أخرى لا توجد أي رواية تؤكدهم. ويبقى تاريخان الأول والثاني. والثاني ليس له إلا احتمال واحد. وهو ما لا يقبل. أما يوم الأول فاحتمالاته ثلاثة. والاحتمالات الثلاثة كثيرة الوقوع. ويؤيدهم الثقات من الرواة، لذا فإن التاريخ الصحيح حسبما أرى هو (أن الوفاة كانت) غرة ربيع الأول سنة ١١ هجرية.

ويعتبر في هذه الرواية برؤية الهلال فحسب التي على أساسها تكون الأشهر القمرية الإسلامية، ويمكن التشكيك فيها من ناحية الأصول الفلكية. وروى في كتب التفسير عن ابن عباس في تفسير آية: اليوم أكملت لكم دينكم" (المائدة: ٣) أن بين نزول هذه الآية ٩ ذي الحجة سنة ١٠هـ وبين يوم الوفاة ٨١ يوماً (انظر ابن جرير، وابن كثير والبغوي وغيرهم). وبحسابنا نحن فالمدة من ٩ ذي الحجة سنة ١٠ هـ حتى غرة ربيع الأول ـ شهرين ٢٩ وشهر ٣٠ يوم ـ (وهي الحالة التي افترضناها) هي ٨١ يوما تماماً. هذا وقد نقل أبو نعيم بالسند في الدلائل صـ ١٤٦ أيضاً أن تاريخ الوفاة هو غرة ربيع الأول. "سيد سليمان الندوى".

[1] ابن سعد وعبد الرازق بسند صحيح، وصحيح مسلم باب الإمامة.

يوم السيدة عائشة، فقالت زوجاته المطهرات بطيب خاطر: قم عند من ترغب[1] وكان ﷺ قد ضعف لدرجة أنه كان لا يستطيع أن ينتقل بنفسه، لذا حمله علي والعباس رضي الله عنهما بين أيديهما وذهبا به إلى حجرة السيدة عائشة بصعوبة.

وكان رسول الله ﷺ محافظا على الصلاة في المسجد طيلة فترة قدرته على الحركة، وكانت آخر صلاة أم فيها النبي ﷺ المسلمين كانت صلاة المغرب،[2] وكان ﷺ يتـألم مـن رأسه لذا عصب رأسه وتقدم فصلى. وقرأ في صلاته سورة المرسلات، ثم سأل حينما حان وقت العشاء: أصلى الناس؟ فأجاب الناس: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك. فأمر رسول الله ﷺ بماء فأغتسل. وحينما أراد أن ينهض أغمى عليه، وبعد أن أفاق سأل ثانية:أصلى الناس؟ فأجاب الناس بنفس ما أجابوا به في المرة الأولى، فاغتسل ﷺ ثانية وحينمـا أراد أن يقـوم أغمى عليه. وبعد أن أفاق كرر سؤاله فأجاب الناس نفس الجواب. وفي المرة الثالثة اغتسل

---

[1] صحيح البخاري، ذكر الوفاة، ونقل ابن سعد بروايات صحيحة أن السيدة فاطمة الزهراء هي التي طلبت الإذن نيابة عن أبيها ﷺ.

[2] جاء هذا التخصيص برواية السيدة عائشة رضى الله عنها في صحيح البخاري ومسلم، انظر كتاب الصلاة والوفاة (ورد هذا الحديث في البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي باب القراة. وستأتي لاحقاً رواية السيدة عائشة التي ورد فيها أن آخر صلاة أمها رسول الله بالمسجد كانت صلاة الظهر. وقد وافق الحافظ ابن حجر في فتح الباري بين الروايتين بقوله: إن واقعة صلاة المغرب هي واقعة الحجرة النبوية الداخلية. كما ورد في النسائي (جـ ٢، صـ ١٤٥)، ولكن فيما بعد وقع نظر الحافظ على رواية الترمذي التي ورد فيها أن رسول الله ﷺ خرج وأم الناس، لذا اضطر لتأويل ذلك بقوله إن المقصود بذلك أنه ﷺ قام من مضجعه (جـ٤ صـ ٢٠٤). لكنني لا أسلم بصحة هذا التأويل لأسباب أولها أنه لم يكن بالحجرة مكان يكفي لصلاة جماعة، والثاني أنه لم يكن هناك مكان ثانٍ في الحجرة النبوية إضافة لمكان نومه ﷺ. علاوة على ذلك، ورد في الأحاديث في معنى "صلى بنا" أنه ﷺ صلى بجموع المسلمين ولا تصلح هذه الجملة لصلاة البيت. وعليه، فالصحيح أن الصلاة كانت في المسجد النبوي كما تشير إلى ذلك معظم الروايات.

أما فيما يتعلق بالصلاة الأخيرة، أكانت المغرب أم الظهر؟ فيمكن التطابق بينهما، حيث أن انقطاعه ﷺ عن الإمامة الدائمة في الصلاة كان في صلاة المغرب السالف ذكره، كما سيأتي في ذكر صلاة العشاء لاحقاً، وصلاة الظهر التي كان النبي ﷺ قد أداها في المسجد كانت صدفة، حيث كان أبو بكر هو الإمام في البداية ثم جاء النبي ﷺ بعد ذلك وشاركه، فكانت هذه هي آخر صلواته ﷺ بالمسجد. وروى بعض الصحابة أن صلاة الفجر كانت آخر صلاة. ولكن الحقيقة هي أن هذه كانت آخر صلاتهم مع النبي ﷺ). "سيد سليمان الندوى".

ﷺ وحينما أراد أن يقوم أُغمي عليه مرة أخرى، فلما أفاق أمر أبا بكر أن يؤم الناس، فقالت السيدة عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رقيق القلب ولن يستطيع أن يأخذ مكانك، إلا أن النبي ﷺ كرر أمره لأبي بكر أن يؤم الناس في الصلاة، لذا أم أبو بكر الناس بضع أيام في الصلاة.(١)

وقبل وفاته ﷺ بأربعة أيام (يوم الخميس) أمر النبي ﷺ بورقة ودواة (٢) وقال: هلموا أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده.

---

(١) ورد في صحيح البخاري باب الإمامة جـ١ صـ ٩٤ عن أنس أن النبي ﷺ لم يؤم الناس في الصلاة لمدة ثلاثة أيام. وخلفه أبو بكر الصديق في الإمامة منذ صلاة عشاء ليلة الجمعة (البخاري ومسلم كتاب الصلاة) حتى صلاة فجر يوم الاثنين اللاحق (البخاري باب رجع القهقرى في الصلاة صـ ٦٠). وقد صُليت في هذه الأيام الثلاثة سبع عشرة صلاة. وقد نقل ابن سعد هذه الروايات كما هي عن الواقدي. قال في إحداها: أنه أم لمدة ثلاثة أيام. وفي رواية ثانية أنه أم ١٧ صلاة. "سيد سليمان الندوي".

(٢) جاءت هذه الرواية في صحيح البخاري في ذكر الوفاة، وورد هذا الحديث في صحيح البخاري في أبواب متعددة. ويختلف نص الحديث بعض الشيء في كل موضع. وهذه الروايات مجموعة في صحيح مسلم كتاب الوصية. ولم يرد اسم الصحابي الذي تكلم عن إحضار القلم والدواة في البخاري، لكن صُرح باسم عمر ﷺ في كتب الحديث الأخرى (كصحيح مسلم). وقوله هو: "**قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله**".

وهذا نص الروايت الأخرى في صحيح مسلم: ١- **فقالوا إن رسول الله ﷺ يهجر**، ٢- **فقالوا اهجر استفهموه**.

وعليه، أصبحت هذه الرواية محور جدل كبير بين الشيعة والسنة. يقول الشيعة: إن رسول الله ﷺ كان يريد كتابه وصية بخلافة علي كرم الله وجهه. ويقول أهل السنة: إن رسول الله ﷺ كان مريضاً. وكان معلوماً أن الشريعة كانت قد اكتملت لأن قوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم" (المائدة: ٣) كان قد نزل؛ لذا لم يرد عمر ﷺ أن يثقل على رسول الله. وإن كان هناك حكم ما ضروري فكيف لرسول الله ﷺ أن يمتنع عنه بمنع أي أحد له. إضافة إلى أنه ﷺ ظل حياً لمدة أربعة أيام بعد هذه الواقعة فلو لم يتمكن حينذاك من إملاءها لكان قد أملاها فيما بعد. وكيف عرف أنه ﷺ كان يريد أن يملي وصية؟ وورد في البخاري: أن رسول الله ﷺ استدعى عبد الله ابن أبي بكر ﷺ وكان يريد أن يمليه وصية بخلافة أبي بكر الصديق. لكنه ﷺ عزف عن ذلك وقال: إن الله والمسلمين أنفسهم لن يرضوا بأحد غير أبي بكر الصديق. ثم أوصى رسول الله ﷺ بعد هذا الاختلاف شفهياً بثلاث وصايا ربما تكون هي نفسها الأمر الضروري الذي كان الرسول ﷺ يريد أن يمليه. ولو كانت شيء آخر لتمكن الرسول ﷺ من إيضاحه ضمن هذه الوصايا الشفهية. أو كان يستطيع أن يبينه في الخطبة التي خطبها على الملأ وعليَّ أن التزم الحذر حتى لا يخرج

قال بعض الصحابة للمسلمين: إن رسول الله ﷺ قد **(أغلبه الوجع)** من شدة المرض، وعندكم كتاب الله يكفينا. لكن الناس اختلفوا على ذلك. فكان بعضهم يقول: لا بد من تنفيذ أمر رسول الله ﷺ، والآخرون يقولون شيئاً آخر، فلما زاد الضجيج والصخب قال بعضهم: أهجر استفهموه[1]. وحينما بدأ الناس سؤاله ﷺ، قال: "دَعوني، فالذي أنا فيه خيرٌ مما تدعونني إليه.".

ثم أوصى رسول الله ﷺ بعد ذلك (بثلاث وصايا) فقال أولاً: "أخرجوا المشركينَ من جزيرة العرب". ثانياً: "وأجيزوا الوفدَ بنحو ما كنتُ أُجيزُهم". أما الوصية الثالثة فقد نسيها الراوي[2]. وفي وقت صلاة ظهر[3] هذا اليوم، تحسنت صحة النبي ﷺ بعض الشيء، فأمر بسبعة أباريق مياه فاغتسل، ثم حمله علي والعباس رضي الله عنهما إلى المسجد، وكانت قد أقيمت الصلاة، وكان أبو بكر يؤم الناس، فلما سمع وقع أقدامه ﷺ هَم أن يتأخر فأشار له النبي ﷺ أن اثبت. ثم جلس رسول الله ﷺ جانبه وأم الناس، فكان أبو بكر يصلي بصلاة النبي ﷺ وكان الناس يصلون بصلاة أبي بكر.

وبعد الصلاة خطب رسول الله ﷺ خطبة ــ كانت آخر خطبة ــ قال فيها:

الكتاب عن الموضوع التاريخي ويدخل في إطار علم الكلام. لكنني دونت ما وصلت إليه من دراسة في كتابي "الفاروق".

[1] أي استفهموا عن هذا الأمر من الرسول ﷺ نفسه. (المترجم)

[2] صحيح البخاري، ذكر الوفاة. وصحيح مسلم كتاب الوصية. وهذا نص الحديث (٤٣٢٣) حدَّثنا قُتيبة حدَّثنا سفيانُ عن سليمانَ الأحول عن سعيدِ بنُ جُبير قال: «قال ابن عباس: يومُ الخميس وما يومُ الخميس. اشتدَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم وَجَعُهُ فقال: ائتوني أكتُب لكم كتاباً لن تَضلوا بعدَه أبداً. فتَنَازعوا، ولا ينبغي عندَ نبيٍّ تنازع، فقالوا ما شأنهُ؟ أهَجَرَ، استفهِموه. فذَهبوا يردُّون عليه. فقال: دَعوني، فالذي أنا فيه خيرٌ مما تدعونني إليه. وأوصاهم بثلاثٍ قال: أخرجوا المشركينَ من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفدَ بنحو ما كنتُ أُجيزُهم، وسكتَ عن الثالثة أو قال فنسيتُها».. (المترجم).

[3] لم يرد في الروايات صراحة بأن هذه الواقعة كانت في ظهر أي يوم، لكن ورد في صحيح مسلم في باب النهي عن بناء المساجد على القبور عن جندب أن ما قاله النبي ﷺ في شأن أبي بكر الصديق والذي سيرد ذكره لاحقاً. كان قد قاله قبل وفاته بأكثر من خمسة أيام، ولأن خطبة مرض الموت كان ﷺ قد ألقاها بعد صلاة الظهر ذاك ــ كما ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها ــ لذا كانت واقعة يوم الخميس ذاك أسبق من هذه الرواية بخمسة أيام، وهذا ما أقره الحافظ ابن حجر في فتح الباري. "سيد سليمان الندوى".

"إنَّ اللّهَ سبحانه خَيَّرَ عَبداً بينَ الدُّنيا وبينَ ما عِندَهُ، فاختارَ ما عندَ اللّه". فحينما سمع أبو بكر هذا الحديث غلبه البكاء. فنظر الناس إليه متعجبين من أن رسول الله يحكـي عـن شخص ما وهذا يبكي؟ إلا أن عالم سر النبوة (أبي بكر) علم أن المقصود بالعبد النبي محمد ﷺ نفسه. واصل النبي خطابه وقال: يا أبا بكر لا تَبك، إنَّ أَمَنَّ الناسِ عليَّ في صُحبَتِه ومالِه أبو بَكرٍ.[١] ولو كنتُ مُتَّخِذاً خَليلاً مِن أُمَّتي لاتَّخَذْتُ أَبا بكر، ولكنْ أُخُوَّةُ الإسلامِ ومَوَدَّتُهُ. لا يَبقينَّ في المسجدِ بابٌ إلاّ سُدَّ، إلاّ بابُ أَبي بكرٍ لَعَنَ اللّهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخَـذوا قبـورَ أنبيائهم مسجداً.[٢]" ونهي ﷺ عن تقليدهم.

كانت الأنصار تذكر عطف وكرم النبي ﷺ أيام مرضه فتبكي، في ذات مرة مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بالأنصار وهم يبكون. فسألهم عن سـبب بكـاءهم فقـالوا: تذكرنا صحبة رسول الله ﷺ. فذهب أحدهما لرسول الله ﷺ وأخبره بحالهم. وكـان اليـوم فرصة استدراك هذا، لذا خطب رسول الله ﷺ بعد ذلك في الناس وقال في شأن الأنصـار: **أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونـوا كالملح في الطعام فمن ولى منكم أمراً يضُرُ فيه أحداً أو ينفعـه، فليقبـل مـن محسـنهم ويتجاوز عن مسيئهم".**[٣]

---

[١] صحيحي البخاري ومسلم، مناقب أبي بكر الصديق، الفقرة الأخيرة. وصحيح مسلم، باب النهي عن بناء المساجد على القبور. وهذا نص الحديث: عن أبي سعيد الخدري قال: "خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُير فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله ﷺ: إن من أمَنِّ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلا غير ربي، لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقى في المسجد باب إلا سُدّ إلا باب أبي بكر" (صحيح البخاري، باب مناقب أبي بكر.) (المترجم).

[٢] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١٣٠٦) حدثَنا عُبَيدُ اللّهِ بنُ موسىَ عن شَيبانَ عن هلالٍ هوَ الوَزّانُ عن عُروةَ عن عائشةَ رضيَ اللّهُ عنها «عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال في مَرَضه الّذي ماتَ فيه لَعَنَ اللّهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخَذوا قبورَ أنبيائهم مسجداً. قالت: ولولا ذلك لأبرَزُوا قبرهُ، غيرَ أنّي أخشَى أن يُتَّخذَ مسجداً». (المترجم).

[٣] صحيح البخاري، مناقب الأنصار. وهذا نص الحديث: عن ابن عباس قال" أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولى منكم أمراً يضُرُ فيه أحداً أو ينفعه، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم" (صحيح البخاري، باب قول النبي ﷺ اقبلوا من محسنهم وتجاوزا عن مسيئهم). (المترجم).

مر سابقاً أن النبي ﷺ قد أمر أسامة بن زيد ﷺ بقيادة الجيش الذي يريد إرساله إلى الروم، ومن ثم اشتكى بعض الناس من ذلك (صرح ابن سعد بأنهم المنافقون) وقالوا لماذا خُوّل هذا الشرف لشاب رغم وجود المسنين والكبار، فقال النبي ﷺ في هذا: إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس بعده".[١] إن الفرق الدقيق بين الإسلام والأديان الأخرى أن الإسلام يعتبر الله تعالى الحاكم الواضع لكل أحكام الشريعة المحمدية مباشرة، ورسالة النبي ﷺ ما هي إلا مجرد إيصال الأحكام الإلهية للناس بواسطة القول والعمل. لذا أدى سوء الفهم هذا في الأديان الأخرى إلى الشرك والإلحاد. ونتائج هذا واضحة أمام أعين الجميع، لذا أخبر النبي ﷺ أنه لا يحل ولا يحرم من تلقاء نفسه ﷺ؛ بل إنه يحل ما أحله الله تعالى في كتابه، ويحرم ما حرمه. وثواب الإنسان وعقابه يكون على أساس عمله، لذا أمر ﷺ فاطمة ابنته وصفية عمته ﷺ بأن تعملا لما عند الله فإنه ﷺ لن يجيرهما من الله.[٢] وحين انتهى النبي ﷺ من خطبته ذهب إلى حجرة السيدة عائشة.

وكان النبي ﷺ يحب السيدة فاطمة الزهراء حباً جما. أرسل في طلبها(أثناء مرضه). فلما جاءته أسرَّ إليها حديثا. فغلبها البكاء، فنادها ثانية وأسرَّ إليها بحديث أفرحها. وحينما سألتها السيدة عائشة على ذلك قالت: سارني رسول الله ﷺ فأخبرني إنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت.[٣]

---

[١] صحيح البخاري، بعث أسامة ومناقب زيد بن حارثة. وهذا نص الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: " بعث النبي ﷺ بعثاً، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس بعده" (البخاري، باب مناقب زيد بن حارثةﷺ). (المترجم).

[٢] روى هذا الحديث والحديث الذي سبقه بسند حسن في مسند الإمام الشافعي باب استقبال القبلة، كتاب الإمام الشافعي وابن سعد في جزء الوفاة. لكن ورد في هاتين الروايتين أن رسول الله ﷺ قال هذا بعد صلاة الفجر، ولكن وورد نقلا عن صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان قد شارك في صلاة الظهر، وألقى خطبة بعدها. والخطأ الثاني هو ما ورد في المسند وفي رواية ابن سعد إذ يقولون إن هذه الواقعة كانت في صباح يوم الاثنين أي يوم الوفاة، في حين أنه ثبت برواية صحيحة أن النبي كان قد رفع الستارة، ونظر إليهم فقط صباح يوم الاثنين، ولم يخرج، كما لم يشارك في الصلاة.

[٣] صحيح البخاري، ذكر الوفاة. وهذا نص الحديث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: "دعا النبيﷺ فاطمة ابنته في شكواه الذي قبض فيها فَسَارَّها بشئ فبكت، ثم دعاها فسارها، فضحكت قالت: فسألتها عن ذلك

كان إفراط اليهود والنصارى في تعظيم مزارات وأضرحة الأنبياء قد وصل إلى عبادة الأصنام. أما الإسلام فكان هدفه الأسمى تطهير الناس من عبادة الأوثان، لذا كان هذا الأمر محط اهتمام النبي ﷺ وشغله الشاغل أثناء مرضه ﷺ، ذات مرة ذكرت أزواج النبي ــ اللاتي كن قد زرن الحبشة ــ كنائس [1] الأقباط هناك وأصنامهم وتماثيلهم، فقال ﷺ "إِنَّ أُولَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ."[2] وحينما اشتد المرض على النبي ﷺ كانوا يغطون وجهه أحياناً بالبردة وأحياناً يرفعونها خشية الحر. في ذلك الحين سمعت السيدة عائشة رسول الله ﷺ يقول: لَعَنَ اللَّهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مسجداً.[3]

(وتذكر رسول الله ﷺ وهو في شدة مرضه أن لدى السيدة عائشة بعض الدراهم، فسألها عن هذه الدراهم وأمرها بأن تتصدق بها)[4].

(ويذكر أنه ﷺ قبل وفاته بيوم واحد)[5] أي (يوم الأحد) كان النبي ﷺ قد رفض الدواء الذي كان الناس يريدون إعطاءه إياه لأنه لم يستسغه. وفي هذه الأثناء أُغمي على رسول الله ﷺ ففتح الناس فمه الشريف واسقوه الدواء، وبعد إفاقته ﷺ وشعر بهذا، أمر أن يسقى كل من سقاه الدواء الدواء كراهية. ولم يكن العباس ضمن هؤلاء الناس لذا استثنى من الحكم[6] ويكتب المحدثون عن هذه الواقعة بأنها الجبلة البشرية، بمعنى أنه ﷺ كبقية المرضى ضيق المزاج؛ لذا أمر بهذا، ولكني لا أعتبر ذلك ضيق أفق منه ﷺ بل مداعبة.

وكان المرض يشتد ويقل على رسول الله ﷺ، وكانت صحته ﷺ قد تحسنت بعض الشيء في اليوم الذي توفى فيه (أي يوم الاثنين). وكانت حجرته متصلة بالمسجد لذا رفع ﷺ الستار (وقت صلاة الفجر) ونظر فرأى الناس منشغلين بالصلاة (صلاة الفجر) فتبسم من

فقالت: سارني النبيﷺ فأخبرني أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت ثم سارني فأخبرني أني أول أهل بيته أتبعه فضحكت."(صحيح البخاري، باب مناقب قرابة رسول الله.) (المترجم).

[1] إحدى كنائس الكاثوليك الرومان التي توجد فيها تماثيل وأصنام لعيسى والسيدة العذراء والقساوسة والشهداء.

[2] صحيحي البخاري ومسلم، باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

[3] صحيح البخاري، ذكر الوفاة وصحيح مسلم نفس الباب.

[4] مسند ابن حنبل، جـ٢، صـ ٤٩، وابن سعد جزء الوفاة، بروايات متعددة.

[5] ابن سعد، الوفاة.

[6] صحيح البخاري، ذكر الوفاة، وصحيح مسلم، التداوي بالدواء.

فرط فرحه. وحينما سمع الناس وقع أقدامه ﷺ اعتقدوا أن النبي ﷺ يريد أن يخرج إليهم فلم يسيطروا على أنفسهم جميعاً من شدة الفرح. حتى كادوا يخرجون من الصلاة، أراد أبو بكر الذي كان يؤم الناس أن يتأخر إلا أن النبي ﷺ أشار له أن اثبت، ثم دخل حجرته الشـــريفة وأسدل الستار.[١] (روى في صحيح مسلم أنه ﷺ كان قد وهن لدرجة أنه لم يستطع أن يسدل الستار جيداً).[٢] وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي زار فيها الصحابة خير البشر محمد ﷺ. يقول أنس بن مالك: كان وجه النبي ﷺ يبدو وكأنه ورقة[٣] من مصحف" أي ابيضَّ وجهه.

وبينما كان اليوم ينقضي كان النبي ﷺ يغمى عليه ثم يفيق، فلما رأته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها قالت: "**واكرب أباه**"، فقال لها النبي ﷺ: ليس على أبيك كرب بعـــد اليوم. وتقول السيدة عائشة إن النبي ﷺ كان يقول وهو صحيح معاف: "مـــا مـــن نبـــي يـــموت حتـــى يخير". وكان النبي ﷺ يقول وهو في هذه الحالة: "**مع الذين أنعم الله عليهم**" وأحياناً يقول: "**اللهم في الرفيق الأعلى**".[٤] ففهمت أنه لا يريد الآن إلا الرفيق الأعلى.

وقُبيل وفاته ﷺ جاءه عبد الرحمن بن أبي بكر. وفي يده سواك، وكـــان النبـــي ﷺ واضعاً رأسه على صدر السيدة عائشة. فنظر إلى السواك، ففهمت السيدة عائشة أن النبـــي ﷺ يريد أن يستاك. فأخذت السواك من عبد الرحمن أعطته النبي ﷺ. فاستاك به كما يستاك

---

[١] صحيح البخاري، ذكر الوفاة، وكتب الصحاح، كتاب الصلاة.

[٢] صحيح مسلم، كتاب الصلاة، صـــ١٦٧.

[٣] صحيح مسلم، باب الصلاة. وورد في رواية أنس بن مالك التي وردت في صحيح مسلم وكتاب الصلاة، صـــ ١٦٧ أن النبيﷺ كان قد جاء وقت صلاة الفجر في نفس الموعد بعد ثلاثة أيام. لكنه لم يستطع أن ينضم للجماعة فرجع، وروى الإمام الشافعي في كتاب الأم وابن سعد في جزء الوفاة عن ابن أبي سبرة أن النبي ﷺ اشترك في جماعة هذه الصلاة. لكن هذا في الحقيقة سهو من الراوي. فقد ورد صراحة في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما أنه ﷺ لم يتمكن من المشاركة في الجماعة ورجع. وهنا التبست على الراوي صلاة الظهر السابقة، والمراد بقوله بعد ثلاثة أيام يوم الخميس الذي خطب فيه رسول الله، والمراد بما بعده أيام الجمعة والسبت والأحد.

[٤] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٣٢٨) حدثّنا أبو اليمان أخبرَنا شعيبٌ عنِ الزُّهريِّ قال عروةُ بن الزُّبير إن عائشة قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صحيح يقول: إنه لم يُقبَضْ نبيٌّ قطُّ حتى يرَى مَقعَدَهُ من الجنة، ثم يُحيّا ـــ أو يُخيَّر ـــ فلما اشتكى وحضرَهُ القبضُ ورأسُهُ علَى فخذ عائشة، غُشِيَ عليه، فلما أفاقَ شخصَ بَصرُهُ نحوَ سقفِ البيتِ ثمَّ قال: اللهمَّ في الرفيق الأعلى. فقلتُ: إذاً لا يجاورُنا، فعرفتُ أنه حديثه الذي كان يحدثُنا وهو صحيح». (المترجم).

الأصحاء تماماً. كان وقت وفاته يقترب، وحان وقت العصر.[1] فكان النبي ﷺ يشعرنا باضطراب أنفاسه في صدره. وفي تلك الأثناء سمعه الناس يقول:[2] الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم".[3]

كان بالقرب من رسول الله ﷺ إبريق ماء فكان يضع يديه فيه مراراً ويرش منه على وجهه. (أحياناً كان يضع الرداء على فمه وأحياناً يرفعه). وفي تلك الأثناء رفع يديه وأشار بإصبعه وقال ثلاث مرات: **بل الرفيق الأعلى**. وسقطت يده وهو يكرر هذه الجملة. وتجمدت عيناه وهو ناظر إلى السقف. ثم فاضت روحه إلى الرفيق الأعلى [4].

التجهيز والتكفين:

بدأ عمل تجهيز وتكفين النبي ﷺ في اليوم الثاني أي يوم الثلاثاء الموافق الثاني من ربيع الأول، وكان لهذا التأخير أسباب عديدة منها:

١- إن أحباب وصحابة النبي ﷺ لم يصدقوا أن النبي ﷺ فارق الحياة. لذا قال عمر ﷺ بعد أن استل سيفه: لأقطعن عنق من يقول إن النبي قد مات. لكن أبا بكر ﷺ جاء وخطب في الصحابة مؤكداً لهم خبر انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى سبحانه، وتلا عليهم بعض آيات القرآن الكريم حتى عاد الناس إلى صوابهم وصدقوا وفاة النبي ﷺ.

٢- إن الوقت الذي كان متبقياً بعد الوفاة وحتى غروب الشمس لم يكن كافياً للانتهاء من أعمال التجهيز والتكفين.

٣- إن العمل في إعداد القبر كان قد بدأ بعد الغسل والتكفين لذا تحتم الانتظار.

٤- إن الناس كانوا يدخلون أفواجاً متناوبة متتالية إلى الحجرة التي توفى بها النبي لصلاة الجنازة، لذا استغرق هذا أيضاً وقتا. فلم ينتهوا من ذلك إلا بعد مرور نهار يوم

---

[1] كتب ابن إسحاق في السيرة أن النبي ﷺ توفى ظهراً، ولكن ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن انس بن مالك أنه ﷺ توفى آخر نهار يوم الاثنين. وقد وافق الحافظ ابن حجر بين هاتين الروايتين بقوله إن الظهر كان قد انقضى وحان وقت العصر.

[2] الأدب المفرد، الإمام البخاري.

[3] مصر، سنن ابن ماجه كتاب الوصايا، وابن سعد جزء الوفاة بسند صحيح.

[4] وردت هذه الوقائع كلها في صحيح البخاري في أبواب مختلفة عن الوفاة.

الثلاثاء.[١] ولقد قام الخاصة من أحباب وأقارب النبي ﷺ بتجهيزه وتكفينه. فظل معه الفضل بن العباس وأسامة بن زيد رضي الله عنهما. وغسله علي كرم الله وجهه برفقة العباس رضى الله عنهما، وورد في بعض الروايات أن العباس أيضاً ظل معهم بالداخل. ولأن كل واحد من الناس كان حريصاً على نيل هذا الشرف لذا أغلق علي ﷺ الباب من الداخل، فنادى عليه الأنصار قائلين: بالله لا تحرمنا حقوقنا، فلنا حق في خدمة رسول الله ﷺ. إلا أن أبا بكر قال ــ كما ذكر الواقدى ــ أنه ليس لأحد حق في رسول الله ﷺ. لأننا لو سمحنا للجميع فلن ننتهي من الغسل، لكن علي ﷺ نادى على أوس بن خولى الأنصاري أحد أصحاب بدر بعد أن ألح الأنصار. فكان يملأ آنية الماء ثم يناولهم إياها. وكان علي كرم الله وجهه قد ضم جسد النبي ﷺ الشريف إلى صدره. وكان العباس وابنيه القسم والفضل يقلبون جسده ﷺ وأسامة بن زيد ﷺ يصب الماء من أعلى.[٢]

(والقماش الذي كان قد أُختير في البداية للتكفين كان رداءً لعبد الله بن أبي بكر مصنوع باليمن، إلا أنه نُزع[٣]فيما بعد). وكفن ﷺ في قماش ثلاثة أردية بيض من القطن، كانت من مصنوعات سحول، ولم يكن من بين ما كفن فيه النبي ﷺ قميصاً ولا عمامة.[٤] وبعد أن تم الغسل والتكفين طرح هذا السؤال نفسه: أين يُدفن رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر الصديق: إن النبي يدفن حيث يموت، لذا اقترح رفع النعش والفراش من المكان الذي توفى فيه رسول الله في حجرة السيدة عائشة وأن يحفر مكانهما قبر.[٥] تقول السيدة عائشة: لم يدفن النبي في أي ساحة لأنه ﷺ كان حريصاً قُبيل وفاته على أن لا يتخذ الناس قبره داراً للعبادة. وكان يصعب منع ذلك إذا ما دفن النبي ﷺ في أي ساحة،[٦] لذا دفن داخل الحجرة.

---

[١] وردت في بعض روايات ابن سعد وغيره أن الدفن تم يوم الأربعاء ولكن هذا كله كذب، لأن الرواية الصحيحة ذكرت في ابن سعد نفسه وهي أن الدفن تم يوم الثلاثاء، إلا أن ليل يوم الأربعاء كان قد دخل، وفي رواية ابن ماجه (كتاب الجنائز) **فلما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء.**

[٢] طبقات ابن سعد، صـ ٦٢، ٦٣، والطبري جزء الوفاة (ورد ذكر أسماء هؤلاء الصحابة بإيجاز في أبي داود، كتاب الجنائز وفي ابن ماجه، كتاب الجنائز).

[٣] صحيح مسلم، صـ ٢٠، كتاب الجنائز.

[٤] صحيح البخاري ومسلم ومسند أبي داود، كتاب الجنائز.

[٥] ابن سعد، جزء الوفاة بروايات صحيحة، وابن ماجه، كتاب الجنائز، ذكر وفاة النبي.

[٦] صحيح البخاري، كتاب الجنائز باب الوفاة.

كان في المدينة اثنانِ من المهرة في حفر القبور هما أبو عبيدة بن الجـراح وأبـو طلحة. كان أبو عبيدة يحفَر القبور بشكل صندوقي طبقاً لما تعارف عليه أهل مكة. أما أبـو طلحة فقد كان يحفر لحداً على عادة أهل المدينة. واختلف الناس في نوعية القبر الذي سيُعد للنبي ﷺ. فقال عمر: لا حاجة للاختلاف. سنرسل لهذين الصحابيين[1] وسيتولى الأمر مـن سيسبق منهما. فاقتنع الناس بهذا الرأي. فأرسل العباس ﷺ رسلاً إلى الصحابيين. فلم يكـن أبو عبيدة بالبيت فجاء أبو طلحة، وحفر للنبي ﷺ قبراً على هيئة لحد. ولأن الأرض كانـت رطبة لذا فُرش في القبر الفراش الذي كان النبي ﷺ قد توفى عليه.

- أُعدت الجنازة، وانقسم الناس لصلاة الجنازة (كانت صلاة الجنازة في الحجرة وكان الناس يدخلون جماعات قليلة متتالية لأداء الجنازة) فدخل الرجال أولاً، ثم النساء ثم الأطفال وأدوا الجنازة التي كانت بلا إمام.[2] ثم وضع كل من علي و الفضل بن العباس (وأسامة بن زيد و عبد الرحمن بن عوف) جسد النبي ﷺ الطاهر في القبر).[3]

---

[1] ابن ماجه، كتاب الجنائز.

[2] ابن سعد، برواية صحيحة جزء الوفاة.

[3] ورد في أبي داود، كتاب الجنائز وفي ابن ماجه وابن سعد اسم قثم بن عباس وشقعران بدلاً من اسم أسامة بن زيد وعبد الرحمن بن عوف، ولا تخفى الرواية الصحيحة على المطلعين.

التركـــة

ما هي الأشياء التي تركها النبي ﷺ من ممتلكات وغيرها في تركته بعد وفاته ﷺ ؟ للإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرف أولاً ما كان يمتلكه النبي ﷺ أثناء حياته ثم تركـــه بعد وفاته، علماً بأنه وإن كان هناك شيء فقد قال عنه النبي ﷺ علانية: «**لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ**».[1]

روى عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا يقتَسِمُ ورَثَتي دِيناراً، ما تركتُ بعدَ نفقةِ نِسائي ومُؤنَةِ عاملي فهو صدَقَةٌ»[2]؛ أي لن تكون هناك تركة، ومن ثم لن يقسموا. ولهــذا أمر النبي ﷺ عند احتضاره السيدة عائشة أن تتصرف ببعض الدراهم التي كانت عندها في سبيل الله.

روي فى البخاري عن عمرو بن حويرث شقيق أم المؤمنين جويريـــة رضـــي الله عنها أنه قال: **ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقةً**.[3]

ورد في سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها: "**ما ترك رسول الله ﷺ دينـــاراً ولا درهماً ولا بعيراً ولا شاة**". وعلى أي حال إن كانت هناك تركة، فلن تتعدى هذه الأشياء الثلاثة؛ وهى قطعة أرض وراحلة وسلاح.

---

[1] وردت هذه العبارة في سائر كتب الحديث، كما وردت في مواضع مختلفة في صحيح البخاري، كتاب الوصايا وكتاب الفرائض باب فرض الخمس.وهذا نص الحديث: (٦٥٧٩) حدثنا إسماعيلُ بن أبانَ أخبرَنا ابنُ المباركِ عن يونسَ عن الزُّهري عن عُروةَ عن عائشةَ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ». (المترجم)

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٥٨١) حدثنا إسماعيلُ قال: حدثني مالكٌ عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يقتَسِمُ ورَثَتي دِيناراً، ما تركتُ بعدَ نفقةِ نِسائي ومُؤنَةِ عاملي فهو صدَقَةٌ». (المترجم).

[3] صحيح البخاري، كتاب الوصايا.

الأرض:

الأرض التي تحدث عنها عمرو بن حويرث كانت عبارة عن بعض حدائق المدينة وخيبر وفدك والمقصود بممتلكات المدينة ممتلكات بني النضير أو تلك الحدائق التي كان مخيريق اليهودي قد أوصى بها هبة للنبي ﷺ سنة ٣ هجرية (إبان غزوة أحد). ولكن ثبت من صحيح الروايات أن النبي كان قد قسم هذه الحدائق في ذلك الوقت على مستحقيها.[١]

واختلف أهل السنة والشيعة منذ البداية حول ممتلكات فدك وخيبر؛ فتقول الشيعة إن هذه الممتلكات كانت ملكاً خاصاً للنبي ﷺ لذا كان يجب أن تقسم على أهل البيت بصفتهم ورثة، أما أهل السنة فيقولون إنه ﷺ تملكها بصفته قائداً للمسلمين، حتى وإن كانت ملكاً خاصاً به فقد قال ﷺ في هذا الشأن: "«لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ».[٢]

والحقيقة هي أن هذا الاختلاف كان قد ظهر منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فقد طالب العباس (عم النبيﷺ) والسيدة فاطمة (ابنتهﷺ)، وأكثر أزواجه المطهرات، أن تقسم هذه الممتلكات على الورثة. لكن أبا بكر و عمر وآخرين من أكابر الصحابة قالوا: إنها وقف للمسلمين، ولن يكون هناك تغيير في الطرق أو المصارف التي كان النبي ﷺ ينفقها فيها قبل وفاته.[٣] حيث إن النبي ﷺ كان قد خصص إيراد تلك الممتلكات الثلاثة لأوجه مختلفة؛ فكانت إيرادات أملاك بني النضير مخصصة للاحتياجات الطارئة. وكانت إيرادات فدك وقفا على المسافرين، أما إيرادات خيبر فكان ﷺ يقسمها إلى ثلاثة أقسام؛ قسمين لعامة المسلمين، وثالث كان يعطي لأزواج النبي كمصاريف سنوية. وما كان يتبقى منه كان ينفق في مساعدة الفقراء والمهاجرين.[٤] وفي النهاية ولى عمر إبان خلافته علي والعباس رضى الله عنهما على أملاك المدينة بناء على إصرارهما، إلا أن علي ﷺ استولى عليها. أما أملاك خيبر وفدك فظلت حتى عهد عمر بن عبد العزيز بحوزة الخلفاء الراشدين.[٥]

---

[١] ورد في صحيح البخاري باب فرض الخمس. وصدقة بالمدينة وهذه هي الحدائق. للمزيد انظر فتح الباري جـ٦ صـ ١٤٠ وصحيح البخاري، كتاب المغازي، ذكر بني النضير.

[٢] صحيح البخاري، كتاب الفرائض.

[٣] ورد في أبواب عديدة من صحيح البخاري، انظر كتاب الفرائض.

[٤] سنن أبي داود، باب صفايا رسول الله ﷺ.

[٥] ورد في الحاشية أن عمر بن عبد العزيز كان قد أعطى حديقة فدك لأبناء علي ﷺ.

الدواب:

أسهب أرباب السيرة في الكتابة عن الدواب والماشية والخيل التي كانت عند النبي ﷺ بطريقة توهم أن النبي ﷺ كان يمتلك حظيرة بلد بأكمله.

كتب الطبري عن أسماء هذه الدواب وما يتعلق بها تفصيلا، وإن كان ما كتبه صحيحا فهذا أمر طيب؛ ولكن الحقيقة هي أن كل ما كتبه من روايات عن هذه الدواب مأخوذة جميعها عن الواقدي. وهو ما كتبه المؤلفون السابقون بتفصيل، ومن بينهم أكابر المحدثين من مثل اليعمري، والمغلطاني والحافظ العراقي وغيرهم. ومع أن هؤلاء المؤلفين غالباً لا يكتبون سلسلة السند، لكن أكثر الناس يعتقد بصحة قولهم لكونهم ثقات. ولكن حين يحقق في الأمر يتضح أن مثل هذا النوع من الروايات لا تتعدى سلسلة سندها الواقدي.

وقد مرت رواية السيدة عائشة هذه آنفاً: "**ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهما ولا بعيراً ولا شاة**". ورواية عمرو بن حويرث شقيق جويرية أم المؤمنين المذكورة في صحيح البخاري كتاب الجهاد: "**ما ترك رسول الله ﷺ إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأيضاً تركها صدقة**".

يتضح في هذه الروايات أنه لم يكن بتركة النبي ﷺ الخاصة إلا راحلة واحدة؛ إذا، فكيف يمكن أن نُسلِّم بالفهرس الطويل الذي أعده الطبري عن دواب وأمتعة النبي الذي يبدو وكأنه كان لأحد الملوك المتوجين.

ويثبت من مطالعة الأحاديث الصحيحة أنه كانت هناك أشياء أخرى إضافة لما ذكره عمرو بن حويرث عند رسول الله ﷺ. لكن هذا لا يؤثر على رواية عمرو، لأن عمرو قال: إن هذه الأشياء كانت موجودة حال وفاة النبي ﷺ. فمن الممكن أن تكون هذه الأشياء الفائضة قد تبرع النبي ﷺ بها وأنفقها قبل وفاته حسب عادته ﷺ. وعلى كل حال (طبقاً للروايات الصحيحة) فقد كان النبي يمتلك الدواب التالية:

لخيف: فرس يربط في حديقة أبي بن عباس. وقد ذكره البخاري في كتاب الجهاد.

عقيرة: حمار، يقول معاذ ﷺ أردفني النبي ﷺ خلفه عليه (البخاري، كتاب الجهاد).

العضباء والقصواء: ناقة سريعة جداً، وكانت تسمى أيضاً بالقصواء (ورد في الطبري، ص ١٧٨٤ أن النبي ﷺ كان قد اشتراها من أبي بكر وقت الهجرة. وركب عليها مهاجراً، وهي نفسها التي كانت قد توقفت أمام بيت أبي أيوب الأنصاري[1] بعد ما وصل النبي ﷺ المدينة.

---

[1] صحيح مسلم، ذكر الهجرة.

كما أن رسول الله ﷺ كان قد خطب من على ظهرها خطبة الوداع.[١] وكانت تفوق غيرها عدواً في كل الغزوات. ويروى أن أعرابياً قدم ذات مرة من الخارج راكباً جملاً صغيراً، وأراد أن يسابق به العضباء، فسبق. فحزن الصحابة لذلك لكن رسول الله ﷺ قال: «حقٌ على الله أن لا يرتَفعَ شيءٌ منَ الدُّنيا إلا وضعَه». (البخاري، باب الجهاد).[٢]

تنبيه: وهي البغلة(دلدل) التي ورد ذكرها في أكثر الروايات، والتي ذكرت في رواية عمرو بن حويرث. وقد صرح أكثر شارحي صحيح البخاري أن مقوقس مصر كان قد أهدى هذه البغلة للنبي ﷺ. وفي صحيح البخاري أن ابن العلماء (حاكم أيله) كان هو الآخر قد أهدى النبي ﷺ بغلة بيضاء إبان غزوة تبوك.[٣] أما البغلة البيضاء التي ركبها النبي ﷺ في غزوة حنين فقد أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي وهي التي اعتبرها أصحاب السير أنها البغلة دلدل، ولكن هذا خطأ.[٤] وهو ما صرح به في صحيح مسلم.[٥]

الأسلحة:

كان النبي ﷺ رغم قناعته وزهده يمتلك الأسلحة التالية في بيته للحاجة إليها في الجهاد، وهي تسعة سيوف، وهذه أسماؤها: المأثور، والعضب، وذو الفقار، والقلعي، والبتار، والحتف، والمخذم، والقاضية، ومأثور.

ورث النبي ﷺ المأثور عن والده، وحمل النبي ﷺ ذا الفقار في غزوة بدر وكان سيف ذا مقبض فضي، أما السيف الذي حمله النبي ﷺ يوم فتح مكة فكان ذا مقبض ذهبي، وكان للنبي ﷺ سبعة دروع هي ذات الفضول، وذات الوشاح، وذات الحواشي، وسعدية، وفضة، وبتراء، والخزنق. وذات الفضول هو ذلك الدرع الذي كان النبي ﷺ قد رهنه لمدة

---

[١] صحيح مسلم، وسنن أبي داود، ذكر حجة الوداع.

[٢] وهذا نص الحديث:(٢٨٠٧) حدثَنا مالكُ بنُ إسماعيلَ حدثَنا زُهيرٌ عن حُميدٍ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ناقةٌ تُسمَّى العَضباءُ لا تُسبَقُ ــ قال حميد: أو لا تكاد تسبق ــ فجاءَ أعرابيٌّ على قعودٍ فسبقَها، فشقَّ ذلك على المسلمينَ حتى عرفَهُ فقال: «حقٌ على الله أن لا يرتَفعَ شيءٌ منَ الدُّنيا إلا وضعَه». (صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب ناقة النبي ﷺ) (المترجم).

[٣] كتاب الجهاد بغلة النبي ﷺ.

[٤] فتح الباري، ذكر غزوة حنين، جـ٨، صـ ٢٤.

[٥] باب غزوة حنين.

عند كمن عند يهودي على ثلاثين صاعاً.[1] وكانت هذه الدروع كلها من الحديد، علماً بأن العرب كانت تستخدم دروع الجلد أيضاً.

كما كان لديه ﷺ ستة أقواس هي زوراء، وروحا، وصفراء، وبيضاء، وشداد وكتوم الذي كان قد تكسر في غزوة أحد وأعطاه النبي ﷺ لقتادة. هذا فضلا عن أنه ﷺ كان يمتلك جعبةً يقال لها الكافور، وحزام من جلد يضم ثلاث حلقات فضية. لكن ابن تيميه كتب أنه لم يتضح لي من أي حديث أن النبي ﷺ كان قد استعمل الحزام. وكان له ﷺ ترس يقال له زلوق. وخمسة رماح ومغفراً[2] حديدياً يقال له موشح. كما كان له مغفرٌ آخر يقال له سبوع. وكان ﷺ يمتلك ثلاث جبب كان ﷺ يرتديها ﷺ في الحرب ويقال إن إحداهن كانت من الحرير الأخضر. كما كان يمتلك راية سوداء يقال لها عقاب، وراية صفراء وأخرى بيضاء.

الآثار المباركة:

إضافة لما سبق ذكره كانت هناك بعض الأشياء التذكارية التي احتفظ الناس بها تبركاً. ففي حجة الوداع أعطى النبي شعره الشريف لأحبابه. وكان أبو طلحة الأنصاري[3] قد أخذ أكثره. كما كان عند أنس بن مالك بعضاً من شعره ﷺ إضافة لشيئين آخرين هما النعلين وقدح خشبي مكسور ملئوم بأسلاك فضية. وكان السيف ذو الفقار عند علي ثم ورثه أبناءه من بعده، وبعد استشهاد الإمام الحسين ﵁ أخذه علي بن الحسين ﵁. ويُذكر أن بعض الصحابة كانوا قد عرضوا عليه أن يأخذوه خشية سرقته منه إلا أنه رفض ذلك.

وكانت الملابس التي توفى فيها النبي ﷺ عند السيدة عائشة،[4] أما الخاتم والعصا المباركة التي ورد ذكرها في الأحاديث فقد أعطيا للخلفاء لأبي بكر أولاً ثم لعمر ثم لعثمان﵁. إلا أنهما ضاعا كلاهما في عهده. فقد سقط الخاتم من يد عثمان في بئر، وكسر

---

[1] صحيح البخاري، كتاب البيوع، وكتاب الرهن.

[2] ما يشبه الخوذة في زماننا. (المترجم).

[3] صحيح مسلم، حجة الوداع.

[4] صحيح البخاري، كتاب الطهارة.

جهجاه الغفاري للعصا المباركة.[1] (أفرد البخاري باباً مستقلاً للحديث عن هـذه الآثـار المباركة).[2]

مسكنه الشريف:

توفى والد الحبيب محمد ﷺ وهو ما يزال صغيراً؛ لذا عاش في بيت جده ثم بيـت عمه إلى أن بلغ رشده. ثم تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمـره السـيدة خديجـة رضي الله عنها. وليس معلوم بطريقة قاطعة بأنه ﷺ عاش بعد زواجه في بيته الذي ورثه أم في بيت السيدة خديجة. على كل حال كان للنبي بيت ورثه في مكة. واستولى عليه عقيل – ابنَ عم رسول الله وشقيق علي – قبل أن يعتنق الإسلام؛ لذا حينما فتح رسول الله ﷺ مكـة، سأله الناس: أين ستقيم يا رسول الله؟ هل ستقيم في بيتك ؟ فقال النبي ﷺ: وهل تـرك لنـا عقيلٌ من منزلٍ؟[3]

وبعد قدومه ﷺ المدينة المنورة أقام في بيت أبي أيوب الأنصاري لمدة ستة أشـهر كان خلال تلك الفترة بمفرده، وكان أهله وأولاده بمكة. وحينما وضـع النبـي ﷺ أسـاس المسجد النبوي جهز بجانبه حجرات صغيرة ثم أرسل رسولاً إلى مكة فأحضر أهله وعياله ثم أنزلهم في تلك الحجرات.[4]

كان للنبي ﷺ في آخر أيامه تسع نسوة؛ كن يعشن كل في حجرة مستقلة، ولم يكـن لتلك الحجرات فناء ولا أروقة ولا حُجيرات ملحقة بها. كما لم تزد سعة كل حجرة عن ستة أو سبعة اذرع تقريباً، وكانت جدرانها من الطين لذا كانت ضعيفة تملئها الشقوق وتخترقها أشعة الشمس. وكان سقفها مسقوفاً بالجريد وأوراق الشجر مغطى بأغطية من الصوف كي تحجب المطر. ولم يكن ارتفاع الحجرة شاهقاً بل كان الشخص يتمكن من أن يلمس السقف

---

(١) ورد ذكر هذه الآثار جميعها في صحيح البخاري، كتاب الخمس.

(٢) ورد ذكر الخاتم في صحيح البخاري، كتاب اللباس، إضافة لذكره في كتاب الخمس. واخذ وصف العصى المباركة من فتح الباري جـ٦ صـ ١٤٨."سيد سليمان الندوي".

(٣) البخاري، فتح مكة.وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٤١٨٣) حدَّثنا سليمانُ بن عبدِ الرحمنِ حدَّثنا سَعدانُ بن يحيى حدَّثنا محمدُ بن أبي حفصةَ عنِ الزُّهريِّ عن عليِّ بن حسين عن عمرِو بن عثمانَ «عن أُسامةَ بن زيد أنهُ قال زمنَ الفتح: يا رسولَ الله، أينَ ننزلُ غداً؟ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: وهل ترك لنا عَقيلٌ من منزلٍ؟»».(المترجم).

(٤) ابن سعد.

بيده وهو واقف. وكان أمام أبواب الحجرات ستائر معلقة،[1] وكان النبي ﷺ يقضي في كل حجرة ليلة بالتناوب، أما النهار فغالباً ما كان يقضيه في مجلس أصحابه، وكان هذا المجلس يتوسط كل هذه الحجرات.

إضافة لهذه الحجرات، كانت هناك "مشربة" (غرفة علوية) ورد ذكرها في الأحاديث، أقام النبي ﷺ فيها شهراً حين آل ﷺ سنة ٩ هجرية وحين وقع من على الفرس وكُسر. وكانت هذه المشربة مفروشة، فكانت فيها حصيرة، ووسادة من الجلد محشوة بسعف النخيل وبعض الجلود معلقة هنا وهناك.[2]

ومع أن حجرات النبي ﷺ كانت مظهراً للنور الإلهي، إلا أنها كانت تخلو ليلاً من المَصابيح، [3] حيث أن النبي ﷺ لم يكن يهتم بالزخارف الدنيوية والظاهرية للبيت. يُروى أن السيدة عائشة غطت ذات مرة الجدران بقماشة مزخرفة، فغضب رسول الله ﷺ من ذلك، وقال: "إِنَّ الله لَمْ يَأْمُرْنَا فِيمَا رَزَقْنَا أَنْ نَكْسُوَ الْحِجَارَةَ وَاللَّبْنَ " [4]

وقد ظلت تلك الحجرات في قبضة أزواج النبي ﷺ بعد وفاته، وبعد ذلك حينما كانت تتوفى إحداهن تعطى الحجرة لأقاربها. علماً بأن معاوية كان قد اشترى أكثر هذه الحجرات إبان خلافته.[5]

وظلت هذه الحجرات على حالها حتى عهد عمر ﷺ، وفي عهد عثمان ﷺ هدمت بعضها وضمت إلى المسجد النبوي، إلا أن أكثرها ظل حتى عهد الوليد بن عبد الملك. وفي عام ٨٨هـ إبان خلافة عمر بن عبد العزيز هدمت كل هذه الحجرات وضمت لفناء المسجد

.

---

[1] ورد هذا تفصيلا في الأدب المفرد، البخاري، باب التطاول في البيان والبناء.

[2] أبو داود، باب إمامة القاعد.

[3] صحيح البخاري، صـ ٨٦٩ باب ما كان رسول الله ﷺ يتجوز من اللباس والبسط.وهذا نص الحديث: (٥٠٧) ـــ حدَّثَنا عبدُ اللَّهِ بنُ يوسُفَ قال: أخبرَنا مالكٌ عن أبي النَّضْرِ مَوْلَى عمرَ بنِ عُبيدِ اللَّهِ عن أبي سَلَمةَ بنِ عبدِ الرحمنِ عن عائشةَ زوجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنها قالت: «كنتُ أنامُ بينَ يَدَيْ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ورجلايَ في قِبلتِه، فإذا سَجدَ غَمزَني فقَبَضتُ رِجليَّ فإذا قامَ بَسَطْتُهما. قالت: والبيوتُ يومَئذٍ ليس فيها مَصابيح». (المترجم).

[4] صحيح البخاري، جـ١، صـ ٧٣، باب التطوع خلف المرأة.

[5] أبو داود، جـ٢، كتاب اللباس، باب في الصور.

النبوي عدا حجرة السيدة عائشة لأن بها قبر الحبيب محمد ﷺ.وقد أثيرت ضجة كبيرة في أرجاء المدينة يوم هدمت هذه الحجرات لأن أثرا من آثار النبي ﷺ قد محى.[1]

الحاضنة:

كان لدى النبي ﷺ جارية حبشية تركها له والده، كان اسمها أم أيمن حاضنة النبي ﷺ[2]. ظلت على قيد الحياة حتى وفاته ﷺ. وكان النبي ﷺ دائما يناديها بقوله: يا أمه. وكان يقول حينما يراها: هذه بقية أهل بيتي. عتقها النبي ﷺ بعد أن تزوج السيدة خديجة وزوجها بمتبناه وحبيبه زيد ــ عبد السيدة خديجة ــ أنجبت أسامة بن زيد. والواقعة التي وردت في الكتب عن مزاح النبي ﷺ هي: أن امرأة جاءت النبي ﷺ وطلبت منه بعيرا. فأخبرها النبي ﷺ بأنه سيعطيها ابن البعير: فقالت المرأة: وماذا سأصنع بابن البعير. فأخبرها النبي ﷺ: بأن كل بعير ابن بعير.

ولقد اشتركت أم أيمن في أكثر الغزوات. فكانت تسقي الجنود وتداوي الجرحى في غزوة أحد واشتركت أيضاً في غزوة خيبر.[3]

الخدم:

كان بعض أحباب النبي ﷺ من الصحابة قد تركوا كل مشاغل الحياة وأوقفوا حياتهم لخدمة النبي ﷺ وأسماء هؤلاء الصحابة هي:

١- عبد الله بن مسعود الصحابي الشهيد الذي يعتبر المؤسس الأول للفقه الحنفي؛ لأن سلسلة فقه الإمام أبي حنيفة ترجع على رواياته واستنباطاته. جهر بالقرآن الكريم في مكة المكرمة في بداية بعثة النبي ﷺ. وحفظ عن النبي ﷺ سبعين سورة.

وكان ﷺ كاتم سر النبي ﷺ. حينما كان النبي ﷺ يخرج إلى سفر، كان ابن مسعود يتولى أمر منام ووضوء ومسواك النبي ﷺ، وكذا يلبسه النعل حينما كان يقوم من المجلس. ويتقدم النبي ﷺ في الطريق بعصاه. وحيثما ذهب رسول الله ﷺ وجلس كان

---

[1] ابن سعد، جزء أزواج النبي ﷺ.

[2] صحيح مسلم، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم.

[3] أخذت كل هذه الوقائع من طبقات ابن سعد جـ٨ ذكر أم أيمن.

ﷺ يخلع نعله ثم يقدمه له وقت قيامه وانصرافه، رافق النبي ﷺ في خلوته وجلوته حتى أصبح نموذجاً لأخلاق وعادات النبي ﷺ.[١]

٢- بلال: المشهور بالمؤذن (كان عبداً حبشياً) أسلم في مكة. وقد مر في بداية هذا الكتاب ذكر الطريقة الحماسية التي أسلم بها. اشتراه أبو بكر الصديق، ثم اعتقه. ومنذ ذاك الحين وهو في خدمة النبي ﷺ. فكان متعهد الأمور المنزلية للنبي ﷺ. فكان يحضر الاحتياجات المنزلية من السوق، ويقترض ثم يرد القرض، ويهتم بخدمة الضيوف من مأكل ومشرب وخلافه.[٢]

٣- أنس بن مالك: كان أيضاً من خدم النبي ﷺ الخاص. وكان صبياً حينما قدم النبي ﷺ المدينة. فقدمت به أمه إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله ﷺ هذا ولدي أحضرته في خدمتك.[٣]

فخدم أنس النبي ﷺ عشر سنين. وكان يتولى بعض الأعمال الخفيفة كإحضار ماء الوضوء، والذهاب إلى الناس. ولأنه كان صغيراً، لم يكن قادراً على أداء بعض الأعمال إلا أن النبي ﷺ لم يحاسبه قط.[٤]

---

[١] ورد هذا تفصيلا في طبقات ابن سعد (وورد مجملا في صحيح البخاري، باب مناقب عبد الله بن مسعود).

[٢] أبو داود، جـ٢، صـ ٢٧، باب قبول هدايا المشركين.

[٣] صحيح مسلم، فضائل أنس.

[٤] [illegible]ر داود، كتاب الأدب.

شمائله ﷺ (حُليته ولباسه وطعامه ومزاجه)

حُلية النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ متوسط القامة متناسق البدن، أشقر اللون، ذا جبهة عريضة كثيف الحواجب. تميل أنفه على الطول، نحيف الوجه؛ أي أن وجهه لم يكن ممتلأً، وكان واسع الفم متباعدة أسنانه، طويلة رقبته، كبيرة رأسه، واسع صدره، وسطاً شعر رأسه؛ أي ليس بناعم ولا متجعد. كثيف ذقنه، متفتح وجهه. سود عيناه، طويلة جفونه، ممتلئ الكتف، متين العواتق، يغطي شعرٌ خفيفٌ ما بين صدره الشريف وسرته. ويكسو الشعر كتفه وساعديه. لحيمة كفتا يديه. طويلة سواعد يديه. ناعمة أعقاب رجليه، فارغة أخماص قدميه من المنتصف حيث كان الماء يخرج من أسفلها.[١]

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتأثرون بحسن وجمال محمد ﷺ، فحينما رأى عبد الله بن سلام وجه النبي ﷺ أول مرة قبل أن يسلم عليه قال: تالله إنه ليس وجه كاذب.[٢] وسأل شخص الصحابي الجليل جابر بن سمرة قائلاً: أكان وجه النبي يبرق كالسيف. فقال له: لا بل كان يبرق كالشمس والقمر. ويروى هذا الصحابي فيقول: ذات ليلة كان الجو صافياً والقمر ساطعاً وكنت أنظر على النبي ﷺ أحياناً وأحياناً أنظر للقمر. فكان وجه النبي ﷺ أجمل من القمر.[٣] ويقول البراء الصحابي الجليل: ما رأيت أحداً أجمل من النبي ﷺ في حلة حمراء.[٤]

وكان لعرق النبي ﷺ رائحة زكية،[٥] وكان العرق يتساقط من وجهه كالدرر.[١] وكان جلد جسمه رقيقا للغاية، يقول أنس: كان لون النبي ﷺ ناصعاً للغاية. وكان عرقه

---

[١] وردت هذه الصفات بالتفصيل في شمائل الترمذي ومسند ابن حنبل جـ١ صـ ١١٦ – ١١٧ وبإيجاز في البخاري ومسلم باب صفة النبي.

[٢] الترمذي، أبواب الزهد، صـ ٤٠٩.

[٣] المشكاة، باب صفة النبي ﷺ نقلاً عن صحيح مسلم. (المشكاة الباب المذكور نقلاً عن الترمذي والدارمي)."سيد سليمان الندوي"

[٤] صحيح مسلم، باب صفة النبي ﷺ.

[٥] المرجع السابق.

كالدرر وما رأيت ديباجاً ولا حريراً أنعم من جلد النبي ﷺ. وما كان المسك والعنبر أكثر طيباً من بدنه ﷺ.[٢]

وشاع أن النبي ﷺ لم يكن له ظل. لكن لا يوجد أي سند يؤيد هذا.

خاتم النبوة:

كان خاتم النبوة كبيضة حمامة بين كتفي النبي ﷺ، فكان يبدو كغدة حمراء بارزة، روى في صحيح مسلم وشمائل الترمذي عن جابر بن سمرة أنه قال: **رأيت الخاتم بين كتفي رسول الله ﷺ غدّة حمراء مثل بيضة الحمامة.**

ولكن يبدو من رواية أخرى أن الخاتم كان عبارة عن حبيبات لحم مكونة شكلاً مستديراً عند الكتف الأيمن. وهذا ما يعرف بختم النبوة.[٣] لكن ثبت من تطابق صحيح الروايات أن خاتم النبوة كان عبارة عن قطعة لحم بارزة قليلاً بين الكتفين. وكان عليها حسنة ونابت عليها شعر.

شعره المبارك:

كان شعر النبي ﷺ يُسدل حتى كتفيه. ففي فتح مكة رأى الناس أربعة ذوائب متدلية على كتفه ﷺ. وكان مشركي العرب يفرقون الشعر. أما النبي ﷺ فلأنه كان يحب موافقة أهل الكتاب بدلاً من المشركين فكان يترك شعره في البداية قصيراً كأهل الكتاب ثم بدأ يفرقه بعد ذلك، وهذا ما ورد في شمائل الترمذي. ويتضح من ذلك أنه حينما لم يكن للمشركين وجود، كان احتمال مشابهتهم قائمًا. ثم أخذ النبي ﷺ بعد ذلك يفرق.

(وكثيراً ما كان النبي ﷺ يضع زيتاً على شعره، ويفرقه يوما، وكانت في لحيته بعض شُعيرات بيض)

---

[١] البخاري، واقعة الإفك.

[٢] المشكاة، باب صفة النبي ﷺ نقلاً عن البخاري ومسلم.

[٣] صحيح مسلم (باب إثبات النبوة) واشتهر أن خاتم النبوة كان مكتوباً عليه كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله بطريقة فطرية. ولكن هذا الكلام ليس له سند ولا ثبوت له بأي حديث. حتى أن المحدثين صرحوا إن بعض هذه الروايات ضعيفة وباطلة، فيقول ابن حجر: لم يثبت منها شيء .الزرقاني: المواهب جـ١ صـ ١٨٤ لكن كلمة التوحيد كانت مكتوبة على الخاتم الذي كان النبيﷺ يلبسه لثبته على الرسائل. فنسب الناس ذلك لخاتم النبوة خطأ.

كان النبي ﷺ سريع المشي، فحينما كان يمشي يبدو وكأنه يطــوي الأرض. وفــي روايات ضعيفة ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له ظل. أي لم يكن لجسده الشــريف ظــل علــى الأرض، إلا أن هذه الرواية غير مأخوذ وغير معتد بها عند المحدثين.

كلامه وتبسمه:

كان حديث النبي ﷺ غاية في الحلاوة وخلاباً، وكان صــلوات الله وســلامه عليــه يتريث في حديثه لذا كانت كل فقرة من فقرات حديثه تخرج مستقلة يتذكرها السامع دائمــا، وكانت عادته ﷺ أن يكرر المقولة الواحدة ثلاث مرات، ويعيد أو يكرر ما يريد التأكيد عليه. وغالباً ما كان ينظر ناحية السماء وهو يتحدث، وكان صوته جهوراً، لذا رُوى عن أم هانئ: أن النبيﷺ كان يقرأ القرآن في الكعبة وكنا نسمع تلاوته ونحن متكئين على الأســرة فــي بيوتنا.[١]

كان للسيدة خديجة ولد من زوجها الأول يدعى هند. وكان ماهراً في الخطابة حيث إنه كان يصور ما يحكى عنه. ذات مرة سأله الإمام الحسين: كيف كان يخطب رســول الله ﷺ؟ فأجابه بقوله: كان ﷺ متفكراً دائماً وصامت لا يتكلم بلا داعٍ، كانت كل فقرة من حديثه الشريف مفصلة واضحة، حينما كان يشير بيده يرفع يده كاملة. وإن تعجب على أمر يقلب كف يده. وأحياناً كان يضرب كفاً على كف أثناء الخطاب، وينظر أسفل إن سُر وهو يتكلم، وكان ﷺ قليل الضحك. إن فرح تبسم فكان تبسمه ضحكة.[٢] ويقول جرير بن عبــد الله: إن رسول الله ﷺ ما رآني قط إلا وابتسم. وورد في بعض الروايات أن نواجذه ﷺ كانت تبــدو إذا زاد ضحكه، لكن ابن القيم وغيره قالوا إن هذا مبالغة، وإلا فما ضــحك رســول الله ﷺ لدرجة أن تبدو نواجذه.

لباسه:

لم يلتزم النبي ﷺ بأي شيء معين في الملبس. كانت الجبة والقميص والإزار هــي الملبوسات الأكثر استعمالاً للنبي ﷺ. وما لبس رسول الله ﷺ البيجامة قط. مــع أن الإمــام أحمد وأصحاب السنن الأربعة قد ذكروا أنه ﷺ كان قد اشترى بيجامة من سوق منى. يقول الحافظ ابن القيم أنه يقاس من هذا أن النبي ﷺ ربما يكون قد استعملها. ولقد استعمل رسول الله ﷺ الجوارب السود التي أرسلها له النجاشي مع أن استعمالها لم يكــن رائجــاً آنــذاك.

---

[١] ابن ماجه، باب ما جاء في القرآن في صلاة الليل.

[٢] شمائل الترمذي.

ويتضح من ظاهر الرواية أنها كانت جلداً. وفي بعض الأحيان كان النبي يضع العمامة على عاتقه وأحياناً أخرى على كتفيه وأحياناً يلفها على رقبته. وغالباً ما كانت العمامة سوداء، تحتها طاقية رأس. وما استعمل رسول الله الطربوش. أما الطاقية فكانت شيئاً أساسيا تحت العمامة لذا كان رسول الله ﷺ يقول: فَرْقُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الْعَمَائِمُ عَلَى الْقَلانِسِ».[1]

الجُبة:

كانت الجبب أحب الملبوسات للنبي ﷺ.[2] ويطلق عليها في العربية "جبة"

العباءة:

ولقد استعمل رسول الله ﷺ عباءة الشام في بعض الأحيان، وقد كانت أكمامها ضيقة لدرجة أن النبي ﷺ إذا أراد أن يتوضأ لم يستطع أن يشمر لذا كان يضطر لإخراج يده من الأكمام. استعمل النبي ﷺ العباءة النوشيروانية التي يغطى جيبها وأكمامها سجاف حريري.

البردة:

حين توفى رسول الله ﷺ أخرجت السيدة عائشة رضي الله عنها بردة مرقعة وإزاراً من صوف وقالت هذان ما توفى فيهما رسول الله ﷺ.

الحلة الحمراء:

ورد في الروايات أن النبي ﷺ استعمل كذلك حلة حمراء. وقد سماها المحدثون بهذا الاسم لأن لونها كان أحمر. لكن ابن القيم قال بإصرار أن النبي ﷺ لم يلبس قط لباساً أحمر، كما أنه لم يجز لبسه للرجال. والحلة الحمراء إحدى جبب اليمن تكون بها خطوط حمراء لذا سميت حمراء. وهي ما كان النبي ﷺ يستعملها أحياناً، ولكن عامة المحدثين يقولون إنـه لا دليل على هذا التخصيص ــ وورد هذا الأمر تفصيلاً في الزرقاني ــ ويثبت من مختلف الروايات أن النبي ﷺ لبس كل الألوان بما فيها الأسود والأحمر والأزرق والزعفراني إلا أن اللون الأبيض كان أحبها إليه ﷺ.[3] (كما استعمل النبي ﷺ في بعض الأحيان نوعاً من

---

[1] أبو داود، كتاب اللباس.وهذا نص الحديث: (٤٠٧٨) حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سَعِيد الثَّقَفِيُّ أخبرنا مُحمَّدُ بنُ رَبِيعَةَ أخبرنا أَبُو الْحَسَنِ الْعَسْقَلاَنِيُّ عن أَبي جَعْفَرِ بنِ مُحمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ رُكَانَةَ عن أَبِيه،:«أنَّ رُكَانَةَ صَارَعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَصَرَعَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قالَ رُكَانَةُ: وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: فَرْقُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الْعَمَائِمُ عَلَى الْقَلاَنِسِ».(المترجم).

[2] صحيح البخاري، باب اللباس.

[3] أبو داود، جـ ٢، كتاب اللباس، ومسند ابن حنبل صـ ٢٤٧.

الحلي مرسوم عليه شكل (صورة) رُحّل.[1] أما نعله ﷺ فكان عبارة عن حذاء فيه أربطة وفرشه من جلد وفيه أوراق جريد بدلاً من القطن. أما سريره ﷺ فكان مصنوعاً من البان لذا كان كثيراً ما يسلخ جسد النبي ﷺ.

الختم:

حينما أراد رسول الله ﷺ أن يراسل النجاشي وقيصر الروم قال له الناس يا رسول الله إن السلاطين لا تقبل رسائل دون ختم، ومن ثم صنع النبي ﷺ خاتماً مكتوباً عليه محمد رسول الله. روى عن بعض الصحابة أن رسول الله ﷺ ما كان يستعمله إلا وقت ثبته على الرسائل، فكان يلبسه في إصبع اليد اليمنى.

المغفر والدرع:

كذلك كان رسول الله يلبس الخوزة والدرع في حالة الحرب. فلبس ﷺ درعين في غزوة أحد. وكانت قبضة سيفه من الفضة.

الطعام وطريقة تناوله:

بسبب إيثاره وقناعته لم يتيسر للنبي ﷺ طعام شهي أو غال أبداً، لدرجة أنه (كما روي في صحيح البخاري كتاب الأطعمة) لم يرى طيلة حياته أفضل أنواع الخبز، لكنه كان يحب بعض الأطعمة حباً كثيراً.

الأطعمة المحببة:

كان رسول الله ﷺ يحب الخل والشهد والحلوى وزيت الزيتون والقرع كثيراً. إن كان طعامه قرعاً فيكون قطعاً في كأس يتناوله بيده. ذهب رسول الله ذات مرة إلى بيت أم هانئ وسألها عن طعام؟ قالت: خل. فأخبر ﷺ: بأن البيت الذي فيه خل لا يقال عنه بيت مفلس. كما كان رسول الله ﷺ يحب أحد الأطعمة العربية التي تسمى "حيس" وهو عبارة عن جبن وتمر مطبوخ في السمن.

ذات مرة ذهب الحسين وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما إلى أم سلمى وقالا لها أطعمينا الطعام الذي كان رسول الله ﷺ يحبه. فقالت: فماذا تحبون إذن؟ قالوا ما كان يحب رسول الله. فطحنت دقيق شعير ثم وضعته في القدر وخبزته بعد ما وضعت عليه زيت زيتون وكمون وفلفل أسود ثم قدمته لهما وقالت: هذا ما كان يحب رسول الله ﷺ.

---

[1] أبو داود، جـ٢، كتاب اللباس، لبس الصوف والشعر.

ومن اللحوم كان رسول الله ﷺ يأكل لحم الخراف والدجاج والسمان والإبل والماعز والغنم والظباء والأرانب والسمك. وكان ﷺ يحب لحم الكتف كثيراً، روى في شمائل الترمذي عن السيدة عائشة أن لحم الكتف في حد ذاته لم يكن محبباً للنبي ﷺ. إنما يكمن هذا الأمر في أن النبي ﷺ لم يكن يتيسر له اللحم لأيام عديدة. لذا حينما كان يتوفر لحم كان النبيُ ﷺ يريد أن يطهى بسرعة ومعروف أن لحم الكتف هو أسرع ما يطيب من اللحم. ومن ثم كان رسول الله ﷺ يطلبه. وثبت من روايات كثيرة أن هذا هو سبب حب النبي ﷺ لهذا اللحم.

وفي عرس السيدة صفية لم يكن على طعام الوليمة سوى تمر وشعير. فكان رسول الله ﷺ يأكل بطيخاً مع تمر. كما كان رسول الله ﷺ يحب الفاقوس (القثة). ذات مرة قدمت له ابنة معوذ بن عفراء تمراً وشرائح فاقوس (فكان ﷺ يتناول في بعض الأحيان التمر بالخبز أيضاً).

الماء واللبن والمشروبات:

كان رسول الله ﷺ يحب الماء البارد كثيرًا، وأحياناً كان يشرب اللبن خالصاً، وأحياناً يخلطه بالماء. وكان يبلل الزبيب والتمر والعنب في الماء ثم يتناولهم بعد ذلك. ومن آنية الطعام كان عنده ﷺ قدح خشبي مربوط بأسلاك حديدية، وقد ورد في الرواية ما يقاس منه أنه ربما يكون قد كُسر، لذا لُئم بأسلاك.

سنن طعامه:

كان رسول الله ﷺ إذا وضع له طعام لا يحبه لا يضع يده فيه ولا يعيبه، وإذا وضع له طعام ووضع يده فيه فكان يأكل مما يليه ويأمر غيره أن يأكلوا مما يليهم. وكان لا يضع الطعام على مسند أو أريكة وقت الطعام. وكان ينفر من ذلك لذا لم يأكل على منضدة أو مائدة إطلاقا. ولقد كان العجم يضعون الطعام على مائدة مرتفعة بعض الشيء عن الأرض. فكانت هذه سمة للفخر والمباهاة عندهم. حيث إن هذه العادة كانت خاصة بالأمراء والأغنياء. ولهذا السبب كان رسول الله ﷺ لا يحب هذا. كما أنه ﷺ كان يأكل بأصابعه [1] وأحياناً يقطع اللحم بالسكين ثم يأكله. ووردت هذه الرواية في صحيح البخاري.[2] وورد حديث في سنن أبي داود ينص على أنه ﷺ قال: «لاَ تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بالسِّكِّينِ فإنَّهُ مِنْ صَنِيعِ

---

[1] نقلت أكثر المعلومات المتعلقة بالطعام من شمائل الترمذي ومن زاد المعاد لابن القيم.

[2] كتاب الأطعمة، باب القطع بالسكين.

الأعَاجِمِ وَانْهَشُوهُ فإِنَّهُ أَهْنَأُ وَأَمْرَأُ». إلا أن أبا داود نفسه ذهب إلى ضعف هذا الحديث[١]. لأن راويه هو أبو معشر نجيح الذي كتب عنه البخاري بأنه منكر الحديث وأن هذا الحديث أيضاً من بين منكراته.[٢]

حُسن الملبس:

مع أن النبي ﷺ كان لا يحب التكلف والمباهاة إلا أنه كان يلبس ملابس باهية نفيسة، ويذكر أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما لبس من أغلى ملبوسات اليمن حينما ذهب إلى الخوارج كسفير. فقالت الخوارج: ما هذا اللباس يا ابن عباس؟ قال تعترضون عليه وقد رأيت رسول الله في أبهى وأفخم الملابس.[٣]

كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما غاية في التقشف، في ذات مرة اشترى حلة شامية من السوق وحينما عاد بها إلى البيت وجد فيها خطوطاً حمراء فرجع إلى السوق وأعادها. فقص شخص هذه الواقعة للسيدة أسماء (أخت السيدة عائشة) فأحضرت جبة رسول الله ﷺ التي على جيوبها وأكمامها وذيلها سجاف [٤] من حرير وأرتها الناس. (وكان رسول الله ﷺ قد لبس بعض الأحيان ملابس غالية فخمة أهداها له بعض الأمراء والسلاطين).

اللون المحبب:

كان اللون الأصفر أحب الألوان لرسول الله ﷺ. فقد ورد في الأحاديث أنه ﷺ كان يلبس ملابسه كلها بما فيها العمامة من هذا اللون أحياناً.[٥] (كما كان يحب اللون الأبيض كثيراً ويقول عنه إنه أفضل الألوان).

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٣٧٧٨) حدثنا سَعِيدُ بنُ مَنْصُورٍ قال أخبرنا أَبُو مَعْشَرٍ عن هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ عن أَبِيهِ عن عَائِشَةَ، قالَتْ: قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لاَ تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بالسِّكِّينِ فإِنَّهُ مِنْ صَنِيعِ الأعَاجِمِ وَانْهَشُوهُ فإِنَّهُ أَهْنَأُ وَأَمْرَأُ» . قال أَبُو دَاوُدَ: وَلَيْسَ هُوَ بالْقَوِيّ.(المترجم).

[٢] القسطلاني، شرح صحيح البخاري، صـ ٢٥٢، مصر.

[٣] أبو داود، كتاب اللبس

[٤] أبو داود، باب الرخصة في العلم وخط الحرير.

[٥] أبو داود، باب في [illegible]

ن الغير محبب:

كان ﷺ لا يحب الملابس الحمراء، فذات مرة جاء عبد الله بن عمرو مرتدياً ملابس حمراء. فقال ﷺ: مَا هٰذِهِ الرَّيْطَةُ عَلَيْكَ؟ فانصرف عبد الله وأحرقها. فلما سمع بذلك النبي ﷺ قال له: أَلاَ كَسَوْتَهَا بَعْضَ أَهْلِكَ فَإِنَّهُ لا بَأْسَ بِهِ لِلنِّسَاءِ».[1]

كان لدى العرب مادة اللون الأحمر يسمونها "مغرة" وكانوا يلونون منها الملابس، فكان رسول الله ﷺ لا يحب هذا اللون إطلاقاً، وفي ذات مرة كانت السيدة زينب تلون الملابس بهذا اللون، فحين جاء رسول الله ﷺ البيت ورأى ذلك انصرف. ففهمت السيدة زينب سبب ذلك، لذا غسلت الأقمشة. وحينما عاد النبي ﷺ ثانية لم يدخل البيت إلا حينما تيقن من عدم وجود أثر لهذا اللون.[2]

ذات يوم قدم رجل بملابس حمراء وسلم على النبي ﷺ، فلم يرد النبي سلامه، ومرة وضع صحابي أردية حمراء على راحلة ركوب، فقال له النبي: أَلاَ أَرَى هٰذِهِ الْحُمْرَةَ قَدْ عَلَتْكُم». فأسرع الصحابي ونزع الأردية ورمى بها على الفور.[3]

---

[1] أبو داود، باب في الحمرة.وهذا نص الحديث: (٤٠٦٦) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا عِيسَى بنُ يُونُسَ أخبرنا هِشَامُ بنُ الْغَازِ عن عَمْرِو بنِ شُعَيْبٍ عن أبيه عن جَدِّهِ، قال: «هَبَطْنَا مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ ثَنِيَّةٍ فالْتَفَتَ إِلَيَّ وَعَلَيَّ رَيْطَةٌ مُضَرَّجَةٌ بالْعُصْفَرِ فقال مَا هٰذِهِ الرَّيْطَةُ عَلَيْكَ؟ فَعَرَفْتُ مَا كَرِهَ، فأَتَيْتُ أَهْلِي وَهُمْ يَسْجُرُون تَنُوراً لَهُمْ فَقَذَفْتُهَا فِيهِ ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنَ الْغَدِ، فقال: يَا عَبْدَ الله مَا فَعَلَتِ الرَّيْطَةُ، فأَخْبَرْتُهُ، فقال: أَلاَ كَسَوْتَهَا بَعْضَ أَهْلِكَ فإِنَّهُ لا بَأْسَ بِهِ لِلنِّسَاءِ».(المترجم).

[2] أبو داود.وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٤٠٧١) حدثنا ابنُ عَوْفٍ الطَّائِيُّ أخبرنا مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيلَ حدَّثَني أَبِي قالَ ابنُ عَوْفٍ الطَّائِيُّ، وَقَرَأْتُ في أَصْلِ إِسْمَاعِيلَ قالَ حدَّثَني ضَمْضَمٌ ــ يَعْني ابنَ زُرْعَةَ ــ عن شُرَيْحِ بنِ عُبَيْدٍ عن حَبِيبِ بنِ عُبَيْدٍ عن حُرَيْثِ بنِ الأَبَجِّ السَّلِيحِيِّ، أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ قالَتْ: «كُنْتُ يَوْماً عِنْدَ زَيْنَبَ امْرَأَةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نَصْبُغُ ثِيَاباً لَها بِمَغْرَةٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فَلَمَّا رَأَى الْمَغْرَةَ رَجَعَ، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ زَيْنَبُ عَلِمَتْ أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَدْ كَرِهَ مَا فَعَلَتْ، فأَخَذَتْ فَغَسَلَتْ ثِيَابَهَا وَوَارَتْ كُلَّ حُمْرَةٍ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم رَجَعَ فاطَّلَعَ، فَلَمَّا لَمْ يَرَ شَيْئاً دَخَلَ».(المترجم).

[3] وردت هذه الروايات كلها في أبي داود كتاب اللباس.وهذا نص الحديث: (٤٠٧٠) حدثنا محمَّدُ بنُ الْعَلاَءِ أخبرنا أَبُو أُسَامَةَ عن الْوَلِيدِ ــ يَعْني ابنَ كَثِيرٍ ــ عن مُحَمَّدِ بنِ عَمْرِو بنِ عَطَاءٍ عن رَجُلٍ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ عن رَافِعِ بنِ خَدِيجٍ، قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في سَفَرٍ فَرَأَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَلَى رَوَاحِلِنَا وَعَلَى إِبِلِنَا أَكْسِيَةً فِيهَا خُيُوطُ عِهْنٍ حُمْرٌ، فقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم:

التطيب:

كان رسول الله ﷺ يحب الطيب ولم يرد أي طيب أهدى إليه. كما كان يداوم على استعمال نوع معين من الطيب يسمى "سكة". يقول الصحابة ما مر رسول الله ﷺ بحارة ولا منعطف إلا وطاب. وكان النبي ﷺ يقول: «طِيبُ الرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنُهُ وَطِيبُ النِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ».[١]

حبه للنظافة والطهارة:

كانت النظافة جبلة في رسول الله ﷺ. في ذات مرة رأى رجلاً لابساً ملابس متسخة فقال له: أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ.[٢] وفي ذات مرة جاءه رجل يرتدي ملابس رثة فقال له: أَلَكَ مَالٌ؟. قال: نَعَمْ. قال ﷺ: فَإِذَا أَتَاكَ اللهُ مَالاً فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ».[٣]. ولم تكن العرب على دراية بالحضارة ولا التمدن، كانوا يأتون المسجد فيبصقون في الصلاة على الجدران أو على الأرض أمامهم. فكان ﷺ يكره هذا كثيراً ويغضب منه لدرجة يحمر منها وجهه. وكان يزيل آثار هذا البصاق من على الجدران بسن السكين، وذات مرة رأى بصاقاً كثيراً على الجدران فغضب غضباً شديداً وأحمر وجهه، لذا امتدح النبي ﷺ امرأة أنصارية وسُر منها حينما أزالت بصاقاً وطيبت مكانه.[٤]

أحياناً كانت تُشعل أعواد الطيب في مجلسه ﷺ كأعواد الباخور والكافور،[٥] وفي ذات مرة سألت امرأة السيدة عائشة عن الخضاب. فقالت لها السيدة عائشة: لا حرج في ذلك لكني لا أحبه لأن حبيبي ﷺ لا يحب رائحة الحنا.[٦] وكان النبي ﷺ يكثر من استعمال المسك والعنبر.

أَلاَ أَرَى هَذِهِ الْحُمْرَةَ قَدْ عَلَتْكُم، فَقُمْنَا سِرَاعاً لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى نَفَرَ بَعْضُ إِبِلِنَا، فَأَخَذْنَا الأَكْسِيَةَ فَنَزَعْنَاهَا عَنْهَا». (المترجم).

[١] شمائل الترمذي.وهذا نص الحديث: (٢٨٦٤) حدثنا مَحْمُودُ بنُ غَيْلاَنَ، حدثنا أَبُو دَاوُدَ الْحَفَرِيُّ، عن سُفْيَانَ عن الْجُرَيْرِيِّ، عن أَبِي نَضْرَةَ عن رَجُلٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله «طِيبُ الرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنَهُ وَطِيبُ النِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ» (المترجم).

[٢] أبو داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في غسل الثوب.

[٣] أبو داود، كتاب اللباس.

[٤] النسائي، كتاب المساجد.

[٥] النسائي صـــ ٧٦٤ طباعة نظامي باب البخور.

[٦] النسائي صـــ ٧٥٩ باب كراهية ريح الحنا.

ومرة رأى النبيﷺ شعر رجل غير ممشط فقال له:أَمَا كَانَ هَٰذَا يَجِدُ مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ،.[1] وفي ذات مرة تغطى رجل بغطاء من صوف، فعرق ثم كشفه بعد ذلك[2]. وقدم الناس المسجد النبوي ذات يوم، ولأن المسجد كان ضيقاً، وكان الناس يأتون إليه بملابس العمل المتسخة ويطمهم العرق؛ لذا كانت الرائحة تفوح في كل أرجاء المسجد. فقال النبي ﷺ: «إِذا جاء أَحَدُكُم الجمعةَ فَلْيَغْتَسِلْ».[3]. ومنذ ذاك الحين أصبح الغسل يوم الجمعة حكماً شرعياً.

كان المسجد النبوي يُكنس بانتظام. فقد كانت أم محجن تقوم على كنسه، روى ابن ماجه أن النبي ﷺ أمر بعدم دخول الأطفال والمجانين المسجد، وألا يباع فيه ولا يشترى، وأن تُشعل فيها أعواد الطيب يوم الجمعة. ولقد اهتم النبي ﷺ بهذا الأمر وأكد عليه، لأن العرب لم تكن تعرف النظافة ولا النفاسة.

كان قضاء الحاجة في الطريق عادة عند العرب وعند البدو أيضاً حتى اليوم، وكان النبي ﷺ يكره التبول والتبرز في الطرقات كرهاً جماً وينهى عن هذه العادة. وهناك أحاديث كثيرة تدل على أنه ﷺ لعن قاضي الحاجة في الطريق أو في ظل شجرة. كما أن الأمراء كانوا معتادين على قضاء حاجتهم في أوعية بسبب كهولتهم. لكن النبي ﷺ نهى عن هذا أيضاً.[4]

ولم تكن العرب تتهم بالاستنجاء بعد التبول أو حفظ الملابس منه، لذا قال النبي ﷺ وهو سائر ذات مرة في الطريق بعد ما رأى قبرين: أَمَّا هَذَا فَكَانَ لا يستَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ.[5]

ذات مرة جاء رسول الله ﷺ المسجد وكانت على جدرانه قاذورات، وكان بيده الشريفة جريدة نخل فأزال بها القاذورات ثم قال للناس بغضب: أيحب أحدكم إذا كان في

---

[1] أبو داود كتاب اللباس.

[2] المرجع السابق.

[3] وردت أحاديث عديدة عن هذا الموضوع في صحيح البخاري (غسل الجمعة) بعبارات مختلفة.

[4] الترغيب والترهيب، كتاب الطهارة.

[5] صحيح البخاري، عذاب القبر.وهذا نص رواية أبي داود: (٢٠) حدثنا زُهَيْرُ بنُ حَرْبٍ وَ هَنَّادُ بنُ السَّرِيِّ قالا حدثنا وَكِيعٌ حدثنا الأعمَشُ قال سَمِعْتُ مُجَاهِداً يُحَدِّثُ عن طَاوُسٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُما يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ أَمَّا هَذَا فَكَانَ لا يستَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ بِاثْنَيْنِ، ثُمَّ غَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِداً وَعَلَى هَذَا وَاحِداً وقال: لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا» قال هَنَّادٌ: يَسْتَتِرُ مكانَ يَسْتَنْزِهُ (المترجم).

صلاته أن يتنخع في وجهه؟ أو يبزق في وجهه، إذا كان أحدكم في صلاته فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه، ولكن عن يساره تحت قدمه فإن لم يجد قال: بثوبه هكذا».[١]

وفي ذات مرة بصق صحابي في الصلاة (كان هو نفسه الإمام)، فلما رآه رسول الله ﷺ فأمر بألاَ يؤُم هذا الرجل بعد ذلك. فجاء الصحابي النبي ﷺ وقال له: لما يا رسول الله ﷺ؟ فأخبره ﷺ لأنه آذي الله ورسوله.[٢]

وكان النبي ينفر من الأشياء المسببة للروائح كالبصل والثوم والفجل؛ لذا أمر النبيﷺ ألا يأكل الناس هذه الأشياء قُبيل قدومهم المسجد. وفي حديث البخاري: « من أكل ثوما أو بصلاً فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته».[٣] وفي زمن خلافته قال عمرؓ في إحدى خطبه: أيها الناس إنكم لتأكلون البصل والثوم وتأتون المسجد، ولقد رأيت رسول الله ﷺ يحكم على من يأكل هذه الأشياء ويأتي المسجد أن يُخرج ويرمى به في البقيع.[٤]

رُكوبه:

كان رسول الله يحب ركوب الخيل كثيرا، لذا كان يقول: **الخيل معقود بنواصيها الخير".**[٥] ولقد ركب النبي ﷺ فضلاً عن الخيل، الحمير والبغال والجمال. وكان اسم فرسه

---

[١] الترغيب والترهيب-وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (٩٢٥٥) حدثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا عفان قال: حدثنا شعبة، قال: قاسم بن مهران أخبرنيه قال: سمعت أبا رافع، يحدِّث، عن أبي هريرة«أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في القبلة ــ قال: كان يقول مرة: فحتها ــ قال: ثما قال: قمت فحتيتها ثم قال: أيحب أحدكم إذا كان في صلاته أن يتنخع في وجهه؟ أو يبزقَ في وجهه، إذا كان أحدكم في صلاته فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه، ولكن عن يساره تحت قدمه فإن لم يجد قال: بثوبه هكذا». (المترجم).

[٢] المرجع السابق، باب البصاق في المسجد.

[٣] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح ابن خزيمة: (١٦٦٠) أنا أبو طاهر نا أبو بكر نا محمد ابن عزيز أن سلامة ابن روح حدثهم حدثني عقيل وقال ابن شهاب حدثني عطاء ابن رباح أن جابر ابن عبد الله زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:« من أكل ثوما أو بصلاً فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته» (المترجم).

[٤] مسلم والنسائي وابن ماجه.

[٥] النسائي، صــ ٥٦٧؛ باب حب الخيل.

الخاص به ﷺ، لحيف. واسم حمارته عفير، واسم بغلته دلدل، واسم ناقته القصواء والعضباء.

سباق الخيل:

كان على مشارف المدينة ميدان يمتد من حصباء حتى ثنية الوداع على طول ستة أميال تدرب فيه الخيل على السباق. وكانت طريقة إعداد الخيول للسباق تتم كالتالي:

أولاً تُعلف الخيول (أعلافاً) حتى تثمن، ثم تقلل أعلافها بعد ذلك، ثم تربط في البيوت وتُلبس اسرجه فتعرق ثم تجف. وتتواصل هذه الطريقة بصفة يومية حتى تفقد القدر الذي زادته قبل ذلك حتى تخف أبدانها وينتهي العمل بهذه الطريقة بعد أربعين يوماً.

وقد كان لرسول الله ﷺ حصان اسمه سنجه. أشركه الرسول ﷺ فى السباق ذات مرة ففاز، ففرح بذلك رسول الله كثيرا.[١]

وكان علي ﷺ المسئول عن تنسيق سباق الخيل، ولقد أحال هذه المهمة من جانبه لسراقة بن مالك ﷺ بعد أن سن لها الأصول التالية:[٢]

١- تصف الخيل ثم ينادي ثلاث مرات على من سيصلح لجاماً أو ينزل طفلاً معه، أو ينزع سرجاً.

٢- تُكبر ثلاث تكبيرات وتنزل الخيول بعد التكبيرة الثالثة منها في ساحة السباق.

٣- يُعتبر أي فرس تسبق أذنه هو السابق.

وكان علي ﷺ قد جلس بنفسه عند نقطة انتهاء السباق، يخط خطاً يوقف على جانبيه رجلين على أن تمر الخيل من بينهما.

كما كانت تجرى سباقات بين الإبل كذلك. وكانت ناقة الرسول ﷺ المسماة عضباء تفوز في السباق دائماً، لكن ذات مرة جاء أعرابي على بعير له وسبقها في النزال فحزن المسلمون كلهم لذلك، فقال رسول الله ﷺ: «حقٌ على اللهِ أن لا يرتَفعَ شيءٌ منَ الدُّنيا إلا

---

[١] الدارقطني، جـ٢ صـ ٥٥٢، كتاب السبق بين الخيل ووردت هذه الواقعة في مسند الإمام أحمد البيهقي.

[٢] ورد هذا تفصيلاً في الدارقطني صـ ٥٥٣، ٥٥٤ وكتاب السبق بين الخيل. لكن هذه الرواية ضعيفة طبقاً لعلم الحديث.

وضعَه».[1] وكان النبي ﷺ يحب الخيول ذات اللون الصندلي والأسود والأحمر،[2] كما ﷺ منع قطع ذيل الخيول.

العـــادات

(روى الترمذي عن علي ﷺ فيما يتعلق بشمائل النبي ﷺ، أنه كان يقسم أوقاته ثلاثة أثلاث ثلث للعبادة وثلث للعباد وثلث لنفسه).

ما كان النبي ﷺ يعمله في نهاره من الصباح إلى المساء:

كانت عادة النبي ﷺ أن يتربع بعد صـــلاة الفجــر فـــي مصـــلاه حتـــى تشـــرق الشمس.[3](وكان هذا هو ميقات مجلسه النبوي المبارك) فتلتف الناس حوله ﷺ يعلمهم أمور دينهم.[4]

وغالباً كان النبي ﷺ يسأل الصحابة فيقول: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَـــا لَهُ» فإن كان أحد قد رأى رؤيا قصها على النبي. ثم يؤولها له النبي ﷺ.[5] وأحيانـــا كـــان النبي ﷺ نفسه يخبرهم بما رأى هو من رؤى،[6] ثم يتنوع الحديث بعد ذلك. فيحكي النـــاس عن أيام الجاهلية، أو يُسمعون شعراً أو يتكلمون عن أمور سارة. أما النبي ﷺ فكان يبتســـم فقط.[7] وكان يقضي أكثر هذا الوقت في تقسيم مال الغنائم والرواتب والخراج.[8]

ورد في بعض الروايات أن النبي ﷺ كان يصلي الضحى أربـــع ركعـــات أحيانـــاً، وأحياناً ثمان، وذلك بعد أن تشرق الشمس، ثم يذهب بعد ذلك للبيت وينشغل فـــي أعمالـــه كترقيع الثوب وإصلاح النعل وحلب الشاة.[9]

وبعد صلاة العصر يذهب إلى حجرات أزواجه فيجلس عند كل واحدة منهن قلـــيلاً، ثم يقضي الليلة عند صاحبة الليلة. وعندها تجتمع بقية أزواجه المطهـــرات حتـــى صـــلاة

---

[1] صحيح البخاري والنسائي والدارقطني ومسند أحمد عن أنس، باب الرهان والسبق.

[2] النسائي طبعة نظامي ص ٥٦٧ (باب ما يستحب من مشية الخيل).

[3] صحيح مسلم، باب تبسمه ﷺ وأبو داود صـــ٣١٨ .

[4] جامع الترمذي.

[5] صحيح مسلم، كتاب التعبير.

[6] صحيح البخاري، كتاب التعبير.

[7] النسائي، باب قعود الإمام في الصلاة.

[8] وردت وقائع ثانوية متعددة في البخاري وكتب الحديث.

[9] صحيح البخاري، باب ما يكون الرجل في مهنته، مسند ابن حنبل، ومسند عائشة.

العشاء.[١] وحين وقت صلاة العشاء يذهب النبي ﷺ للمسجد ثم يعود بعد الصلاة فينام بعد أن تكن أزواجه قد انصرفن. فقد كان ﷺ لا يحب الحديث بعد صلاة العشاء.[٢]

نومه ﷺ

كانت عادة النبي ﷺ النوم بعد صلاة العشاء، وكان ﷺ يلتزم بقراءة سورة من سور القرآن الكريم (الإسراء، الزمر، الحديد، الحشر، الصف، التغابن، الجمعة) قُبيل نومه وروى في الترمذي أنه ﷺ كان يقول قبل أن ينام: **اللهم باسمك أموت وأحيى**. ويقول بعد أن يصبح: **الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.**

ثم يقول ﷺ من نومه في منتصف الليل أو في الثلث الأخير منه. ودائما ما كان ﷺ يضع المسواك تحت رأسه، لذا كان يستاك أول ما يقوم من نومه، ثم يتوضأ وينشغل بالعبادة. وكان موضع رأسه في النوم موضعها في السجود.[٣] وكان ﷺ ينام دائماً على جنبه واضعاً يده اليمنى تحت خده. وعند سفره ينزل قبل وصوله ويستريح فكان ينام على يده اليمنى. وإذا اشتد نومه سُمع صوت غطيطه. ولم يكن ﷺ يلتزم بفرش أي شيء للنوم فكان ينام أحياناً على مفرش عادي، وأحياناً على جلد، وأحيانا أخرى على حصير؛ بل وأحياناً كان ينام على التراب.[٤]

تهجده ﷺ

لم يكن أحد أعلم من السيدة عائشة رضي الله عنها بأمور النبي ﷺ وعاداته المنزلية، روى عنها أنها قالت: حينما نزلت الآيات الأولى من سورة المزمل كان النبي ﷺ يصلي حتى تتورم قدماه، وتأخر نزول بقية السورة أحد عشر شهراً، وبعد ما نزلت صار قيام الليل الذي كان فرضاً نفلاً.

وكان النبي ﷺ يصلي ليلاً ثمان ركعات متواصلة لا يقعد إلا في الركعة الثامنة، ثم يصلي ركعة أخرى بتشهد، ثم يصلي بعدها ركعتين أخرتين. وهكذا فقد كان النبي ﷺ يصلي إحدى عشرة ركعة. لكن حينما كبر سنه وضعف جسده، صلى تسع ركعات فقط؛ سبع

---

[١] صحيح مسلم، باب التقسيم بين الزوجات.

[٢] البخاري، صلاة العشاء.

[٣] يعني مكان السجود الذي كان النبي ﷺ يسجد عليه وقت الصلاة.

[٤] ورد هذا تفصيلاً في الزرقاني نقلاً عن كتب الحديث المتعددة.

فاثنتين فواحدة. وإذا صدف وغلبه النوم ولم يصلِّ ليلا، كان يصلي في النهار اثنتي عشرة ركعة.[1]

وروى في سنن أبي داود عن السيدة عائشة أيضاً أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يعود من المسجد بعد صلاة العشاء في جماعة فيصلي أربع ركعات، ثم ينام وبجانبه ماء الوضوء والسواك. وحينما يقوم من نومه يستاك أولاً، ثم يتوضأ ويصلي في مصلاه ثمان ركعات.

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ذهبت إلى خالتي ميمونة (أم المؤمنين) حتى أرى كيفية تهجد النبي ﷺ، فلما استراح النبي ﷺ على فراش كان مفروشا على الأرض، نمت قريباً منه، فاستيقظ النبي ﷺ ليلاً وقرأ العشر آيات الأخر من سورة آل عمران. حيث كان بجانبه إناء ماء معلق، توضأ منه ثم بدأ يصلي. فتوضأت أنا أيضاً ووقفت على يساره ﷺ، فأمسك ﷺ بيدي وأوقفني على جانبه الأيمن، ثم نام بعد أن صلى ثلاث عشرة ركعة، ثم نهض في الفجر حينما أذن بلال ﷺ للصلاة فصلى ركعتي الفجر (السنة) ثم ذهب للمسجد.[2]

وظائفه ﷺ في الصلاة

في البداية كان النبي ﷺ يتوضأ لكل صلاة، لكن حينما بدأ ذلك يصعب عليه، لم يلتزم إلا بالسواك قبل الصلاة. أول ما صلى النبي ﷺ أكثر من صلاة بوضوء واحد كان يوم فتح مكة. وكان ﷺ معتاداً أن يصلي كلما توضأ، وأن يغسل يديه أولاً في الوضوء ثلاث مرات ثم يتمضمض ويستنشق، ثم يغسل وجهه ثلاثًا، ثم يمسح رأسه ويغسل رجليه ثلاثًا.[3] وكان في بعض الأوقات يغسل بعض الأعضاء ثلاث مرات وبعضها مرتين وبعضها مرة واحدة.[4]

وغالباً ما كان النبي ﷺ يؤدي السنن والنوافل في البيت. فكان يستيقظ وقت صلاة الفجر فيصلي ركعتين خفيفتين جداً لدرجة أن السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: كان يخيل

---

(1) سنن أبي داود باب صلاة الليل.

(2) صحيح مسلم، والمسند جـ٥، صـ ٢٢٥.

(3) صحيح مسلم، جـ٨، باب آخر صفة الوضوء وإكماله.

(4) صحيح مسلم، جـ ١، صـ ١١٠، باب آخر في صفة الوضوء.

إليَّ في بعض الأحيان أن النبي ﷺ لم يقرأ الفاتحة.[١] لكنه ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفرض سورتين طويلتين. فقد روى عن عبد الله بن سائب أن النبي ﷺ قرأ سورة المؤمنون في صلاة الفجر بمكة، وكان أحياناً يقرأ سورة " والليل إذا يغشى "، وأحياناً أخرى يقرأ سورة " ق ". وقد قاس الصحابة على ذلك أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر ما بين ستين إلى مائة آية.

ومع أن النبي ﷺ كان يخفف في صلاة الظهر والعصر مقارنة بالفجر. إلا أنه كان يطيل في الركعتين الأولتين منهما؛ وذلك بقراءة سورة طويلة يستطيع الشخص خلال تلاوتها أن يذهب للبقيع يقضي حاجته هناك ثم يعود لمنزله فيتوضأ، ثم يلحق بالجماعة في الركعة الأولى. وقاس الصحابة أن رسول الله ﷺ كان يطيل في الركعتين الأوليين من صلاة الظهر بقدر قراءة سورة السجدة. أما في الركعتين الأخيرتين فكان يصليها في نصف وقت الركعتين الأوليين. أما الركعتين الأوليين من صلاة العصر، فكان النبي ﷺ يؤديها في وقت يعادل الوقت الذي يؤدي فيه الركعتين الأخيرتين للظهر. والركعتان الأخيرتان من العصر يستغرقان نصف وقت الركعتين الأوليين منه. روى عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ كان يتلو في الركعة الأولى ما يعادل ثلاثين آية من القرآن، وفي الركعة الثانية ما يعادل خمس عشرة آية. أما في العصر فكان يقرأ ما يعادل خمس عشرة آية. يقول جابر بن سمرة ﷺ إن النبي ﷺ كان يقرأ سورة "الأعلى" في الظهر. وسورتي المرسلات والطور في صلاة المغرب.[٢]

وكان يقرأ "التين والزيتون" أو ما يعادلها في صلاة العشاء، ويتلو السور الطويلة كالبقرة وآل عمران والنساء في صلاة الليل. وكان يقرأ في الركعة الأولى من صلاة الجمعة سورة الجمعة، وفي الركعة الثانية سورة المنافقون، وأحياناً كان يقرأ فيها الأعلى ثم الغاشية. وكان يقرأ هاتين السورتين أيضاً في صلاة العيدين. وإذا تصادف وتوافقت صلاة العيد وصلاة الجمعة في يوم واحد فيقرأ السورتين أيضاً في كل صلاة منهما. كما أنه ﷺ كان معتاداً على قراءة سورة السجدة، وسورة الإنسان في صلاة فجر يوم الجمعة.[٣]

---

[١] صحيح مسلم جـ١، صـ ٢٧٠، باب ركعتي سنة الفجر والحث عليها.

[٢] مسلم، جـ١، صـ ١٧٧، باب القراءة في الظهر والعصر وغيرهما.

[٣] وردت هذه الروايات كلها في صحيح مسلم، كتاب الصلاة وكتاب الجمعة والعيدين.

أسلوبه ﷺ في الخُطبة

كثيراً ما كان يخطب رسول الله من أجل الوعظ والإرشاد وخاصة خطبة الجمعة. فكانت عادته ﷺ في خطبة الجمعة أن يخرج من بيته غير متكلف، وبعد أن يجتمع الناس، فيدخل المسجد ويسلم عليهم، ثم يصعد المنبر ويلتفت إلى الناس مسلماً عليهم، ثم يبدأ الخطبة بعد الأذان مباشرة. وكان يمسك بعصا بيده في البداية؛ لكن حينما ظهر المنبر تركها من يده. ودائماً كانت خطبة النبي ﷺ مختصرة جداً وجامعة. وكان ﷺ يقول: «إِنَّ طُولَ صَلاَةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ[1]. وعامة كان النبي ﷺ يقرأ سورة "ق"[2] في خطبة الجمعة؛ لورود ذكر يوم القيامة والحشر والنشر فيها تفصيلاً.

وكان الرسول ﷺ يبدأ الخطبة دائماً بحمد الله والثناء عليه. وإن اعترضه عارض أثناء الخطبة، كان ينزل من المنبر فيقضيه ثم يصعد المنبر ثانية ويكمل خطبته. فقد روى أنه ﷺ كان ذات مرة يخطب فجاءه رجل وقال له: يا رسول الله ﷺ إنني على سفر ولست على دراية بأمور ديني، وجئت اسأل منك. فنزل النبي ﷺ من المنبر وجلس على كرسي. وبعد أن انتهى من تعليم الرجل صعد المنبر وأتم خطبته.[3] ومرة أخرى كان النبي ﷺ يخطب، فدخل عليه الإمام الحسين لابساً ملابس حمراء يتعثر في مشيه لأنه كان ما يزال صغير السن، فلما رآه النبي ﷺ لم يستطع الانتظار، ونزل من المنبر وأجلسه في حجره وتلا هذه الآية:[4] **"إنما أموالكم وأولادكم فتنة"**. (التغابن:١٥)

وأيضاً كان النبي ﷺ يشير للناس أثناء الخطبة بأن صلُّوا أو اجلسوا؛ فقد روى أن رجلاً دخل المسجد والنبي ﷺ يخطب. فسأله النبي ﷺ: أَصلَّيْتَ يا فُلانُ؟ قال: لا. قال: قم فاركعْ».[5]

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٩٥٩) حدثني سُرَيْجُ بْنُ يُونُسَ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحمَـٰنِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبْجَرَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ وَاصِلِ بْنِ حَيَّانَ. قَالَ: قَالَ أَبُو وَائِلٍ، خَطَبَنَا عَمَّارٌ، فَأَوْجَزَ وَأَبْلَغَ. فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ لَقَدْ أَبْلَغْتَ وَأَوْجَزْتَ. فَلَوْ كُنْتَ تَنَفَّسْتَ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «إِنَّ طُولَ صَلاَةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ. فَأَطِيلُوا الصَّلاَةَ وَأَقْصُرُوا الْخُطْبَةَ. وَإِنَّ من الْبَيَانِ سِحْراً». (المترجم).

[2] صحيح مسلم.

[3] الأدب المفرد، طبعة مصر، صـ ٢١٨، باب الجلوس على السرير.

[4] جامع الترمذي، مناقب الحسين.

[5] البخاري جـ١ صـ ٢٧ باب إذا رأى الإمام رجلاً جاء وهو يخطب أمره أن يصلي ركعتين.

وحين كان النبي ﷺ في ميدان الجهاد، كان يقف متكأ على قوس. ويذهب البعض إلى أن النبي ﷺ كان يقف ممسكا بسيف في يده؛ لكن ابن القيم كتب أن رسول الله ﷺ ما مسك سيفا قط حال خطبه،[١] وكان يتخول الناس بالموعظة كراهة السآمة.[٢]

أعماله ﷺ في السفر

كثيراً ما كان النبي ﷺ يضطر للسفر إما لحج أو لعمرة أو للجهاد في أغلب الأحيان وكان معتاداً في سفره على أن يقترع[٣] بين أزواجه أولاً، ومن تقع عليها القرعة ترافقه في سفره. وكان ﷺ يحب السفر يوم الخميس ويغادر وقت الفجر. وحين كان يخرج مع الجيش في أي غزوة،[٤] كان يقول: بسم الله حين تأتيه الدابة ويمتطيها، ويكبر إذا ركب على السرج ثلاث مرات، ويتلو هذه الآية الكريمة **(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)** (الزخرف:١٣) ثم يدعو بهذا الدعاء: **"اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا واطو عنا بُعده. اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والعيال".**

وكان ﷺ يكبر إذا صعد في الطريق أي قمة. ويسبح عند نزولها. وكان الصحابة يرددون خلفه التسبيح والتكبير بصوت مرتفع. وإذا نزل منزل يدعو بهذا الدعاء:[٥]

"يا أرض، ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك. وأعوذ بك من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكني البلد ومن والد وما ولد".[٦]

وإذا أراد دخول قرية يدعو بهذا الدعاء.

"اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأراضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وأعوذ

---

[١] زاد المعاد، جـ ١ صـ ١٢١ فصل في هدية في خطبه.

[٢] البخاري، باب ما كان النبي يتخولهم بالموعظة.

[٣] البخاري، جـ، ٢ باب حديث الإفك كتاب المغازي.

[٤] أبو داود، كتاب الجهاد، باب في أي يوم يستحب السفر وباب في الابتكار في السفر.

[٥] أبو داود، كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا سافر.

[٦] زاد المعاد، فصل في هديه في السفر.

بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها (أبو داود، كتاب الجهاد. باب ما يقول الرجل إذا نزل المنزل).

وإذا وصل المدينة دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين لله.[1] ثم يعود بعد ذلك للبيت. كما كان ﷺ يأمر الناس جميعاً إلا تعود للبيوت فور عودتهم من السفر حتى ترتب النسوة المنزل على مهل.[2]

أعماله ﷺ في الجهاد

كانت عادة النبي ﷺ إذا خرج لتوديع جيش راحل في غزوة أن يوصي أمير الجيش بصفة خاصة بالتقوى والبر إلى رفاقه. ثم يخطب في الجيش قائلاً: **اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً**. ثم يلقنهم بعد ذلك شرائط الجهاد.[3]

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد، باب في إعطاء البشير.

[2] أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الطروق.

[3] صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب تأمير الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها. وهذ نص الحديث: (٤٤٧٦) وحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ ابْنُ هَاشِمٍ «وَاللَّفْظُ لَهُ» حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمنِ «يَعْنِي ابْنَ مَهْدِيٍّ» حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَلْقَمَةَ ابْنِ مَرْثَدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً ثُمَّ قَالَ اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ «أَوْ خِلاَلٍ» فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ وَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمنِ هذَا أَوْ نَحْوَهُ وَزَادَ إِسْحَاقُ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ آدَمَ قَالَ فَذَكَرْتُ هذَا الْحَدِيثَ لِمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ «قَالَ يَحْيَى يَعْنِي أَنَّ عَلْقَمَةَ يَقُولُهُ لابْنِ حَيَّانَ» فَقَالَ حَدَّثَنِي مُسْلِمُ بْنُ هَيْصَمٍ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ عَنِ النَّبِيِّ . (المترجم).

وحينما يودع الجيش يقول: أَسْتَوْدِعُ الله دِينَكُم وَأَمَانَتَكُم وَخَوَاتِيمَ أَعْمَالِكُم».[1]

سنته ﷺ في عيادة المريض والعزاء

كان النبي ﷺ يؤكد ويحث على زيارة ومواساة المرضى. ويقول للصحابة إن زيارة المريض فرض واجب على المسلم. وكانت عادة النبي ﷺ أول ما هاجر إلى المدينة أن يذهب إلى من خُبر باحتضاره ويدعو له بالمغفرة، ويظل عنده حتى تفيض روحه إلى بارئها. ولكن كان الانتظار بجانب المحتضر يشق على النبي ﷺ. وحينما أحس الصحابة بذلك اعتادوا أن يخبروا النبي ﷺ بعد الوفاة، فيذهب ﷺ إليه، يستغفر له ويصلي عليه صلاة الجنازة. ثم ينتظر بعد ذلك إن أراد أن يشيعه، وإلا انصرف. لكن الصحابة شعروا أن هذا أيضاً يشق على النبي ﷺ ؛ لذا بدءوا إحضار الجنازة حتى رسول الله ﷺ، وهذا ما راج فيما بعد.[2] (هذا ما أصبح عادة فيما بعد).

حينما كان النبي ﷺ يذهب لعيادة مريض، كان يواسيه ويضع يده الشريفة على جبهته وصدره[3] ويدعو له بالصحة،[4] ويقول: "لا بأس، طَهورٌ إن شاء الله". ويغضب إذا قال أحد كلمات شؤم. في ذات مرة قدم أعرابيٌّ المدينةَ ثم مرض فيها، فذهب النبي ﷺ لزيارته ومواساته. فقال الرجل: قلت خيراً، إنها حمى قاتلة لن تتركني إلا في القبر. فقال النبي ﷺ: "فَنَعم إذاً». [5]

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الدعاء عند الوداع. وهذا نص الحديث: (٢٦٠٢) حدثنا الْحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ أخبرنا يَحْيَى بنُ إسْحَاقَ السَّيْلَحِينِيُّ أخبرنا حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ عن أبي جَعْفَرٍ الْخَطْمِيِّ عنْ مُحَمَّدِ بنِ كَعْبٍ عنْ عَبْدِ الله الْخَطْمِيِّ، قال: « كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إذَا أرَادَ أنْ يَسْتَوْدِعَ الْجَيْشَ قال: أَسْتَوْدِعُ الله دِينَكُم وَأَمَانَتَكُم وَخَوَاتِيمَ أعْمَالِكُم». (المترجم).

[2] مسند ابن حنبل، جـ٣، صـ٦٦.

[3] صحيح البخاري، باب وضع اليد على المريض.

[4] باب دعاء العائد للمريض.

[5] باب عيادة العراب. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، كتاب المرضى: (٥٥٢٨) حدثنا مُعلَّى بن أسَد حدَّثنا عبدُ العزيز بن مختار حدثنا خالدٌ عن عكرمة عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما: «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم دخل على أعرابيّ يَعودُه، قال: وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا دخلَ على مريض يَعوده قال له: لا بأس، طَهورٌ إن شاء الله. قال: قلتَ طهور؟ كلا، بل هي حُمى تَفورُ- أوتثور- على شيخ كبير، تُزيره القبور. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فَنَعم إذاً». (المترجم).

سنته ﷺ في لقاء الناس:

كان النبي ﷺ معتاداً على أن يسلم ويصافح بنفسه أولاً على أي شخص يأتي لزيارته، وإن انحنى أحد كي يُسرَّ إليه بشيء في أذنه لا يلتفت عنه ﷺ حتى ينتهي. وكانت عادته في المصافحة حين يسلم على أحد ألا ينزع يده طالما لم ينزع الآخر يده. وإذا جلس في المجلس لا يجعل ركبته تعلو الآخرين.[1]

وإذا أراد شخص الدخول، يقف على الباب ويلق السلام أولاً ثم يقول: هل أستطيع الدخول؟ (وهذا ما كان النبي ﷺ يصنعه إذا ذهب للقاء أحد)، لذا كان رسول الله ﷺ يرد من يخالف هذه الطريقة. ففي ذات مرة جاءه شخص من بني عامر ووقف على الباب وقال: هل أستطيع الدخول؟ فأشار النبي ﷺ إلى أحد الجلوس بأن يذهب إليه ويعلمه طريقة الاستئذان. يعني؛ عليه أن يسلم قبل أن يطلب الدخول[2].

في ذات مرة أرسل صفوان بن أمية أحد سادة قريش أخيه كلدة بلبن وظبي وخشب إلى النبي ﷺ، فدخل كلدة على النبي ﷺ بلا إذن، فقال له النبي ﷺ: "ارْجِعْ فَقُلْ السَّلاَمُ عَلَيْكُم".[3]

---

[1] أبو داود والترمذي.

[2] ورد في سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب كيف الاستئذان: (٥١٧٢) ــــ حدثنا أَبُو بَكْرِ بنُ أَبي شَيْبَةَ أخبرنا أَبُو الاحْوَصِ عن مَنْصُورٍ عن رِبْعِيٍّ، قالَ: « أخبرنا رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ في بَيْتٍ فَقَالَ: أَلِجُ؟ فَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لِخَادِمه: اخْرُجْ إِلَى هٰذَا فَعَلِّمْهُ الاسْتِئْذَانَ فَقُلْ لَهُ قُلِ السَّلاَمُ عَلَيْكُم أَأَدْخُلُ، فَسَمِعَهُ الرَّجلُ فَقَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكُم أَأَدْخُلُ، فأَذِنَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فَدَخَلَ». (المترجم).

[3] توجد هاتان الروايتان في أبي داود جـ٢ ص ١٥٦. وهذا نص الحديث: (٥١٧١) حدثنا يَحْيَى بنُ حَبِيبٍ أخبرنا رَوْحٌ ح وأخبرنا ابنُ بَشَّارٍ قالاَ أخبرنا أَبُو عَاصِمٍ أنبأنا ابنُ جُرَيْجٍ أخبرني عَمْرُو بنُ أَبي سُفْيَانَ أَنَّ عَمْرو بنَ عَبْدِ الله بنِ صَفْوَانَ أَخْبَرَهُ عن كَلَدَةَ بنِ حَنْبَلٍ، : « أَنَّ صَفْوَانَ بنَ أُمَيَّةَ بَعَثَهُ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِلَبَنٍ وَجِدَايَةٍ وَضَغَابِيسَ وَالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بِأَعْلَى مَكَّةَ فَدَخَلْتُ وَلَمْ أُسَلِّمْ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَقُلْ السَّلاَمُ عَلَيْكُم، وَذٰلِكَ بَعْدَ ما أَسْلَمَ صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ». قالَ عَمْرٌو: وأخبرني ابنُ صَفْوَانَ بِهٰذَا أَجْمَعَ عن كَلَدَةَ بنِ الْحَنْبَلِ وَلَمْ يَقُلْ سَمِعْتُهُ منْهُ. قالَ أَبُو دَاوُدَ قالَ يَحْيَى بنُ حَبِيبٍ: أُمَيَّةُ بنُ صَفْوَانَ وَلَمْ يَقُلْ سَمِعْتُهُ مِنْ كَلَدَةَ بنِ الْحَنْبَلِ. وقالَ يَحْيَى أَيْضاً: عَمْرُو بنُ عَبْدِ الله ابنِ صَفْوَانَ أَنَّ كَلَدَةَ بنَ الْحَنْبَلِ أَخْبَرَهُ. (المترجم).

وفي ذات مرة جاء جابرﷺ لزيارة الرسول ﷺ فطرق الباب، فسأله النبي ﷺ من ذا؟ فقال: أنا. فقال: أنا أنا. كأنه كرهَها»[١] ماذا يعني هذا الجواب؟ يجب أن تخبر اسمك.

حينما كان النبي ﷺ يذهب لزيارة أحد، كان يقف على أحد جانبي البـاب، ويلقـي السلام ثم يطلب الإذن في الدخول. (يقول الراوي لم يكن ﷺ يقف مواجهاً لمدخل البيت لأن الأبوَاب لم يكن يوضع عليها ستائر).

وكان النبي ﷺ يرجع إذا لم يأذن له صاحب البيت بالدخول، فقد ذهب ﷺ ذات مرة لزيارة سعد بن عبادة ﷺ ووقف أمام بيته وقال: السلام عليكم ورحمة الله. فأجـاب سـعد بصوت خافت لم يسمعه النبي ﷺ، فقال له ابنه قيس بن سـعد: ألا تـأذن لرسـول الله ﷺ بالدخول؟. فقال له أبوه: ذره يكثر علينا من السلام. فكرر رسول الله السلام وأجابـه سـعد بنفس الصوت؛ لذا كرر الرسول ﷺ السلام ثالثة، وعندما لم يسمع الجواب عاد، فلمـا رآه سعد يرجع نهض وقال: يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيـا لتكثـر علينا من السلام.[٢]

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦١٠٧) ــ حدّثنا أبو الوَليدِ هشامُ بن عبد الملكِ حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال: سمعت جابراً رضيَ اللّهُ عنه يقول: «أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في دَين كان على أبي، فدقَقْت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا. فقال: أنا أنا. كأنه كرهها». (المترجم).

[٢] أبو داود، كتاب الأدب. وهذا نص الحديث: (٥١٨٠) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّى وَ هِشَامُ أَبُو مَرْوَانَ و محمد بن المثني المَعْنَى، قالَ مُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّى أخبرنا الْوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ أخبرنا الأوْزَاعِيُّ سَمِعْتُ يَحْيَى بنَ أَبِي كَثِيرٍ يَقُولُ حدَّثني مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ابنِ أَسْعَدَ بنِ زُرَارَةَ عن قَيْسِ بنِ سَعْدٍ، قالَ: « زَارَنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في مَنْزِلِنَا فقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ الله، قالَ فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِياً، فقَالَ قَيْسٌ فقُلْتُ: ألا تَأْذَنُ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقَال: ذَرْهُ يُكْثِرْ عَلَيْنَا مِنَ السَّلاَمِ، فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم السَّلاَمُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ الله، فَرَدَّ سَعْدٌ رَداً خَفِياً، ثُمَّ قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: السَّلاَمُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ الله، ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ تَسْلِيمَكَ وَأَرُدُّ عَلَيْكَ رَداً خَفِياً لِتُكْثِرَ عَلَيْنَا مِنَ السَّلاَمِ، قال: فانْصَرَفَ مَعَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَأَمَرَ لَهُ سَعْدٌ بِغِسْلٍ فاغْتَسَلَ، ثُمَّ نَاوَلَهُ مِلْحَفَةً مَصْبُوْغَةً بِزَعْفَرَانٍ أَوْ وَرْسٍ فاشْتَمَلَ بِهَا، ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ. قالَ: ثُمَّ أَصَابَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمَّا أَرَادَ الانْصِرَافَ قَرَّبَ لَهُ سَعْدٌ حِمَاراً قَدْ وَطَّأَ عَلَيْهِ بِقَطِيفَةٍ فَرَكِبَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقَالَ سَعْدٌ: يَا قَيْسُ اصْحَبْ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، قالَ قَيْسٌ: فقَالَ لِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: ارْكَبْ، فأَبَيْتُ، ثُمَّ قالَ: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ

(حينما كان النبي ﷺ يذهب لبيت أحد كان يبتعد عن الجلوس في مكان مرتفع. ففي ذات مرة ذهب إلى بيت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فوضع له عبد الله مسنداً من الجلد ليجلس عليه؛ لكن النبي ﷺ جلس على السرج، وظل المسند بينه وبين عبد الله بن غمر). [١]

عامة أشغاله ﷺ

(كان رسول الله ﷺ يحب التيمن، فكان يلبس النعل في رجله اليمنى أولاً ويدخل المسجد بالرجل اليمنى. وإن قُسِّم شيء في المجلس بدأ باليمين. كما كان يبدأ كل أعماله بالبَسملة).

تَصَرَّفَ، قالَ: فانْصَرَفْتُ». قالَ هِشَامٌ أبُو مَرْوَانَ عن مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَسْعَدَ بنِ زُرَارَةَ. قالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَاهُ عُمَرُ بنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَابنُ سَمَاعَةَ عن الأَوْزَاعِيِّ مُرْسَلاً وَلَمْ يَذْكُرَا قَيْسَ بنَ سَعْدٍ.(المترجم).

[١] الأدب المفرد ص ٢١٩.

مجالس النبيﷺ

لم يكن مجلس سيد الدارين محمد ﷺ مجلس تكلف وتصنع. فلم يكن علي بابه حُجّابا، لذا كان كل شخص يتمتع برؤية النبي ﷺ. ورد في الأحاديث أن الناس كانت حين تجلس في مجلس رسول الله ﷺ يبدون وكأن على رؤوسهم الطير. أي أنه لم تكن تصدر أية حركة بسيطة من أي شخص. وكان يراعى الترتيب في الإذن بالحديث، ولم يكن هذا الترتيب على أساس الحسب أو النسب؛ وإنما على أساس الأحقية والفضل. كان النبي ﷺ يهتم بالمحتاجين أولاً فيقضي لهم حاجاتهم بعد سماع مطالبهم.

وكان كل الحاضرين يحنون رؤوسهم تواضعاً. وكان النبي ﷺ نفسه يجلس بوقار، وإذا تكلم عم الصمت المجلس، وإذا تكلم شخص ما سكت الجميع حتى ينتهي المتكلم، وإذا تجاوز السائل حدود الأدب في سؤاله تحمله رسول الله بكل حلم.

ولم يكن النبي ﷺ يقطع بكلامه حديث أي أحد، وإذا أغضبه أمر أعرض عنه وتركه، وإن شكره أحد قبل شكره إن كان فعلاً قد صنع له شيء. وكان ﷺ يشترك في الحديث الدائر في المجلس. كما يشترك في المزاح والمداعبة، بل كان يمزح أحياناً. وإن جاءه كبير قبيلة أكرمه مراعاة لمكانته، ويقول: **أكرموا كريما**. وكان يسأل كل فرد عن حاجته ويقول: أخبروني عن حاجات من لم يستطع إيصال مطلبه إليَّ.

كان العرف في بلاد فارس إذا دخل المجلس شريف وقف الجميع له احتراما. كما كان ضرورياً أن يقف الجميع واضعين أيديهم على صدورهم عند اجتماعهم في البلاط مع الرؤساء والأمراء. ولقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور وقال: من أحب أن يمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار.[1] وكان ﷺ يقف لبعض الناس من فرط محبته لهم. فغالباً ما كان يقف عند دخول السيدة فاطمة عليه، ويقبل جبهتها من كثرة حبه لها. (كما وقف النبي ﷺ كذلك للسيدة حليمة السعدية وفرش لها البردة. وذات مرة وقف النبي ﷺ

---

[1] أبو داود، كتاب الأدب، باب قيام الرجل للرجل. وهذا نص الحديث: (٥٢٢٤) حدثنا مُوسَى بنُ إِسْمَاعِيلَ حدثنا حَمَّادٌ عن حَبِيبِ بنِ الشَّهِيدِ عن أَبِي مِجْلَزٍ، قال: « خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى ابنِ الزُّبَيْرِ وَابنِ عَامِرٍ فَقَامَ ابنُ عَامِرٍ وَجَلَسَ ابنُ الزُّبَيْرِ، فقَالَ مُعَاوِيَةُ لابنِ عَامِرٍ: اجْلِسْ فإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». (المترجم).

لأخيه في الرضاع حينما جاء ثم أجلسه أمامه؛[١] احتراماً له). وكان لكل شخص رتبة تناسب مكانته، فلم يخطر في بال أحد أن فلاناً من الناس مُفضَّلٌ عليه. وكان النبي ﷺ يثنى على من يقول قولاً معروفاً. وينبه من يقول غير ذلك.[٢]

ذات مرة جاء رجلان للنبي؛ أحدهما غني والآخر فقير. فعطس الغني ولم يحمد الله، ثم عطس الثاني وحمد الله، فقال النبي ﷺ للثاني: يرحمك الله. فاشتكى من ذلك الغني. فقال رسول الله ﷺ له: إن هذا حمد الله، وإن هذا لم يحمد الله.[٣]

وكان الصحابة يحرصون كل الحرص على ألاّ تصل النبي ﷺ عنهم أي شكوى. كما كان الرسول ﷺ يخبر أصحابه بأنه يريد أن يرحل من الدنيا وهو ﷺ معاف منهم وقد بلغهم الرسالة كاملة.[٤]

مجالس الوعظ و الإرشاد

مع أنه كان يُستفاد من تعليم وإرشاد النبي ﷺ[٥] في كل وقت من سفر وحضر وجلوة وخلوة وقعود وقيام؛ إلا أن الاستفادة كانت قاصرة على رفاق النبي ﷺ وقت الحديث فقط. ولذا كان النبي ﷺ يخصص أوقاتاً للتعليم والإرشاد يعلنها للناس حتى يأتي من يريد الاستفادة.

وغالباً كانت هذه الجلسات تعقد في المسجد النبوي، حيث كان بالمسجد فناء صغير يجلس فيه النبي ﷺ. لم يكن للنبي ﷺ في البداية مكانا مخصصا للجلوس، لذا كانت الوفود القادمة من الخارج تتعثر في التعرف على رسول الله. لذا، صنع الصحابة رضي الله عنهم أريكة من الطين كان النبي ﷺ يجلس عليها والصحابة حوله.[٦]

آداب المجلس

لم يكن هناك أي قيد على المترددين على مجلس النبي ﷺ. وعامة كان البدو يأتون بطريقتهم البدائية والهمجية ويسألون بلا تحرج. لكن الخلق النبوي كان يفيض في هذه

---

[١] أبو داود، كتاب الأدب، بر الوالدين.

[٢] أخذ كل هذا التفصيل من روايتين مفصلتين من شمائل الترمذي ذكرت فيها الأخلاق العامة للنبي ﷺ.

[٣] الأدب المفرد، الإمام البخاري.

[٤] أبو داود، كتاب الأدب.

[٥] أضفت بداية من هنا حتى صـ٢٣٢. "سيد سليمان الندوي".

[٦] أبو داود، باب القدر.

المجالس ويشع فيها نور خاتم النبيين ﷺ. وكان الصحابة يحضرون في خدمته ﷺ بكل حب وإخلاص. قدم شخص المجلس ولم ير أي ميزة بين النبي ﷺ وبين من حوله. فسأل: من منكم محمد؟ فقال الصحابة: إنه هذا الرجل البهي المتكئ. فقال الرجل: يا ابن عبد المطلب! سأسألك بشدة فلا تغضب. فأذن له النبي ﷺ بكل حلم.[١]

وعلى الرغم من بساطة هذه المجالس وعدم تكلفها، إلا أنها كانت تفيض بالوقار والعظمة وآداب النبوة. وكانت تعليمات النبي ﷺ تشتمل على الأخلاق والدين وتزكية النفوس، فضلاً عن الأمور الدنيوية الأخرى. وكان البعض يسأل النبي ﷺ عن أمور عادية؛ مثل: ما اسم أبي يا رسول الله؟ أو كقول آخر: ضل بعيري، فأين أجده يا رسول الله. أما النبي ﷺ فكان يبغض هذا النوع من الأسئلة.

ذات مرة طُرح هذا النوع من الأسئلة، فغضب رسول الله ﷺ وقال: ليسأل من يسأل، وسأجيب على الجميع. فحين رأى عمر لون وجه النبي ﷺ. قال بإلحاح: **رضيت**[٢] **إلخ.**

ولم يكن أحد يسأل وهو واقف، ففي ذات مرة سأل رجل بعد أن وقف، فنظر الرسول ﷺ إليه متعجباً. كما كانت العادة أن تُناقش قضايا أخرى إذا نوقشت الأسئلة التي طرحت من قبل. أحياناً كان يتصادف أن يدخل أعرابي لا يعرف آداب المجلس على رسول الله وهو يخطب، فيسأله وهو يتحدث، فيكمل النبي ﷺ حديثه أولاً ثم يجبه بعد أن يفرغ. وذات مرة جاءه ﷺ أعرابي وقال له: متى الساعة؟ فواصل النبي ﷺ حديثه. فاعتقد الحاضرون أن النبي لم يسمع. فقال أحدهم: بل سمع؛ ولكنه غضب من ذلك. وحين فرغ النبي ﷺ قال: أين السائل عن الساعة؟ قال البدوي: أنا يا رسول الله. فقال النبي ﷺ : «فإذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانْتَظِرِ الساعةَ». فقال الرجل: وكيف تضيع الأمانة؟ فقال النبي ﷺ:«إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلهِ فانتَظِرِ الساعةَ».[٣]

---

[١] البخاري، جـ١، صـ ١٥ كتاب الإيمان.

[٢] صحيح البخاري، كتاب العلم.

[٣] المرجع السابق، صـ ١٤. وهذا نص الحديث: (٥٩) حدثَنَا محمد بن سِنانٍ قال: حدثَنَا فُلَيْحٌ .ح. وحدثَني إبراهيمُ بنُ المُنْذِرِ قال: حدثَنَا محمدُ بنُ فُلَيح قال: حدثَني أبي قال: حدثني هِلالُ بنُ عليٌّ عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ عنْ أبي هُرَيرةَ قال: بَيْنما النبيُّ صلى الله عليه وسلم في مَجلِسٍ يُحَدِّثُ القومَ، جاءَهُ أعْرابيٌّ فقال: مَتى الساعةُ؟ فمضى رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُحَدِّثُ. فقالَ بعضُ القوم: سَمِعَ ما قال فكرِهَ ما قال، وقال بعضهم: بلْ لمْ يَسْمَعْ. حتى إذا قَضى حَديثَهُ قال: أينَ ــ أُراهُ ــ السائلُ عن الساعة؟ قال:

أوقات جلوسه ﷺ مع الناس:

كان الصبح هو الوقت المقرر لهذه المجالس، فكان النبي ﷺ يجلس فيها بعد صلاة الفجر ويعظ الناس. ويتضح من بعض الروايات أن النبي ﷺ كان يجلس بعد كل صلاة ويلتف الناس من حوله، لأن كعب بن مالك قال حينما عُوتب بسبب تخلفه عن غزوة تبوك بعد أن ذهب إلى رسول الله وهو جالس في هذا المجلس ليتبين مدى رضاه عنه: **وآتي رسول الله ﷺ فاسلم عليه وهو جالس في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا** [1].

وأحيانا كان النبي ﷺ يعظ الناس في مجالسه وقت الصباح. فروى في الترمذي وأبي داود عن عرباض بن سارية قوله: **"وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب"**.[2]

وكان الحديث يدور في المجلس الذي يعقد بعد الصلاة عن الوعظ والإرشاد وما شابه ذلك. وقد كان النبي ﷺ يعقد مجالس خاصة لإظهار حقائق ورؤى، إضافة لمجالس الوعظ هذه. وهذه هي المجالس التي قيل عنها في الأحاديث: **كان يوماً بارزاً للناس.**[3]

ولأن النبي ﷺ كان يريد ألاّ يَحرم أحد من هذه المجالس حتى تعم الفائدة، لذا كان يغضب ممن يعرضون عن الاشتراك والحضور في تلك المجالس.

ففي ذات مرة كان النبي ﷺ جالساً مع أصحابه في المسجد، فدخل عليهم ثلاثة رجال وجد أحدهم مكاناً ضيقاً في الحلقة فجلس فيه. أما الثاني فلم يجد مكاناً في الحلقة فجلس خلفها. والثالث أعرض وانصرف. فلما انتهى النبي ﷺ من حديثه قال (لأصحابه): أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعْرَضَ فأعرَضَ اللهُ عنه». [4]

ها أنا يا رسولَ اللّه. قال: «فإذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتَظِرِ الساعةَ». قال: كيفَ إضاعَتُها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلهِ فانتَظِرِ الساعةَ» (صحيح البخاري-باب العلم). (المترجم).

[1] البخاري، جـ١، صـ٣٢٥، حديث كعب بن مالك.

[2] الترمذي، صـ ٤٤٠.

[3] سنن ابن ماجه، صـ ٢٢.

[4] صحيح البخاري، جـ١، صـ ٢٠ كتاب العلم. وهذا نص الحديث كاملا: (٦٦) حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكٌ عن إسحاقَ بن عبد اللهِ بنِ أبي طَلحةَ : أن أبا مُرَّةَ مَولى عقيلِ بنِ أبي طالب أخبرهُ: عن أبي واقدٍ اللَّيثيِّ: «أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بينما هو جالسٌ في المسجدِ والناسُ معهُ، إذْ أقبلَ

وكان وعظ ونصح النبي ﷺ يتم بطريقة مؤثرة للغاية. ولأن الناس كانت تمل كثرة السماع ولا تتأثر بالوعظ، لذا كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة. فقد روى في البخاري عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: **كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة المسئمة علينا.**

مجالسه ﷺ الخاصة بالنساء

كان نفع تلك المجالس السابقة قاصراً على الرجال في الأغلب، فكانت فرصة استفادة النساء منها قليلة، ومن ثمَّ طالبت النسوة بيوم خاص لهم، فأجاب النبي ﷺ طلبهن وخصص لهن يوماً لإرشادهن ووعظهن.[1]

ومع أنه كان هناك إذن بالاستفسار عن أي شيء يتعلق بالمسائل الشرعية، وكانت النساء تستفسر عن بعض القضايا الخاصة بالنساء؛ إلا أن النبي ﷺ كان يغضب إذا طرح سؤال فاضح أمام الملأ من فرط حيائه.

وكان النبي ﷺ يغضب إذا سأل رجل سؤالاً من الأسئلة السرية أمام الملأ، ففي ذات مرة سأل أحد الأنصار (كان يدعى عاصم) رسول الله ﷺ وقال له: ما الحكم إن رأيت زوجتي مع شخص آخر؟ فغضب النبي ﷺ من ذلك وعاتبه.[2]

طريقة هديه وإرشاده ﷺ:

كان النبي أحيانا يسأل الناس، وكان يمتحن جودة فكرهم وإصابة رأيهم. يقول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: سأل رسول الله ﷺ ذات مرة عن الشجرة التي لا يسقط ورقها وتشبه المسلم، فذهب خيال الناس إلى الشجر الجبلي، لكن طرأ في ذهني أنها ربما

ثلاثةُ نفرٍ، فاقبلَ إثنانِ الى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وذهبَ واحدٌ. قال: فوقفا على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فأمّا أحَدُهما فرأى فُرجَةً في الحلْقةِ فجلسَ فيها، وأمّا الآخرُ فجلسَ خَلْفَهُمْ، وأمّا الثالثُ فأدْبَرَ ذاهباً. فلّما فَرَغَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعْرَضَ فأعرَضَ اللهُ عنه». (المترجم).

[1] صحيح البخاري، كتاب العلم. وهذا نص الحديث: (١٠١) حدثّنا آدم قال: حدثّنا شُعبةُ قال: حدثّني ابنُ الأصْبَهاني قال: سَمِعتُ أبا صالحٍ ذَكوانَ : يُحدِّثُ عن أبي سَعيد الْخُدْريِّ قال: قالتِ النساءُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: غَلَبَنا عليكَ الرِّجالُ، فاجعلْ لنا يَوماً مِنْ نَفْسِكَ. فوَعدَهُنَّ يوماً لَقِيَهُنَّ في فيه فوَعَظَهُنَّ وأمَرَهُنَّ، فكانَ فيما قال لَهنَّ: «ما منكُنَّ امْرأةٌ تُقَدِّمُ ثلاثةً من وَلَدِها إلاّ كانَ لَها حِجاباً مِنَ النار» فقالت امرأةٌ: واثنين؟ فقال: «واثنين» (المترجم).

[2] المرجع السابق.

تكون النخلة؛ ولأنني كنت صغيراً ما تجرأت على الجواب، وفي النهاية قال الناس: ما هي يا رسول الله؟ فقال ﷺ: هي النخلة. فتحسر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما طيلة حياته على أنه لم يجرأ على الإجابة.[١]

ودخل النبي ﷺ المسجد ذات مرة والصحابة منقسمون في حلقتين، كانت الأولى مشغولة في الذكر والدعاء وقراءة القرآن، وكانت الثانية مشغولة بمناقشات علمية. فأخبر النبي ﷺ بأن كلتيهما خير؛ ولكن الله تعالى بعثه معلماً، ثم جلس في حلقه العلم.[٢]

كان النبي ﷺ لا يحب الحديث في تلك المجالس عن تلك المباحث الدقيقة التي يصّعب على العوام فهمها؛ لذا خرج النبي ﷺ من حجرته ذات مرة حين كان الصحابة يتحدثون عن القدر، وكان وجهه محمراً لدرجة توهم أن شخصا قد عصر على وجنتيه رماناً، فقال: هل ولدتم لتأولوا القرآن، فقد هلكت الأمم من قبلكم بسبب هذا.[٣]

وكان من أهداف هذه المجالس حَسْم النبي ﷺ للاختلاف الذي يتولد بين الصحابة حول بعض المسائل، فمثلاً: كان يعتقد أن طلب الشهرة وطلب الجاه أمران متناقضان، وهذا ما كان رائجا في عهد الصحابة، فتحدث رجلان عن هذه المسألة في مجلس النبي ﷺ، فقال أحدهما: ما رأيك لو واجهنا العدو فرمى رجل رمحه وقال بفخر: يا لها من رمية صائبة. فأجابه المخاطب: أرى أنه لن يكون لهذا أي ثواب. فقال ثالث سمع حديثهما: أعتقد أنه لا حرج في ذلك. فاختلف الاثنان على هذا، فأخبر النبي ﷺ بعد أن سمع حوارهما بأنه لا فرق بين الشهرة والثواب.[٤]

وكان يُعتقد أن القدر هو نفسه التواكل. وما قُدِّر لا يمكن أن تمحوه أي قوى عملية، لكن النبي ﷺ أنكر هذا في مجلس كان جالساً فيه وقال: إن الأعمال نفسها هي القدر.

---

[١] سنن ابن ماجه، صـ ٢١، باب فضل العلماء. وهذا نص الحديث: (١٣١) حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكٌ عن عبدِ اللَّهِ بنِ دينارٍ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: «إنَّ منَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسقُطُ وَرَقُها وهيَ مَثَلُ المُسلِمِ، حَدِّثوني ما هيَ؟ فوقَعَ الناسُ في شَجَرِ البادِيةِ، ووقعَ في نَفْسي أنها النَّخْلةُ، قال عبدُ اللَّهِ: فاستَحْيَيْتُ. فقالوا يا رسولَ اللَّهِ أخبِرْنا بها. فقال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هيَ النَّخلةُ». قال عبدُ اللَّهِ: فحدَّثتُ أبي بما وقعَ في نَفْسي، فقالَ: لأنْ تَكونَ قُلتَها أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يكونَ لي كذا وكذا. (المترجم).

[٢] سنن ابن ماجه صـ ٩ باب القدر.

[٣] المرجع السابق.

[٤] أبو داود، جـ٢، صـ ١١٣.

والأعمال التي يوفق الإنسان إليها هي قدره؛ لذا فليس القدر اسم للتواكل والتكاسل. وكـان الصحابة في جنازة، فجاء النبي ﷺ والتف حوله الصحابة وكان بيده عود ينكش به الأرض، ثم قال: ما منكُم من أَحَد، ومَا من نَفْسٍ منفُوسة، إلا كُتِب مكانُها من الجنة والنار، وإلا قـد كُتبت شقيةً أو سَعيدةً. قال رجُلٌ: يا رسولَ الله أفلا نتكلُ على كِتابِنا ونَدَعُ العَمَل، فمنْ كـان منا مَن أهل السَّعادة فَسَيصيرُ إلى أهل السَّعادة، ومن كان منَّا من أهل الشَّقاء فَسيصير إلـى عمل أهل الشقاوَة؟ قال: أما أهلُ السعادة فَيُيسَّرون لعَمل أهل السعادة، وأما أهـلُ الشـقاوةِ فَيُيسرون لعمل أهلِ الشقاءِ، ثم قَرأ {فأما من أعْطَى واتَّقَى وصدَّق بالحسنَى} (الليل: ٥، ٦) الآية. [١]

لقاؤه الناس بالبشاشة والبشر:

على الرغم من أن الحديث الذي كان يدور في هذه المجالس كان يتعلـق بـالوعظ والإرشاد والأخلاق وتزكية النفس، وكانت الصحابة تجلس في حضرة النبي ﷺ وكأن على رؤوسهم الطير، إلا أن تلك المجالس لم تخل من المزاح، ففي ذات مرة قال النبي ﷺ فـي أحد مجالسه: أنَّ رجلاً من أهلِ الجنة استأذَنَ ربَّهُ في الزَّرع فقال: أو لستَ فيما شئتَ؟ قال: بلى ولكني أحبُّ أن أزرعَ، فأسرعَ وبذر فتبادَرَ الطَّرْفَ نباته واستواؤه واستحصاؤه وتكويرهُ أمثالَ الجبال فيقول اللّهُ تعالى: دونَك يا ابن آدم فإنه لا يُشبعُك شيءٌ، فقال الأعرابـيُّ يـا رسولَ اللَّه لا تَجِد هذا إلاَّ قُرشياً أو أنصارياً فإنَّهم أصحابُ زَرْعٍ فأمَّا نحن فَلَسنا بأصـحابِ زَرْعٍ، فضحِك رسولُ اللَّهِ». [٢]

---

[١] البخاري، جـ٢، صـ ٣٨ تفسير وكذب بالحسنى. وهذا نص الحديث: (٤٨٢٩) حدَّثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ حدَّثنا جريرٌ عن منصورٍ عن سَعد بن عُبيدةَ عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي عن علي رضي الله عنه قال «كُنا في جَنازةٍ في بَقيع الغَرْقَد، فأتانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقعَدَ وقَعَدْنا حولَه، ومعهُ مخصَرَة، فنَكَّس فَجعل ينكتُ بمخْصرته، ثم قال: ما منكُم من أحَدٍ، ومَا من نَفْسٍ منفُوسة، إلا كُتب مكانُها من الجنة والنار، وإلا قد كُتبت شقيةً أو سَعيدةً. قال رجُلٌ: يا رسولَ الله أفلا نتكلُ على كِتابِنا ونَدَعُ العَمَل، فمنْ كان منا من أهل السَّعادة فَسَيصيرُ إلى أهل السَّعادة، ومن كان منَّا من أهل الشَّقاء فَسيصير إلى عمل أهل الشقاوَة؟ قال: أما أهلُ السعادة فَيُيسَّرون لعَمل أهل السعادة، وأما أهلُ الشقاوةِ فَيُيسرون لعمل أهلِ الشقاءِ، ثم قَرأ {فأما من أعْطَى واتَّقَى وصدَّق بالحسنَى} (الليل: ٥، ٦) الآية. (المترجم).

[٢] البخاري، جـ٢ صـ ١٢١، باب كلام الرب مع أهل الجنة. وهذا نص الحديث: (٧٣٥٣) حدَّثنا محمد بن سنان حدثنا فُلَيحٌ حدثنا هلالٌ عن عطاءِ بن يسار عن أبي هريرة أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم «كان يوماً يُحدثُ وعندَه رجلٌ من أهلِ الباديةِ أنَّ رجلاً من أهلِ الجنة استأذَنَ ربَّهُ في الزَّرع فقال: أو لستَ

في ذات مرة قدم رجل إلى النبي ﷺ وقال: هَلَكت. قال: ولم؟ قال: وَقَعت على أهلي في رمضانَ. قال: فأعتقْ رَقبةً. قال: ليس عندي. قال: فصُم شهرَين مُتتابعَين. قال: لاأستطيعُ. قال: فأطعم ستّينَ مسكيناً. قال: لاأجدُ فأُتيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعَرَقٍ فيه تمر، فقال: أين السائل؟ قال: هاأناذا. قال: تَصدّق بهذا. قال: على أحوَجَ منّا يارسول الله؟ فوالذي بَعثَك بالحقِّ، مابين لابَتَيها أهلُ بيتٍ أحوَجُ منّا. فضَحكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى بَدَتْ أنيابُهُ. قال: فأنتم إذاً». [1]

تأثير صحبته ﷺ فيمن يصحبه

(قال أبو هريرة ﷺ ذات مرة لرسول الله: يا رسول الله، حينما نكون معك تهون علينا الدنيا؛ ولكن بعد أن نعود لبيوتنا وصغارنا يتغير حالنا. فقال النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ إِذَا خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي كُنْتُمْ عَلَى حَالِكُمْ ذَلِكَ لَزَارَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ فِي بُيُوتِكُمْ".[2]

فيما شئتَ؟ قال: بلى ولكني أحبُ أن أزرعَ، فأسرعَ وبذر فتبادَرَ الطَّرْفَ نباته واستواؤه واستحصاؤه وتكويرهُ أمثالَ الجبال فيقول اللّهُ تعالى: دونَك يا ابن آدم فإنه لا يُشبعُك شيءٌ، فقال الأعرابيُ يا رسولَ اللّه لا تَجِد هذا إلاّ قُرشياً أو أنصارياً فإنَّهم أصحابُ زَرْعٍ فأمَّا نحن فلَسنا بأصحابِ زَرْعٍ، فضحِك رسولُ اللّه». (المترجم).

[1] البخاري، صــ ٨٠٨، باب نفقة المعسر على أهله. وهذا نص الحديث: (٥٢٤١) حدثنا أحمدُ بن يونسَ حدثنا إبراهيمُ بن سعد حدثنا ابنُ شهاب عن حُميدِ بن عبد الرحمن عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: «أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال: هَلَكت. قال: ولم؟ قال: وَقَعت على أهلي في رمضانَ. قال: فأعتقْ رَقبةً. قال: ليس عندي. قال: فصُم شهرَين مُتتابعَين. قال: لاأستطيعُ. قال: فأطعم ستّينَ مسكيناً. قال: لاأجدُ فأُتيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعَرَقٍ فيه تمر، فقال: أين السائل؟ قال: هاأناذا. قال: تَصدّق بهذا. قال: على أحوَجَ منّا يارسول الله؟ فوالذي بَعثَك بالحقِّ، مابين لابَتَيها أهلُ بيتٍ أحوَجُ منّا. فضَحكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى بَدَتْ أنيابُهُ. قال: فأنتم إذاً». (المترجم).

[2] الترمذي، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها. وهذا الحديث ضعيف عند الترمذي.وهذا نصه: (٢٥٧٨) حَدّثنا أَبُو كُرَيْبٍ، حدثنا مُحمَّدُ بنُ فَضيلٍ عَنْ حَمْزَةَ الزَّيَّاتِ عَنْ زِيَادٍ الطائيِّ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، قالَ: «قُلْنَا يَا رَسُولَ الله: مَالَنَا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا، وَزَهِدْنَا في الدُّنيا وكُنَّا مِنْ أَهْلِ الآخرَةِ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ فَأَنَسْنَا أَهَالِينَا وَشَمَمْنَا الأَوْلاَدَ أَنْكَرْنَا أَنْفُسَنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله : «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ إِذَا خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي كُنْتُمْ عَلَى حَالِكُمْ ذَلِكَ لَزَارَتْكُمْ المَلاَئِكَةُ في بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ الله بِخَلْقٍ جديدٍ كَيْ يُذْنِبُوا فَيَغْفِرَ لَهُمْ. قَالَ قُلْتُ: يَا رسولَ الله ممَّ خُلِقَ الْخَلْقُ؟ قالَ: مِنَ المَاءِ . قُلْنَا الْجَنَّةُ مَا بِنَاؤُهَا؟ قالَ: «لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلاَطُهَا المِسْكُ الأَذْفَرُ وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ مَنْ يَدْخُلْهَا يَنْعَمْ لاَ يَبْأسْ، وَيَخْلُدْ لاَ يَمُوتُ: وَلاَ تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُمْ. ثُمَّ قَالَ: ثَلاثٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ

وذات مرة قدم إليه حنظلة ﷺ وقال: حينما أكون معك وتتحدث عن الجنة والنـــار، أتخيل أنهما أمامي؛ ولكنى أنسى كل هذا بعد ذهابي لأهلي. فقال له النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِــكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ. [١]

العَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ تبارك وتعالى: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ» .

قال أبو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَاكَ القَوِيِّ، وَلَيْسَ هُوَ عِنْدِي بِمُتَّصِلٍ. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ بِإِسْنَادٍ آخَرَ عن أَبِي مُدِلَّهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن النبي. (المترجم).

[١] الترمذي، أبواب الزهد، وصحيح مسلم، كتاب التوبة. وهذا نص الحديث كما ورد في مسلم: (٦٩١٥) حدثنا يَحْيَىٰ بْنُ يَحْيَىٰ التَّيْمِيُّ وَ قَطَنُ بْنُ نُسَيْرٍ وَاللَّفْظُ لِيَحْيَى. أَخْبَرَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ إِيَاسٍ الْجُرَيْرِيِّ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ . يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ. حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ. فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللّهِ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ. فَنَسِينَا كَثِيراً. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللّهِ إِنَّا لَنَلْقَىٰ مِثْلَ هٰذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللّهِ . قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. يَا رَسُولَ اللّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ. تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ. حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ. فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ. نَسِينَا كَثِيراً. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ. وَلٰكِنْ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. (المترجم).

الخطابة النبوية[1]

الخطابة عنصر ضروري للغاية للنبوة، لذا دعا موسى عليه السلام ربه حين أرسله إلى فرعون فقال: "واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي" (طه: ٢٧ــ ٢٨)

أما سيد الأنبياء محمد ﷺ فقد حباه ربه بهذه النعمة الكاملة؛ لذا قال محدثاً بنعمة ربه عليه: "**أنا أفصح العرب، وبعثت بجوامع الكلم**".

ومع أن كل القبائل العربية كانت أهلا للفصاحة والبلاغة، إلا أن هناك قبيلتين من بينهم امتازتا في هذه الناحية؛ وهما قبيلتا قريش وبنو هوزان. أما قريش فقد كان منها النبي ﷺ، وكذا تربى في هوزان. لذا قال عليه الصلاة والسلام: **أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر**.[2]

طريقته وأسلوب بيانه في الخطابة

كان النبي ﷺ يخطب بطريقة بسيطة جداً. وحينما كان يخرج من بيته، لا يخرج برفقة الحرس كالسلاطين، ولا بملابس الخطباء؛ بل كان يأخذ بيده عصا. وأحياناً يخطب متكئًا على قوس.[3] ففي ابن ماجه، أن النبي ﷺ كان يمسك بيده الشريفة عصا حينما يخطب، وكان يتكئ على قوس حينما يخطب في ساحة القتال. وكانت خطبتا الجمعة والعيدين (محددتين) لهما ميقات خاص، أما ما عداهما من الخطب فلم يكن لها وقت محدد. فقد كان يخطب فى المسلمين إذا دعت الحاجة. لذا خطب ﷺ على أماكن مختلفة كالأرض والمنبر والجمل. ومع أن النبي ﷺ كان يضطر في بعض الأحيان لإطالة الخطبة، إلا أن خطبه عامة كانت موجزة عامة.

وكان يتحدث بأسلوب إخباري إذا تحدث في الوعظ والإرشاد، وبأسلوب استفهامي إذا أراد أن يجعل الخطاب مؤثراً. وقد كانت الخطبة التي خطبها النبي ﷺ أمام الأنصار كلها عبارة عن سؤال وجواب، وتلك هي السمة البارزة في خطبة حجة الوداع وفي غيرها من الخطب. (كما سيرد ذكره). وكانت الحماسة في خطاب النبي ﷺ تصل لدرجة أن تحمرَّ

---

[1] أضفت هذا الباب "سيد سليمان الندوي".

[2] طبقات ابن سعد، صـــ ٧٧.

[3] أبو داود، جـــ١، كتاب الصلاة أبواب الجمعة والخطبة على قوس.

عينه ويعلو صوته. وكان إذا اشتد غضبه تحركت أصابعه، وكان يحث جيشاً على القتال.[١] وينتفض جسده من حماسة الحديث،[٢] فكان يسمع صوت كصوت تكسر العيدان من أثر حركت يديه.[٣] وكان أحياناً يقبض كفيه وأحياناً يبسطها. ولقد صور عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما هذه الحالة الحماسية لرسول الله ﷺ فقال: **سمعت رسول الله على المنبر يقول يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها. قال ويتمائل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أدني لا أقول ساقط هو برسول الله ﷺ** (ابن ماجة ذكر المبعث).

نوعية خطبه ﷺ

جُمعت خطب رسول الله وفقراتها المتفرقة بلا ترتيب معين في كتب الحديث. ويجب أن نلاحظ أن النبي كانت له حيثيات عديدة، وكان لكل حيثية أسلوب خاص بها، فقد كان ﷺ داعية وفاتح وواعظ وأمير جيش وقاض ورسول؛ لذا أوجد تعدد هذه الحيثيات اختلافاً كبيراً في أسلوب بيانه وخطبه ﷺ، وهذا ما تقتضيه البلاغة. كانت الخطبة التي يلقيها بصفته داعية تفيض حماسة وثورة، فيبدوا النبي ﷺ وقتها وكأنه أمير جيش. لأنه حينما نزل قول الله تعالى "وانذر عشيرتك الأقربين" (الشعراء: ٢١٤) جمع قريشا وأراد أن يخطب فيهم. وبالرغم من أن شرور أبى لهب حالت دون اكتمال الخطبة، إلاّ أن بعض الجمل التي قالها النبي ﷺ حينذاك تنم عن قوة تعبيره. فقد صعد النبي ﷺ جبل الصفا ونادى قائلاً: "يا صاحباه" وهي كلمة تقال عند العرب في حالة هجوم مفاجئ لقبيلة على قبيلة أخرى وقت الصباح، فلما سمع الناس هذا النداء نهضوا واجتمعوا عند رسول الله، فقال النبي ﷺ لهم: **أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟**

قالوا جميعاً: ما جربنا عليكُ كذباً قط. وبعد أن جعلهم النبي ﷺ يقرون بذلك، قال: "**إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**". فقال له أبو لهب باستخفاف تباً لك أ لهذا جمعتنا.[٤]

وفي غزوة حنين، حينما وزَّع النبي ﷺ كل مال الغنيمة على المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار، غضب بعض الشبان وقالوا: سامح الله النبي، يعط قريشاً ويحرمنا، على

---

[١] صحيح مسلم، باب تخفيف الصلاة والخطبة، صـ ٣١٩.

[٢] ابن ماجه، ذكر المبعث.

[٣] مسند ابن حنبل، جـ٦، صـ٤٠٢

[٤] البخاري، جـ٢، صـ ٤٣، تفسير سورة تبت.

الرغم من أن سيوفنا تقطر دماً. فلما سمع النبي ﷺ بذلك جمع كل الأنصار في خيمة وسأل عن ذلك، فقالوا: قال ذلك بعض الشباب يا رسول الله، أما أصحاب الرأي والسادة منا فلم ينطقوا بلفظ واحد. فقام النبي ﷺ وخطب قائلاً "**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي**".

فكان الأنصار يؤمنون على كل كلام النبي ﷺ بقولهم اللهُ ورسولهُ أمنُّ، فقال النبي ﷺ: "أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك". ثم بعد ذلك أجاب النبي على المعترضين فقال: "**أ لا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به**".

فصاح الأنصار جميعاً قائلين "رضينا".[1] ولو تدبرنا هذه الخطبة لوجدناها جديرة بأن تكتب في رسالة صغيرة. ولم يخطب النبي ﷺ بجيشه فاتحاً إلا يوم فتح مكة، ووردت عبارات هذه الخطبة متفرقة في كتب الحديث. وقد كانت مكة مدينة مقدسة للغاية عند العرب، وكان الحرم بمثابة دار للأمان والسلم، فلم يسفك فيه دم إطلاقا. ولم يسل فيه دم إلا يوم فتح مكة. ولأن هذا حدث بسبب الدين، لذا كان يمكن الاعتقاد أن هذا الاحترام لا ينمحي أبدا. وهذان الجانبان هما ما أكد عليهما رسول الله في خطبته. وقد ذكرهما النبي ﷺ بالترتيب، فنظر إلى الصحابة وقال: **إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة لم تحل لأحد قبلي. ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي قط إلا ساعة من الدهر لا ينفر صيدها ولا يعضد شوكها ولا يختلى خلاها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد.**

وكانت خطبة حجة الوداع أهم خطب النبي ﷺ، وهي عبارة عن مجموعة أحكام مبسطة، لذا كان يجب أن تكون جافة إلى حد ما، لكنها على الرغم من ذلك ليست أقل من الخطب الأخرى في سهولتها وسلامة ألفاظها. ولقد أبرز النبي أهمية هذه الخطبة بعد أن حمد الله وأثنى عليه بقوله: "**أيها الناس اسمعوا فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**". كانت الصيغة البسيطة لهذا أن يقول النبي ﷺ: هذا آخر أعوام عمري، لكن هذا التفصيل وهذا الأسلوب زاد المعنى قوة ... ثم قال النبي ﷺ للمسلمين "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام". وقد عبر عن هذا بهذا الأسلوب

---

[1] صحيح البخاري، غزوة حنين.

البليغ:"**أتدرون أي يوم هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن هذا يوم حرام. أ فتدرون أي بلد هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: بلد حرام، قال أتدرون أي شهرَ هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: شهر حرام**". وهكذا حينما أوضح النبي للناس حرمة هذا اليوم وهذا الشهر وهذا البلد، أوضح ما يهدف إليه بقوله: "**إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**".

كما لقنهم النبي ﷺ درسًا في المساواة بقوله: "**إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم من آدم وآدم من تراب، أن أكرمكم عند الله اتقاكم**".

وقد كان شن الغارات هو الوسيلة التي تعيش عليها العرب، ولأن هؤلاء الناس لم يكونوا يستطيعون العيش بلا عمل طوال مدة الأشهر الحرم الأربع؛ لذا كانوا يبدلون في (ميقات) هذه الأشهر. وهذا ما يسمى بالنسيء، وقد نهاهم القرآن الكريم عن ذلك فقال:

"إنما النسيء زيادة في الكفر" وهذا ما أعلنه النبي ﷺ في خطبته حين قال: "**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.**

فضلا عن هذه الحيثيات كان النبي ﷺ معلماً وواعظاً أيضا. والخطب التي خطبها النبي ﷺ فى هذه الناحية، خطب رغم أنها بسيطة، إلا أنها تحوي في طياتها أسلوباً يفيض بلاغة. فلا حاجة للواعظ لتراكيب ملفوفة ولا لألفاظ قوية ولا لتشبيهات واستعارات، إذ أنه يؤدي مطالبه بألفاظ سهلة وجمل واضحة وعبارات موجزة. وقد كانت خطب النبي ﷺ في هذا المجال تتسم بكل هذه السمات، فكانت أول عبارة قالها النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة هي: "**يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**".

وقال في خطبة أول جمعة صلاها بالمدينة، طبقا لما رواه ابن إسحاق بعد الحمد والثناء:

"**أما بعد: أيها الناس فقد من إلا نفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه، ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا فأفضلت عليك فما قدمت لنفسك، فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يتقي بوجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى**

سبع مائة ضعف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" وفي المرة التي تلتها قال: الحمد لله أحمده وأستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر فاختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه. أحبوا ما أحب الله. أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته، وصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وذات مرة خطب النبي ﷺ خطبة تحدث فيها عن أمور خمس فقط هي:

أن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور. (صحيح مسلم رواية عن الله تعالى).

وغالباً ما كان النبي ﷺ يتحدث في خطبة الجمعة عن الزهد والتقوى وحسن الخلق، وعن أهوال القيامة وعذاب القبر، وعن صفات الله تعالى. وإن عرض عارض وسط الأسبوع تحدث عنه. وكثيراً ما كان يقرأ سورة مؤثرة تشتمل على الموضوعات السابقة بدلاً من أن يخطب خطبة جديدة، مثلما كان يقرأ سورة " ق "، إذ كان ﷺ يتلو هذه السورة كثيراً في خطبة الجمعة، أما في خطبة العيد، فكان يؤكد على موضوع الصدقة إضافة للموضوعات السابقة. أما الخطبة الفجائية، فكان يلقيها طبقاً لحدثها، فيوضح فيها ما يقتضيه الحال. ففي ذات مرة كسفت الشمس وتصادف أن توفى يوم ذلك ابنه إبراهيم ﷺ، فزعم الناس أن الشمس قد كسفت لموت إبراهيم. لذا خطب رسول الله قائلاً: "أما بعد يا أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهم لا ينكسفان لموت أحد من الناس، ما من شيء لم أكن رأيته إلا قد رأيت من مقامي هذا حتى الجنة والنار وإنه قد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور مثل فتنة الدجال فيؤتى أحدكم فيقال ما علمك بهذا الرجل فأما الموقن فيقول هو محمد هو رسول الله جاء بالبينات وهدى فأجبنا وأطعنا. أما المرتاب فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت أنه عرض على كل شيء تولجونه فعرضت على الجني حتى لو تناولت منها قطفاً أخذته فقصر يدي عنه، وعرضت على النار فرأيت فيها امرأة تعذب هرة لها ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من حشاش

الأرض ورأيت أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قصبة في النار وأنهم كانوا يقولون أن الشمس والقمر لا يخسفان إلا لموت عظيم وأنهما آيتان من آيات الله يريكموهما فإذا خسفا فصلوا حتى تنجلي.[١]

ووردت خطبته ﷺ الموجزة عن اجتناب البدع والتمسك بالسنة بعبارات مختلفة في أكثر كتب الحديث.

إنما هما اثنتان: الكلام والهدى؛ فأحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدى هدي محمد. ألا وإياكم ومحدثات الأمور، فإن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم. ألا إن ما هو آت قريب، وإن البعيد ما ليس بآت، ألا إنما الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره. ألا إن قتال المؤمن كفر وسبابه فسوق ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، ألا وإياكم والكذب. (ابن ماجه، باب اجتناب البدع).

التأثير القوي (فى السامعين)

في الحقيقة، كانت خطب النبي ﷺ معجزة إلهية في قوة تأثيرها وصداها. حيث كانت القلوب المتحجرة تلين بسماعها في لحظات. ففي ذات مرة تلا النبي ﷺ آيات من سورة النجم في مكة، فخر صناديد الكفر سُجداً مع المسلمين بقوة تأثيره.[٢]

سمع أحد أصدقاء النبي ﷺ قبل بعثته ﷺ أنه قد أصيب بالجنون، فأتى إليه ليعالجه ﷺ، حيث إنه كان على دراية بأمور السحر. فتحدث النبي ﷺ أمامه حديثاً موجزًا، فقال الرجل: كرره يا محمد، فكرره الرسول ﷺ. فقال الرجل لقد سمعت قصائد الشعراء وكلام الكهان لكن هذا شيء مختلف.[٣]

ذات مرة هجر رجل حديث العهد بالإسلام قبيلته وجاء إلى المدينة، فرأى النبي ﷺ ضرورة مساعدته؛ لذا جمع المسلمين في المسجد النبوي وخطب فيهم، وتلا الآية الكريمة التالية: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " (النساء:١) والتي تبين أن الناس جميعاً من نفس واحدة، ثم قرأ بعدها آية سورة الحشر التالية "ولتنظر نفس ما قدمت لغد". (الحشر:١٨)

---

[١] صحيح مسلم، بروايات مختلفة.

[٢] صحيح مسلم، باب تخفيف الصلاة وقصر الخطبة.

[٣] صحيح مسلم، باب تخفيف الصلاة وقصر الخطبة.

ثم أمرهم بعد ذلك بالإنفاق مما عندهم من الدراهم أو الأقمشة أو الحبوب أو حتى من التمر في سبيل الله. ومع أن حالة المسلمين المادية في المدينة كانت كما روت كتب السيرة (حالة متعسرة)؛ لكن بسبب قوة تأثير ووقع خطبة النبي ﷺ همَّ كل من كان عنده حاجة فأحضرها. حتى أن البعض خلع ملابسه، والبعض أحضر قوت داره. وذهب أحد الأنصار فاحضر من بيته كيس دراهم حمله بصعوبة. ويقول راو بأنه بعد قليل من الوقت تكونت كومتان كبيرتان من الغلال والأقمشة أمام النبي ﷺ، فبرق وجه النبي ﷺ من فرط سروره.[1]

- ولقد كان حديث النبي ﷺ يحل المشاكل ويجري نهر المحبة حتى في أشد الأزمات؛ فبفضله تحولت العداوات القديمة بين الأوس والخزرج إلى محبة. وفي ذات مرة خرج الرسول ﷺ قبل غزوة بدر راكباً، والمنافقون مجتمعون في مجلس، فسلم المسلمون عليهم بأدب؛ لكن المنافقين أساءوا في الجواب. فكانت هذه هي الشرارة التي أشعلت الموقف وأوشك الفريقان على القتال. لكن النبي ﷺ أطفأ هذه النار ببضع من كلماته ﷺ.[2] ذات مرة أثناء العودة من غزوة بني المصطلق أشعل المنافقون الفتنة حتى أوشك أن يدب القتال بين المهاجرين والأنصار. وحين علم النبي ﷺ بهذا جاء من فوره وخطب فيهم خطبة أزالت كل ما نشأ بينهما من خلاف في لحظات.[3] و قد احتدم الخلاف بين الأوس والخزرج إثر حادثة الإفك حتى كادوا يستلون أسيافهم في المسجد النبوي، فصعد النبي ﷺ على المنبر وخطب فيهم خطبة أعادت جريان نهر المحبة بينهم.[4]

وحين امتعض الأنصار من تقسيم مال الغنيمة في غزوة حنين خطب النبي فيهم بأسلوب بليغ ــ مر ذكره بإيجاز سابقا ــ فما تأثير هذه الخطبة ؟ كانت النتيجة أن أخذ الأنصار الذين كانوا قبل قليل غاضبين يبكون لدرجة أن ابتلت لحاهم وسقط كل غبار قلوبهم بقطرات من نهر كوثر النبي.[5] وحينما عفا النبي ﷺ يوم فتح مكة عن رؤساء مكة خلافاً لما كان يتوقعه الأنصار، واعترض نفر منهم ممن لم يكونوا على بصيرة كاملة بخلق النبي

---

[1] صحيح مسلم، باب الصدقات.

[2] صحيح البخاري، السلام على جماعة فيها المسلم والكافر.

[3] صحيح البخاري، تفسير سورة المنافقون، وورد في ابن سعد، غزوة بنى المصطلق.

[4] صحيح البخاري، قصة الإفك.

[5] صحيح مسلم، فتح مكة.

ﷺ، وقال إن النبي ﷺ حن في النهاية لبلده وأهله. وحينما علم النبي ﷺ بذلك جمع الأنصار : ما حديث بلغني عنكم. قالوا: نعم يا رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام: لم أراع الوطن ولا الأهل ولكني عبد الله ورسوله. لقد هاجرت إلى الله وإليكم فحياتي الآن حياتكم ومماتي مماتكم. فرقت قلوب الأنصار بعد ما سمعوا هذا وغمرهم البكاء. وكانت الخطب التي خطبها النبي ﷺ عن الوعظ والإرشاد مؤثرة هي الأخرى لدرجة صورها لنا أحد الصحابة بقوله: **وعظنا رسول الله ﷺ يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب** (الترمذي وأبو داود).

تروى السيدة أسماء بنت أبي بكر كيفية تأثير إحدى جلسات وعظ النبي ﷺ فتقول: **قام رسول الله ﷺ خطيباً يذكر فتنة القبر التي يفتن بها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة.**[١]

روى عن أبى هريرة وأبى سعيد أن النبي ﷺ كان يخطب ذات مرة، فخرج من فمه الشريف هذا القول: "**والذي نفسي بيده**"، كرر النبي ﷺ هذا القول ثلاث مرات ثم ركع. فركع كل شخص مكانه وأخذ يبكي. يقول الراوي: حتى أننا لم نعد نعى ما كان يقسم عليه رسول الله ﷺ.[٢]

يقول أنس ﷺ: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم خطبة مؤثرة ما سمعت مثلها قط. قال في خطبته:" لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا". قال: فغطى أصحاب رسول الله وجوههم بملابسهم ويبكون بلا إرادة.[٣]

---

[١] صحيح البخاري، ما جاء في عذاب القبر.

[٢] سنن النسائي، كتاب الزكاة.

[٣] صحيح البخاري، تفسير سورة المائدة.

"فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب". (الشرح:٧،٨)

لا يمكن[١] الوقوف بطريقة صحيحة على طريقة وأوقات ونوعية عبادة أي نبي بعث إلى الدنيا غير سيدنا محمد ﷺ؛ حيث أن الباب الذي ذكرت فيه حياة وأحوال الأنبياء السابقين منذ سيدنا نوح، بل منذ سيدنا آدم إلى سيدنا موسى عليهم السلام في التوراة مفقود قطعاً من صحائف بني إسرائيل. ولا نجد في التوراة عن سيدنا موسى إلا ما يشير على أنه كان يدعو الله أحياناً. ولكن إذا كان أئمة المذاهب الأخرى قد أهملوا أنبيائهم فما حفظوا حتى تلك الأمور الضرورية التي ينبني عليها الدين والشرع، فعلى أئمة الإسلام أن يفخروا بأنهم حفظوا كل شيء عن أوقات عبادة نبيهم وعن طريقة وأنواع وكيفية وكل دقائق عبادته ﷺ.

الدعاء والصلاة

كان رسول الله ينشغل بعبادة ربه قبل بعثته ﷺ، فكان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه شهورا. ومع بعثته ﷺ وُضّحت له طريقة الصلاة. لكنه كان يُسِرُّ صلاته مخافة كفار قريش. فكان إذا حان وقت الصلاة يذهب لأدائها خلف سفح أي جبل. ويذكر أنه ذات مرة كان النبي ﷺ يصلي في أحد الأودية وكان معه علي، فصدف أن نزل عليهما أبو طالب، فنظر للنبي ﷺ وقال: ماذا تفعل يا ابن أخي؟ فدعاه النبي ﷺ للإسلام [٢].

لكن النبي ﷺ كان يصلي صلاة الضحى في الحرم جهراً لأن هذه الصلاة كانت جائزة عند قريش[٣] وقد ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان يصلي في الحرم في ذات يوم وكان رؤساء قريش جالسين يهزءون به، فقال أبو جهل: ليت أحدا يمر فأجمع من روث البعير وأضعه على رقبة محمد ﷺ حين يسجد. وقد نفذ هذا الاقتراح عقبة[٤].

---

[١] أضفت هذا الباب كله."سيد سليمان الندوى".

[٢] صحيح البخاري، باب بدء الوحي.

[٣] مسند ابن حنبل، جـ١، صـ٩٥.

[٤] ابن الأثير. ورد فى صحيح مسلم: (٤٦٠٤) ـــ وحدّثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبَانٍ الْجُعْفِيُّ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحِيمِ يَعْنِي ابْنَ سُلَيْمَانَ عَنْ زَكَرِيَّاءَ عَنْ أَبِي إِسْحَـقَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الأَوْدِيِّ عَن

كما كان الكفار يسيئون إلى النبي ﷺ في صلاته حيث كان يجهر بالقراءة[1]. ففي ذات مرة كان النبي ﷺ يصلي في الحرم وأراد المشركون إيذاءه[2]، فألقى أحدهم في رقبته حبلاً[3]؛ لكنه ﷺ لم يرجع رغم ذلك عن أداء واجبه لثقته بربه[4]. وقد كان النبي ﷺ يصلي ليلاً، وتوجد روايات مختلفة عن الصحابة تروي عن تهجده ﷺ، فيقول راو: إن النبي ﷺ كان يقوم الليل كله. وتقول أم سلمة: كان النبي ﷺ ينام قليلاً ثم يقوم فينشغل في الصلاة، ثم ينام ثم يقوم فيصلي. وهكذا كان حاله ﷺ حتى الفجر. وفي رواية ابن عباس (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ كان يقوم بعد نصف الليل ويصلي ثلاث عشرة ركعة. أما السيدة عائشة(رضي الله عنها) فقد روت ٩ ركعات. ولقد وفق المحدثون بين هذه الروايات فقالوا: إن النبي ﷺ صلى بكل هذه الحالات. وإن كل راوٍ بين ما رآه[5]. وقد مر ذكر طريقة تهجده ﷺ على لسان السيدة عائشة وابن عباس تحت عنوان "قيام الليل".

عادة ما كان النبي ﷺ يصلي كل يوم ٣٩ ركعة نفلاً إضافة للفرائض الخمسة، ركعتين سنة الفجر، وأربعا للضحى، وستا للظهر، وستا للعصر (أربع قبل الفرض واثنتين بعده حسب ما روت السيدة عائشة) وركعتي المغرب، وست العشاء، وثلاث عشرة ركعة

ابن مَسْعُود، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّه يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَىٰ سَلاَ جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ فَيَأْخُذُهُ، فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّه ، وَالنَّبِيُّ سَاجِدٌ، مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ. فَجَاءَتْ، وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ. ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلاَتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا، دَعَا ثَلاَثاً. وَإِذَا سَأَلَ، سَأَلَ ثَلاَثاً. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ! عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ! عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» (وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ) فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّىٰ صَرْعَىٰ يَوْمَ بَدْرٍ. ثُمَّ سُحِبُوا إِلَىٰ الْقَلِيبِ، قَلِيبِ بَدْرٍ. قَالَ أَبُو إِسْحَـٰقَ: الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ غَلَطٌ فِي هَـٰذَا الْحَدِيثِ. (المترجم).

[1] صحيح البخاري، باب الطهارة والصلاة.

[2] صحيح البخاري، تفسير سورة بني إسرائيل.

[3] ابن هشام، ذكر قبل الهجرة.

[4] صحيح البخاري، باب ما لقي النبي بمكة.

[5] كتب الزرقاني هذا البحث تفصيلاً في شرح المواهب.

ليلاً وواحدة وتر. ولم تدخل صلاة الأوابين ولا سنة تحية المسجد ضمن هذا العد. وكان النبي ﷺ يحرص من بين كل هذه السنن جميعاً على ركعتي الفجر[١]، وإن حدث ولم يصل سنة ما خلافاً لعادته، كان يقضيها، مع أن قضاء السنن ليس واجباً على عامة المسلمين طبقاً لما نص عليه الشرع. ولم يحدث أن حدث هذا مع النبي ﷺ إلا مرة واحدة حينما جاءه وفد بين الظهر والعصر، ولم يتمكن النبي ﷺ وقتها من أداء ركعتي سنة الظهر. لذا قضاها بعد صلاة العصر في إحدى حجرات أمهات المؤمنين. ولأن أمهات المؤمنين لم يألفن أن يصلي النبي ﷺ في هذا الوقت؛ لذا سألنه فوضح لهن النبي ﷺ ذلك. ويكون قضاء الصلاة لعامة المسلمين مرة واحدة. أما النبي ﷺ فلأنه كان لا يريد أن يترك شيئاً بدأه؛ لذا ــ كما ذكرت السيدة عائشة وأم سلمة ــ ظل رسول الله ﷺ يقضي هذه الصلاة طيلة حياته [٢].

كان شهر رمضان أكثر شهور عبادته ﷺ. يقول ابن عباس (رضى الله عنهما): كان النبي ﷺ جواداً ولم يكن لجوده حد. فإذا هلَّ رمضان وجاءه جبريل ليتلو عليه القرآن، سبق جوده الهواء[٣]. وكان النبي ﷺ يجتهد في العبادة في العشر الأواخر من رمضان، تقول السيدة عائشة: كان رسول الله ﷺ يقوم الليل كاملاً إذا ما حل الثلث الأخير من رمضان، وينقطع عن أزواجه، وفي هذا الثلث كان النبي ﷺ يعتكف عموما في المسجد، أي يجلس في المسجد وينشغل بذكر الله وعبادته تعالى[٤].

كان النبي ﷺ يتلو القرآن يومياً. ويتضح من رواية لأبي داود أن وقت تلاوة النبي كان بعد صلاة العشاء[٥]. وكان يحدد لكل يوم عدد من السور يتلو القرآن طبقاً له. وكان يتلو القرآن الكريم كاملاً في رمضان[٦]، ويقوم آخر الليل يتلو أي سورة أو بعض آيات من القرآن. يقول عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) رأيت النبي ﷺ ذات ليلة يقوم من

---

[١] صحيح البخاري، أبواب النوافل والسنن.

[٢] مسند أحمد وأبو داود وصحيح مسلم، الركعتان بعد العصر.

[٣] صحيح البخاري، كتاب الصوم.

[٤] صحيح البخاري، باب الاعتكاف.

[٥] أبو داود، شهر رمضان.

[٦] صحيح البخاري. بدء الوحي.

نومه في الثلث الأخير من الليل وقت تلألؤ النجوم، وسط صمت الليل، فنظر إلى السماء ثم تلا قوله تعالى:[1]

"إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب۞ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار۞ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار۞ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فأمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار۞ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف المعياد۞ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا لأُكفرنّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب۞" (آل عمران:١٩٠-١٩٥).

في هذا التوقيت أيضاً كان النبي ﷺ يقول تلك الكلمات التي تفيض روحانية: "**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض لك الحمد وأنت قيوم السماوات والأرض ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ولقاءك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق. اللهم لك أسلمت وبك آمنت. وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت** (صحيح مسلم، باب الدعاء في صلاة الليل) .

كان النبي ﷺ ينهض أحياناً من فراشه بعد أن ينام أهل بيته وينشغل بالدعاء والمناجاة. تقول السيدة عائشة: قمت من نومي ذات ليلة فما وجدت رسول الله ﷺ على الفراش، فاعتقدت أنه ربما يكون قد ذهب إلى حجرة إحدى زوجاته الأخريات، فتحسست المكان في الظلام فوجدته ﷺ ساجداً ومنهمكاً في العبادة. فلما رأيت ذلك ندمت على ريبي، وقلت في نفسي: سبحان الله في أي شيء أفكر ورسول الله في أي عالم![2]. وأحياناً كان النبي ﷺ يهب من نومه ثم يذهب إلى المقابر بمفرده يدعو الله ويتضرع إليه. في ذات مرة تعقبته السيدة عائشة فرأت أنه ﷺ حضر البقيع وأخذ يدعو الله [3].

---

[1] سنن النسائي، باب الغيرة

[2] سنن النسائي، باب الغيرة

[3] المرجع السابق، باب [illegible]

كان ﷺ ينام بعد الدعاء والصلاة نوماً عميقاً حتى صلاة الفجر، ثم يقوم وقت الفجر فيصلي ركعتي السنة ثم يذهب للمسجد وهو يقول: **اللهم أجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نورا واجعل في بصري نورا واجعل في خلقي نورا ومن أمامي نورا واجعل من فوقي نورا وتحتي نورا وأعطني نورا.** (صحيح مسلم، باب الدعاء في صلاة الليل).

كانت أقل وقفة في صلاة النبي ﷺ هي بعد قيامه من الركوع. لكن روى عن أنس: أنه ﷺ كان يقف بعد الركوع لدرجة أن الناس كانت تعتقد أن النبي ﷺ نسي أن يسجد[1]. كما كان النبي ﷺ يبتعد عن كل ما يلهى في الصلاة. ففي ذات مرة التف ﷺ بالبردة وشرع في الصلاة، وأثناء الصلاة وقع نظره على طرفي البردة فلما فرغ من صلاته أعطاها الشخص (أبو جهم) وقال له: اذهَبوا بخَميصتي هذِهِ إلى أبي جَهْمٍ وائْتوني بأنْبجانيةِ أبي جَهم، فإنها ألهَتْني آنِفاً عن صلاتي [2].

ذات مرة كان على الباب ستاراً مزخرفاً وقعت عليه عين النبي ﷺ أثناء الصلاة، فأمر السيدة عائشة رضي الله عنها بإبعاده إذ شغل قلب النبي [3].

الصيام

لقد عد الأنبياء وأئمة الدين تقليل الغذاء؛ بل تركه (الصيام) من أهم العوامل الضرورية لتزكية النفس. ونقد غالى زهاد ورياضيو ودعاة الدين في هذا الشأن. أما دعاة الإسلام فقد انتهجوا نهجاً وسطاً في هذا الشأن بين الإفراط والتفريط. كانت العرب قبل الإسلام تصوم يوم عاشوراء، وهكذا كان النبي ﷺ أيضاً يصوم هذا اليوم كعادته، ويتضح من بعض الأحاديث أن النبي ﷺ كان يصوم شهوراً متتالية أثناء إقامته بمكة. لكن هذه العادة تغيرت بعد الهجرة، فقد كان اليهود بالمدينة يصومون عاشوراء، كما صامه النبي

---

[1] مسند ابن حنبل،ج٣،ص١٧٢.

[2] صحيح البخاري، ج ١، ص٥٤ ،كتاب الصلاة. وهذا نص الحديث: (٣٧١) حدَّثَنا أحمدُ بنُ يونُسَ قال: حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ سَعدٍ قال: حدَّثَنا ابنُ شِهابٍ عن عُروةَ عن عائشةَ: «أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم صلَّى في خَميصة لها أعلامٌ فنَظَر إلى أعلامِها نَظرةً، فلما انصرفَ قال: اذهَبوا بخَميصتي هذهِ إلى أبي جَهْمٍ وائتوني بأنْبجانيةِ أبي جَهم، فإنها ألهَتْني آنفاً عن صلاتي». وقال هِشامُ بنُ عُروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «كنتُ أنظُرُ إلى عَلَمِها وأنا في الصلاةِ فأخافُ أنْ تَفْتِنَني». (المترجم).

[3] صحيح البخاري، كتاب اللباس والصلاة.

ﷺ أيضاً؛ بل إنه أكد على صوم المسلمين جميعاً لهذا اليوم، ولكن حينما فرض صوم رمضان، أصبح صوم عاشوراء نفلاً.

ولم يصم رسول الله ﷺ في المدينة شهراً كاملاً إضافة لرمضان سوى شهر شعبان، حيث كان ﷺ يصومه كاملاً، وهكذا كان النبي ﷺ يصوم شهرين متتاليين شهر شعبان ورمضان. أما بقية أشهر السنة فلم يكن فيها عرف أو نظام معين. وغالباً ما كان النبي ﷺ يصوم الأيام التي يطلق عليها الأيام البيض من كل شهر. وهكذا فقد كان النبي ﷺ معتاداً على صيام ثلاثة أيام إضافة ليومي الاثنين والخميس من كل شهر. وورد في بعض الروايات أنه ﷺ كان معتادًا على صوم يوم الجمعة أيضا. علاوة على ذلك، كان النبي ﷺ يصوم عشرة أيام من محرم منذ غرته حتى يوم العاشر، وكذا ستة أيام من شوال منذ الثاني حتى السابع[1].

إضافة لهذه الأيام كانت هناك أياماً طارئة يصومها رسول الله؛ حيث كان ﷺ يذهب إلى البيت في بعض الأحيان ويقول: "هل عندكم طعام؟"، فإذا قيل له: ليس هنا طعام. قال: "إني صائمٌ" [2]. وكان النبي أحياناً يواصل في الصوم؛ أي يصوم أياماً عديدة دون أن يأكل أو يشرب شيئاً، أو يأكل شيئاً قليلاً جداً. لكنه ﷺ منع الصحابة من تقليده في هذا حينما أرادوا ذلك. وقد حمل بعض الناس ممانعة النبي ﷺ لهم على أساس أنها شفقة من النبي وليست حكماً شرعياً، لذا أخذوا يواصلون الصوم رغم منع النبي لهم. فلما علم النبي ﷺ بذلك واصل الصوم ليومين، وتصادف أن ظهر الهلال في اليوم الثالث. فأخبر النبي ﷺ بأنه لو لم يظهر الهلال لواصل الصيام حتى يُمحى غلو المغالين في الدين. قال الصحابة: فلم تواصل الصوم يا رسول الله؟. قال ﷺ: إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم إِنِّي أُطْعَمُ

---

[1] ذكرت كل هذه الأحاديث المتعلقة بالصوم في كل كتب الحديث وأمامي الآن سنن أبي داود وصحيح مسلم، كتاب الصوم.

[2] أبو داود، باب النية في الصيام.وهذا نص الحديث كما ورد في باب الرخصة في ذلك: (٢٤٥٦) ــــ حدثنا مُحَمَّدُ بنُ كَثِيرٍ أنبأنَا سُفْيَانُ ح. وأخبرنا عُثْمَانُ بنُ أبي شَيْبَةَ أخبرنا وَكِيعٌ جَمِيعاً عن طَلْحَةَ بن يَحْيَى عن عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عن عَائِشَةَ ، رضي الله عنها قَالَتْ: « كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذَا دَخَلَ عَلَيَّ قال: هَلْ عِنْدَكُم طَعَامٌ؟ فإذَا قُلْنَا لاَ، قال: إنِّي صَائِمٌ. زَادَ وَكِيعٌ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا يَوْماً آخَرَ، فَقُلْنَا: يَارَسُولَ الله أُهْدِيَ لَنَا حَيْسٌ فَحَبَسْنَاهُ لَكَ، فقال: أدْنِيهِ. فأصْبَحَ صَائِماً وَأَفْطَرَ». (المترجم).

وَأُسقَى»[1]. وقد ورد في بعض الروايات أنه ﷺ قال: إنِّي لَستُ كَهَيْئَتِكُم، إنَّ لِي مُطْعِماً يُطْعِمُنِي وَسَاقِياً يَسقِينِي»[2]. وكان ﷺ يكره التشدد في الدين لعامة المسلمين. وكان هو نفسه أيضاً يبتعد عن هذا.(وسنتحدث عن هذا تفصيلاً فيما بعد).

الزكاة

كان النبي ﷺ ينفق ويتصدق قبل الإسلام أيضاً كما شهدت بذلك السيدة عائشة في بداية الإسلام.[3] وبعد الإسلام لم يكن النبي ﷺ يدع شيئاً فائضاً في بيته إلا وزعه على المحتاجين؛ لكن على الرغم من ذلك لم يثبت أن النبي ﷺ قد أدى زكاة. وقد استنبط الفقهاء من ذلك أن الزكاة ليست فرضاً على الأنبياء. ولكن الحقيقة هي أن للزكاة مفهومين: الأول الصدقة والإنفاق ولا يخفى على أحد حال النبي ﷺ في هذا. المعنى الثاني للزكاة هو أن المبلغ المعين من المال الذي يخرج عن مقدار معين من الذهب والفضة أو الحيوانات أو خلافه إذا زادت عن الحاجة وظلت في حوزة المالك لمدة حول. والزكاة بمفهومها الأخير لم تفرض على النبي ﷺ، وإلا فماذا كان في بيت النبي ﷺ من هذه الأشياء وظل لمدة عام ويستحق أن تخرج عنه زكاة؟ فقد كان النبي ﷺ لا يحب أن ينقضي ليل وفي بيته شيء من المال. ففي ذات مرة تصادف أن حدث ذلك فلم يَخُط النبي البيت بقدمه حتى جاءه بلال وقال له: إن الله قد عافاك يا رسول الله [4].

الحج

لا يمكن تحديد العدد الصحيح للمرات التي حجها النبي قبل الإسلام. كتب ابن الأثير أن قريش كانت تحج كل عام تقريباً. لذا فاغلب الظن أن الرسول ﷺ ربما كان يحج

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، كتاب الصيام: (٢٣٦١) حدثنا عَبْدُ الله بنُ مَسْلَمَةَ الْقَعْنَبِيُّ عن مَالِك عن نَافِعٍ عن ابن عُمَرَ ،: «أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم نَهَى عن الْوِصَالِ قَالُوا فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسقَى».(المترجم).

[2] أخذت أحاديث الوصال في الصوم هذه من صحيح مسلم. وهذا نص الحديث: (٢٣٦٢) حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سَعِيدٍ أَنَّ بَكْرَ بنَ مُضَرَ حَدَّثَهُمْ عن ابن الْهَادِ عنْ عَبْدِ الله بن خَبَّابٍ عنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لاَ تُوَاصِلُوا فَأَيُّكُم أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ قَالُوا فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم، إِنَّ لِي مُطْعِماً يُطْعِمُنِي وَسَاقِياً يَسقِينِي». (المترجم).

[3] أبو داود، باب قبول هدايا المشركين.

[4] أبو داود، باب قبول هدايا المشركين.

كل عام هو الأخر. وفي الترمذي [١] أن رسول الله ﷺ حج مرتين أثناء إقامته بمكة. وورد في ابن ماجة والحاكم أنه ﷺ حج ثلاث مرات. لكن كل هذه الروايات مرسلة [٢] حيث ثبت بالإجماع أن النبي ﷺ حج أثناء إقامته بالمدينة سنة عشرة هجرية. وهذه هي حجة الوداع التي مر ذكرها.

وقد اعتمر رسول الله ﷺ إضافة للحج أيضاً، فقد ثبت أنه اعتمر أربع مرات بعد الهجرة؛ مرة في شهر ذي القعدة، ومرة عام الحديبية، ومرة بعد غزوة حنين، والمرة الأخيرة اعتمرها ﷺ مع حجة الوداع[٣]. يقول أنس: اعتمر رسول الله كل عمراته عدا عمرة حجة الوداع في شهر ذي القعدة. وفي ذات مرة سأل رجل ابن عمر (رضى الله عنهما): كم اعتمر النبي ﷺ؟ فقال ابن عمر: أربع عمرات، إحداهن في شهر رجب. فلما سمعت ذلك السيدة عائشة قالت: اللهم ارحم أبا عبد الرحمن (يعني ابن عمر)؛ حيث أن النبي ﷺ لم يعتمر قط بدونها، كما أنه لم يعتمر في شهر رجب[٤].

وفي عام الحديبية حينما ارتحل رسول الله ﷺ لأداء العمرة للمرة الأولى، حاول كفار مكة جاهدين أن يمنعوه، فانتشر الصحابة لمقاومتهم. لكن النبي ﷺ واصل سيره بطمأنينة دون أن ينتظر أصحابه؛ حيث أنه كان متشوقاً لزيارة الكعبة. ولكن المجاهدين أرسلوا في النهاية أبا قتادة الأنصاري وقالوا له: أبلغ رسول الله ﷺ منا السلام وأطلب منه أن ينتظر قليلاً، فإننا نخاف أن يحول العدو بيننا وبينك، فلبى رسول الله ﷺ طلبهم [٥].

دوام ذكر الله [٦] بين القرآن الكريم صفة المؤمنين فقال:

---

[١] باب كم حج النبي ﷺ.

[٢] الزرقاني، ج ٨ ص ١٦٤.

[٣] صحيح مسلم وأبو داود، حجة الوداع. والترمذي، باب كم حج النبي ﷺ.

[٤] جامع الترمذي، الباب المذكور. والبخاري ومسلم، كتاب الحج.

[٥] صحيح البخاري، باب جزء الصيد ص ٢٤٥.

[٦] ورد فى صحيح مسلم: (٦٧٥٦) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَاللَّفْظُ لِقُتَيْبَةَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي. وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي. إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ. وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً. وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً. وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً». كما ورد أيضا: (٦٧٥٨) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَـذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللّهِ .

"الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم"(آل عمران:١٩١)
وقال: "لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله" (النور:٣٧).

وقد كان مُبلّغ القرآن (محمد ﷺ) خيرَ نموذجٍ لهذه الصفات. تقول السيدة عائشة: كان النبي مشغولاً كل حين ووقت بذكر الله. ويقول ربيعة بن كعب الاسلمي: كنت أحرس باب رسول الله ﷺ ليلاً فسئمت من كثرة سماعي تكبير وتهليل النبي ﷺ لأن النوم كان يغلبني[1]. وقد كان النبي ﷺ مشغولاً بذكر الله في كل حالاته من قيام وقعود ومشي وجلوس وأكل وشرب ونوم ويقظة ووضوء وعند لبس ملابس جديدة، وعند ركوبه وعند سفره وعند عودته ودخوله البيت والمسجد. لذا نجد في كتب الحديث أدعية مأثورة لكل وقت وحال. وفي آخر حياته ﷺ، حينما نزلت عليه سورة النصر التي ورد فيها أمر بالتسبيح والاستغفار، كان النبي ﷺ كما تروى أمهات المؤمنين يقضي كل أوقاته وحالاته في التسبيح والتهليل [2].

يقول ابن عمر رضى الله عنهما: غالبًا ما كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء: **رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور**. فلما أحصينا ذلك وجدناه يسبح مئات المرات في الجلسة الواحدة[3]. كما أنه ﷺ لم يكن يغفل عن ذكر الله عند قلقه في سفره. وكان يصلي النوافل وهو راكب، غيرَ ملتزمٍ بالقبلة، فحيثما ذهبت الدابة ولى وجهه ونوى للصلاة. "أينما تولوا فثم وجه الله". (البقرة:١١٥)

فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا تَلَقَّانِي عَبْدِي بِشِبْرٍ، تَلَقَّيْتُهُ بِذِرَاعٍ. وَإِذَا تَلَقَّانِي بِذِرَاعٍ، تَلَقَّيْتُهُ بِبَاعٍ. وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ، جِئْتُهُ أَتَيْتُهُ بِأَسْرَعَ». وورد في الباب نفسه: (٦٧٥٩) حدثنا أُمَيَّةُ بْنُ بِسْطَامَ الْعَيْشِيُّ. حَدَّثَنَا يَزِيدُ يَعْنِي ابْنَ زُرَيْعٍ. حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ الْقَاسِمِ عَنِ الْعَلاَءِ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ. فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ. فَقَالَ: «سِيرُوا. هَـذَا جُمْدَانُ. سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيراً، وَالذَّاكِرَاتُ». (المترجم).

(1) مسند ابن حنبل جـ٤ ص ٥٩.

(2) ابن سعد، جزء الوفاة.

(3) الترمذي وابن ماجة والدارمي، باب الدعاء.

وَجْدَه ﷺ

كان رسول الله ﷺ إذا سمع الأذان هب للصلاة حيثما كان، سواء أكان في مجلس أصحابه أو في حجرات نساءه أو كان مشغولاً بالحديث[١]، ومع أنه كان يقضي جزءاً كبيراً من الليل ساهراً، إلا أنه كان يهب من نومه[٢] إذا قال المؤذن: الله أكبر. ولقد صورت السيدة عائشة رضي الله عنها حالة الوجد التي كانت تطرأ على النبي ﷺ في التهجد فقالت: أحياناً كان النبي ﷺ يقوم الليل كله ويقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء (أطول القرآن)، وحينما ترد آية خوف أو خشية يدعو الله ويتوسل إليه، وإذا أتت آية فيها رحمة وبشارة دعا الله طلباً لها[٣]. وكان يتلو بصوت عالٍ يُسمع من بعيد؛ لذا كان الناس يسمعون تلاوته ﷺ وهم نيام على فُرُشهم [٤]. وأحياناً ترد آية يستغرق النبي ﷺ في تدبرها. يقول أبو ذر الغفاري: قرأ رسول الله ﷺ في الصلاة هذه الآية[٥]: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم".(المائدة:١١٨)

. فكان من أثر ذلك أن ظل رسول الله ﷺ يردد هذه الآية حتى صلاة الفجر[٦]. يقول زيد بن خالد الجهنى أحد صحابة رسول الله ﷺ: ذات مرة عزمت أن أذهب ليلاً لأرى رسول الله ﷺ يصلي(حدث هذا غالباً في السفر) فحينما حان وقت الصلاة، قام النبي ﷺ وصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين جداً، ثم اتبع هذه الركعات الأربع (اثنتين واثنتين) بثمان ركعات خفيفات، ثم أوتر بعد ذلك[٧]. وفي رواية لنفس الصحابي أيضاً أن رسول الله ﷺ قام ليلاً للصلاة فلم ينته إلا الفجر[٨].

---

[١] صحيح البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم.

[٢] صحيح البخاري، باب يكون الرجل في خدمة أهله، ص٨٠٨.

[٣] صحيح البخاري من انتظر الإقامة.

[٤] مسند ابن حنبل ج٦ ص ٩٦.

[٥] ابن ماجة، باب ما جاء في صلاة الليل.

[٦] صحيح مسلم، أبو داود، الموطأ.

[٧] صحيح مسلم، أبو داود، الموطأ.

[٨] النسائي، أحياء الليل.

يقول سيدنا حذيفة ﷺ: يُسر لي ذات ليلة أن اصلي مع رسول الله ﷺ، فبدأ رسول الله ﷺ يتلو سورة البقرة (أطول سور القرآن) فاعتقدت أنه سيقرأ مائة آية فقط، لكنه ﷺ زاد عن ذلك فقلت في نفسي ربما يريد رسول الله ﷺ أن ينهي السورة في هذه الركعة؛ لذا حينما أنهى رسول الله ﷺ السورة اعتقدت أنه سيركع لكنه بدأ على الفور في سورة آل عمران، وبعد أن أنهاها بدأ في النساء (هذه السور الثلاثة تقارب خمسة أجزاء وربع)؛ علماً بأنه ﷺ كان يقرأ (يتلو) بطمأنينة، وكان يدعو ويسبح وسط القراءة طبقاً لما يتطلب موضوع كل آية. ثم ركع بعد ذلك، ثم اطمأن في الركوع مقدار ما توقف في القيام. ثم وَقف من الركوع وظل واقفاً نفس الفترة، ثم سجد واستغرق في السجود نفس الوقت أيضاً[1].

ذكر الله في ساحة القتال

في الوقت الذي يلتقي فيه الجمعان وتبرق في العيون السهام والسيوف والرماح، ويعلو الضجيج والصياح كل أرجاء الميدان، يكون النبي مشغولاً بكل خشوع وخضوع وطمأنينة بذكر الله والدعاء. ومما هو معروف أن الجنود يعبثون في مقابلة العدو لغرورهم وفخرهم بشجاعتهم. أما قائد الجيش، فيكون خاشعاً. وكانت هذه هي حالة النبي ﷺ في كل المعارك الكبرى، كبدر وأحد والخندق وخيبر وتبوك.

في كل المعارك يعتمد قائد الجيش على قوة جنوده. أما القائد الأعظم محمد ﷺ، فلم يعتمد قط إلا على قوة الله تعالى. ومع أنه ﷺ رتب جنده في كل المعارك طبقاً لما تقتضيه أصول الحرب أخذاً بالأسباب، إلا أنه لم يعتمد قط إلا على رب هذه الأسباب. جاءه ﷺ في بدر صحابيان وقالا له: يا رسول الله، اعتقنا الكفار شريطة ألاّ نشترك في المعركة. فقال النبي: "انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم" [2]. وإذ كانت ساحة بدر تفيض بالدماء، كان النبي ﷺ رافعاً يديه إلى الله ويقول في خشوع وخضوع: "اللهم أنجز لي ما وعدتني". ويسقط الرداء من على كتفه دون أن يشعر به لما هو فيه من وجد ويقول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبداً" [3]. وفي هذه الأثناء يأتيه علي ﷺ من ساحة القتال ثلاث مرات، وفي كل مرة يرى النبي

---

[1] صحيح مسلم والنسائي في صلاة الليل.

[2] مسلم، باب الوفاء بالعهد.

[3] صحيح مسلم والبخاري بدر.

ساجداً على التراب[١]. هتف أبو سفيان في نهاية غزوة أحد بفرح وقال " أُعل هبل". فأمر رسول الله ﷺ في جو الهزيمة ذاك أن ينادي عمر هو الأخر ويقول: **الله مولانا ولا مولى لكم والله أعلى وأجل"**.

وفي غزوة الأحزاب كان النبي ﷺ مشغولاً في حفر الخندق بنفسه وكان يقول وهو يحفر:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة".

ولأن الأعداء كانوا يهجمون بشراسة؛ لذا لم يتمكن أي مسلم من تـرك مكانـه. واستمر هذا الحصار عشرين أو اثنين وعشرين يوما، لكن لم تُقض في تلك الفترة سوى أربع صلوات على الأكثر؛ إذ حدث أن هجم الكفار في أحد الأيام بشراسة لم تعط مهلة ولو للحظة واحدة؛ لذا انقضى وقت العصر فحزن النبي لذلك حزناً شديداً. وبعد أن توقفت الهجمة مباشرة صلى في جماعة [٢].

وحينما اقترب رسول الله ﷺ من المدينة في غزوة خيبر قال:" اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ. خربتْ خَيبرُ"[٣]وحينما تراءت المباني أمر النبي ﷺ الصحابة أن يتوقفوا ثـم دعـا بهـذا الدعاء: **اللهم إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها** (ابن هشام).

وفي غزوة حنين كان مع النبي ﷺ اثنا عشر ألف جندي، لكن أقدامهم تزلزلت في بداية المعركة، فلو أن قائد هذا الجيش يعتمد على رجاله في ساحة القتال لكان أول مـن هرب، كي ينجو بنفسه. لكن القوة التي يعتمد النبي ﷺ عليها هي الناصر والمعـين فـي الخلوة كما هي في حالة وجود الجيش. في تلك الأثناء تقدم عشرة آلاف من رماة السـهام

---

[١] سيرة النبي جـ١ صـ ٤٥٠.

[٢] صحيح البخاري، أحد.

[٣] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٠٣) حدثنا قُتيبةُ بنُ سَعيدٍ قال: حدثنا إسـماعيلُ بنُ جعفرٍ عن حُميدٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ «أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا بنا قوماً لـم يكـنْ يَغزُو بنا حتى يُصبحَ ويَنْظُرَ: فإن سَمِعَ أذاناً كفَّ عنهم، وإن لم يَسمعْ أذاناً أغارَ عليهم. قال: فخرجْنـا إلى خَيبَرَ، فانتهينا إليهم ليلاً، فلمّا أصبحَ ولم يسمَعْ أذاناً ركِبَ وركبتُ خَلفَ أبي طلحـةَ، وإنَّ قـدَمي لَتمسُّ قدمَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: فخرجوا إلينا بمكاتِلهم ومَساحِيهم. فلما رأَوُا النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالوا: محمدٌ واللهِ، محمدٌ والخَميسُ. قال: فلما رآهم رسولُ اللّهِ قال: «اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبـرُ. خربتْ خَيبرُ. إنّا إذا نزَلنا بساحةِ قومٍ فَساء صَباحُ المُنذَرين». (المترجم).

كالسيل ممطرين سهامهم. ولم يكن بجانب النبي ﷺ إلا نفر للدفاع عنه. فنزل النبي ﷺ من على راحلته وقال: أنا عبدُ الله ورسوله،[1] ثم رفع يده إلى الله وسأله النصر، وفجأة تغير سير الرياح وبدأ نسيم النصر يرفرف راية الإسلام[2]. فمن يجرأ على رد سهام عشرة آلاف عدو بالدعاء والمناجاة فحسب غير الأنبياء.

ويبدو لنا أكبر مشهد مؤثر في غزوة بني المصطلق حين رابط الكفار في المواجهة ينتظرون غفلة المسلمين. وفجأة يحين وقت الصلاة ويتقدم الرسول ﷺ ليؤم الناس فتذهب طائفة من الصحابة خلف النبي ﷺ للصلاة، وترابط الطائفة الأخرى للتصدي للمشركين. وقد وقع حدث أخطر من هذا أيضاً في وقت صلح الحديبية؛ حيث كان النبي قد رابط في عسفان قرب مكة. وكان خالد بن الوليد فارس قريش الشهير قد أحضر كتيبة من جيش الأعداء يتحين الفرصة من خلف الجبال المحيطة. وفي النهاية أجمع المشركون أمرهم على أن يهجموا على المسلمين بغتة حين يقوموا للصلاة. وكان الموقف يستدعي قصر الصلاة؛ حيث كانت آيات القصر قد نزلت. وحينما حان وقت العصر هم النبي ﷺ للصلاة وكان جيش الأعداء مصطفاً في المواجهة؛ لذا انقسم الصحابة إلى طائفتين: طائفة اصطفت خلف النبي ﷺ للصلاة، والثانية وقفت لمواجهة الأعداء، وحينما فرغت الجماعة الأولى من الصلاة عادت بالتدريج لمواجهة المشركين ثم جاءت الطائفة الأخرى ولحقت بالصلاة، خلف النبي ﷺ. حدث كل هذا التغيير في صفوف المأمومين أما قائد الجيش ﷺ، فكان مشغولاً بالعبادة تحت ضربات السيوف لا يبالي بأي خطر[3].

بعد قراءة هذه الوقائع يمكن لنا أن نقيس إلى أي مدى تم تنفيذ قوله تعالى:

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٢٣٠) حدَّثنا عليُّ بن عبد الله حدَّثنا أزهرُ عن ابن عونٍ أنبأنا هشام بن زيد بن أنسٍ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لما كان يومُ حُنَينٍ التقى هوازنُ ومع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف والطلقاءُ، فأدبروا. قال: يا معشر الأنصار. قالوا: لبيك يارسولَ الله وسَعدَيك، لبيكَ نحنُ بين يديك. فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أنا عبدُ الله ورسوله، فانهزمَ المشركون، فأعطى الطُّلَقاءَ والمهاجرين، ولم يعطِ الأنصارَ شيئاً. فقالوا: فدعاهم فأدخلهم في قبة فقال: أما ترضون أن يذهب الناس بالشاةِ والبعير، وتذهبون برسولِ الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو سلكَ الناسُ وادياً وسلكَتِ الأنصارُ شِعباً لاخترتُ شِعبَ الأنصار». (المترجم).

[2] صحيح البخاري ومسلم،حنين.

[3] أبو داود جـ١ باب صلاة المسافرين.

"يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فـاثبتوا واذكـروا الله كثيـراً لعلكـم تفلحـون" (الأنفال:٤٥).

ورد في البخاري أن النبي ﷺ كان يكبر في الجهاد (الله أكبر) ثلاثاً كلمـا صـعد هضبة [١].

خشية الله

مع أن النبي ﷺ كان خاتم الأنبياء وأفضل الرسل وحبيب رب العالمين، إلا أنـه كان يخشى الله لدرجة أنه كان يقول: والله ما أدري ـ وأنا رسولُ الله ـ ما يُفعلُ بي ولا بكم؟ وحينما توفى عثمان بن مظعون وذهب النبي ﷺ للتعزية، كانت جثته ملقاة. فنظرت إليها امرأة وقالت: الله شاهد أنه قد غفر لك. فسألها النبي ﷺ : وما يدريك؟، قالت: إن لم يغفر الله له، فلمن سيغفر إذن. فقال النبي ﷺ: أما هوَ فقد جاءهُ اليقين، إني لأرجو له الخيرَ من الله، والله ما أدري ـ وأنا رسولُ الله ـ ما يُفعلُ بي ولا بكم. [٢].

وكان ﷺ يخاف حينما تهب رياح شديدة، فإذا حدث ذلك وهو منصرف في عمـل يتركه، ويولي وجهه شطر القبلة[٣] ويدعو اللهم احفظنا من عـذابك المحيـق. وبعـد أن يصفو الجو أو يهطل المطر يفرح الرسول ﷺ ويشكر الله. حدث ذلك ذات يـوم فسـألته السيدة عائشة: لماذا تخاف يا رسول الله؟ سألها النبي ﷺ أما تدري ما حل بقوم هود؛ الذين قالوا حينما رأوا السحاب إنه سيروي حقولنا، لكنه كان عذاب الله[٤].

---

[١] باب التكبير عند الحرب.

[٢] صحيح البخاري كتاب الجنائز.وهذا نص الحديث: (٦٨٦٦) حدّثنا عَبدانُ أخبرنا عبدُ الله أخبرنا مَعمرٌ عن الزُّهريِّ عن خارجةَ بن زيد بن ثابت عن أمِّ العلاء ـ وهي امرأةٌ من نسائهم بايَعت رسـولَ الله صلى الله عليه وسلم قالت: «طارَ لنا عثمانُ بن مَظعون في السُّكنى حينَ اقترعتِ الأنصارُ على سكنى المهاجرين، فاشتكى، فمرَّضناهُ حتى تُوُفيَ، ثم جعلناهُ في أثوابه، فدخلَ علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقلت: رحمةُ الله عليكَ أبا السائب، فشهادتي عليكَ لقد أكرمكَ الله. قال: وما يـدريك؟ قلـت: لا أدري والله. قال: أما هوَ فقد جاءهُ اليقين، إني لأرجو له الخيرَ من الله، والله ما أدري ـ وأنا رسـولُ الله ـ ما يُفعلُ بي ولا بكم. قالت أمُّ العلاءِ: فو الله لا أُزكي أحداً بعدَه. قالت: ورأيت لعثمانَ في النوم عَيناً تجري، فجئت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له، فقال: ذاك عملـه يجـري لـه». (المترجم).

[٣] سنن ابن ماجة باب ما يدعو به إذا رأى السحاب.

[٤] وردت هذه الواقعة في البخاري ومسلم وكتب الحديث الأخرى. والجملة الأخيرة ترجمة لآية قرآنية.

قال له أبو بكر: يا رسول الله لقد بدأ شعرك يشيب. فقال ﷺ: «يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ شِبْتَ. قالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلاَتُ و {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ} و {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}»[١]. فقد وردت أهوال وأحوال يوم القيامة في هذه السور. وروى عن أبي بن كعب أنه قال: كان النبي ﷺ إذا انقضى الثلث الثاني من الليل ينادي ويأمر الناس بذكر الله، فالزلزلة قادمة. وما بعدها آت، جاء الموت وأهواله، جاء الموت وأهواله[٢]. وكان يقول: «لَوْ تَعلَمون مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»[٣]. في ذات مرة قال ﷺ في إحدى خطبه بأسلوب مؤثر: يا معشر قريش، اعلموا أني لن أجيركم من الله، يا بني عبد مناف، إني لن أجيركم من الله، يا عباس بن عبد المطلب، إني لن أجيرك من الله، يا صفية عمة رسول الله، إني لن أجيرك من الله. يا فاطمة بنت محمد، إني لن أجيرك من الله. (الصحيحان).

في ذات مرة تزاحم أعراب البادية في المسجد النبوي لدرجة أن النبي ﷺ كاد أن يُداس، فقام المهاجرون وأزاحوا الناس، فخرج النبي ﷺ من المسجد ودخل حجرة السيدة عائشة، وبطبيعة البشر دعا عليهم، ولكنه نهض على الفور بعد ذلك واستقبل القبلة، ورفع يديه إلى السماء ودعا الله تعالى: اللهم إني بشر، فلا تعذبني إن تأذى مني أحد من عبادك[٤]. وكان قلب النبي ﷺ يرق (من خشية الله) وتفيض الدموع من عينيه، وحينما تلا

---

[١] شمائل الترمذي،ما جاء في شيبه ﷺ. وهذا نص الحديث: (٣٤٢١) حدثنا أَبُو كُرَيْبٍ ، حدثنا مُعاوِيَةُ بنُ هِشَامٍ عنْ شَيْبَانَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عِكْرِمَةَ عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ قالَ أَبُو بَكْرٍ ، رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ شِبْتَ. قالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلاَتُ و {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ} و {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}».

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غريبٌ لاَ نَعْرِفهُ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَرَوَى عَلِيُّ بنُ صَالِحٍ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَن أَبِي جُحَيْفَةَ نَحْوَ هَذَا. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا مرسلاً. وروى أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن عكرمة عن النبي نحو حديث شيبان عن أبي إسحاق ولم يذكر فيه عن ابن عباس حدثنا بذلك هاشم بن الوليد الهروي، حدثنا أبو بكر بن عياش. (المترجم).

[٢] المشكاة أخذاً عن الترمذي باب البكاء والخوف.

[٣] الصحيحان. وهذا نص الحديث: (٦٤٠) أخبرنا ابنُ قتيبة ، قال: حدثنا يزيدُ بن مَوْهَب ، قال: حدثنا ابنُ وهب ، عن يونس ، عن الزُّهري ، عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة ، أن رَسُولَ اللهِ ، قال : «لَوْ تَعلَمون مَا أُعلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً». (٣:٦٦) (المترجم).

[٤] مسند ابن حنبل جـ ٦ صـ ١٢٣ وردت الروايتان في كلا الصفحتين لكن الواقعة واحدة في الغالب.

عبد الله بن مسعود ﷺ أمامه هذه الآية: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا" سالت دموعه ﷺ [١]. وكثيراً ما كان ﷺ يبكي في الصلاة من خشية الله. في ذات مرة كُسفت الشمس، فتنفس النبي ﷺ الصعداء في صلاة الكسوف، وقال: رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم[٢].

يقول الصحابي عبد الله بن شُيخر ذهبت مرة لرسول الله ﷺ فوجدته مشغولاً في الصلاة وتفيض الدموع من عينيه، وهو مختنق بالبكاء لدرجة كانت تبدو وكأنها طاحونة تدور أو قدراً يفور [٣].

وفي ذات مرة كان النبي ﷺ في جنازة، وكان القبر يحفر. فجلس ﷺ بجوار القبر وظل يبكي من منظره لدرجة أن ابتلت الأرض. ثم أمر الناس بأن يعملوا لهذا اليوم[٤].

وحين كان النبي ﷺ عائداً من إحدى الغزوات التقى بمجلس يجلس فيه بعض الناس. فسألهم النبي ﷺ من أنتم؟ قالوا مسلمون. وكانت معهم امرأة جالسة توقد موقداً وبجوارها ولدها. وكانت النار قد اشتعلت وتأججت. فأخذت المرأة ولدها وذهبت للنبي ﷺ وقالت له: أ أنت رسول الله ﷺ؟ فقال النبي ﷺ: نعم. قالت المرأة: أليس الله أحن على عباده من الوالدة على ولدها؟ قال ﷺ :نعم. فقالت المرأة: فإن الأم لن تلقي بولدها في النار. فبكى رسول الله ﷺ ثم رفع رأسه وأخبر بأن الله سيعذب عبده العاصي الذي تكبر عليه وأشرك به[٥]. ذات مرة دعا النبي ﷺ بدعاء إبراهيم " رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني" (سورة إبراهيم: ٣٦) ثم دعا بدعاء عيسى: " إن تعذبهم فإنهم عبادك وأن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" (سورة المائدة: ١١٨) ثم رفع يديه إلى السماء وقال والدموع تفيض من عينيه "اللهم أمتي أمتي" [٦].

---

[١] صحيح البخاري تفسير الآية.

[٢] أبو داود صلاة الكسوف.

[٣] الترمذي وأبو داود باب البكاء في صلاة الليل وسنن ابن ماجة باب الحزن والبكاء.

[٤] سنن ابن ماجة باب يرجى من رحمة الله.

[٥] المرجع السابق.

[٦] صحيح مسلم باب بكاءه ﷺ لأمته.

بُعث إلى الدنيا صنفان من الأنبياء. أحدهما: من ظهر لهم كبرياء وجلال الله فقط، لذا كانوا يُعلمون الخشية والخوف من الله فقط كنوح وموسى عليهما السلام. والصنف الثاني: هو من كان متيماً في حب الله فكان يدعو الناس إلى هذا العشق، كيحيي وعيسى عليهما السلام. وكان كلاهما طريقان للإفراط والتفريط ، فالطريق الأول يوصل إلى منزلة الإخلاص والمحبة والثاني يُبعد عن العبودية والخضوع. كما يتراءى لكل شخص في التعليم المسيحي وفي سيرة المسيح الموجودة في الإنجيل الحالي. أما الإسلام فقد هدف إلى إبراز الجانبين بطريقة متساوية .ولهذا السبب يرى هذان الجانبان مجتمعان في ذات النبي محمد ﷺ. وقد أوضح القرآن الكريم وصف الإيمان الكامل في الآية الكريمة: "والذين آمنوا أشد حباً لله".(البقرة: ١٦٥)

ورد في صحيح الروايات أن النبي ﷺ كان يقوم في صلاة الليل حتى تتورم قدماه. وحينما رأى الصحابة ذلك قالوا: يا رسول الله، لماذا تشق على نفسك وقد غفر الله لك؟ فقال ﷺ: أفلا أكون عبداً شكوراً. يقول أهل الباطن: إن الناس كانت تعتقد أن عبادات النبي ﷺ كانت خشية من الله. ولأنه ﷺ كان قد غفر له؛ لذا لم يكن في حاجة إلى الاجتهاد في العبادة. لكن النبي ﷺ صحح هذا الاعتقاد الخاطئ في إجابته حين قال: إن موجب ذلك هو حب الله وليست خشيته. ولهذا قال: "**وجعلت قرة عيني في الصلاة**".

كان النبي ﷺ يقوم في سكون الليل، فينشغل أحياناً في العبادة وأحياناً يذهب للمقابر. وكان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يتَنزلُ ربُنا تَباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا حين يَبقى ثلثُ الليل الآخر، فيقول: مَن يَدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأعطيَه، من يستغفرُني فأغفرَ له؟». [1]. وكانت عبادة النبي ﷺ ليلاً تنتهي بأداء ركعتي الفجر اللتين قال عنهما: ركعتي الفجر خير من الدنيا وما فيها[2].

---

[1] صحيح البخاري. وهذا نص الحديث: (٦١٧٦) حدَّثنا عبدُ العزيز بنُ عبد الله حدَّثنا مالكٌ عن ابن شهاب عن أبي عبد الله الأغر و أبي سلمةَ بن عبد الرحمن عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «يتَنزلُ ربُنا تَباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا حين يَبقى ثلثُ الليل الآخر، فيقول: مَن يَدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأعطيَه، من يستغفرُني فأغفرَ له؟». (المترجم).

[2] صحيح مسلم كتاب الصلاة.

وفي غزوة أُسرت امرأة فقدت وليدها، ومن شدة حبها له كانت كلما رأت طفلاً ضمه لصدرها وأرضعته، فلما رأى النبي ﷺ ذلك سأل الحاضرين هل يمكن لهذه المرأة أن تلق بولدها في النار؟ قال الناس: لا يا رسول الله. فأخبر ﷺ بأن الله أحن على عباده من حنان هذه الوالدة على ولدها[1].

وقد ذكر واقعة أخرى من هذا النوع، وهي أن النبي ﷺ كان عائداً من غزوة، فجاءته امرأة وفي حضنها طفلها، وقالت يا رسول الله: أما يحب الله عباده أكثر من حب الوالدة لولدها؟ فقال ﷺ بلى. فقالت المرأة فإن الأم لا تلقي بطفلها في النار. فلما سمع النبي ﷺ ذلك بكى. ثم رفع رأسه وأخبر بأن الله لن يعذب إلا العبد العاصي الذي يطغى ويشرك[2].

وذات مرة كان النبي ﷺ جالساً مع أصحابه فجاءه صحابي وقد لف طائرا وصغاره في رداء، وقال: يا رسول الله، أخذت هذه الصغار من على شجرة ولففتهم هكذا؛ فحينما رأت أمهم ذلك أخذت تحلق فوق رأسي؛ ففتحت الرداء قليلاً فدخلت على الفور ونزلت على صغارها. فقال النبي ﷺ (ما معناه) هل تعجب من حب هذه الأم لصغارها، فوالذي بعثني بالحق نبياً إن الله ليحب عباده أكثر من حب هذه الأم لصغارها بكثير [3].

كان النبي ﷺ يعتبر أن كل أنواع المحبة الدنيوية لا شيء أمام محبة الله. خطب ﷺ قبل وفاته بخمسة أيام في أصحابه وذكر أنه ﷺ يتبرأ أمام الله من أن يكون له ﷺ منهم خليلا، فقد اتخذه ﷺ الله خليلاً كما اتخذ إبراهيم، ولو أنه ﷺ متخذا من أمته خليلا لاتخذ أبا بكر[4].

وكان النبي ﷺ وقت وفاته يقول مكرراً: "اللهم الرفيق الأعلى" فحينما سمعت السيدة عائشة هذا الكلمات قالت: "الآن ستفارقنا يا رسول الله" [5].

---

[1] صحيح البخاري صـ ٨٠.

[2] سنن ابن ماجة باب ما يرجى من الرحمة.

[3] المشكاة نقلاً عن أبي داود باب رحمة الله.

[4] صحيح مسلم، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ص ١، ٢.

[5] صحيح البخاري باب الوفاة.

التوكل على الله

التوكل يعنى أن يدع الإنسان نتائج محاولاته وسعيه وقرار أحداث العالم على الله تعالى، وأن يزيل من أمامه ستار الأسباب والعلل. ويبدو له كل شيء تحت قدرة الله المباشرة. وأن يكون لديه يقين راسخ أن الحالات المتردية لن تؤثر مثقال ذرة في أمره. لأن أسباب القدرة والقوة الحقيقية في يد رب هذا الكون. وأنه أصل قوة وعزم وشجاعة الإنسان. وبفضله لن يفلت زمام الصبر من يد الإنسان حتى في أصعب الأوقات، ولن يجد الوهن طريقاً لقلبه حتى في أخطر الطرق، ولن يخيم على قلبه سحاب اليأس حتى في أشد الحالات.

اقرأ سيرة النبي ﷺ حرفاً حرفاً، وسيتضح لك أنه ما من مصيبة ولا نازلة تحت هذه السماء إلا وألمت به ﷺ لكن قلبه ما عرف الاضطراب ولا الفراغ واليأس والخوف قط، فنراه يتوكل على الله سواء في عزلة مكة أم عند نزول المصائب أو عند حصار المشركين له أو في معارك حنين وأحد الداميتين. يقول له أبو طالب: يا بني، اترك هذا الأمر. فيقول له النبي ﷺ : "ياعم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته". ثم أشار إلى أنه سيأتي يوم يجتمع عليه العرب والعجم. ويخبره بأن الله تعالى لن يتركه وحيداً [1]. ويقول ﷺ في مكة لصحابي تملكه اليأس: والله لقد اقترب ذلك الوقت الذي سيكتمل فيه هذا الدين، ولا يخشى فيه أحد إلا الله[2].

في ذات مرة جلس الكفار في الحرم واجمعوا أمرهم أن يُقتل محمد ﷺ إذا ذهب إلى هناك، وكانت السيدة فاطمة تسمع مؤامرتهم، فذهبت للنبي باكية وأخبرته بما يجري، فطمأنها النبي ﷺ وطلب ماءً فتوضأ، ثم ذهب إلى الحرم آمنا. فلما ذهب إلى صحن الحرم ورآه الكفار غضوا أبصارهم من تلقاء أنفسهم[3].

قرأت في الجزء الأول (من هذا الكتاب) أن أشجع فرسان قريش كانوا قد حاصروا بيت النبي ﷺ ليلة الهجرة؛ لكنه ﷺ أنام عليًا ﷺ مكانه بكل طمأنينة وثقة. ومع أنه كان معلومًا تماماً أن هذا ليس مرقداً بل مقتلاً ، لكن كان واضحًا أيضاً أن القوة

---

[1] وردت هاتان الواقعتان في ابن هشام.

[2] صحيح البخاري إذا خرج أول.

[3] مسند أحمد جـ ١ ص ٣٦٨.

المطلقة التي تستطيع أن تجعل من هذا المقتل جنة قادرة على أن تحميه، لذا قال ﷺ بكل ثقة (لعلي) "لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم" [1].

حاصر كفار قريش بيت النبي ﷺ من كل جانب، وكان يعتقد أن أهل مكة شباباً وشيوخاً ربما كانوا يطوفون الشوارع والأزقة ترقباً لفجر الأمل، متشوقين لسماع الخبر. لكن النبي ﷺ خرج من بيته متوكلاً على الله رغم كل الأوضاع الصعبة وهو يتلو الآيات الأول من سورة "يس" التي تدل على نبوته ﷺ، وعلى أنه على صراط مستقيم. وكانت آخر آية قرأها النبي ﷺ: "وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون" (يس:٩).

ثم اختبأ النبي ﷺ بعد أن خرج من مكة مع صاحبه في غار ثور، وسيطرت ثورة الفشل على قريش، وهاجت مشاعرهم الانتقامية وقتها. وخرجوا يتعقبون رسول الله ﷺ بتفقد آثار قدميه حتى وصلوا إلى الغار، فمن يمكن له القول بأن حواس أي إنسان لا يمكن أن تضطرب في هذا الموقف الخطر؟ لذا اضطرب أبو بكر وقال: يا رسول الله لقد اقترب الأعداء، وإذا نظروا تحت أقدامهم لرأونا. لكن النبي ﷺ قال بصوت يفيض روحانية: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما". أو كما قال القرآن الكريم "لا تحزن إن الله معنا". (التوبة: ٤٠) فأين ترى هذه الطمأنينة الروحانية في قلب أحد غير رسول الله ﷺ.

وبعد أن أعلنت قريش أن من سيأتي بمحمد ﷺ حياً أو ميتاً ستكون له مائة ناقة، خرج سراقة بن جشعم ولحق به حتى اقترب منه وكاد أن يمسك به. وكان أبو بكر يتلفت حوله مراراً من الخوف. أما النبي ﷺ فلم يلتفت ولو لمرة واحدة لينظر إلى سراقة؛ بل كان قلبه مطمئناً وشفتاه مشغولتان بتلاوة القرآن الكريم[2].

ويسود اعتقاد أن حياة النبي ﷺ كانت قد حفظت من المخاطر بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة؛ لكن القضية هي أنه على الرغم من أن الإسلام كان له أعوان وأنصار لا بأس بهم في المدينة؛ لكن كان هناك أيضاً أعداء أخطر من أعداء مكة. ومع أن القرشيين في مكة كانوا أعداء النبي ﷺ؛ إلا أنه كانت تربطهم به صلة قرابة، فكانت تلك الصلة تدفع أحدهم إلى اللين (المواساة). أما المنافقون واليهود في المدينة، فلم يكن هناك ما يحثهم على ذلك، فضلاً عن أنه قد بدأت مؤامرات من اليهود والمنافقين في المدينة ومكة نفس...

---

[1] ابن هشام والطبري.

[2] صحيح البخاري، الهجرة.

لإجلاء النبي ﷺ، [1] لذا كان الصحابة يأتون لحراسة النبي ﷺ ليلاً وفداءه وفي ذات ليلة كان الصحابة يحرسون خيمة رسول الله ونزلت هذه الآية: "والله يعصمك من الناس" (المائدة:٦٧)

فخرج النبي ﷺ من خيمته وقال لأصحابه [2] أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله.

وعند العودة من غزوة نجد رابط النبي ﷺ في مكان كانت تملئه أسراب الشجر. وكان الوقت وقت الظهر؛ لذا كان الصحابة قد ناموا تحت ظل الأشجار. وكان النبي ﷺ أيضاً نائماً بمفرده تحت شجرة، وسيفه معلق في الشجرة. فجاء أعرابي متخفياً، وأخذ سيف رسول الله ثم استله وجاء أمام النبي ﷺ فتيقظ النبي ورأى البدوي وبيده السيف. فقال البدوي من يعصمك مني الآن؟ فأجابه النبي ﷺ بطمأنينة: الله [3].

وذات مرة قُبض على شخص كان يتربص للاعتداء على النبي ﷺ، فأمر النبي بإطلاق سراحه [4] فإنه حتى وإن كان يريد قتله ﷺ فما كان يستطيع، وكأن النبي ﷺ يريد أن يقول: إن هناك من يحفظني. وسأل النبي ﷺ اليهودية التي أعطته سماً في خيبر: ما حملك على ذلك؟ قالت: لقتلك. فقال ﷺ لا مكنك الله منه (من قتلي)[5]. وتجاوز عنها.

حينما خلت ساحة القتال في غزوة أحد وحنين من المسلمين لبعض الوقت كان إيمان وتوكل وطمأنينة رسول الله ﷺ مثالاً معجزاً. وهذا هو الشكل الأول للتوكل والاعتماد على الله. والشكل الثاني ليس أقل تأثيراً من الأول. فقد مر على رسول الله ﷺ مراحل من العسر واليسر، فيوماً يمتلئ صحن المسجد النبوي بالذهب والمال، وتأتي أيام أخرى يربط النبي فيها لمدة يومين أو ثلاثة على بطنه الشريف من شدة الجوع. ومع أنه كان يمكنه ﷺ أن يدخر من ثروة (أموال) الحاضر لمصاريف الغد؛ إلا أنه ﷺ كان يخالف هذا طيلة حياته، فما ادخر ﷺ من فائض يوم ليوم آخر، و كان ينفق ما يتبقى من

---

[1] سيرت النبي، شبلي، جـ١ سلسلة الغزوات.

[2] جامع الترمذي تفسير المائدة.

[3] صحيح البخاري كتاب الجهاد.

[4] مسند ابن حنبل جـ٣ صـ ٤٧١.

[5] صحيح مسلم، باب السم.

المصاريف الضرورية على مستحقيه في المساء. وقد روى عن أنس في الترمذي قولـه: **إن رسول الله ﷺ كان لا يدخر لغد.**

وإن بقي أي شيء في البيت، أو إن كان منسياً تأذى رسول الله ﷺ كثيراً[1]؛ بـل إنه ﷺ لم يكن يعود إلى البيت إلا بعد أن يتيقن أن البيت ليس فيه شيء إلا بركـة الله [2]. ولقد وردت وقائع عديدة من هذا القبيل في باب الجود والسخاء.

وفي حالة النزع التي ينسى فيها الإنسان كل شيء، تذكر رسول الله أنه كان قـد ادخر بعض الدراهم عند السيدة عائشة، وأنها ربما ما تزال عندها. فـرأى النبـي ﷺ أن السهو حتى في هذا الوقت الصعب يخالف حقيقة التوكل على الله؛ لذا قال للسيدة عائشـة: **أيلقى محمد ربه وهو يسئ الظن به، اذهبي فتصدقي بها أولاً**

الصبر والشكر

لا يعقب العسر عسرٌ آخر في هذه الحياة. لكن حقيقة الكمال الروحاني للإنسـان هي ألاّ يكون مختالاً فخوراً عند نجاحه أو حصوله على مقصده من ناحية، ومن ناحيـة أخرى يتقبل مرارة المصائب والآلام بوجه بشوش وصدر رحب ويتأكد أن ما عليه سوى العمل. وأن النجاح والفشل بيد الله تعالى. ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر في هذه الآية المباركة:

" ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كـل مختال فخور" (الحديد:٢٣).

ولقد تحقق للنبي ﷺ في حياته نجاحا لم يتحقق لغيره في الدنيا لكنه على الرغم من ذلك لم يغتر ويتكبر، فقال: **أنا سيد ولد آدم ولا فخر.** يعني مع أنني سيد ولد آدم لكنني لا أفخر بذلك، كان عدي بن حاتم مسيحي الديانة قد سمع عن النبي ﷺ فشك في أنه ﷺ ملك أم نبي؟ وحينما جاء مع وفد قبيلته إلى النبي ﷺ. جاءت في الوقت نفسه امـرأة مسـكينة لحاجة لها. فجاءت مجلس النبي وطلبت من النبي ﷺ أن ينهض قليلاً ويستمع لها، فنهض

---

[1] صحيح البخاري،باب من صلى بالناس فذكر حاجة فتخطاهم . ومسند أحمد جـ٦ صـ٢٩٣.

[2] أبو داود باب قبول هدايا المشركين.

النبي على الفور فظل واقفاً في جانب معها حتى انصرفت المرأة من تلقاء نفسها. يقول عدي: حينما رأيت تواضع وحلم النبي ﷺ أيقنت أنه نبي وليس ملكاً [١].

ويدخل المنتصرون البلاد المفتوحة رافعي رأسهم بفخر وغرور، أما فاتح مكة وخيبر قد دخلها وهو مطأطأ الرأس تواضعاً لله. روى ابن إسحاق أن النبي ﷺ حينما وصل ذي الطوى يوم فتح مكة وقف على راحلته حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح (يقول: **إن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي الطوى وقف على راحلته ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل**[٢] .

كان النبي ﷺ دائم العبادة والتسبيح فقال له أصحابه يا رسول الله لماذا تشق على نفسك وقد غفر الله لك. فقال ﷺ: **أفلا أكون عبداً شكوراً** [٣].

يعني لو كانت هذه العبادة وهذا التسبيح والحمد قبل ذلك للحصول على هذه الدرجة. فهي الآن شكر واعتراف بالنعمة والإحسان. وينسب عظماء الدنيا الذين لم يعط لهم أي قدر من الروحانية كل نجاحهم ومكاسبهم إلى قوة ساعدهم وحسن تدبيرهم وعظمتهم. لكن هذا الاعتقاد يساوي الكفر والشرك عند أولياء الله. حيث تتراءى لهم يد القادر عز وجل تقوم بشكل غير مرئي داخل كل نجاح وفلاح. ورد في الحديث [٤]: **أنه كان إذ جاءه أمر سرور أو يسر يخر ساجداً شاكراً الله تعالى.**

حين جاء النبي ﷺ خبر إسلام قبيلة همدان فخر ساجداً لله [٥]،كما خر لله ساجداً حين بُشر بأمر[٦] وحينما علم عن طريق الوحي أن الله سيصلي على من سيصلي عليه خر لله شاكراً على هذه المكانة [٧].

يقول سعد ﷺ كنا نرتحل مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. وحينما وصلنا "زوعرا " نزلنا من على رحالنا. ورفعنا أيدينا تضرعاً إلى الله ثم سجدنا قليلاً. ثم قمنا

---

[١] سيرة ابن هشام ص ٣٥ ج ٢.

[٢] سيرة ابن هشام ذكر فتح مكة.

[٣] صحيح البخاري قيام الليل.

[٤] أبو داود كتاب الجهاد، باب في سجود الشكر.

[٥] زاد المعاد نقلاً عن البيهقي بسند على شرط البخاري جـ١ ص١٩٧.

[٦] المرجع السابق.

[٧] مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف.

ودعونا خاشعين. وبعد ذلك سجد النبي ﷺ وبعد ما فرغ من دعاء السجود أخبر ﷺ بأنه كن يدعوا الله تعالى بأن يغفر لأمته ﷺ فاستجاب الله بعض دعائه. فسجدَ شاكراً لله تعالى ثم دعاه سبحانه وتعالى ثانية فاستجاب الله تعالى، فسجد ﷺ شاكراً ثم دعاه ﷺ فاستجاب الله تعالى فخر ﷺ ساجداً [١] وقد أبرز الله تعالى في سورة الضحى وصف النبي هذا فقال:" والضحى۞ والليل إذا سجى۞ ما ودعك ربك وما قلى۞ وللآخرة خير لك من الأولى۞ ولسوف يعطيك ربكُ فترضى۞ أ لم يجدك يتيماً فآوى۞ ووجدك ضالاً فهدى۞ ووجدك عائلاً فأغنى۞ فأما اليتيم فلا تقهر۞ وأما السائل فلا تنهر۞وأما بنعمة ربك فحدث۞". (الضحى:١-٦).

وكل حرف من حروف سيرته ﷺ تدل على أنه ﷺ ظل طوال حياته يمتثل لهذا الأمر الإلهي.

يخالف مفهوم الصبر مفهوم الشكر تماماً. إلا أن هذين المفهومين المتضادان اجتمعا في ذات النبي ﷺ. وذلك ما أظهره النبي ﷺ بطريقة عملية، ففي الحديث الشريف أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن أكثر الناس ابتلاءً؟ فأخبر ﷺ: الأنبياء. ثم ذكر أن الله تعالى يبتلي الناس على اختلاف درجاتهم [٢]. وتصدق الأحداث هذه الرواية. فلأن النبي كان إمام الأنبياء؛ لذا كان أكثرهم ابتلاء. لهذا السبب أُمر في القرآن مرات عديدة بالتمسك بالصبر فيقول الله تعالى في سورة الأحقاف: "واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل." (الأحقاف: ٣٥)

وقد توفى والد الحبيب محمد ﷺ قبل أن يولد، وماتت أمه وهو في طفولته، ثم بعد ذلك بسنتين مات جده الذي كانت تمثل رعايته دواء الجرح لليتيم. ثم مات أبو طالب الذي كان يزود عنه ظلم قريش. كما خطف الموت منه في نفس الوقت السيدة خديجة التي كانت أنيسه وسنيده الوحيد في الكرب. ومعلوم أن الإنسان يحب أكثر ما يحب بعد والديه وزوجته يحب أولاده، لذا لا يندمل جرح فراقهم مدى الحياة. وعلى حسب اختلاف الروايات كان للنبي ﷺ على الأقل ولدان وعلى الأكثر ثمانية. أربع بنات. متن جميعاً عدا واحدة (هي السيدة فاطمة) في سن مبكر أمام عين النبي ﷺ. وإن كانت أعين النبي ﷺ قد

---

[١] أبو داود كتاب السجود.

[٢] سنن ابن ماجة باب الصبر على البلاء.

بكت من هذه الخطوب إلا أن لسانه وقلبه كانا دائماً شاكرين راضيين. فما خرجت مرة من فمه الشريف كلمة يشتكي بها قضاء الله.

في سنة ٨ هـ توفيت أكبر بناته السيدة زينب وأشرف النبي ﷺ بنفسه على تجهيزها وتكفينها، ومع أن دموعه كانت تسيل حين وُضعت الجنازة أمام القبر إلا أنه لم يخرج من لسانه الشريف لفظاً واحدا. وكان زيد (خادمه الخاص) وجعفر (ابن عمه) من أقرب المقربين إليه ﷺ ومع أنه بكى حينما سمع خبر شهادتهما في غزوة مؤتة إلا أنه في الوقت نفسه أرسل إلى بيت جعفر حين سمع صوت نواح هناك فمنعهم من ذلك. وأيضاً كان أحد أسباطه المقربين إليه يحتضر، فأرسلت أمه إلى أبيها ﷺ الخبر. فأرسل النبي ﷺ لها في الجواب بعد السلام **إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب**. فألحت ابنته ﷺ ثانية في طلبه. فحضر رسول الله ﷺ مع نفر من أصحابه، وكان الطفل ملق في حجر أمه يلتقط أنفاسه الأخيرة. فلما رآه النبي ﷺ سالت الدموع من عينيه. فقال له صحابي: ما هذا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: **"هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"**.

ذهب ﷺ ذات مرة لعيادة سعد بن عبادة ﷺ وحين رأى حالته قال ﷺ **" قد قضى؟** قالوا: لا يا رسولَ اللّهِ. فبكىٰ النبيُّ صلى الله عليه وسلم. **فلما رأى القومُ بكاءَ النبيِّ** صلى الله عليه وسلم بَكَوْا. فقال ألا تَسمعونَ؟ إنّ اللّهَ لا يُعذِّبُ بدَمعِ العَينِ ولا بحزْنِ القلبِ، ولكنْ يعذِّب بهذا ـــ وأشارَ إلى لسانه ـــ أو يَرحَمُ"[1].

حينما كان ﷺ يبكي وقت وفاة ولده إبراهيم قال له عبد الرحمن بن عوف: ما هذا يا رسول الله؟. فقال: هذه الرحمة والشفقة. فطلب منه عبد الرحمن أن يكف عن البكاء[2].

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض: (١٢٨١) ـــ حدثنا أصبغُ عنِ ابنِ وَهبٍ قال أخبرَني عمرٌو عن سعيدِ بنِ الحارثِ الأنصاريِّ عن عبدِ اللّهِ بنِ عُمَر رضيَ اللّهُ عنهما قال «اشتكىٰ سعدُ بنُ عُبادةَ شَكوىٰ لهُ، فأتاهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَعودُهُ معَ عبدِ الرحمن بنِ عوفٍ وسَعدِ بنِ أبي وَقّاصٍ وعبدِ اللّهِ بنِ مَسعودٍ رضيَ اللّهُ عنهم، فلما دَخلَ عليهِ فوجدَهُ في غاشيةِ أهلهِ فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسولَ اللّهِ. فبكىٰ النبيُّ صلى الله عليه وسلم. فلما رأى القومُ بكاءَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بَكَوْا. فقال ألا تَسمعونَ؟ إنّ اللّهَ لا يُعذِّبُ بدَمعِ العَينِ ولا بحزْنِ القلبِ، ولكنْ يعذِّب بهذا ـــ وأشارَ إلى لسانهِ ـــ أو يَرحَمُ. وإنَّ الميْتَ يُعذَّبُ ببكاءِ أهلهِ عليه».
وكان عمرُ رضيَ اللّهُ عنه يَضرِبُ فيه بالعصا، ويَرمي بالحِجارةِ، ويَحثي بالتّرابِ. (المترجم).

[2] انظر هذه الوقائع كلها في صحيح البخاري، كتاب الجنائز.

فقال ﷺ: **إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.**

على أي حال إن النوازل تنزل، ويظل أثرها على الإنسان حتى وقت معين ثم تزول، لكن تحمل المصائب والخطوب المتتالية بصبر كامل، فهو أمر صعب للغاية. ولسنا في حاجة لأن نذكر ثانية إجابة كفار الطائف ومكة للنبي ﷺ قبل الهجرة وحتى ثلاث عشرة سنة. ولا التحقير والاستهزاء والسب والشتم والإيذاء الذي لحق بالنبي ﷺ منهم في سبيل دعوته. ولسنا في حاجة لأن نكرر ذكر المعارك الدامية التي واجهها النبي ﷺ في المدينة المنورة لمدة ثمان أو تسع سنين، ومؤامرات الأعداء لإجلائه عن وطنه وقتله وإيذاءه فبأي سلاح غير الصبر رد النبي ﷺ وابل كل هذه السهام؟ وخاصة إذا كان تثبيط العزيمة والتكليف علامة لسهم يطلق بأيدي الأصدقاء لا الأعداء. فقد حدث ذلك مرتين مع رسول الله. حيث اعترض عليه بعض الشبان العجالى في فعل كان باطنه حكمة. ولكن زمام الصبر لم يفلت أيضاً من يد النبي ﷺ فقد ورد في صحيح البخاري أن نفراً من الأنصار اعترضوا على تقسيم غنائم حنين وقالوا أن رسول الله ﷺ أعطى الآخرين ومنعنا. فلما سمع النبي ﷺ بذلك قال: **رحمة الله على موسى فقد أوذي أكثر من ذلك فصبر (باب غزوة حنين).**

أخلاق النبي ﷺ

" وإنك لعلى خلق عظيم " (القلم:٤)

هذه المرحلة من حياة النبي ﷺ تبدو فيها حياته ﷺ بوضوح أفضل من بقية الأنبياء والصالحين -وشهادة الحياة التاريخية جانباً لذلك- ولو طُرح هذا السؤال: ماذا كان النموذج العملي للمصلحين؟ ستعجز الدنيا عن الإجابة عن هذا السؤال. فكوتم بوذا[١] والسيد المسيح يعتبران أكبر مصلحي العالم كله. لكن من يستطيع أن يقول ماذا كان كوتم بوذا أكبر مصلحي الهند من الناحية العملية؟ وكان معلم الأخلاق الحميدة في جبل الزيتون (المسيح) يعلم الناس الأخلاق. لكن هل تبدو لكم حادثة واحدة من حياته تؤيد أقواله المأثورة؟ أما معلم مكة ﷺ كان يقول: "لم تقولون مالا تفعلون".(الصف:٢)

فقد كان النبي ﷺ نفسه نموذجاً لتعاليمه. ما يقوله على الملأ يفعله في الخلوة، وكان هو نفسه نموذجاً حياً للأخلاق التي كان يعلمها الناس. ومن يعرف أخلاق الإنسان أكثر من زوجه؟ جاء بعض الصحابة إلى السيدة عائشة وسألوها عن أخلاق النبي ﷺ فقالت أما تقرأون القرآن. أن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن[٢].

إن الكتب السماوية الموجودة هي عبارة منتقاة لأقوال أصحابها. لكن هل أوضح حرف واحد من هذه الكتب عمل مبلغيها؟ أما القرآن الكريم فكان في حق مبلغه ﷺ رغم كثرة المخالفين والمعاندين فقال "إنك لعلى خلق عظيم.(القلم:٤)

واليوم بعد ألف وثلاث مائة سنة[٣] يقول المعترضون: إن النبي ﷺ كان قاسي القلب. وطالما أن النبي ﷺ كان هكذا فما هي تلك الشهادة التي أدلى بها القرآن الكريم في حقه في مجمع الأعداء أنفسهم فقال:

" فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك". (آل عمران:١٥٩)

---

[١] مؤسس الديانة البوذية.

[٢] أبو داود، باب في الصلاة.

[٣] ألف هذا الجزء في سنة ١٣٣٩ هـ.(المترجم).

ويقول في موضع آخر: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم" (التوبة:١٢٨)

والغلطة التي ارتكبت في شأن الأخلاق هي اعتبار الرحمة والرأفة والتواضع فقط مظهراً للأخلاق النبوية مع أن الأخلاق شيء يبرز كل مناحي الحياة وفي كل جوانب الأمور، وتتسع دائرة الأخلاق لتشمل الصديق والعدو والقريب والغريب والصغير والكبير والمفلس والأمير والسلم والحرب والخلوة والجلوة، أي أنها تتسع لكل مكان وإنسان. ومن هذه الزاوية يجب إلقاء الضوء على أخلاق النبي ﷺ:

الوصف التفصيلي لأخلاق النبي ﷺ

قبل كتابة الوقائع التفصيلية والجزئية لأخلاق النبي ﷺ المباركة نذكر شهادات أولئك الصحابة الذين أمضوا أعواماً وسنين في خدمة النبي ومن هم على دراية دقيقة بأخلاق وعادات النبي ﷺ. ومن يقف على أمور الإنسان في الدنيا أكثر من زوجته؟ فقد لازمت السيدة خديجة رضي الله عنها النبي ﷺ طيلة خمسة وعشرين عاماً قبل وبعد البعثة. فكانت تواسيه في بداية نزول الوحي وتقول له: والله لن يخذلك الله أبداً. فإنك لتصل الرحم. وتساعد المديون، وتعين الفقير وتكرم الضيف وتحمي الحق وتواس الناس عند النوازل [١].

ولم يبين أحد من أمهات المؤمنين صفات النبي بالتفصيل أكثر من السيدة عائشة تقول: لم تكن عادة النبي ﷺ الإساءة إلى أحد، فكان لا يجازي بالسوء سوءا بل كان يعفو ويصفح[٢] وإذا خير بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يفض إلى آثم، وإلا ابتعد عنه. وما انتقم النبي ﷺ من أحد في أمر خاص. أما من يعص الله فكان ينتقم لله منه[٣] (أي أنه ﷺ كان يجري عليه الحد طبقاً لشرع الله). وما لعن رسول الله ﷺ مسلما، ولا ضرب بيده عبدا ولا أمة ولا امرأة ولا حيوانا قط[٤]. وما رد التماس أحد إذا كان مُحللا [٥]. وحينما

---

[١] صحيح البخاري، باب بدء الوحي.

[٢] جامع الترمذي وشمائل الترمذي.

[٣] صحيح البخاري ومسلم وأبو داود، كتاب الأدب.

[٤] ورد هذا تفصيلاً في صحيح البخاري وأبي داود وغيرهما . ورويت الأحاديث بروايات مختلفة عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

[٥] الحاكم بسند متصل وذكرت بعض أجزاء في صحيح مسلم أيضا.

كان يدخل بيته يدخل مبتسماً طلق الوجه. ولم يكن يجلس بين أصحابه ماداً قدميه [١] وكان يسكت بين الكلام وكأنه يريد أن يتذكر شيئاً [٢].

كان سيدنا محمد ﷺ قد ربى علي‌ؓ، حيث أنه ظل في خدمة النبي ﷺ منذ البعثة حتى الوفاة لمدة ٢٣ عاماً ذات مرة سأله الإمام الحسين عن عادات وأخلاق النبي ﷺ. فقال عليؓ كان بشوش الوجه رؤفا رحيما فما كان قاسياً جافاً، وكان سمحاً في حديثه، لم يخرج من فمه أي كلمة خبيثة، ولم يكن فاضحاً وإذا أمل فيه أحد لا يخذله، وإذا لم يقبل لا ينكر صراحة بل يظل صامتاً. وكان الواقفون به ﷺ يفهمون مطلبه من نظراته. حرم على نفسه ثلاثة أشياء الجدل وكثرة الكلام ولغو الحديث. وفيما يتعلق بالآخرين كان يبتعد عن ثلاثة أمور أيضا. سب أي أحد، العيب على أحد والتدخل في الأمور الشخصية وكان لا يتكلم إلا فيما يفيد. وحينما كان يتكلم يسكت الصحابة ويحنون رؤوسهم وكأن عليها الطير. وحينما يصمت يتكلم الصحابة. ويُظل رسول الله صامتاً لا يتكلم إلا حين ينته المتحدث من حديثه. وكان يبتسم أيضاً من الأمور التي كان الناس يضحكون عليها. ويتعجب مما يتعجب من الناس. ولو تحدث أجنبي بأسلوب فظ تحمله وكان لا يحب سماع مدحه من الآخرين. أما إذا شكره أحد على إحسانه قبل، ولا يقطع حديث المتكلم إلا إذا صمت بنفسه[٣]. وكان غاية في السخاء واللين وحسن الصحبة. لو رآه أحد فجأة فزع منه لكنه يألفه ويحبه بعد أن يعرفه [٤].

يقول هند بن أبي هالة الذي كان قد تربى في كنف النبي ﷺ[٥]: كان النبي ﷺ لين الطبع. ولم يكن قاسياً، ولم يحتقر أحداً. وكان يؤدي الشكر على أي أمر حتى ولو كان صغيراً، ولم يكن يعيب شيئاً، ويتناول من أي طعام يقدم له دون أن يعيبه. ويغضب إذا خالف أحد الحق ويحميه. لكنه لم يكن يغضب فيما يتعلق بأموره الخاصة وما انتقم من أحد .

---

[١] ابن سعد.

[٢] صحيح البخاري ومسلم وأبو داود.

[٣] ورد هذا تفصيلاً ذلك في شمائل الترمذي في بيان الأخلاق.

[٤] هذه الفقرة مأخوذة من شمائل الترمذي من بيان الحلية المباركة.

[٥] شمائل الترمذي.

مداومة العمل

أول وأهم جانب للأخلاق هو أن يقوم الإنسان بالعمل الذي ينتجه بشغف حتى يصبح هذا العمل وكأنه عادة له. فكل المخلوقات في الدنيا عدا الإنسان لا تستطيع إلا القيام بعمل واحد فتكون مجبورة بطبيعتها على القيام به. فالشمس تضيء فقط فلا يمكن أن تظلم. والليل ينشر الظلام فلا يمكن أن يكون سبباً للنور. والأشجار تثمر في فصولها والزهور تتفتح أيام الربيع. وكل نوع من الحيوانات لا يستطيع أن يتجاوز خصاله. أما الإنسان فقد خلقه الله مختاراً، فهو الشمس وهو ظلمة الليل، تثمر شجرته في كل الفصول. وليست زهور أخلاقه رهناً لفصل الربيع. فهو ليس مجبوراً على فعل شيء بعينه كالحيوانات إذا أنه مخير. وهذا الاختيار يثبت كونه مكلفاً مسئولاً. لكن الجانب الدقيق للأخلاق هو أن يلتزم الإنسان بشدة بالجانب الأخلاقي الذي ينتقيه لنفسه. وأن يقوم عليه بثبات ودوام وكأنه مجبور عليه رغم اختياره. حتى يتيقن الناس حينما يرونه أنه لا يستطيع أن يصنع أو يقوم بأي عمل آخر. فيقوم بعمله كما تصدر الشمس الضوء والشجر الثمر والزهور الرائحة الزكية، فلا يمكن لهذه الأفعال أن تصدر من غير مسببها. وهذا الشيء يسمى استقامة الحال ودوام العمل.

وكان النبي ﷺ يلتزم بهذه الأصول في كل أعماله، فكان يحافظ على إتمام العمل الذي بدأه في وقته وبطريقته. ومن هذا وجُد لفظ السنة في ديننا، فالسنة هي الفعل الذي حافظ النبي ﷺ على فعله ولم يتركه إلا لمانع قوي، وعلى هذا فكل السنن هي في الحقيقة أمثلة مؤكدة لاستقامة حال ودوام عمل النبي ﷺ. وقد مر ذكر عباداته وعلمنا منها أن كل أخلاق وأفعال النبي ﷺ كانت مُتقنة محكمة لم يتخللها أي فرق قط طيلة الحياة: ذات مرة سأل شخص السيدة عائشة عن عبادات وأعمال النبي ﷺ فقال: **هل كان النبي يفعل هذا يوم كذا؟** فقالت السيدة عائشة: **لا كان عمله ديمة**" أي كان يحافظ على ما كان يختاره من الأعمال ثم قالت **وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع** [1]. وفي رواية أخرى **وكان إذا عمل عملاً ثبته** [2] ولذا قال النبي ﷺ: "**إن أحب العمل إلى الله أدومه**" [3].

---

[1] صحيح البخاري كتاب الرقاق.

[2] أبو داود، آخر كتاب الصلاة، وصحيح البخاري كتاب الأدب.

[3] المرجع السابق.

كان رسول الله ﷺ يقوم ليلاً يعبد الله. تقول السيدة عائشة ما ترك رسـول الله ﷺ قيام الليل أبداً، وإن تعب صلى جالساً [1].

يقول الصحابي جرير بن عبد الله ﷺ الذي كان إذا رآه الرسول ﷺ ابتسم من شدة حبه له: لم يحدث أن ذهب لرسول الله ﷺ ولم يبتسم له ﷺ [2]

ولم يكن الرسول يتخلف عن الوقت الذي حدده للقيام بعمل ما. فلم يحدث أي خلل في أوقات تسبيحه وتهليله ولا في عدد النوافل ولا في وقت النوم واليقظة، ولا في أسلوب لقاءه بالناس، حتى صار هذا منهجاً لحياة المسلمين الآن.

حسن الخلق

قضى علي والسيدة عائشة وأنس وهند بن أبي هالة وغيرهم مدة في خدمة النبـي ﷺ. ولقد اتفقوا جميعاً على أن النبي ﷺ كان رحيما، حسن الخلق، حسن السـيرة. وكـان وجهه بساماً يتحدث بوقار وهيبة ولا يغضب أحدا[3].

كانت عادة النبي ﷺ أن يقوم هو أولاً بالسلام أو بالمصافحة عند لقاءه بأحد. وإذا انحنى شخص ليسر له ببعض الحديث لا يلتفت عنه حتى يستوي الشخص نفسه. وهـذه أيضاً كانت عادته في المصافحة أي لا يترك يد المصافح حتى ينزعها بنفسه. وإذا جلـس في مجلس لا يجعل ركبته أعلى من الجالسين معه. وكثيراً ما كان الخدم والعبيد يـأتون بماء للنبي ﷺ حتى يضع فيه يده تبركاً. ويكون الجو بارداً أو مبكراً ولكنه ﷺ رغم ذلك لم يكن ينكر إطلاقا [4].

ذات مرة ذهب النبي لزيارة سعد بن عبادة. وعند عودته اصطحب معه قيس بـن سعد يركب معه. فأمره النبي ﷺ بالركوب معه على راحلته. فتردد قيس في فعـل ذلـك تأدباً. فأمره الحبيب ﷺ بأن يركب أو يعود [5].

---

[1] أبو داود، قيام الليل.

[2] صحيح مسلم، مناقب جرير بن عبد الله.

[3] أبو داود والترمذي.

[4] صحيح مسلم باب في قرب النبيَ ﷺ من الناس.

[5] أبو داود كتاب الأدب.

وذات مرة جاءه وفد من قبل النجاشي. فاستضافه النبي ﷺ. وقام على ضيافته بنفسه فقال الصحابة سنقوم نحن بذلك يا رسول الله. فأخبر النبي ﷺ بأن هؤلاء الناس قد أكرموا أصحابه؛ لذا أراد أن يقوم على خدمتهم بنفسه [1].

كان نظر عتبان بن مالك أحد أصحاب بدر قد ضعف. لذا ذهب للنبي ﷺ وقال له: يا رسول الله كنت أصلي في المسجد المجاور لبيتي. لكن حينما يهطل المطر يتعذر على الذهاب للمسجد، لذا استأذنك أن تأتي إلى بيتي وتصلي فيه حتى اتخذ من مكان سجودك مصلى. فذهب النبي ﷺ إلى بيته برفقة أبي بكر في صباح اليوم الثاني. ووقفا على الباب فإذن لهما فدخلا. ثم سأل النبي ﷺ عن المكان الذي سيصلي فيه؟ فخبره عتبان. فنوى النبي ﷺ وصلى ركعتين وبعد أن فرغ أصر الناس عليه ليأكل معهم. فقدموا له "خزيرة" وهي عبارة عن لحم مفروم مطهى مع الدقيق. واشترك في الطعام كل أهل الحي. فقال أحد الحضور: ما لي لا أرى مالك بن وحنش؟ فأجابه آخر: إنه منافق. فأمره النبي ﷺ بألاّ يقل هذا لأن هذا الرجل يشهد أن لا إله إلا الله. قال الناس: نعم ولكنه يميل للمنافقين. فأخبر النبي ﷺ أن الله يحرم النار على عبد يشهد أن لا إله إلا الله يبغى بها وجهه [2].

وبعد الهجرة ظل رسول الله ﷺ وكل المهاجرين ضيوفاً في بيوت الأنصار. فكانت تنزل الجماعة عشرة أفراد ضيفاً على أي أحد.

يقول المقداد بن الأسود ﷺ كنت في الجماعة التي كان فيها رسول الله ﷺ. وكان في البيت بعض الأغنام كنا نعيش على ألبانها. يحلب اللبن فيأخذ كل منا نصيبه ويشربه. ونترك كوباً لرسول الله ﷺ وذات ليلة جاء ﷺ متأخراً بعد أن شرب الجميع اللبن وناموا. فوجد النبي ﷺ كوبه فارغاً. فسكت ثم قال: اللهم أطعم من تطعمه. فهم المقداد بذبح شاه وطهى لحمها. لكن النبي منعه. وحلب الشاة ثانية وشرب ما نزل منها ثم نام [3]. ولم يلم أحد على هذا الصنيع. كان لأبي شعيب الأنصاري عبد يملك دكاناً في السوق لبيع اللحوم. فذهب أبو شعيب للنبي. وكان الصحابة جالسين عنده وعلى وجوههم أثر الجوع، فذهب أبو شعيب إلى عبده وقال له أعدّ طعاماً لخمسة أشخاص. وحين أعد الطعام طلب من الرسول أن يأتي برفقة صحابته الأربعة. وفي الطريق اصطحبهم شخص آخر فأخبر

---

[1] شرح الشفاء لقاضي عياض نقلاً عن الدلائل للبيهقي جزء الأخلاق.

[2] البخاري جـ١ ص ٦١ كتاب الصلاة.

[3] مسند ابن حنبل جـ ٦ ص ٤.

رسول الله ﷺ أبا شعيب بأن رجلا آخر اصطحبهم هذا دون إذنه (أبي شعيب) وخيره في أن يأذن له أم لا. فقال أبو شعيب بل اصطحبه أيضاً معك يا رسول الله [١].

في ذات مرة كان رسول الله ﷺ راكباً على راحلته ويمر من مضيق جبل وكان معه عقبة بن عامر أحد أصحابه، فقال له النبي ﷺ : تعال واركب. فرأى عقبة أنه لا يليق أن يركب ويمشي رسول الله. لكن النبي ﷺ كرر القول له. فكان الرفض في هذا الوقت يعتبر مخالفة لأمر النبي؛ لذا ركب عقبة بعد ما نزل الرسول ﷺ[٢].

وكان النبي ﷺ يتحمل إساءة الناس في المحافل، ولا يظهر لأحد. فحينما عقد النبي ﷺ على السيدة زينب ظل بعض الناس جالسين بعد أكل الوليمة. ولم يكن حين ذاك قد نزل الأمر بالحجاب. لذا كانت السيدة زينب هي الأخرى جالسة معهم. وكان النبي ﷺ يريد أن ينصرف الناس لكنه لم يصرح بشيء ولم يفهم الناس ذلك. فنهض ﷺ وذهب إلى حجرة السيدة عائشة. وبعد ما عاد ووجد الجمع كما تركه. فعاد ثانية فنزلت آية الحجاب بهذه المناسبة[٣].

وبينما كان ﷺ عائداً من غزوة حنين حان وقت الصلاة في الطريق، فتوقف كعادته وأذن المؤذن. وحين ذاك كان أبو محذورة الذي لم يكن قد أسلم في ذاك الوقت يتجول مع بعض أصدقاءه. فلما سمعوا الأذان بدءوا يقلدونه على سبيل الاستهزاء. فاستدعاهم النبي ﷺ وسمع أذان كل واحد منهم. ولأن أبا محذورة كان حسن الصوت لذا أعجب النبي بصوته. ثم أجلسه أمامه ووضع يده الشريفة على رأسه ثم مسح عليها ودعا له بالبركة ثم علمه النبي ﷺ الأذان وأمره بالذهاب إلى الحرم والآذان فيه بهذه الطريقة[٤].

يقول أحد الصحابة كنت في صباي أمشي في مزارع نخيل الأنصار فأرمي النخيل بالحجارة وأسقط التمر. فجاء بي الناس إلى رسول الله ﷺ وقال: يا غلام، لمَ ترمي النخل؟ فقلت: لأكل التمر يا رسول الله. فقال النبي: فلا ترم النخل وكل مما يسقط في أسفلها. وبعدها مسح بيده على رأسي ودعا لي[٥].

---

[١] البخاري ٨٢١، ص.

[٢] النسائي صـ٨٠٣

[٣] البخاري صـ٩٢٢ باب الحجاب.

[٤] الدارقطني طبعة دهلي جـ١ ص٨٦ كتاب الصلاة.

[٥] أبو داود كتاب الجهاد.

كان عباد بن شرحبيل أحد سكان المدنية قد تسلل داخل حديقة في وقت ألـــم فيـــه القحط فقطع بعض الفواكه وأكل جزءاً منها ثم وضع الباقي في جيبه. فلمّا علم صـــاحب الحديقة بذلك جاءه وضربه ثم أخلعه ثيابه؛ فجاء هذا يشتكي لرسول الله ﷺ ومعه المدعى عليه، فنظر إليه الرسول ﷺ وأخبره بأن هذا جاهل وكان عليه أن يعلمه. وكان جائعاً فكان عليه أن يطعمه، ثم أمره أن يعيد إليه ملابسه. وبعد ذلك أعطاه ستين صاعاً من الحبـــوب التي كانت عنده [١].

كان اليهود معتادين على أن يخرجوا نساءهم من بيوتهم طوال مدة الحـــيض ولا يأكلوا ولا يشربوا معهم. فلما قدم النبي ﷺ سأله الأنصار عن هذا. وكانت الآية الكريمة: "فاعتزلوا النساء في المحيض" (البقرة:٢٢٢) قد نزلت، لذا أعلن رســـول الله ﷺ أن كـــل شيء جائز عدا الجماع. فلما سمع اليهود وبما قاله النبي ﷺ قالوا: ما لهذا الرجل يخالفنـــا في كل الأمور. فجاءة صحابيان وقالوا له: طالما أن اليهود تقول هذا فلـــم لا نجـــامعهن أيضاً. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتيه. وانصرف الرجلان فأرسل النبـــي ﷺ إليهما بعض الطعام. فاطمئنا إلى أن الرسول لم يغضب [٢].

وكان النبي إذا أغضبه شيء من أحد لا يصرح له به. ففي ذات مرة جاءه رجـــل واضعاً كعادة العرب زعفران. فلم يقل النبي ﷺ له شيئا. وحينما انصرف أمر ﷺ النـــاس أن يقولوا له اغسل هذا اللون [٣].

ذات مرة طلب رجل مقابلة النبي ﷺ فأذن الرسول ﷺ بدخوله. ولـــم يكـــن هـــذا الرجل من أشراف قبيلته. لكن حينما جاء النبي ﷺ تكلم معه بلين. فتعجبت من ذلك السيدة عائشة، وسألت النبي ﷺ قائلة: كنت تعتقد أنه ليس طيباً لكنك بالرغم من ذلك خاطبته بلين ولطف. فأخبرها النبي ﷺ بأن أسوء شخص عند الله من ينصرف الناس عنه لسوء حديثه [٤]. اتضح من الأحداث سالفة الذكر مدى كراهية وعداء اليهود للإسلام. لكن على الرغم من ذلك كان النبي ﷺ يتعامل معهم بلين ورفق دائما ويبيع لهم ويبتاع منهم. وفـــي أشـــد

---

[١] أيضاً.

[٢] أبو داود مؤاكلة الحائض.

[٣] أبو داود جـــ٢ كتاب الأدب.

[٤] صحيح البخاري وأبي داود جـــ٢ كتاب الأدب باب حسن العشرة باب الرجل.

حالات الغضب لم يقل سوى "ترتب ناصيته" [١]. يقول سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري كان بالمدينة يهودي كنت اقترض منه. وذات سنة تصادف أن النخل لم يثمر. ولم أستطع سداد الدين. ومر عليه عام كامل، وحينما جاء الربيع بدأ اليهودي يطالب بقرضـــه، ولـــم يثمر النخيل وقتها أيضاً بما فيه الكفاية فطلبت منه مهلة عام آخر. فرفض. فذهبت لرسول الله ﷺ وحكيت له ما حدث. فذهب رسول الله ﷺ مع بعض صحابته إلى بيـــت اليهـــودي وحاول إقناعه أن يمهلني لكنه قال يا أبا القاسم لن أمهله. فذهب ﷺ إلى حديقـــة النخيـــل وطاف بها مرة ثم عاد لليهودي وتكلم معه لكنه لم يوافق. وفي النهاية طلب مني رســـول الله أن أفرش مسقفاً على الدكة فاستراح ﷺ ونام عليه، وحينما تـــيقظ طلـــب ثانيـــة مـــن اليهودي أن يمهلني لكنه رفض. فذهب رسول الله ﷺ ووقف بين النخيل وقال لجابر أبـــدأ جمع التمور. فببركة النبي ﷺ كثرت التمور حتى فاضت عن دين اليهودي [٢].

لم يكن بالمجلس النبوي مكان كبير. لذا كان من يأتي أولاً يجلس وإن جاء أحـــد بعد ذلك ولم يكن هناك مكان فكان النبي ﷺ يفرش له رداءه الشريف. في ذات مرة كـــان ﷺ جالساً في جعرانة وكان يقسم اللحم على الناس بنفسه. فجاءت في تلك الأثنـــاء امـــرأة وذهبت صوب النبي ﷺ، فلما رآها النبي ﷺ فرش بردته الشريفة تعظيماً لها. يقول الراوي سألت عن تلك المرأة؟ فقال الناس أنها كانت مرضعة النبي ﷺ [٣].

كان النبي ﷺ جالساً ذات مرة وجاء والده من الرضاعة ففرش له النبي ﷺ طرفـــاً من عباءته ثم جاءت أمه من الرضاعة ففرش لها الطرف الآخر. ثم جـــاء أخـــوة فـــي الرضاعة فنهض النبي وأجلسه أمامه [٤].

أرسل النبي ﷺ إلى سيدنا أبي ذر الغفاري الصحابي الشهير فلم يجده بالبيت، وبعد قليل جاء أبو ذر والنبي متكأ فلما رآه النبي ﷺ نهض وعانقه [٥]. وحينما عاد سيدنا جعفر من الحبشة عانقه رسول الله أيضاً وقبل جبهته [٦]. وكان ﷺ يبدأ بالسلام. وكـــان يفشـــي السلام على من يقابله في الطريق سواء أكان رجل أم امرأة أم طفل. في ذات مرة كل ﷺ

---

[١] أدب المفرد الإمام البخاري.

[٢] البخاري ص ٨١٨ باب الرطب والتمر.

[٣] أبو داود كتاب الأدب.

[٤] أيضاً باب بر الوالدين.

[٥] أبو داود كتاب الأدب باب المعانقة.

[٦] المرجع السابق.

يمر بطريق وكان المسلمون والكفار جالسين سوياً عليه فسلم (ألقى السلام) النبي ﷺ على الجميع [١].

وإن غضب ﷺ من فعل أحد لا يجهر باسمه في المجلس (الملأ) بل كان يتكلم بصيغة العموم فيقول: يفعل الناس كذا، ويقول الناس كذا أو اعتاد بعض الناس على كذا. أي أنه كان يتكلم بصيغة الإيهام حتى لا يفصح الشخص بعينه ولا يحرج إحساسه.

حسن المعاملة

مع أن النبي ﷺ غالباً ما كان يعيش مديوناً بسبب جوده اللامتناهي. لدرجة أن درعه ظل مرهوناً حتى الوفاة عند يهودي مقابل بعض الصياع من الحبوب. لكنه مع ذلك ظل محافظاً في كل حال على حسن المعاملة. في المدينة كان اليهود عامة ينعمون بالثراء فكان كثيراً ما يقترض منهم. واليهود كما هو معروف مشهورون بالخسة والدناءة لكن النبي ﷺ كان يتحمل سوء أخلاقهم.

اعترف أولئك الناس الذين كانت لهم مع النبي ﷺ علاقات تجارية قبل البعثة،بأمانته ﷺ وحسن معاملتهﷺ . ومن ثم كانت قريش كلها قد لقبته بالصادق الأمين. ومع أن قريش كانت قد امتلأت بعد النبوة حقداً وبغضاً على النبي ﷺ. لكن كان بيت النبي أأمن مكان لحفظ أموالهم. كان في العرب تاجر يدعى سائب أسلم وحضر إلى النبيﷺ. فأثنى الناس عليه لرسول الله ﷺ أثناء تقديمهم له. فأعلمهم النبي ﷺ بأنه أعرفهم به. فقال سائب ﷺ. فداك أبي وأمي يا رسول الله. كنت شريكي وكنت دوماً حسن المعاملة [٢].

ذات مرة اقترض رسول الله ﷺ بعض التمور من شخص، وبعد أيام حل موعد سداد القرض. فأمر رسول الله ﷺ أحد الأنصار بسداده. فرد الأنصاري التمر ولكن التمر لم يكن بنفس جودة التمر المقترض. لذا رفض المقرض أن يأخذ التمور. فقال له الأنصاري: أترفض أن تأخذ تمور رسول الله ﷺ. قال: نعم لأنه إذ لم يعدل رسول الله فمن سيعدل إذن؟ فلما سمع رسول الله ﷺ هذه المقولة سالت الدموع من عينيه، وقال: صدق [٣].

---

[١] البخاري، باب السلام على جماعة فيها الكافر.

[٢] أبو داود، ج٢، ص٢١٧.

[٣] الترغيب والترهيب نقلاً عن مسند أحمد، ص ٢٣، طبعة مصر. ج٢.

وذات مرة جاء أعرابي له دين عند رسول الله، وكان الأعرابي جلفاً، تكلم مع النبي ﷺ بفظاظة. فعنفه الصحابة على ذلك. وقالوا له: أما تدري مع من تتكلم؟ قال: إنني صاحب حقي. فأخبرهم النبي بأنه كان عليهم أن يقفوا معه لأن الحق معه (سواء أكان حق الدين أو الكلام)، ثم أمر ﷺ بعد ذلك أصحابه أن يعطوه دينه وأكثر منه [1].

في إحدى الغزوات كان جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه رفيق ركب رسول الله. وكانت البعير الذي يركبه بطيئاً. وازداد بطئه أكثر بعد ما تعب. فاشتراه منه رسول الله وأعطاه ثمنه بعيراً آخر، ثم أخبره بأن الاثنين له [2].

ولقد ذكرت هذه الواقعة في رواية أخرى هكذا: أن رسول الله ﷺ قال له: أعطني عصا إن كان معك. فأعطاه، فأخذها رسول الله ﷺ وضرب بها البعير فأخذ يعدو حتى سبق الجميع. فاشتراه منه رسول الله بأربعة دراهم شريطة أن يظل له (الجابر) حق ركوبه حتى المدينة فبعد ما وصل جابر المدينة طلب الثمن. فأمر رسول الله ﷺ سيدنا بلال أن يعطيه أربعة دراهم ويزيد. لذا أعطاه بلال قيراطاً من الذهب بدلاً من الأربعة دراهم ثم زاده [3]. وكان النبي معتاداً إذ حضر جنازة أن يسأل أولاً هل هناك دين على الميت ؟ فإذا كان مديناً أمر أصحابه أن يصلوا عليها، ولا يصلي هو معهم[4].

ذات مرة اقترض ﷺ بعيراً من رجل وحين حان الوقت أعاد بعيراً أفضل منه، وأخبر أصحابه بأن خيرهم هو من يؤدي القرض بأحسن منه [5].

وذات مرة استعار النبي ﷺ كوباً من شخص، ولسوء الحظ ضاع الكوب فدفع النبي ﷺ ثمنه له [6] ودائماً كان ﷺ يعلن بأنه لا يحب أن يدخر عنده ديناراً واحداً أكثر من ثلاثة أيام إلا أن يدعه لسداد دين [7].

ذات مرة كان أعرابي يبيع لحم جمل وكان ﷺ يعتقد أن في بيته تمور؛ لذا أخذ من الأعرابي لحماً بصاع تمر، وبعد أن عاد للبيت لم يجد تمراً فعاد للجزار وأخبره بأنه وزن

---

[1] ابن ماجة، باب لصاحب الحق سلطان.

[2] البخاري، ص. ٢٠١٢ باب شرى الدواب.

[3] صحيح البخاري، كتاب الوكالة.

[4] صحيح البخاري، ص ٨٠٩، كتاب النفقات.

[5] الترمذي، باب استقراض البعير، ص ٢٢٥.

[6] الترمذي، أبواب الكلام، ص ٢٣٠.

[7] البخاري، ج١، ص ٣٢١، كتاب الاستقراض.

منه مقابل تمر ولكن ليس عنده تمر. فصخب الجزار وقال: إنها لعدم أمانة. فعنفه الناس إذ كيف يسيء الظن بأمانة الرسول ﷺ؟ لكن رسول الله ﷺ أمرهم بتركه فإنّ له الحق، ثم نظر ﷺ للجزار وقال له نفس ما قال. فقال الجزار نفس الكلمة فمنعه الناس. فأمر النبي ﷺ أصحابه بأن يتركوه يتكلم إذ له الحق في ذلك. وظل الرجل يكرر هذه الجملة ثم أرسله النبي بعد ذلك إلى أحد الأنصار ليأخذ من عنده تمراً، فلما أخذ التمر وعاد كان النبي ﷺ جالساً مع أصحابه. وكان قلب الرجل قد تأثر من حلم وعفو وحسن معاملة النبي. فقال لرسول الله ﷺ وهو ينظر إليه: يا محمد جزاك الله خيرا دفعت الثمن وأحسنت [1].

ذات مرة جاءت قافلة صغيرة ورابطت على مشارف المدينة وكان فيها بعير أحمر، وتصادف أن مر رسول الله ﷺ من هناك فسأل عن ثمن البعير. فأخبره الناس دون أن يساوموا. فرضي النبي ﷺ بالقيمة التي قالوها. وأمسك بلجام البعير ومضى به صوب المدينة. فقال الناس بعد ذلك: لماذا أعطيناه البعير ونحن لا نعرفه. وندمت كل القافلة على ذلك. وكان من بين القافلة امرأة قالت لهم: اطمأنوا فما رأيت وجه أحد مضيئاً كوجه هذا. أي إنه لن يغدر. وحينما حل الليل أرسل النبي ﷺ إليهم طعاماً وقيمة البعير تمرا [2].

وفي غزوة حنين كان النبي ﷺ في حاجة لبعض الأسلحة. وكانت قبيلة صفوان وقت ذاك كافرة وكانت عندها دروع كثيرة. فطلب النبي ﷺ منهم بعضها. فقالوا: يا محمد تريد ذلك جبراً. قال ﷺ: لا، بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك. لذا أعاروا المسلمين أربعين درعاً. وبعد العودة حين تفقد المسلمين السلاح واتضح لهم ضياع بعض الدروع؛ فأخبر النبي ﷺ صفوان بأن بعض دروعهم فُقدت وأنه سيعطيهم عوضاً عنها. فقال صفوان: يا رسول الله لقد تغير حال قلوبنا [3] أي أسلمنا فلا حاجة للعوض الآن .

العدل والإنصاف

سيكون العدل سهلاً على الشخص إذا انعزل (عن الناس). أما النبي ﷺ فكان يضطر للتعامل مع آلاف من قبائل العرب. وقد كانت بين كل هذه القبائل عداوات، فلو حكم ﷺ لقبيلة ستصبح الأخيرة عدواً، وقد تحتم على النبي ﷺ التأليف بين القلوب بغرض نشر الإسلام. وبالرغم من كل هذه المشاكل لم يترك النبي ﷺ زمام العدل من يده.

---

[1] مسند ابن حنبل، ج١، ص ٢٦٨.

[2] الدارقطني، ج٢، ص ٣٠٨، كتاب البيوع.

[3] أبو داود، باب تضمين العارية.

وبعد فتح مكة كانت الطائف وحدها هي التي لم تذعن لدين الله. فحاصرهم النبي ﷺ. ولكنه اضطر بعد خمسة عشر أو عشرين يوماً لفض الحصار. وكان صخر قائداً فلما علم بذلك ذهب بنفسه وحاصر الطائف، وضيق عليهم لدرجة اضطرتهم في النهاية لقبول المصالحة. فأخبر صخر النبي ﷺ بذلك. جاء المغيرة بن شعبة الثقفي النبي ﷺ وقال لـه: إن صخراً سبى عمتي. فاستدعى رسول الله صخراً وأمره أن يعيد عمة المغيرة إلى دارها. ثم جاءه بعد ذلك بنو سليم الذين لم يكونوا قد أسلموا وقت ذاك. فقالوا: يا رسول الله استولى صخر على بئرنا، والآن اعتنقنا الإسلام. فرد علينا بئرنا. فأرسل النبي ﷺ إلى صخر وأخبره بأنه إذا أسلم قوم عصموا أنفسهم وأموالهم، لذا يجب رد لهم بئرهم، ففعل صخر. يقول الراوي: رأيت وجه رسول الله ﷺ قد احمر خجلاً[1] حين أذعن صخر لأوامره حيث أن صخرا هزم مرتين ولم يحصل على شيء من فتح الطائف.

ذات مرة سرقت امرأة من بني مخزوم. وكانت قريش تريد ألاّ يجري الحد عليها لنسبها فأرسلت أسامة بن زيد (رضى الله عنهما) الذي كان مقرباً لرسول الله، أرسلوه للنبي يطلب منه أن يعفيها من الحد. فغضب النبي ﷺ وقال النبي ﷺ: ياأيها الناس إنما ضلَّ مَن كان قبلكم أنهم كانوا إذا سَرقَ الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ. [2].

وحين تم الصلح مع يهود خيبر قسمت أراضيهم على المجاهدين. فذهب عبد الله بن سهل ذات مرة لجمع التمور. وكان برفقته محيصة ابن عمه. فكان عبد الله ماشياً في منعطف فقتله قاتل ثم وارى جثته في حفرة. فذهب محيصة لرسول الله ﷺ يستغيث به. فقال النبي ﷺ : أتَحلِفون وتَستحِقُّون قاتِلَكم ــ أو صاحبَكم ــ قالوا: وكيفَ نَحلفُ ولم نشهَدْ

---

[1] أبو داود،ص٨٠،ج٢.

[2] صحيح البخاري، كتاب الحدود. وهذا نص الحديث: (٦٦٤٠) حدثنا سعيدُ بن سليمان حدَّثنا الليثُ عن ابن شهابٍ عن عُروةَ عن عائشةَ رضيَ الله عنها «أن قريشاً اهمتهم المرأةُ المخزوميةُ التي سرقت فقالوا: «من يُكلم فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومن يَجترىء عليه إلا أُسامةُ حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتَشفعُ في حدّ من حدودِ الله؟ ثم قام فخطبَ فقال: ياأيها الناس إنما ضلَّ مَن كان قبلكم أنهم كانوا إذا سَرقَ الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ. وايمُ الله لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعَ محمدٌ يدها». (المترجم).

ولم نرَ؟ قال: فتُبرِئكم يَهودُ بخمسينَ. فقالوا: كيفَ نأخذُ أيمانَ قومٍ كفَّار؟ فعقَلَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مِن عنده».[1].

ومع أنه لم يكن يعيش في خيبر غير اليهود ومؤكد أنهم هم الذين قتلوا عبد الله بن سهل إلا أن النبي ﷺ لم يتعرض لهم لعدم وجود شهادة واضحة. ودفع دية قتله مائة ناقة من بيت المال [2].يقول طارق المحاربي حينما أخذ الإسلام ينتشر في بلاد العرب: خرجت مع نفر من أصحابي من ربذة قاصدين المدينة. وحينما وصلنا على مقربة منها رابطنا، وكان معنا في الركب نسوة أيضا، وبينما نحن جالسين مر رجل يرتدي ملابس بيضاء وألقى السلام فأجبناه. وكان معنا بعير أحمر. فسأل الرجل عن قيمته فقلنا له ثمنه كذا من التمر. فرضي بالثمن دون مساومة ثم أمسك بعنان البعير واتجه صوب المدينة حتى غاب عن الأنظار، فاعتقدنا جميعاً أن ثمن البعير قد ضاع حيث أننا لا نعرف المشتري. وعليه أخذ كل منا يلقي باللوم على غيره. فقالت امرأة من النسوة: اطمأنوا فما رأينا وجها مضيئاً كالقمر ليلة البدر كوجه هذا الرجل (أي أنه لن يخدع) وحينما حل الليل جاء شخص وقال: رسول الله ﷺ أرسل لكم هذا الطعام لتأكلوه وهذا التمر ثمن البعير. وفي صباح اليوم الثاني وصلنا المدينة وكان رسول الله ﷺ يخطب في المسجد. فنهض أنصاري حينما رآنا وقال: يا رسول الله هؤلاء من بنى ثعلبة وقد قتل أحدهم شخصاً من عائلتنا. فأذن لي أن أقتل منهم نفراً قصاصاً. فأخبرﷺ بأنه لا يُؤخذ ثأر من الابن [3].

اشترى الصحابي سرق جملاً من أعرابي ولكنه لم يستطع أن يؤدي ثمنه، فأمسك الأعرابي به وجاء به إلى رسول الله ﷺ وقص عليه الأمر. فأمره رسول الله ﷺ أن يدفع

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣١٠٤) حدثنا مسدَّدٌ حدَّثنا بِشرٌ هو ابنُ المفضَّل حدَّثنا يحيى عن بُشَيرِ بنِ يسارٍ عن سهلِ بنِ أبي حَثْمةَ قال: «انطلق عبدُ الله بنُ سهلٍ ومُحيِّصةُ بن مسعودِ بنِ زيد إلى خيبر، وهي يومئذٍ صُلحٌ، فتفرَّقا، فأتى محيِّصةُ إلى عبد الله بنِ سهلٍ وهو يتشحَّط في دمه قتيلاً، فدفنَه، ثمَّ قدِمَ المدينةَ فانطلَق عبدُ الرحمن بن سهل ومحيِّصةُ وحُوَيِّصة ابنا مسعودٍ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فذهب عبدُ الرحمنِ يتكلمُ، فقال: «كبِّرْ كبِّرْ»، ـ وهو أحدثُ القوم ـ فسكتَ، فتكلما، فقال: أتحلِفون وتستحِقُّون قاتِلَكم ـ أو صاحبَكم ـ قالوا: وكيفَ نَحلِفُ ولم نشهَدْ ولم نرَ؟ قال: فتُبرئكم يَهودُ بخمسين. فقالوا: كيفَ نأخذُ أيمانَ قومٍ كفَّار؟ فعقَلَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم من عنده». (المترجم).

[2] ذكرت هذه الواقعة بروايات مختلفة في البخاري والنسائي وغيره.

[3] الدارقطني، ج٢، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

الثمن. فاعتذر سرق لإفلاسه، فأمر النبي ﷺ الأعرابي أن يأخذه ويبيعه في السوق. فأخذه الأعرابي إلى السوق. فاشتراه منه أحد الصحابة ثم اعتقه [1].

كان على أبي حدرد الأسلمى أحد صحابة رسول الله ﷺ ديناً ليهودي ولـم يكـن يملك شيئاً سوى الملابس التي يستر بها بدنه. وفي ذلك الوقت كان النبي ﷺ ينوي الهجوم على خيبر. فطلب أبو حدرد من اليهودي أن يمهله. ولكن اليهودي لم يوافق. وأمسك بـه وذهب به لرسول الله ﷺ. فقال له النبي ﷺ: «اعْطِه حَقَّهُ» قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها قال: «أعْطِه حَقَّهُ» قال: والذي نفسي بيده ما أقدر عليها قد أخبرته أنك تبعثنا إلـى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئاً فارجع فأقضه قال: «أعْطِه حَقَّهُ» قال: وكان النبيُّ صـلى الله عليه وسلم إذا قال ثلاثاً لم يراجع فخرج به ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببرد فنزع العمامة عن رأسه فأتزر بها ونزع البردة فقال: اشتر منـي هـذه البردة فباعها منه بأربعة الدراهم [2].

وقد كان من أثر هذا العدل والأنصاف أن كان المسلمون من ناحية، واليهود الذين كانوا ألد أعداء النبي ﷺ يقدمون شكواهم للنبي ﷺ.[3] وكان يحكم لهم طبقـاً لشـريعتهم. لورود ذلك في القرآن صراحة. فقد كان هناك تفاوت عجيب في العزة والمكانة بين يهود بني قريظة ويهود بني النضير قبل مجيء الإسلام. فلو قتل واحد من قـريظ أحـداً مـن نضير قُتل، أما إذا قتل نضيري قريظي افتدى دمه بمائة ناقة. وحينما حدث ذلك بعد مجي

---

[1] المرجع السابق، ٣١٤.

[2] مسند أحمد، ج٣، ص٢٢٣، المعجم الصغير للطبراني، ومعجم عبدان. وهذا نص الحديث كما ورد فى مسند أحمد: (١٥١٨٧) ـــ حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا إبراهيم بن إسحاق ثنا حاتم بـن إسـماعيل المدني قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي يحيـى عن أبيه عن ابن أبي حدرد الأسلمي أنـه كـان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال: يا محمد إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها فقال: «اعْطِه حَقَّهُ» قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها قال: «أعْطِه حَقَّهُ» قال: والذي نفسي بيـده ما أقدر عليها قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئاً فارجع فأقضه قال: «أعْطِه حَقَّـهُ» قال: وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا قال ثلاثاً لم يراجع فخرج به ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببرد فنزع العمامة عن رأسه فأتزر بها ونزع البردة فقال: اشتر مني هـذه البردة فباعها منه بأربعة الدراهم فمرت عجوز فقالت: ما لك يا صاحب رسول الله صـلى الله عليـه وسلم؟ فأخبرها. فقالت: ها دونك هذا ببرد عليها طرحته عليه. (المترجم).

[3] أبو داود،باب تضمين العارية،ج٢.

الإسلام قدمت بنو قريظة القضية أمام النبي ﷺ. فأمر رسول الله طبقاً لما نزل في التوراة "**النفس بالنفس**" أن يجري القصاص على السواد بين القبيلتين [١].

إن من أدق جوانب العدل والأنصاف هو أن تلتزم بالعدل حتى ولو على نفسك. في ذات مرة كان رسول الله ﷺ يقسم مال الغنيمة. وكان الناس مزدحمين حوله، فاتكأ شخص على فم النبي ﷺ. وكان في يد النبي ﷺ عصا فوكزه النبي بها. فجاء طرف العصا مصادفة على فم الرجل فجرح. فقال له النبي ﷺ: اقتص مني. فقال: يا رسول الله لقد عفوت [٢] وفي مرضه الأخير أعلن الرسول ﷺ على الملأ قائلاً (ما معناه): إن كان لأحد عندي دين أو كنت قد آذيته في نفسه أو ماله، فها هي نفسي ومالي، فليأت ويقتص مني في الدنيا. وكان الصمت يعم المكان، وإذ بشخص يقوم ويدعي أن له بعض الدراهم، فردت إليه [٣].

جوده وسخائه ﷺ

كان الجود والسخاء فطرة في النبي ﷺ. يقول ابن عباس (رضى الله عنهما): كان رسول الله ﷺ أجود الناس خاصة في شهر رمضان [٤]وكان أكرم الناس. ولم يجب على سؤال أحد بالسلب طيلة حياته وإنما يقول[٥]: **إنما أنا قاسم وخازن والله يعطي**[٦] (رواه البخاري).

ذات مرة جاءه ﷺ رجل ورأى عنده قطيع كبير من الأغنام. فسأله منها. فأعطاه النبي ﷺ القطيع كله. فلما عاد الرجل إلى قبيلته قال: اسلموا فإن محمداً جواداً لدرجة أنه لا يبالي الإفلاس [٧]. وذات مرة طلب رجل منه ﷺ حاجة، فأخبره النبي ﷺ بأنه ليس عنده الآن، وأمره بالذهاب معه. وكان عمر يمضي مع النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ماذا عليك

---

[١] أبو داود، كتاب الديات.

[٢] أبو داود، باب القود بغير حديد.

[٣] ابن إسحاق برواية ابن هشام.

[٤] صحيح البخاري، باب بدء الوحي.

[٥] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق.

[٦] صحيح البخاري، باب فرض الخمس.

[٧] صحيح مسلم، ج٢، ص ٢٩٠.

طالما أنه ليس عندك شيء؟ وجاءه رجل آخر فقال: أعطني يا رسول الله ولا تخشى من رب العرش فإنه لن يتركك محتاجاً. فأعطاه النبي ووجهه يفيض سرورا [١].

وكان النبي ﷺ جواداً لدرجة أنه إذا جاءه سائل أعطاه إن كان عنده شيء وإلا وعده أن يعطيه. لذا كان الناس متجرئين لدرجة أن جاء أعرابي وقت الصلاة وأمسك بثوب النبي ﷺ وقال له: لي حاجة وأخشى أن أنساها، فاقضها لي. فذهب النبي ﷺ معه وقضى له حاجته ثم عاد فصلى [٢].

وفي بعض الأوقات كان النبي ﷺ يشتري الشيء من الشخص وبعد أن يعطيه ثمنه يرده له على سبيل العطية، فقد اشترى ﷺ بعيراً من عمر ثم أعطاه في الوقت نفسه لعبد الله بن عمر. وفعل مثل هذا أيضاً مع جابر [٣].

ولم يكن النبي ﷺ يأكل أي شيء مهما كان بمفرده، بل كان يشرك كل صحابته معه. في إحدى الغزوات كان مع النبي ﷺ ١٣٠ صحابياً. فاشترى النبي ﷺ ماعزة وأمر بشوى كبدها. وبعد أن شُوى قسم على كل الصحابة وترك للغائب نصيبه[٤]. وكان ﷺ لا يهدأ إذا ظل عنده شيء ولم ينفقه. تقول أم سلمة: قدم رسول الله ﷺ البيت ووجه ممتعض. فقلت: خيراً يا رسول الله؟ أخبر بأن الدنانير السبع التي جاءته ﷺ بالأمس انقضى عليها الليل وهي مازالت (ملقاة) على السرير [٥].

روى عن أبي ذر الغفاري أنه كان يجول مع النبي ﷺ ليلاقي أحد الطرقات فأخبره رسول الله بأنه لا يحب أن يكون له جبل أحد ذهبا. وألا يبقى في بيته دينار لمدة ثلاثة أيام إلا ما يتركه لقضاء دين [٦].

وكان النبي ﷺ معتاداً على ألا ينام في البيت طالما أن فيه أي درهم لم ينفق، حمل سيد فدك أربعة جمال بالحبوب وأرسلها لرسول الله ﷺ. فباع بلال الحبوب في السوق وأدى ديناً كان ليهودي عنده ثم عاد وأبلغ رسول الله ﷺ بذلك. فامتنع النبي ﷺ عن الذهاب حتى يُتصدق بما تبقى. فقال بلال: وماذا عساي أفعل؟ فما من سائل. فقضى النبي ﷺ ليلته

---

[١] الأدب المفرد، الإمام البخاري.

[٢] صحيح البخاري، ج١، ص ٢٨٤.

[٣] المرجع السابق،ص٢٨٢.

[٤] صحيح مسلم، ص ١٩٩.

[٥] مسند ابن حنبل، ج٣، ص٢٩٣.

[٦] صحيح البخاري، كتاب الاستقراض

بالمسجد. وفي اليوم الثاني جاءه بلال وقال: يا رسول الله لقد عافاك الله. يعني قُسّم ما كان قد فاض. فحمد النبي ﷺ ربه ثم نهض وعاد للبيت [١].

وذات مرة دخل رسول الله ﷺ البيت بعد صلاة العصر ثم خرج فوراً خلافاً لعادته. فتعجب الصحابة من ذلك.فأخبرهم ﷺ بأنه تذكر وهو في الصلاة أن بالبيت بعض الذهب. فخشي أن يأتي الليل وهو باق بالبيت فذهب وأخبر من بالبيت أن يتصدقوا به.[٢]

وكان ﷺ عائداً من غزوة حنين بعد أن وزع ما كان معه. وفي الطريق علم البدو أن رسول الله ﷺ سيمر بهم. فتجمعوا والتفوا حول النبي ﷺ وقالوا له: أكرمنا بشيء فخاف النبي ﷺ من هجومهم واحتمى منهم بشجرة. فأمسكوا برداء النبي ﷺ. وفي نهاية هذا الاجتذاب وقع رداء النبي ﷺ من على جسده الشريف في أيديهم. فأمرهم الجوّادُ ﷺ أن يعطونه رداءه، وأقسم بالله تعالى بأنه لو عنده عدد هذه الأشجار إبل لأعطاهم إياها. وما بخل ولا كذب ولا ملّ [٣].

كان النبي ﷺ قد قال للناس «مَن تَركَ مالاً فلِوَرَثَتِه، ومَن تَركَ كلاً فإلينا». [٤]. لا حاجة لنا منه. وذات مرة كان جالساً مع أصحابه فجاءه رجل أعرابي وأمسك بطرف رداءه وقال: يا محمد! اعطني حمل بعير، فليس المال مالك ولا مال أبيك. فحمل النبي ﷺ البعير شعيراً وتمراً [٥].

وذات مرة جاء الخراج من البحرين وكان المبلغ كبيراً لدرجة لم يسبق له مثيل. فأمر النبي ﷺ أن يوضع في صحن المسجد. ثم جاء النبي ﷺ المسجد ولم يلتفت إليه وبعد أن انتهى من الصلاة بدأ تقسيمه فكان يعطي من يأتيه . فأعطى العباس مالاً كثيراً لم يقدر على حمله إذ أن حالته قد تعسرت بعد غزوة بدر وهكذا أعطى الآخرين حتى نفد المال. فنفض النبي ﷺ ثوبه وذهب [٦].

---

[١] أبو داود، باب هدايا المشركين.

[٢] صحيح البخاري، يفكر الرجل الشيء في الصلاة

[٣] صحيح البخاري، باب الشجاعة في الحرب.

[٤] صحيح البخاري. وهذا نص الحديث: (٢٣٥٧) حدثنا أبو الوليد حدثنا شُعبةُ عن عَديّ بن ثابتٍ عن أبي حازمٍ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عنِ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَن تَركَ مالاً فلِوَرَثَتِهِ، ومَن تَركَ كَلاً فإلينا» (المترجم).

[٥] أبو داود، كتاب الأدب.

[٦] صحيح البخاري، ج٢، باب القسمة.

وقد حكم الإسلام إذا مات عبد معتوق وترك تركة أن تكون لسيده. ذات مرة مات عبد هكذا فأخذ الناس تركته وذهبوا بها لرسول الله ﷺ. فسأل النبي ﷺ أ أحد من وطنه هنا؟ فأجاب الناس نعم. فأمرهم النبي ﷺ بأن يعطوه كل شيء [١].

وذات مرة سأله الأنصار شيئاً، فأعطاهم النبي ﷺ وظل يعطيهم حتى نفذ ما عنده. ولكنهم بالرغم من ذلك عادوا وسألوا ثانية. فأخبر النبي بأنه لو ظل عنده شيء فلن يدخره منهم لنفسه[٢].

الإيثار

كان الإيثار أبرز وأظهر سمة من سمات النبي ﷺ وأخلاقه. كان ﷺ يحب أولاده كثيراً جداً خاصة السيدة فاطمة. فكانت إذا جاءته قام وقبل جبهتها وأجلسها مكانه. ولكن مع ذلك كان حال السيدة فاطمة صعباً معسراً لدرجة أن لم يكن في بيتها خادم. فكانت تدير بنفسها الرحى. وتملأ آنية الماء. فكانت كفتا يديها قد تورمتا من إدارة الرحى. والتهب صدرها من حمل الآنية. فذهبت للنبي ﷺ ذات يوم واستحيت أن تخبره عن حالها. فاخبر بدلاً منها الأمير ﷺ وطلب أن تخصص لها جارية من الجواري اللاتي يسبين من غزوة كذا. فأخبرهما النبي ﷺ بأنه لم يعط أصحاب الصفة حتى الآن، وطالما لم يحدث هذا. فلن يستطيع أن يصرف اهتمامه لشيء آخر [٣]. وفي رواية أخرى أن بنتي الزبير والسيدة فاطمة الزهراء ذهبن للنبي ﷺ وشكون إفلاسهن وضيق حالهن وطلبن من النبي ﷺ أن يخصص لهن جارية أو جاريتين من أسرى الغزوة اللاحقة. فأخبر سيدنا محمد ﷺ بأن يتامى بدر كانوا قد طلبوا ذلك قبلهم [٤].

وذات مرة طلب منه ﷺ علي ﷺ شيئاً. فأخبره النبي ﷺ بأنه لا يمكن له أن يعطيه ويترك أهل الصفة يربطون على بطونهم من الجوع [٥].

---

[١] مسند ابن حنبل،ج٢، ص ١٧٥.

[٢] صحيح البخاري، ص، ١٩٨ كتاب الصدقات.

[٣] وردت هذه الرواية في كتب الحديث (في سنن أبي داود وغيره) بروايات مختلفة .وفي رواية أن النبي ﷺ قال للسيدة فاطمة دعاء وقال أنه أفضل من الجارية.

[٤] أبو داود، ج٢، ص ٣٤٣.

[٥] مسند أحمد، ج١، ص ٧٩.

وذات مرة جاءت امرأة برداء وقدمته للنبي ﷺ. وكان النبي في حاجة إليه فأخذه. فجاء رجل وقال: لكم هذا رداء جيد يا رسول الله؟. فخلعه النبي ﷺ وأعطاه إياه. وبعد أن أنصرف النبي ﷺ لام الناس هذا الرجل وقالوا له: أنت تعلم أن رسول الله ﷺ كان في حاجة إليه. كما أنك تعرف كذلك أنه لا ينكر سؤال أحد فقال الرجل: أعرف ولكني أخذته تبركاً كي أكفن فيه [1].

ويظهر من الأحداث التي كتبت تحت عنوان الزهد والقناعة الحال الضيق العسير الذي كان الرسول ﷺ يعيش فيه. وبعد سنة ٣ هجرية زادت الفتوحات الإسلامية. وكانت الحدائق أفضل الممتلكات عند العرب وفي سنة ٣ هجرية أوصى أحد يهود بني النضير يسمى مخريق عند موته للنبي ﷺ بحدائقه السبع شيب، وصافقة، ودلال، وحسينى، وبرقة، واعواف، ومشربه أم إبراهيم[2]. ولكن النبي ﷺ تصدق بها جميعاً وأوقفها في سبيل الله. فكان ما يخرج منها يُقسم على الفقراء والمساكين [3].

تزوج أحد الصحابة ولم يكن في بيته شيء للوليمة. فأمره النبي ﷺ بالذهاب إلى السيدة عائشة ويطلب منها قدرة من الدقيق. فذهب الصحابي وأحضرها. علماً بأنه لم يكن في بيت النبي شيء للعشاء غير هذه القدرة [4]. وذات مرة حل الغفارى ضيفاً على رسول الله ﷺ ولم يكن عند رسول الله شيء للعشاء سوى لبن شاة. فأعطاه له النبي ﷺ. ومرت الليلة على بيت رسول الله وهم جوعى. كما مرت عليهم الليلة التي كانت قبلها أيضاً [5].

إكرام الضيف

كان الناس يأتون النبي ﷺ من كل نواحي وقبائل العرب أفواجا، وكان بيت السيدة رملة أحد الصحابيات بيتا للضيوف ينزلون فيه، كما كان بيت أم شريك إحدى الأغنياء الكريمات بيتاً للضيوف، وكان أناس مخصوصين ينزلون بالمسجد النبوي كما نزل وفد

---

[1] صحيح البخاري، باب حسن الخلق والسخاء وباب من استعد لكفن.

[2] فتح الباري، شرح كتاب الفرائض.

[3] الإصابة، تذكرة مخريق.

[4] مسند أحمد، ج٤، ص ٥٨.

[5] المرجع السابق، ج٦، ص٣٩٧.

ثقيف هناك[١]. وكان النبي ﷺ يكرم ويخدم هؤلاء الضيوف بطيب خاطر[٢]. وهكذا كان النازلون لا يعودون دون أن يأكلوا ويشربوا [٣].

ولم يكن هناك تميز بين إكرام الكافر والمسلم. فكان الكفار والمسلمون كلاهما ينزلون ضيوفاً على رسول الله ﷺ. وكان ﷺ يكرمهم على السواء. وحينما جاءه وفد أهل الحبشة. أنزله النبي ﷺ عنده ضيفاً وقام بنفسه على خدمتهم بطيب خاطر [٤]. وذات مرة نزل عليه أحد الكفار ضيفاً فقدم له النبي لبن شاة. فشربه كله. فحلب النبي ﷺ شاة ثانية فشربه كله أيضاً، وظل رسول الله ﷺ يسقيه حتى حلب له سبع شياة [٥]. وأحياناً كان ينزل الضيف فيقدم النبي ﷺ له كل ما في البيت ويظل أهل البيت جياعاً[٦]، وكان ﷺ يقوم ليلاً سهراً على خدمة ضيوفه [٧].

كان أصحاب الصفة أكثر الصحابة عوزاً وإفلاساً. لكنهم كانوا أكثر من حصل على شرف ضيافة النبي. ذات مرة أخبر النبي ﷺ بأن من عنده طعام رجلين فليصطحب معه ثلاثة ومن عنده طعام ثلاثة يصطحب أربعة. ومن عنده طعام أربعة يصطحب خمسة. لذا اصطحب أبو بكر ثلاثة رجال معه. أما النبي فاصطحب معه عشر رجال [٨].

يحكى أبو هريرة أحد أصحاب الصفة -قصة فقره المؤلمة فيقول: كنت جالساً ذلت يوم على الطريق وأنا في حالة جوع شديد. فمر بي أبو بكر فسألت منه عن آية من كتاب الله كي ألفت انتباهه. ولكنه مر ولم يلق بالاً لحالتي. ثم مر عمر فحدث معه مثلما حدث مع أبي بكر. ثم مر بعد ذلك رسول الله ﷺ فلما رآني ابتسم وأمرني أن أصحبه، فلما وصل البيت رأى قدحاً من اللبن، سأل عنه، فخُبِّر أن شخصاً أرسله هدية. وأمرني رسول

---

[١] الزرقاني، ذكر الوفود.

[٢] صحيح مسلم، ج٢ص٥١٩.

[٣] شمائل الترمذي.

[٤] الشفاء للقاضي عياض بسند متصل.

[٥] صحيح مسلم، باب المؤمن يأكل في معى.

[٦] مسند ابن حنبل،ج٦، ص٣٩٧.

[٧] أبو داود، كتاب الأدب.

[٨] صحيح مسلم، ج٢.

الله ﷺ بالذهاب إلى أصحاب الصفة وأستدعيهم. ففعلت. فأعطاني رسول الله ﷺ القدح وقال قسّمه بينهم.[١]

وكان ببيت النبي ﷺ قدح ثقيل لا يستطيع حمله أقل من أربعة أشخاص. حينما يحين الظهر يؤتى بالقدح ويجلس أصحاب الصفة حوله. حتى يزدحم المكان لدرجة أن النبي ﷺ كان يضطر لأن يجلس على ركبة (قدم) واحدة حتى يتسع المكان للناس [٢].

يقول المقداد: كنت واثنان من رفاقي قد أوشكنا على العمى من شدة الجوع. فطلبنا أن يكفلنا أحد لكن أحداً لم يرض. وفي النهاية ذهبنا لرسول الله ﷺ. فنزل ﷺ على بيت المال وأراهم ثلاث شياة وقال اشربوا لبنهم، لذا أخذ كل واحد منا يشرب نصيبه من اللبن[٣].

وذات يوم اصطحب النبي ﷺ أصحاب الصفة إلى بيت السيدة عائشة وقال: يَا عَائِشَةُ أَطْعِمِينَا. فجيء بطعام مطهي من الشعير ووضع أمامهم. ولم يطلب النبي ﷺ شيئاً آخر للطعام، ولكن قدُمت لهم عصيدة تمر ثم قدح لبن كبير. وكان هذا آخر شيء يقدم لهم.[٤]

كراهية الاستجداء والسؤال

على الرغم من أن سُحب كرم النبي ﷺ ظلت تمطر كل وقت. إلا أنه كان يشق عليه أن يلح أحد في السؤال بلا ضرورة. فيخبر بأنه لأن يحمل أحدنا على ظهره حزمة خشب يبيع منها يحمي كرامته أفضل من سؤال الناس [٥].

---

[١] الترمذي، ص٢٩٩.

[٢] أبو داود، كتاب الأطعمة.

[٣] صحيح مسلم، ج٢، ص ١٩٨.

[٤] أبو داود،كتاب الأدب. وهذا نص الحديث كاملا: (٥٠٣٦) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّى أخبرنا مُعَاذُ بنُ هِشَامٍ حدَّثني أَبِي عن يَحْيَى بنِ أَبِي كَثِيرٍ قال أنبأنا أَبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عن يَعِيشَ بنِ طِخْفَةَ بنِ قَيْسٍ الْغِفَارِيِّ، قال: « كَانَ أَبِي مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، فانْطَلَقْنَا فقَالَ: يَا عَائِشَةُ أَطْعِمِينَا، فَجَاءَتْ بِحَشِيشَةٍ فأَكَلْنَا، ثُمَّ قال: يَا عَائِشَةُ أَطْعِمِينَا، فَجَاءَتْ بِحَيْسَةٍ مِثْلَ الْقَطَاةِ فأَكَلْنَا، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ أَسْقِينَا، فَجَاءَتْ بِعُسٍّ مِنَ اللَّبَنِ فَشَرِبْنَا، ثُمَّ قال: يَا عَائِشَةُ أَسْقِينَا فَجَاءَتْ بِقَدَحٍ صَغِيرٍ فَشَرِبْنَا، ثُمَّ قال: إِنْ شِئْتُمْ بِتُّمْ وَإِنْ شِئْتُمْ انْطَلَقْتُمْ إِلَى المَسْجِدِ. قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا مُضْطَجِعٌ في المَسْجِدِ مِنَ السَّحَرِ عَلَى بَطْنِي إِذَا رَجُلٌ يُحَرِّكُنِي بِرِجْلِهِ فقَالَ: إِنَّ هٰذِهِ ضِجْعَةٌ يُبْغِضُهَا الله. قال: فَنَظَرْتُ فإِذَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم» (المترجم).

[٥] صحيح البخاري، كتاب الصدقات، ص ١٩٨.

ذات مرة جاءه أنصاري وسأله شيئاً، فسأله النبي ﷺ عمّ يمتلكه؟ قال: بساطاً أتغطى ببعضه وأفرش بعضه، وقدح ماء فطلبهما رسول الله منه. ثم قال: من يشتري هذين؟ قال شخص: اشتريهما بدرهمين. قال ﷺ: من يزيد؟ قال آخر: درهمان لكل واحد منهما. فأعطاه النبي إياهما ثم أعطى الأنصاري الدراهم وقال له (ما معناه): اشتري بدرهم طعاما، وضعه في البيت واشتري بالبقية حبلاً احتطب عليه من الغابة ثم بع الأخشاب في المدينة. وبعد أسبوعين جاء الرجل النبي ﷺ وقد أدخر عشر دراهم. اشترى ببعضها قماشاً وببعضها حبوبا. فأخبر ﷺ بأن هذا أفضل من أن يأتي الرجل يوم القيامة وعلى وجهه علامة السؤال [1].

وذات مرة جاء أنصاري يسأل النبي ﷺ. فأعطاه النبي. ولم يرد النبي سؤاله طالما كان هناك شيء فلما لم يتبق شيء أخبر ﷺ أنه لو ظل عنده شيء ما ادخره منه. ولكن الشخص الذي يسأل الله أن يعفيه من ذلة السؤال والاستجداء يعفه الله. وما أوتى أحد أفضل ولا أكثر من الصبر [2].

كان حكيم بن حزام قد أسلم يوم فتح مكة وجاء ذات مرة يسأل الرسول ﷺ شيئاً فأعطاه الرسول ﷺ. ثم جاء بعد بضعة أيام وسأل ثانية. فأعطاه النبي أيضاً. ثم سأل ثالثة فأعطاه النبي أيضاً. ثم أخبر حكيم بأن من يطلب الغنى باستغناء تُبارك ثروته وتزيد. ومن يطلبها بحرص وطمع يحرم منها. مثل ذلك كمثل شخص يأكل ولا يشبع. اليد العليا خير من اليد السفلي". وقد تأثر حكيم من نصيحة رسول الله هذه لدرجة أنه لم يطلب شيئاً من أحد طيلة حياته [3].

وبينما كان رسول الله ﷺ يُقسم مال الصدقات في حجة الوداع فجاءه رجل. فنظر له الرسول ﷺ فوجده سليماً معافاً. فأخبره بأنه إن كان يريد أعطاه منها، ولكن ليس للأغنياء ولا للأصحاء نصيب فيها [4].

كان هناك شخص اسمه قبيصة اقترض ديناً. فجاء للنبي وعرض عليه حاجته. فوعده النبي ﷺ، ثم أخبره بأنه لا يجوز السؤال ومد اليد للناس إلا لثلاثة أشخاص الأول

---

[1] أبو داود والترمذي، الصدقات.

[2] كتاب الصدقات.

[3] صحيح البخاري، ص ١٩٩ كتاب الصدقات.

[4] أبو داود، كتاب الزكاة.

رجل مُثقل بالديون، فيمكنه السؤال. فإذا اكتملت حاجته وجب عليه أن يكف. والثاني رجل حلت به مصيبة أخذت كل ماله فيجوز له السؤال حتى تتحسن حالته. والثالث رجل اُبتلى بفاقة وشهد ثلاثة من جيرانه بفاقته. أما من يسأل عدا هؤلاء فإنه يأكل حراما.

بغض الصدقة

كان النبي ﷺ يعتبر قبول الصدقة والزكاة له ولأهل بيته عاراً كبيرا. كان يقـول بأنه أحياناً يعود إلى البيت فيجد على الفراش تمرا، فيشتهي أكله، ويهم أن يضعه في فمه. ثم يخشى أن يكون صدقة فيضعه [١]. وذات مرة وجد في الطريق تمرة فأخبر بأنه لو لم يشك أنها صدقة لأكلها.[٢] وذات مرة وضع الإمام الحسن عليه السلام تمرة مـن تمـور الصدقات في فمه. فعنفه النبي ﷺ وقال له: إنَّ الصَّدَقَةَ حَرامٌ على محمدٍ وعلى آهل محمدٍ، ثم أخرجها من فمه. وكان ﷺ إذا قدم له شخص شيئا، استفسر عن هذا الشيء أ هديـة أم صدقة؟ فإن كانت هدية قبلها وإن كانت صدقة أعطاها الآخرين[٣].

قبول الهداية

. كان النبي ﷺ يقبل هدايا وتحف الأصدقاء والأحباب. بل أنه قـال: أنهـا وسـيلة للمحبة "**تهادوا تحابوا**" (الحديث). لذا كان الصحابة يرسلون لبيته ﷺ أي شيء في أي يوم خاصة اليوم الذي يكون فيه الرسول ﷺ في حجرة السيدة عائشة [٤]. مر سابقاً أن النبي ﷺ كان إذا قُدم له شيء سأل عنه صدقة أم هدية؟ فإن كانت هدية قبلها وإلا ردها. ذات مرة جاءته امرأة برداء أعطته إياه، فقبله النبي ﷺ، وفي الوقت نفسه طلبه منه أحد الصـحابة فأعطاه إياه [٥].

وكان الملوك والسلاطين المجاورين يرسلون للنبي ﷺ تحفاً فقد أهداه أحد أمـراء حدود الشام بغلة بيضاء. وأهداه عزيز مصر بغلاً من مصر، وأرسل إليه أحـد الأمـراء جوارب ومرة أرسل إليه قيصر الروم لباساً عليه سجاف من حرير فلبسه ﷺ لفترة قليلـة ثم أرسله لجعفر (أخو علي) فلبسه وجاء إلى النبي ﷺ. فأخبره النبي ﷺ بأنه لم يرسـله

---

[١] البخاري، ج٢، ص ٣٢٨ كتاب اللقط.

[٢] البخاري ج١، ص ٣٢٨، كتاب اللقط.

[٣] البخاري،ج١،ص٢٠١، كتاب الصدقات.

[٤] البخاري، مناقب عائشة.

[٥] صحيح البخاري كتاب الصدقة.

نه ليلبسه. قال: فلم إذن؟ فأعلمه ﷺ بل ليرسله إلى النجاشي [١] حيث ظل جعفر في لحبشة فترة حتى فتح خيبر وتعلم النجاشي منه تعاليم الإسلام.

إعطاء الهدايا

أيضاً كان النبي ﷺ يثيب الناس الذين كان يقبل منهم الهدايا. تقول السيدة عائشة: **كان يقبل الهدية ويثيب عليها".**

أرسل له ملك اليمن الشهير سيف بن ذي يزن الذي كان قد قضى على الحكومة الحبشية وأقام حكومة عربية بتأثير من إيران. أرسل حلة قيمة للنبي ﷺ. كان قد اشتراها بما يعادل ٣٣ بعيرا. فقبلها رسول الله ﷺ ثم أرسل له هدية اشتراها بما يزيد عن ٢٠ بعيرا.

ومرة قدم له شخص من قبيلة بني فزارة ناقة كهدية. فلما كافئه النبي ﷺ عليها غضب غضباً شديداً فصعد النبي ﷺ المنبر وخطب فيهم أنهم يهادونه وهو يثيبهم على هداياهم قدر استطاعته فيغضبون، لذا لن يقبل بعد الآن هدية من أحد سوى من قريش والأنصار وثقيف ودوس[٢].

وكان النبي ﷺ يرسل إلى أبي أيوب الأنصاري الذي كان قد مكث عنده ستة أشهر كان يرسل له ما تبقى من الطعام وكان يرسل هدايا أيضاً لبيوت جيرانه. وقد تشرف أصحاب الصفة كثيراً بهدايا رسول الله ﷺ.

عدم قبول الإحسان

لم يكن ﷺ يقبل إحسان أحد قط. ومن يمكن أن يكون أوفى من أبي بكر للنبي ﷺ. ولكن مع ذلك أعطاه النبي ﷺ ثمن الراحلة التي أخذها منه وقت الهجرة [٣]. وكان أصحاب الأرض التي كانت قد خصصت لبناء المسجد في المدينة يريدون إهداءها للنبي دون مقابل لكنه ﷺ رفض وأعطاهم ثمنها. وذات مرة كان عبد الله بن عمر وعمر (رضى الله عنهما) في سفر مع رسول الله فجمح البعير الذي كان يركبه عبد الله وتقدم ناقة رسول الله. وكان عبد الله بن عمر يوقفه لكنه لم يستطع السيطرة عليه. وكان عمر يكرر توبيخه لابنه. فطلب سيدنا محمد ﷺ من عمر أن يبيعه هذا البعير. فقال: خذه هدية يا رسول الله.

---

[١] البخاري كتاب الجنائز.

[٢] الأدب المفرد،البخاري،ص١٨.

[٣] البخاري، ص ٥٥٣.

فرفض ﷺ حتى يأخذ ثمنه. فقال عمر ثانية: بل هدية يا رسول الله. فرفض النبي ﷺ. وفي النهاية رضى عمر أخذ الثمن. فاشتراه النبي ﷺ وأعطاه لابن عمر [1].

التيسير

كان معاذ بن جبل (أحد كبار الصحابة) يؤم الناس في مسجد منطقة ما. وكان يقرأ سورة طويلة في صلاة الفجر. فجاء رجل واشتكاه لرسول الله ﷺ. وقال أنه (معاذ) يطيل في الصلاة. لدرجة تجعلني لا أستطيع الصلاة خلفه. يقول ابن مسعود الأنصاري: ما رأيت رسول الله ﷺ غاضباً أبداً أشد من هذه المرة[2]. فقام ﷺ وأرشد الناس بأن بعضهم ينفر الناس، وأمرهم بأن من يؤم الناس فعليه أن يخفف؛ فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة [3].

كان النبي ﷺ يحتاط للغاية في الحدود والقصاص، وكان يريد العفو قدر المستطاع. وقع ماعز الأسلمي في الزنا. فجاء على الفور إلى المسجد وقال: لقد زنيت يا رسول الله. فأدار النبي عنه وجهه فاستدار إليه ماعز من الناحية الثانية وقال: زنيت يا رسول الله. فأعرض النبي ﷺ عنه بوجهه. وظل يعرض عنه والآخر يأتيه ويعترف بالزنا. فقال له النبي ﷺ: أ لست مجنوناً؟ قال: لا. فسأله ﷺ: أ متزوج؟ قال: نعم. فقال ﷺ: علك قبلت، علك كذا؟ قال: بل جامعت يا رسول الله. ففي النهاية اضطر النبي ﷺ أن يجري عليه حد الرجم [4].

ومرة جاءه ﷺ شخص وقال له: أذنبت يا رسول الله فأجري على الحد. فظل رسول الله ﷺ صامتاً حتى جاء وقت الصلاة. وبعد الصلاة جاء الرجل ثانية وأعاد على النبي الكلام فقال له النبي ﷺ: أصليت. قال: بلى. قال: فقد غفر الله ذنبك [5]

وذات مرة جاءت امرأة من قبيلة غامد وقالت: زنيت يا رسول الله. فقال ﷺ: ارجعي فرجعت، ثم عادت اليوم الثاني وقالت: لعلك أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك، فوالله إني لحبلى، فقال لها النبي ﷺ ثانية: ارجعي. فرجعت، ثم عادت في اليوم الثالث فقال

---

[1] المرجع السابق، ص ٣٨٤.

[2] البخاري، كتاب الصلاة، باب هل يقضى الحاكم وهو غضبان،ص١٠٦٠.

[3] ورد هذا الحديث في أبواب مختلفة من صحيح البخاري ولمطالعته انظر ص ١٠٠٨.

[4] المرجع السابق.

[5] أبو داود، كتاب الحدود.

لها النبي ﷺ : ارجعي حتى تلدي. فرجعت، فلما ولدت أتته بالصبي، فقالت: هذا قد ولدته. فقال ارجعي فأرضعيه حتى تفطميه فجاءت به وقد فطمته وفي يده شيء يأكله فأمر بالصبي فدفع إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها وأمر بها فرجمت، فبدأ الناس رجمها بالحجارة. فجاء حجر أحدهم على وجهها فطار الدم على وجهه فسبها فقال له النبي ﷺ أمسك عليك لسانك فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له [١].

وذات يوم جاء رجل وقال: يا رسول الله نحن نعيش في بلد اليهود والنصارى. فهل نأكل في آنيتهم؟ فأمره النبي ﷺ بألا يستخدموا أوانيهم إذا كان عندهم آنية، وإلا يغسلوها ثم يأكلون فيها [٢].

وذات مرة ظاهر صحابي زوجته حتى شهر رمضان ولكنه جامعها قبل انقضاء مدة الظهار. واخبر الناس بذلك وقال لهم: خذوني لرسول الله ﷺ. فرفض الجميع، فذهب هو بمفرده للنبي وحكى له الواقعة. فتعجب النبي ﷺ في البداية ثم قال له: حرر رقبة. قال الرجل: لا أستطيع. فأمره ﷺ بأن يصوم شهرين متتابعين. قال: لقد حدث ما حدث بسبب رمضان يا رسول الله. فأمره ﷺ بأن يطعم ستين مسكيناً. قال: نحن المساكين. فأمره ﷺ بأن يذهب إلى عامل الصدقة حتى يعطيه وسق تمر يتصدق منه على ستين مسكيناً وما يتبقى يتصدق به على أهلك. فقال الرجل للناس وهو عائد: إنكم لمتشددون، ولا تحسنون التدبير، لكني رأيت رسول الله ﷺ حسن الرأي والتيسير [٣].

ذات مرة جاءه صحابي وقال له: هلكت يا رسول الله فقد جامعت زوجتي وأنا صائم. فقال له النبي ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا. فقال ﷺ: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين. قال: لا. قال ﷺ: فهل تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال: هذا أيضاً لا أقدر عليه يا رسول الله. فتمهل رسول الله ﷺ قليلاً وإذ برجل يأتي ويهدي النبي ﷺ سلة تمر. فقال النبي ﷺ: أين السائل؟ فقال الرجل: أنا هنا يا رسول الله. فقال ﷺ: خذ هذا (التمر)

---

[١] المرجع السابق.

[٢] البخاري، ج ٢، ص ٨٢٣.

[٣] أبو داود، ج١، ص ٢٢٠.

وتصدق به (على أي فقير). فقال الرجل: من في المدينة أفقر مني يا رسول الله؟. فتبسم رسول الله ﷺ وقال أطعمه أهلك [1].

كراهية الرهبانية

كان رسول الله ﷺ لا يحب الرهبانية ولا التقشف، كان بعض الصحابة بطبعهم أو بتأثير من رهبانية النصارى يميلون للرهبانية؛ فمنعهم النبي ﷺ عن ذلك. كان بعض الصحابة لا يستطيعون الزواج لفقرهم. وفي الوقت نفسه لا يستطيعون ضبط أنفسهم. لذا كانوا يريدون أن يُخصوا أنفسهم. فغضب رسول الله من ذلك غضباً شديداً. جاءه ﷺ قدامة بن مظعون برفقة صاحبي آخر وقال :نوى أحدنا ترك لحوم الحيوانات ونوى الثاني ترك الزواج. فأخبر النبي ﷺ بأنه يتمتع بالاثنين فعزف الصحابيان عن رأيهما حينما وجدا أن النبي ﷺ قد غضب. كان الوصال في الصوم عادة عند العرب، أي كانوا يصومون أياماً متتالية. فأراد أحد الصحابة فعل هذا، فمنعه النبي ﷺ بشدة. وكان عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) غاية في الزهد. كان قد نوى أن يقضي نهاره صائماً وليله متعبداً. فلما علم النبي ﷺ بذلك أرسل إليه وسأله عن صحة ما سمعه. فقال ابن عمر: نعم يا رسول الله. فقال ﷺ: ألم أُخبَرْ أنكَ تَصومُ ولا تُفطِرُ، وتصلِّي ولا تَنَامُ؟ فصُمْ وأفطِرْ وقُمْ ونَمْ، فإن لعَينَيكَ عليكَ حظّاً وإنَّ لنفسِكَ وأهلِكَ عليكَ حظّاً. قال: إني لأقوى لذلكَ. قال: فصُمْ صيامَ داودَ عليه السلامُ قال: وكيف؟ قال: كان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً ولا يَفِرُّ إذا لاقى. قال: مَن لي بهذه يا نبيَّ الله» قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا صامَ من صامَ الأبدَ» مرتين [2].

ورد في رواية أن صوم ابن عمر ذاع صيته فذهب النبي ﷺ إليه. فاستقبله ابن عمر وفرش له فراشاً من الجلد فتركه النبي ﷺ وجلس على الأرض. ثم سأل ﷺ ابن عمر

---

[1] البخاري، ص ٢٦٠، باب إذا جامع في رمضان.

[2] صحيح البخاري، كتاب الصوم. وهذا نص الحديث: (١٩٥٤) حدثنا عمرُو بنُ عليّ أخبرنا أبو عاصم عن ابنِ جُرَيجٍ سَمعتُ عَطاءَ أنَّ أبا العبّاسِ الشّاعرَ أخبرَهُ أنهُ سمعَ عبدَ اللهِ بنَ عمرو رضيَ اللهُ عنهما يقولُ: «بلَغَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أني أسرُدُ الصومَ، وأصلِّي الليلَ فإمّا أرسلَ إليَّ وإمّا لَقيتُهُ فقال: ألم أُخبَرْ أنكَ تَصومُ ولا تُفطِرُ، وتصلِّي ولا تَنامُ؟ فصُمْ وأفطِرْ وقُمْ ونَمْ، فإن لعَينَيكَ عليكَ حظّاً وإنَّ لنفسِكَ وأهلِكَ عليكَ حظّاً. قال: إني لأقوى لذلكَ. قال: فصُمْ صيامَ داودَ عليه السلامُ قال: وكيف؟ قال: كان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً ولا يَفِرُّ إذا لاقى. قال: مَن لي بهذه يا نبيَّ الله» قال عطاءٌ: لا أدري كيفَ ذكرَ صيامَ الأبدِ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا صامَ من صامَ الأبدَ» مرتين. (المترجم).

هل لا يكفيه صوم ثلاثة أيام في الشهر. قال: لا. قال: فخمسة. قال: لا. فظل رسول الله ﷺ يعدد له والثاني يرفض. وفي النهاية أمره النبي ﷺ بأن يصوم يوماً ويفطر يوماً [١].

ذات مرة قال أبو هريرة: يا رسول الله إني شاب ولا أستطيع الزواج ولا أن اضبط نفسي. فصمت رسول الله ﷺ. فأعاد أبو هريرة كلامه. فظل ﷺ صامتاً أيضاً. فلما كرره في المرة الثالثة أخبره النبي ﷺ بأنه لن يستطيع (أبو هريرة) أن يماطل حكم الله [٢]. قدم رجل من قبيلة باهلة عند النبي ﷺ ثم عاد. وبعد عام كامل جاءه ثانية. ولكن شكله كان قد تغير في تلك الفترة لدرجة أن النبي لم يعرفه. فقال للنبي ﷺ اسمه. فسأله رسول الله متعجباً عمّ غير شكله بعد أن كان حسن الصورة. قال الرجل: بعد ما ذهبت من عندك (العام الماضي) يا رسول الله ظللت أصوم صوماً متواصلاً. فقال له النبي ﷺ: ولم تشق على نفسك، يكفيك صوم يوم واحد من كل شهر إضافة لصوم رمضان. قال الرجل: إنني أستطيع أن أصوم أكثر من هذا. فقال له النبي ﷺ : زد يوماً آخر. فطلب الرجل زيادة أخرى. فجعلها النبي ﷺ ثلاثة أيام. فلم يرض الرجل. فقال له النبي ﷺ: فصم الأشهر الحرم [٣]. ويوماً ذهب بعض الصحابة إلى أمهات المؤمنين يسألونهن عن كيفية عبادة النبي وكانوا يعتقدون أن النبي ﷺ ربما لا يقضي ليله ونهاره في شيء سوى العبادة، فلما عرفوها تقالّوها. وقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ؟ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ثم قال أحدهم: أما أنا فسأقوم الليل ولا أقعد. وقال الثاني: وأنا سأصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: وأنا لن أتزوج النساء. وكان النبي ﷺ يسمع كلامهم فقال: أنتُم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأصلّي وأرقُد، وأتزوجُ النساء، فمن رغِبَ عن سُنّتي فليسَ مني»[٤].

---

[١] البخاري، كتاب النكاح.

[٢] البخاري، كتاب النكاح.

[٣] أبو داود، ص ٢٢٤.

[٤] صحيح البخاري، كتاب النكاح. وهذا نص الحديث: (٤٩٤٣) ـــ حدثنا سعيدُ بن أبي مريمَ أخبرنا محمدُ بن جعفرٍ أخبرَنا حُميدُ بن أبي حُميدِ الطويل أنه سمعَ أنسَ بن مالكٍ رضيَ الله عنه يقول: «جاء ثلاثةُ رَهْط إلى بيوتِ أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم يسألونَ عن عبادةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبروا كأنهم تَقالُّوها، فقالوا: وأينَ نحنُ منَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم؟ قد غَفر اللهُ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبِه وماتأخَّر. قال أحدُهم: أما أنا فأنا أُصلّي الليلَ أبداً. وقال آخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطر. وقال آخر: أنا أعتزلُ النساء فلا أتزوَّجُ أبداً. فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتُم الذين قلتم كذا

في إحدى الغزوات مر صحابي بغار فيه ماء وبجواره بعض النباتات فذهب للنبي ﷺ وقال له:وجدت غاراً فيه كل الأمتعة الضرورية وأريد أن اختلي فيه عن الدنيا يا رسول الله. فأعلن ﷺ أنه ما جاء إلى الدنيا باليهودية ولا بالنصرانية ولكنه جاء بالمذهب الإبراهيمي السهل السمح [١].

كراهية الذم والمدح

كان النبي ﷺ لا يحب المدح والثناء (حتى وإن كان من القلب). مرة ذُكر شخص في مجلسه ﷺ فأثنى عليه أحد الحضور كثيراً. فقال النبي ﷺ: قطعت عنق صاحبك. وظل رسول الله يكرر له هذا ثم قال: إذا مدح أحدكم صاحبه لا محالة فيقل: إني أحسبه كما يريد أن يقول، ولا أزكيه على الله.[٢] وذات مرة كان رجل يمدح أحد الحكام وكان المقداد موجوداً حينذاك فأخذ حفنة من التراب ثم رماها في فمه. وقال :أمر رسول الله ﷺ مرة يُملأ فم المادحين تراباً[٣]. وذات مرة دخل النبي ﷺ المسجد وشخص يصلي. فسأل محجن الثقفي عنه فأخبره محجن عن اسمه ثم اثنى عليه. فأمره النبي ﷺ بألا يسمع إلى هذا وإلا هلك. أي سيتولد الغرور المهلك في قلبه [٤].

جاء الشاعر الأسود بن سريع ذات مرة إلى النبي ﷺ وقال له: لقد كتبت بعض الأبيات في حمد الله ومدحك. فقال له النبي ﷺ: إن الله يحب الحمد. فبدأ الأسود قراءة الأبيات. وفي أثناء ذلك جاء شخص ما من الخارج. فأوقف النبي ﷺ الأسود. تكرر هذا مرتين أو ثلاث فقال الأسود للنبي ﷺ: من ذا الذي توقفني من أجله مراراً يا رسول الله؟ فأخبره ﷺ بأن هذا شخص لا يحب اللغو [٥].

وهنا يمكن أن يعتقد أحدُ أن النبي ﷺ كان يُجلس حسان على المنبر ويستنشد قصائده. ويقول له: **اللهم أيده بروح القدس**. ومع أن هذه القصائد كانت في مدح النبي

وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأُصلّي وأرقُد، وأتزوجُ النساء، فمن رغِبَ عن سُنّتي فليسَ مني». (المترجم).

[١] مسند ابن حنبل، ج٥ ص ٢٢٦.

[٢] الأدب المفرد، ص ٦٦.

[٣] المرجع السابق، ص ٦٧.

[٤] المرجع السابق، ص ٦.

[٥] المرجع السابق، ص ٦.

ﷺ. لكن الأمر هو أن قصائد حسان هذه كانت رداً على طعن الكفار. وكان للشعراء في العرب مكانه عالية لدرجة أن الشاعر كان يدني من يهجوه ويرفع من يمدحه. وكان ابن الزابعرى وكعب بن الأشرف وغيرهما قد أردوا إيذاء النبي ﷺ بهذه الطريقة. وكان مدح حسان رداً عليهم.

البساطة وعدم التكلف

كان من عادة النبي ﷺ أن يذهب للبيت أحياناً حافياً ويترك نعله في كثير من الأحيان إذا قام من مجلسه. وكان ترك النعل هذا دلالة على أنه سيعود ثانية [1]. وكان لا يحب أن يمشط شعره يومياً. لذا أخبر بأنه يجب تمشيط الشعر يوما بعد يوم. وكان لا يتكلف في مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا غطاء ولا قيام ولا في قعود. إذا قدم إليه طعام أكل منه. ويلبس ما يجد، وحيث تيسر يجلس سواء أكان على الأرض أو الحصير أو على فراش [2]. ولم تكن تُنقى له نخالة الدقيق [3]. وكثير ما يكون زر قميصه مفتوح، فلم يكن يحب الخيلاء في الملبس وينفر من التكلف، أي أنه ﷺ كان يحب الاعتدال والبساطة في كل شيء [4].

كراهية الإمارة

يخالف الإسلام الرهبانية والدروشة تماماً. ولأنه ﷺ قال: **لا رهبانية في الإسلام؛** لذا كان ﷺ يجيز التمتع بكل ملذات الحياة؛ بل أنه نفسه كان يتمتع بها أحياناً، ولكنه لم يكن يحب الخيلاء ولا المباهاة، ويمنع الآخرين عنها.

مرة دعا رجل علىﷺ لطعام. وطهى الطعام ثم أرسله له. فقالت السيدة فاطمة: يحسن أن يأتي رسول الله ﷺ ويأكل معنا. فذهب علي إليه وطلب منه الحضور. فجاءه ولكن حينما وصل إلى الباب ووجد على حوائط البيت ستائر معلقة انصرف وعاد. فسأله علي عن سبب انصرافه. فأشار إلى أن الدخول في مكان مزين يخالف شأن النبوة [5].

---

(1) أبو داود، ص ٣٦٨.

(2) انظر الشمائل.

(3) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة.

(4) ذكرت وقائع عديدة في كتاب اللباس بالصحاح.

(5) أبو داود، ص ١٧١.

وكان النبي ﷺ يأمر المسلم بأن يضع في البيت فراشاً له وفراشاً لزوجته وثالث للضيف. أما إذا كان هناك رابع؛ فسيكون للشيطان [١].

ذات مرة خرج النبي ﷺ غزوة وظلت السيدة عائشة بالبيت. فلما عاد النبي ﷺ من الغزوة وذهب عندها وجد ستاراً معلقاً في البيت فغضب وأخبرها بأن الله تعالى لم يعط لنا المال لنكسوا الحجارة. [٢] وبني أحد الأنصار بيتاً بقبة شامخة. فلما رآه النبي ﷺ سأل عن صاحبه؟ فقال الناس أنه فلان يا رسول الله. فظل النبي ﷺ صامتاً. وكالعادة حينما جاءه هذا الرجل ألقى عليه السلام فأعرض النبي ﷺ عنه بوجهه. فكرر الرجل السلام. وأعرض النبي ﷺ ثانية. ففهم الرجل سبب غضب النبي ﷺ، لذا ذهب وسوى القبة بالأرض. فلما خرج النبي ﷺ إلى السوق ولم يجد القبة علم أن الأنصاري هدمها فأخبر النبي بأن كل بناء عدا البناء الضروري وبال على صاحبه [٣].

مرة أرسل رجل إليه ﷺ جبة من حرير. فلما لبسها النبي ﷺ تذكر فجعلها وأرسلها إلى عمر. فجاءه عمر باكياً: وقال يا رسول الله. لما تفضلت عليّ بما لم تحب؟ فقال له النبي ﷺ : "إني لم أكسكها لتلبسها". فباعها عمر بألف درهم [٤].

وذات مرة أرسل له ﷺ رجلة حلة مخططة فأعطاها النبي ﷺ لعلي ﷺ. فلبسها علي، وجاء بها للنبي ﷺ فلما رآه النبي غضب وقال: "إني لم أرسل بها إليك لتلبسها" وأمرني فأطرتها بين نسائي [٥].

وحينما صنع النبي خاتماً ليختم به (على الرسائل) صنعه في البداية من الذهب. فقلده الصحابة بلبس خواتم ذهبية أيضاً. فصعد النبي ﷺ المنبر وخلع خاتمه وزمَاه، ثم أخبر بأنه لن يلبسه بعد الآن. ففعل الصحابة مثلما فعل [٦]. (كما أنه ﷺ كان بسيطاً ويريد أن يعيش أهل بيته كذلك عيشة بسيطة خالية من التكلف والملذات. ومع أن لبس الذهب للنساء مباح شرعاً لكن النبي ﷺ كان يرى أن ذلك ليس لائقاً بأهل بيته). ففي ذات مرة

---

[١] أبو داود، ج٢ ص ٢١٨،كتاب اللباس.

[٢] أبو داود، ج٢،ص٢١٩.

[٣] المرجع السابق، ص ٣٦٤.

[٤] المرجع السابق، كتاب اللباس.

[٥] أبو داود، ج٢، ص ٣٦٤،كتاب اللباس.

[٦] أبو داود، كتاب الخاتم.

رأى عقداً في رقبة السيدة فاطمة، فسألها النبي أما يغضبها أن يقول الناس أن برقبة ابنة النبي ﷺ طوقا من نار [١].

ومرة رأى ﷺ أسورة من ذهب في يد السيدة عائشة فقال لها: «أَلاَ أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هٰذَا لَوْ نَزَعْتِ هٰذَا وَجَعَلْتِ مَسَكَتَيْنِ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ صَفَّرْتِهِمَا بِزَعْفَرَانٍ كَانَتَا حَسَنَتَيْنِ». [٢].

ذات مرة أرسل النجاشي بعض الحلى هدية لرسول الله ﷺ. وكان من بينها خاتم مرصع بحجر من أحجار الحبشة الكريمة. فكان ﷺ ينفر منه لذا لم يلبسه بيده. بل كان يلمسه بعصا [٣]. وذات مرة أهداه ﷺ شخص قميصاً من حرير. فلبسه ﷺ وصلى فيه، وبعد ما فرغ من صلاته خلعه بضيق ثم أخبر بأن هذا القماش لا يناسب الأتقياء.

فكان ﷺ من تواضعه يلبس أقمشة عادية، وكان عمر يريد أن يلبس النبي ﷺ ملابس فخمة يوم الجمعة والعيدين أو عند قدوم السفراء. وتصادف أن كانت هناك قماشة من حرير تباع في الشارع. فقال عمر لرسول الله ﷺ: اشترى هذه القماشة لتلبسها يوم الجمعة وعند قدوم السفراء. فقال النبي ﷺ: "إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة". فكان ﷺ يلبس القماش المصنوع من الصوف الخشن في الغالب وفيه توفى رسول الله ﷺ [٤].

وكان فراش النبي ﷺ في بعض الأحيان قماش وأحيانا جلد وأحيانا سعف نخل وأحياناً يطوي لنبي قماشة عادية يجعلها فراشاً له. تقول السيدة حفصة: ذات ليلة طويت قماشة أربع طيات ثم فرشتها للنبي ﷺ حتى يكون الفراش ناعما بعض الشيء. فلما صحى رسول الله في الصباح بدا متكدرا [٥].

---

[١] النسائي، ج٢، ص ١٤٣.

[٢] المرجع السابق. وهذا نص الحديث: (٥١٢٧) أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ، : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَأَى عَلَيْهَا مَسَكَتَيْ ذَهَبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هٰذَا لَوْ نَزَعْتِ هٰذَا وَجَعَلْتِ مَسَكَتَيْنِ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ صَفَّرْتِهِمَا بِزَعْفَرَانٍ كَانَتَا حَسَنَتَيْنِ». قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمٰنِ: هٰذَا غَيْرُ مَحْفُوظٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (المترجم).

[٣] مسند ابن حنبل، ج٢، ص١١٩.

[٤] أخذت كل الروايات المذكورة أعلاه من صحيح البخاري كتاب اللباس.

[٥] شمائل الترمذي.

في سنة ٩ هجرية كانت حدود الحكومة الإسلامية ممتدة من اليمن حتى الشام فقط. ولم يكن في بيت النبي ﷺ سوى سرير بلا فراش. وإبريق من الجلد [١]. تقول السيدة عائشة: حينما توفي رسول الله ﷺ لم يكن في بيتنا شيء للطعام سوى قليل من الشعير. وكان النبي ﷺ يخبر الصحابة[٢] بأنه يكفي الإنسان في الدنيا ما يكفي المسافرين من الزاد[٣]. في ذات مرة كان النبي ﷺ نائماً على حصير فلما استيقظ رأى الصحابة أثر الحصير على جنب النبي ﷺ. فقالوا يا رسول الله: سنصنع لك مرتبة ونحضرها لك، فأخبر النبي ﷺ أن صلته بالدنيا كصلة مسافر يستريح في ظل شجرة ثم يتركها ويواصل سفره [٤].

جاءه ﷺ عمر في المشربة زمن الإيلاء ورأى حالة الأثاث الدنيوي الذي كان في بيت النبي ﷺ. حيث لم يكن عند النبي إلا إزاراً يربطه على جسده الشريف، وسريراً بلا فرش، ووسادة محشوة سعف نخل. وقليل من الشعير ملقى في جانب. وجلد حيوان في جانب آخر قرب قدم رسول الله ﷺ، وبعض الأباريق الجلدية معلقة في خطاطيف قرب رأس النبي ﷺ. يقول عمر: لما رأيت ذلك سالت الدموع من عيني. فسألني النبي ﷺ عن سبب بكائي. فقلت: ولم لا أبكي يا رسول الله وقد تجرح جسدك من هذا السرير، وهذا أثاث حجرتك يبدو لي ما فيها، وقيصر وكسرى قد جمعوا ملذات الحياة. وهذا حال بيت رغم أنك رسول الله ومصطفاه, فقال النبي ﷺ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا.[٥]

---

[١] صحيح البخاري، كتاب اللباس.

[٢] مسند ابن حنبل،ج٦، ص١٠٨.

[٣] ابن ماجة، كتاب الزهد.

[٤] جامع الترمذي، كتاب الزهد.

[٥] صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب تخيير الأزواج. وهذا نص حديث الإيلاء: (٨٤٠) حَدِيثُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالْحِجَابِ فَقَالَ عُمَرُ فَقُلْتُ لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ بِعَيْبَتِكَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهَا يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُحِبُّكِ وَلَوْلَا أَنَا لَطَلَّقَكِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

المساواة

لقد كان الغني والفقير والحقير والعظيم والسيد والعبد في نظر النبي ﷺ ســواء،

فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ فَقُلْتُ لَهَا أَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ هُوَ فِي خِزَانَتِهِ فِي الْمَشْرُبَةِ فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدًا عَلَى أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ مُدَلٍّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَهُوَ جِذْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْحَدِرُ فَنَادَيْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قُلْتُ يَا رَبَــاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِّي أَظُــنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا وَرَفَعْتُ صَوْتِي فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنِ ارْقَهْ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُــولِ اللَّــهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَــيْسَ عَلَيْــهِ غَيْــرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ قَالَ مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ وَهَــذِهِ خِزَانَتُكَ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا قُلْتُ بَلَى قَالَ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِــينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْــتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللَّهَ بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ) (وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ قَالَ لَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ قَالَ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ فَلَــمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَزَلْتُ فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجِذْعِ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ فِي الْغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ قَالَ إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَــى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَــةَ التَّخْيِيرِ * (المترجم).

ومع أن سلمان وصهيب وبلال ﷺ كانوا (في الأصل) عبيدًا؛ إلا أنهم كانوا في مجلس النبي كسادة قريش. فذات مرة كان سلمان وبلال واقفين في مكان، فتصادف أن خرج عليهما أبو سفيان، فقالا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال لهما أبو بكر: أتقولان هذا لشيخ قريش وسيدهم. فذهبا للنبي ﷺ وقصا عليه القصة، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك. فذهب أبو بكر فوراً وقال لهما: يا اخوتاه، أغضبتكم؟ قالا: لا، يغفر الله لك يا أخي.[1] وسرقت امرأة من قبيلة مخزوم، فأرسل الناس للنبي ﷺ أسامة بن زيد الذي كان رسول الله ﷺ يحبه كثيراً ليشفع لها، فقال النبي ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة. ثم جمع النبي ﷺ الناس وخطب فيهم قائلاً: يا أيها الناس إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا.[2]

وفي غزوة بدر كان العباس عم رسول الله ﷺ ضمن من أسروا، وكان الأسرى يُفدون بذهب، فقال الأنصار لقرابته من رسول الله: يا رسول الله، ائذن لنا فلنترك لابن اختنا عباس فداءه. فقال النبي ﷺ: لا تدعون منها درهما.[3] كما كان النبي ﷺ يقسم الأشياء التي تأتيه في المجلس بداية من جانبه الأيمن ويراعي في تقسيمها المساواة بين الغني والفقير والعظيم والحقير.

وذات مرة كان الصحابة جالسين عند رسول الله واتفق أن كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ــ الذي كان ما يزال صبياً ــ جالساً ناحية اليمين. وكان الصحابة المعمرون جالسون ناحية الشمال. وقُدِّم للنبي ﷺ لبن فشرب منه، ثم استأذن ابن عباس

---

[1] صحيح مسلم، فضائل سلمان وصهيب رضي الله عنهما.

[2] البخاري ومسلم وأبو داود، كتاب الحدود.وهذا نص الحديث : ٩٧٦ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا . (المترجم).

[3] صحيح البخاري، باب فداء المشركين.

فى أن يعطيهم قبله. فقال ابن عباس: ولكني لا أؤثرهم في هذا. ولأنه كان ناحية اليمين وله الحق طبقاً لترتيب المجلس فقد أعطاه النبي ﷺ الإناء.[١]

ويقول أنس: قدم رسول الله ﷺ إلى بيتي ذات مرة، وطلب ماءً يشربه، فقدمت له لبن شاة، وكان ترتيب المجلس هكذا؛ أبو بكر ناحية الشمال، وعمر في المواجهة، وأعرابي ناحية اليمين، فلما شرب رسول الله أشار له عمر أن يُعطي أبا بكر ما تبقى. ولكن النبي ﷺ أخبر بأن الحق أولاً لصاحب اليمين، ثم أعطى اللبن المتبقي للأعرابي.[٢]

كانت قريش ترابط بالمزدلفة للمباهاة والفخر. فكان النبي ﷺ يكره هذا التفريق والتمييز. فقد كان يجلس مع عامة الناس سواء قبل البعثة أم بعدها.[٣] كما أنه لم يكن يحب أن يخصص له مكان مميز منصوب عليه مظلة. فقد اقترح الصحابة ذلك ـ بعد ما رأوا مكاناً بهذه المواصفات ـ على رسول الله. فأخبر ﷺ بأن هذا المكان لمن يأتي أولاً.[٤] كما كان النبي ﷺ يشارك الصحابة إذا اجتمعوا لفعل شيء. ويعمل معهم كأي عامل. فقد شارك النبي ﷺ بنفسه في بناء المسجد النبوي؛ أول عمل أقيم في المدينة بعد الهجرة. فكان النبي ﷺ يحضر الطوب بيده الشريفة. ومع أن الصحابة كانوا يقولون له: فداك أرواحنا يا رسول الله لم تشق على نفسك؟.[٥] لكنه ﷺ لم يقلع عن أداء واجبه، وكان ﷺ يعمل مع الصحابة في حفر الخندق كأي أجير، لدرجة أن التراب والغبار كان قد تجمع من كثرة العمل على بطن النبي ﷺ .[٦]

وفي سفر ما كان هناك طعام دون طهي، فتجمع الصحابة لطهيه وقسموا الأعمال فيما بينهم. فتولى رسول الله ﷺ جمع الأخشاب فقال الصحابة: يا رسول الله سنقوم نحن بهذا العمل، أخبر ﷺ بأنه لا يحب أن يمتاز عنهم فإن الله لا يحب العبد الذي يميز نفسه على رفاقه.[٧]

---

[١] صحيح البخاري، ص٨٨٠.

[٢] أبو داود، كتاب المناسك.

[٣] المرجع السابق.

[٤] مسند ابن حنبل، ج٦، ص ١٨٧.

[٥] صحيح البخاري،باب الهجرة.

[٦] صحيح البخاري، باب غزوة الأحزاب.وهذا نص الحديث: عن سهل بن سعد قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا.(البخارى، ج٣، ص٤٢). (المترجم).

[٧] الزرقاني، ج٤، ص ٣٠٤، نقلاً عن سيرة محب الدين الطبرى والطيالسي، ولم ترد هذه الرواية في أي كتاب آخر.

وفي غزوة بدر كانت المطايا قليلة. وكان لكل ثلاثة من المجاهدين راحلة يتناوبون عليها. فكان النبي ﷺ كعامة الناس يشترك مع اثنين على راحلة. ومع أن رفيقيه عرضا عليه أن يأخذ نوبتهما في الركوب ويترجل كلاهما؛ لكن النبي ﷺ أشار إلى أنهما ليس أقدر منه على المشي، وأنه ليس أقل منهما احتياجاً إلى الثواب.(1)

التواضع

كان رسول الله ﷺ يقوم بأعمال البيت بنفسه، فكان يرقع الثوب، ويكنس البيت، ويحضر اللبن والبضائع من السوق، ويصلح نعله (ولم يكن ﷺ يخجل من ركوب الحمار، ولا من الجلوس مع العبيد والفقراء والأكل معهم).(2) وذات مرة خرج من بيته، فوقف الناس تعظيماً له، فقال النبي ﷺ : لا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُ بَعْضاً». (3) وكان ﷺ يعود الفقير إن مرض، ويجلس مع الفقراء والمحتاجين بطريقة لا تميزه عنهم. وإذا ذهب لمجلس جلس حيث وُجِد المكان.(4)

وذات مرة جاء شخص للقاء النبي ﷺ، وكان يرتعد من عظمة النبوة، فأخبره النبي ﷺ بألاّ يخف إذ أنه ليس ملكاً، إنما هو ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.(5)

كان النبي ﷺ من تواضعه يتناول الطعام وهو جالس القرفصاء، وكان يقول: إني عبد آكل مثل بقية العباد وأجلس كبقيتهم. وذات مرة كان هناك زحام على الطعام وقلة في الأماكن، فجلس النبي على قدم واحدة حتى يتسع المكان. وكان من بين الجلوس أعرابي فقال: ما هذه الجلسة؟. فقال النبي ﷺ: إن الله خلقني عبداً كريماً ولم يجعلني جباراً عنيداً.(6)

---

(1) مسند ابن حنبل، ج1، ص ٤٤٢، ومسند أبي داود.

(2) شمائل الترمذي.

(3) أبو داود، وابن ماجه. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، كتاب الأدب، باب الرجل يقوم للرجل من مجلسه: (٥٢٢٥) حدثنا أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي شَيْبَةَ حدثنا عَبْدُ الله بنُ نُمَيْرٍ عن أَبِي الْعَنْبَسِ عن مسعر عن أَبِي الْعَدَبَّسِ عن أَبِي مَرْزُوقٍ عن أَبِي غَالِبٍ عن أَبِي أُمَامَةَ، قال: « خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مُتَوَكِّئاً عَلَى عَصاً، فَقُمْنَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: لا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُ بَعْضاً».(المترجم).

(4) شمائل الترمذي.

(5) المستدرك، ج ٣، ص ٤٨، على شرح الشيخين، واقعة فتح مكة.

(6) أبو داود، كتاب الأطعمة.

وكان النبي ﷺ من كثرة تواضعه لا يحب أن يسمع مديحاً فيه، فذات مرة ناداه شخص وقال: يا سيدي، يا ابن سيدي، يا أفضلنا، ويا ابن أفضلنا، فقال النبي ﷺ: أيها الناس اتقوا الله ولا يُضِلَنَّكم الشيطان، إني محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، ولا أحب أن تنزلوني منزلة أكثر من التي أنزلنيها الله.[١] و قال له رجل مرة: **يا خير البرية**. فقال النبي ﷺ : إنه كان إبراهيم.[٢]

يقول عبد الله بن سخير: حينما جئنا النبي ﷺ مع وفد بني عامر قلنا له: أنت سيدنا. فقال النبي ﷺ: السيد الله تبارك وتعالى. فقال الناس: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، فقال النبي ﷺ: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان.[٣]

وكانت في المدينة امرأة مختلة بعض الشيء جاءت النبي ﷺ وقالت له: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال النبي ﷺ :يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.[٤] وقال الصحابي مخزمة ﷺ لابنه مسور: عند رسول الله ﷺ أردية يوزعها، فهيا بنا نذهب إليه نحن أيضاً، فلما ذهبا كان رسول الله ﷺ قد دخل إحدى حجرات نساءه. فقال مخزمه لابنه: نادِ عليه. فقال ابنه: ومن أنا حتى أنادي على رسول الله؟ قال مخزمه: يا بني إن محمداً ليس جباراً ولا متكبراً. فنادى مسور بعد أن شجعه أبوه، فلما سمع النبي ﷺ خرج من فوره، وأعطاهما رداءً من حرير أزراره من ذهب.[٥] ومرة سمع أحد الأنصار يهودياً يقول: أقسم بالذي فضل موسى على كل الأنبياء، فاعتقد الأنصاري أن اليهودي يُعرِّض بالنبي ﷺ، لذا غضب ولطم اليهودي لطمة على وجهه، فذهب اليهودي يستغيث برسول الله ﷺ، فأرسل النبي ﷺ يستدعى الأنصاري وحقق في القضية، ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله.[٦]

(الموقع الحقيقي الذي يتجلى فيه غرور وكبرياء الإنسان هو حين يرى آلاف الناس بجانبه مستعدين بإشارة منه أن يفدوه حتى ولو بأرواحهم، وخاصة حين يدخل إحدى المدن منتصراً بجيش جرار ؛ لكن تواضع رسول الله ﷺ يزداد وضوحاً في هذا الموقف؛

---

[١] مسند ابن حنبل، ج٣، ص ١٥٣.

[٢] صحيح البخاري، باب فضائل إبراهيم.

[٣] أبو داود، كتاب الأدب، باب كراهية التمادح.

[٤] المرجع السابق.

[٥] البخاري، ص ٨٧١.

[٦] البخاري، كتاب الأنبياء، ذكر موسى.

فحين دخل مكة يوم فتحها، حنى رأسه الشريفة تواضعاً لله، لدرجة أنها لمست سرج راحلته.[1] وفي غزوة خيبر دخل النبي ﷺ المدينة راكباً على حمار لجامه من سعف النخل.[2] وربما سمعتم أيضاً قيمة المحمل الذي كان رسول الله راكباً عليه في حجة الوداع).

النهي عن التعظيم والمدح المفرط

كان النبي ﷺ يراعي هذا الأمر جيداً. ويضع عيسى عليه السلام نصب عينه فيقول: لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله. يقول قيس بن سعد: ذهبت ذات مرة إلى الحيرة، فوجدت الناس هناك تسجد لأمرائهم حين تذهب لبلاطهم. فأخبرت النبي ﷺ بذلك وعرضت عليه أن يُسجد له؛ فهو أهل لذلك، فقال النبي ﷺ: أ رأيت لو مررت بقبري أ كنت تسجد لي؟ قال: لا. فأخبر النبي بأنه لا يجب السجود له حياً.[3]

وحين تزوجت (ربيع) بنت معوذ بن عفراء. ذهب النبي ﷺ لبيتهم وجلس على الفراش المفروش للعروس. فتجمعت بنات البيت حوله[4] وبدأن يضربن الدف ويغنين مرثية لشهداء بدر. وأثناء الغناء غنت إحداهن هذا المصراع:

فينا نبي يعلم ما في غد

دَعِي هٰذَا وَقُولِي الَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ [5]

واتفق أنه حين توفى إبراهيم ابن رسول الله ﷺ أن كسفت الشمس، وكان ثمة اعتقاد خاطئ يسود الناس بأن عظمة أي نبي تستدعى أن تثور الأجرام السماوية على الأقل عند نزول مصيبة به، ولذا أوّل الناس حادثة كسوف الشمس طبقاً لهذا الاعتقاد. ولم

---

[1] شرح الشفا للقاضي عياض وسيرة ابن هشام. ومستدرك الحاكم، ج ٤، ص ٣١٧.

[2] المشكاة، أخلاق النبي ﷺ نقلاً عن الحاكم، وابن ماجة، والبيهقي.

[3] صحيح البخاري، ج١، ص ٢٤٠، كتاب الأنبياء.

[4] أبو داود،كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة.

[5] صحيح مسلم، باب ضرب الدف في النكاح. وهذا نصه كما ورد في أبي داود: (٤٩١٨) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا بِشْرٌ عن خالد بن ذَكْوَانَ عن الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ بن عَفْرَاءَ، قالَتْ: « جَاءَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فَدَخَلَ عَلَيَّ صُبْحَةَ بُنِيَ عَلَيَّ فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِدُفٍّ لَهُنَّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ إِلَى أَنْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي الغَدِ، فقالَ دَعِي هٰذَا وَقُولِي الَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ». (المترجم).

هذه فرصة أفضل من تلك لإنسان يحب المباهاة. لكن عظمة النبي ﷺ أرفع من هذا بكثير. فقد جمع النبي ﷺ الناس في المسجد حين ذاك وخطب فيهم قائلاً: الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا".[١]

كان رسول الله حينما يتوضأ ويسقط ماء الوضوء من يديه الشريفتين، يأخذه الناس في آنية، فسألهم النبي ﷺ وسألهم عن سبب فعلهم لهذا؟ قالوا: حباً في الله ورسوله. فأخبرهم النبي ﷺ بأنه من يريد أن يسعد بحب الله وحب رسوله فعليه أن إذا تحدث صدق، وإذا أؤتمن أوفى، وأن يحسن إلى جاره.[٢]

- جاء رجل للنبي ﷺ وأثناء حديثه معه قال: ما شاء الله وشئت. فأخبره النبي ﷺ بأنه بهذا جعل مع الله شريكاً ونداً، وأمره أن يقول ما شاء الله.[٣]

الحياء

ورد في الصحاح أن النبي ﷺ كان أكثر حياءً من البكر في خدرها.[٤] ويظهر حياء النبي في كل أفعاله، فما أساء النبي إلى أحد قط، وإذا مر بالسوق مر صامتاً، وإذا فرح ابتسم، فلم يقهقه أبداً، وإذا سمع شيئاً يغضبه في المجلس سكت. ولكن كان غضبه يبدو على وجهه فيلاحظه الصحابة.

وكبقية الدول والشعوب، كان الخجل والحياء قليلاً عند العرب، فكان الاستحمام في حالة العرى سائداً عندهم، وكانوا يطوفون بالكعبة عرايا، وبالطبع كان النبي ﷺ يكره هذه الأمور كثيراً. ومرة قال: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخِرِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى فَلاَ يَدْخُلِ الحَمَّامَ إلاَّ بِمئزرٍ ".[٥] فقال الناس: يزول الدرن من الاستحمام في الحمامات، ويذهب

---

[١] صحيح البخاري ومسلم، باب صلاة الخسوف. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري" الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا " (البخاري،ج١،ص٢٩٠.)(المترجم).

[٢] المشكاة، نقلاً عن شعب الإيمان للبيهقي.

[٣] الأدب المفرد، الإمام البخاري، ص ٥٧، طبعة مصر.

[٤] وهذا نص الحديث: (٥٩٧٧) حدثنا علي بن الجَعْد أخبرنا شعبةُ عن قتادة عن مولى أنسٍ ــ قال أبو عبد الله: اسمه عبدُ الله بن أبي عُتبة ــ سمعتُ أبا سعيدٍ يقول: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أشدَّ حياءً من العَذراء في خِدرها». (المترجم).

[٥] وهذا نص الحديث : (٨٢٢٧) حدثنا عبد الله، حدثني أبي حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا سعيد حدثني أبو خيرة عن موسى بن وردان قال أبو خيرة: لا أعلم إلا أنه قال عن أبي هريرة أن رسول الله صلى

المرض يا رسول الله. فقال النبي ﷺ: فإذا اغتسل أحدكم فليستتر. ولم يكن عند العرب حمامات، بل كانت موجودة بكثرة في مدن الشام والعراق المجاورة للعرب، لذا قال النبي ﷺ: إنها ستفتح لكم أرض العجم وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات فلا يدخلها الرجال إلا بالأزر، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء".

ذات مرة جاءت بعض النسوة أم سلمة، فسألتهن عن أوطانهن فقلن: حمص (إحدى مدن الشام)، فقالت السيدة أم سلمة: أهي تلك التي تستحم فيها النساء في الحمامات؟ قلن: وهل الحمام شيء مهين؟، قالت: سمعت رسول الله يقول: " ما من امرأة تخلع ثيابها فى غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله تعالى".[1] وفي رواية في أبي داود أن رسول الله ﷺ نهي عن الاستحمام في الحمام مطلقاً. ثم أجازه للرجال شريطة التستر، لكنه منعه تماماً على النساء. ولم يكن عند العرب مكانا لقضاء الحاجة،[2] فكان الناس يذهبون لقضاء الحاجة في العراء دون أن يستتروا، ويتحدثون في كل شيء، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك بشدة وأخبر بأن ذاك يغضب الله تعالى.[3]

وكان من عادة النبي ﷺ عند ذهابه لقضاء الحاجة أن يبعد بعيداً جداً حتى يغيب عن الأنظار، فحينما كان يقيم في مكة كان يبعد عن حدود الحرم مسافة تبعد عن مكة ثلاثة أميال.[4]

العمل بيده ﷺ

مع أن كل الصحابة كانوا يأتون لخدمة النبي ﷺ، لكنه ﷺ كان يحب أن يعمل عمله بيده، فقد روت السيدة عائشة وأبو سعيد الخدري والإمام الحسن رضي الله عنهم، أن رسول الله ﷺ كان يخدم نفسه. وسأل شخص السيدة عائشة وقال: ماذا كان يفعل رسول الله ﷺ في البيت؟ قالت: كان يعمل بعمل أهل بيته؛ فكان يرقع الثوب بيده، ويكنس البيت

الله عليه وسلم قال: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخرِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى فَلاَ يَدْخُلِ الحَمَّامَ إلاَّ بِمئزرٍ، وَمَنْ كانَتْ تُؤْمِنُ بِالله وَالْيومِ الآخِرِ مِنْ إناثِ أُمَّتي فلا تَدْخُلِ الْحَمَّامَ». (المترجم).

[1] نقلت كل هذه الروايات من كتب الحديث المذكورة في الترغيب والترهيب.

[2] صحيح البخاري، حديث الإفك. وهذا نص الحديث: تقول عائشة:... كنا لا نخرج إلا ليلاً، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا...". (البخاري، ج٣،ص٥٤). (المترجم).

[3] أبو داود، وابن ماجة.

[4] شرح الشفاء للقاضي عياض، ج٢، ص ١١٦.

بنفسه، ويحضر اللبن، ويشتري الحاجات من السوق، ويصلح النعل، ويصنع الدلو ويربط الناقة بيده ويعلفها. ويعجن الدقيق مع الموالى.[١]

ذهب أنس بن مالك ذات مرة لرسول الله ﷺ فرآه يدلك بدن الناقة بالزيت بنفسه. وقال في رواية أخرى: إنه رأى رسول الله يضع علامات على جمال الصدقة. وفي رواية ثالثة قال: إن رسول الله كان يضع علامات على الغنم.[٢]

ذات مرة قدم رسول الله ﷺ المسجد النبوي، فرأى شخصاً قد تمخض فيه. فنظف النبي ﷺ أثر ذلك بنفسه بحجر. ومنع الناس أن يفعلوا ذلك.[٣]

كان النبي ﷺ وقت بناء الكعبة (وهو في سن صغير قبل بعثته) يحمل الحجارة بنفسه ويناولها البناءين،[٤] ولقد مر في الجزء الأول تفصيل الطريقة التي عمل بها النبي ﷺ كعامة الأجراء في بناء مسجد قباء والمسجد النبوي وحفر الخندق، والطريقة التي رفع بها بيده الشريفة الحجارة وطريقة حفره الأرض. ويروى أنه ذات مرة ذبح الصحابة شاة في سفر، وقسموا الأعمال فيما بينهم ليتمكنوا من طهي الشاة، فقال النبي ﷺ : سأحتطب أنا من الصحراء. فلما رفض الصحابة أخبرهم النبي ﷺ بأنه لا يحب التفرقة.[٥] وفي سفر آخر قُطع رباط نعل النبي ﷺ فأراد النبي إصلاحه بنفسه. ولكن صحابيًا قال: أعطينيه يا رسول الله سأصلحه أنا. فأخبر النبي بأن هذا تمييز وهو لا يحب ذلك[٦] ويقول صحابيان: ذهبنا ذات مرة إلى رسول الله ﷺ، فوجدناه يرمم البيت بنفسه فشاركناه في العمل، فلما انتهينا دعا لنا رسول الله ﷺ[٧]

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الأدب، وباب ما يكون الرجل في مهنة أهله. وقد أخذ القاضي عياض أحاديث عديدة وأجزاء من الشفاء جمعها. وقد نقل الزرقاني هذه الرواية في ج٤، ص ٣٠٤ من مسند أحمد وابن سعد وقال: إن ابن حبان ذكر بأنها صحيحة.

[٢] وردت هذه الروايات الثلاثة في صحيح مسلم، الرواية الأولى في كتاب الأدب، والثانية والثالثة في باب جواز رسم الحيوان.

[٣] سنن النسائي، كتاب المساجد.

[٤] صحيح البخاري، باب الجاهلية. وهذا نص الحديث: عن جابر: (... لما بنيت الكعبة ذهب النبي وعباس ينقلان الحجارة...الحديث) (البخاري، ج٢،ص٤٧٠). (المترجم).

[٥] الزرقاني، ج ٤، ص ٣٠٤، نقلاً عن سرية محب الدين الطبرى.

[٦] المرجع السابق، نقلاً عن كتاب تمثال النعل الشريف لأبي اليمن ابن عساكر.

[٧] مسند ابن حنبل، ج٣، ص ٤٦٩.

مساعدة الآخرين في أعمالهم

ذات مرة أرسل رسول الله ﷺ الصحابي خباب بن الأرت في غزوة. ولم يكن في بيت خباب رجل غيره. وكانت النسوة لا يستطعن القيام بالحلب، لذا كان رسول الله يذهب لبيته كل يوم ويحلب هو بنفسه. كما كان يقوم بنفسه على خدمة الضيوف الذين كانوا يأتون من الحبشة. وأراد الصحابة أن يقوموا على خدمتهم. لكن النبي ﷺ منعهم من ذلك وأشار إلى أنهم خدموا أصحابه لذا أراد أن يخدمهم بنفسه. كما أنه ﷺ أنزل وفد ثقيف ــ الذين كانوا قد أدموا قدميه ﷺ في الطائف ــ المسجد النبوي حينما جاءوه سنة ٩ هـ وقام على خدمتهم بطيب خاطر.

كانت جواري المدينة تأتي النبي ﷺ وتقلن: هذا عملنا يا رسول الله. فكان النبي ﷺ يقوم على الفور ويؤدي أعمالهن. وكانت في المدينة جارية مجنونة جاءت النبي ﷺ ذات يوم وأمسكت بيده الشريفة. فقال لها النبي ﷺ : يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.[1] لذا يقول الصحابي عبد الله بن أبي أوفى: **ولا يأنف ﷺ أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة. (النسائي والدارمي).**

ذات مرة وقف رسول الله ﷺ للصلاة فجاءه أعرابي وأمسك بطرف ثوبه وقال: عندي عمل صغير وأخاف أن أنساه، فاذهب أولاً واصنعه. فخرج النبي ﷺ على الفور من المسجد وأدى العمل ثم عاد فصلى [2].

العزم والثبات

مدح الله تعالى كبار الأنبياء في القرآن الكريم فقال: "أولو العزم من الرسل" ولأن محمداً ﷺ كان خاتم الأنبياء، لذا أودع الله تعالى هذه الصفة في ذاته المباركة بصفة خاصة. وكل مفخرة من مفاخر الإسلام منذ البداية وحتى النهاية تعد مظهرًا كاملاً لعزم وثبات النبي ﷺ، فقد وقف النبي ﷺ بمفرده في أرض كفار العرب، ورفع نداء الحق دون مساندة أحد. حتى أن ذرات الصحراء شكلت جبلاً يعترضه، لكن هذا الجبل انهار بفضل وقار النبوة والعزيمة الإلهية، وتحطمت كل قوى المناهضين.

---

[1] مسلم وأبو داود، أخلاق وآداب.

[2] أبو داود، كتاب الأدب. والبخاري، كتاب الصلاة بإيجاز.

ولم يعرف النبي ﷺ اليأس ولا الهزيمة رغم الإخفاق وعدم بلوغ الهدف الذي دام ثلاثة عشر سنة. وجاءت النهاية، حيث ودع فيه هذا الإنسان الوحيد تلك الدنيا الفانية وترك آلاف المحبين المتبعين. ذات مرة ذهب الصحابة إلى رسول الله قبل الهجرة بعد ما ضاقوا من إيذاء المشركين لهم وقالوا: ألا تدعو لنا يا رسول الله. فاحمر وجه النبي ﷺ من الغضب وقال: **لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله"** [1].

- وفي مكة حينما تعب سادة قريش من كل الحيل والمؤامرات، عرضوا على رسول الله الإمارة والذهب والجواهر والجمال. ومعلوم أن إحدى هذه الأشياء كافية لأن تزلزل قدم أشجع رجل؛ لكن النبي ﷺ رفض عرضهم. وفي النهاية جاء وقت أراد فيه آخر معاضدي ومساندي النبي ﷺ ؛ يعني أبا طالب، أن يتخلى عن رسول الله. وكانت هذه آخر لحظة للتأمل والتفكير، وآخر امتحان للعزم والثبات، ولكن الجواب الذي أجاب به النبي ﷺ كان أبلغ طرق التعبير عن إظهار الثبات والصمود في هذه الحياة فقال: **يا عماه لو وضعت قريش الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته (ابن هشام).**

وفي غزوة بدر حينما كان ثلاثمائة مسلم بلا عتاد ولا سلاح في مواجهة ألف جندي مجهز، وكانت قريش قد جاءت مغرورة بقوتها وكثرتها. كان المسلمون وقتها يتجمعون بجانب النبي ﷺ. وبالرغم من كل هذا ظل جبل صمود النبي ﷺ ثابتاً شامخاً في مكانه. [2]

وحينما استشار النبي ﷺ أصحابه في غزوة أحد، وأشاروا عليه جميعاً بالهجوم، لبس النبي الدرع وتأهب. لكن الصحابة أشاروا عليه أن يرجع فقال النبي ﷺ: ما كان لنبي لبس لئمته أن يخلعها. [3] **وفي غزوة حنين تزلزلت أقدام أكثر الصحابة حينما أمطر عليهم**

---

[1] صحيح البخاري، ج١، باب ما لقي النبي ﷺ. وهذا نص الحديث: **ورد في البخاري قول النبي هذا: لقد** كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله"(البخاري، ج٢، ص٤٧٥). (المترجم).

[2] مسند ابن حنبل، ج١، ص ١٢٦.

[3] البخاري، ج٢، ص ١٠٩، باب قول الله "وأمرهم شورى بينهم".

رماة قبيلة هوازن سهامهم. لكن النبي ﷺ ظل مطمئناً ثابتاً في ميدان المعركة مع بعض الفدائيين، وكان يقول: **أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب.**[1]

وقد كان النبي ﷺ مستريحاً تحت شجرة في غزوة ما، فجاءه كافر واستل سيفه وقال للنبي ﷺ: من يمنعك مني الآن يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: الله. فأرعبت هذه العزيمة والجرأة وهذا الثبات ذاك الكافر، فأغمد سيفه على الفور وجلس بجوار النبي ﷺ.[2]

الشجاعة

الشجاعة هي أعلى حقائق الإنسانية وحجر أساس الأخلاق، ومنها يتولد العزم والثبات والعدل والصدق والإخلاص. ولقد واجه النبي ﷺ آلاف المصائب والمخاطر والعديد من المعارك والغزوات إلا أن خطى صموده وثباته لم تتزلزل. ففي غزوة بدر حينما كانت أقدام ثلاثمائة مسلم عزل من السلاح تتزلزل في قتال عنيف ضد ألف جندي مسلح. كان المسلمون يفرون ويحتمون بالنبي ﷺ وفي هذا يقول علي رضي الله عنه الذي خاض وكسب أكبر المعارك. كنا حينما يشتد بنا وطيس المعركة في بدر نحتمي برسول الله ﷺ. وكان ﷺ أشجعنا. ولم يكن أحد منا أقرب لصفوف الأعداء من النبي ﷺ في ذاك اليوم.[3]

في غزوة حنين فرَّ جنود كثيرون من المسلمين من ميدان المعركة حينما هطل وابل سهام هوازن، لكن النبي ﷺ ظل ثابتاً واقفاً في أرض المعركة مع بعض الفدائيين يحض فرسه مراراً على التقدم، لكن أصحابه الفدائيين منعوه من ذلك. ومع أن رسول الله ﷺ كان وقتها الهدف الوحيد لكل جيوش الأعداء لكن قدمه الشريف لم تتزلزل ولم تهتز. وقد سأل رجل البراء ــ الذي كان قد اشترك في هذه الغزوة ــ فقال له: هل فررت من القتال في حنين؟ قال: نعم، هذا صحيح ولكن أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى. كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا هو الذي يحاذي به؛ يعني رسول الله.[4]

يقول أنس بن مالك: كان النبي ﷺ أشجع الناس. ففي ذات مرة ذاع خبر في المدينة أن الأعداء قد جاءوا، فاستعد المسلمون لمقابلتهم، لكن النبي ﷺ كان أول من تقدم

---

[1] صحيح البخاري، حنين.

[2] البخاري، ج٢،ص٥٩٣، غزوة ذات الرقاع. (ورد أن الرجل قال: من يمنعك مني. فقال: الله" (البخاري، ج٣، ص٥٠). (المترجم)

[3] مسند ابن حنبل، ج١، ص ١٤٦.

[4] صحيح مسلم، غزوة حنين. (ورد عن أنس أنه: فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس، وقال: وجدناه بحراً) (البخاري، ج٢، ص٢١٧.)(المترجم).

وانطلق، حتى أنه من شدة السرعة لم ينتظر أن يُشد السرج على الفرس. فركب الفرس بلا سرج وجال كل أماكن الخطر ثم عاد وطمأن الناس أنه ليس هناك أي خطر.[1]

لم يقتل النبي ﷺ أي أحد على الإطلاق، ومع أن أبي بن خلف كان من أشد أعداء رسول الله ﷺ، وكان يقول وهو ذاهب بعد أن أعطى الفدية يوم بدر: عندي فرس أعلفه كل يوم شعير سأركبه وأقتل محمدا. وجاء يوم أحد وهو راكب ذاك الفرس وشق الصفوف حتى وصل للنبي ﷺ، فأراد المسلمون أن يحولوا بينه وبين النبي ﷺ، إلا أن النبي ﷺ منعهم من ذلك، ثم أخذ رمحاً من يد أحد المسلمين وتقدم صوب أبي وشكه في رقبته برَفق. فهرب أبي صارخاً. فقال له الناس: ليس الجرح عميقاً لدرجة تخيفك لهذا الحد. قال: نعم، ولكنه جرح يد محمد ﷺ.[2]

الصدق

الصدق صفة ضرورية للنبي ولا يمكن أن تخلو ذاته منها. لذا لم يكن هناك داع لتفصيل ذلك في موضوع "أخلاق النبي ﷺ"، لكننا نريد هنا أن ندون فقط تلك الاعترافات التي أمكن الوصول إليها من اعترافات الأعداء.

حين جهر النبي ﷺ بالدعوة لم يقل الكفار ــ الذين كانوا يعرفونه ــ أنه كاذب أو مضلل؛ بل قالوا: إن إدراكه قد فسد (نعوذ بالله) أو أن عقله قد خرب، أو أنه أصيب بداء تخيل الشعراء، لذا قالوا عنه: إنه مجنون وساحر وشاعر، ولكنهم لم يقولوا عنه كاذب.

ذات يوم كان سادة قريش مجتمعين في مجلس ذكر فيه رسول الله، فقال النضر بن الحارث أرشد رجالات قريش: يا قريش لم تستطيعوا حتى الآن تدبيراً لهذه المصيبة التي حلت بكم. محمد أمامكم منذ صباه وحتى شبابه وكان أحبكم وأصدقكم قولاً وأأمنكم، والآن حينما اشتعل رأسه شيبا، وظهرت هذه الأمور لكم تقولون أنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون، والله لقد سمعت كلامه فما في محمد شيء مما تقولون. إنها لمصيبة جديدة حلت بكم.[3] ودائماً كان أبو جهل يقول: يا محمد لا أقول إنك كاذب ولكني لا أعتبر ما تقوله

---

[1] ورد هذا الحديث في أبواب متفرقة من صحيح البخاري مثل باب الشجاعة في الحرب، وباب لغافر عوا بالليل.

[2] شرح الشفاء للقاضي عياض، ج٢، ص٦٤، نقلاً عن البيهقي بسند صحيح وعن عبد الرازق وابن سعد والواقدي.

[3] ابن هشام.

صحيحاً. وهنا نزل قوله تعالى[1] : "قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فـإنهم لا يكـذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون" (الأنعام:٣٣).

حين نزل الأمر من الله لمحمدﷺ بدعوة قومه للإسلام، صعد النبي ﷺ جبلاً ونادى قائلاً: يا صباحاه! فلما تجمع الناس قال لهم: أ رأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أ كنتم مصدقي؟ قال الجميع: ما جربنا عليك كذباً.[2]

سأل قيصر الروم في بلاطه أبا سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا. فقال القيصر في النهاية فيما قال: سألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.[3]

الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد صفة من صفات النبي ﷺ، اعترف بها أعداؤه كذلك. وكان قيصـر الروم قد سأل ضمن ما سأل أبا سفيان وهو في بلاطه: وهل يغدر؟ فاضطر أبو سفيان أن يجيب بلا.[4] وكان "وحشي" قاتل حمزةﷺ يسيح في البلدان خوفاً من الإسلام. وكان اسمه ضمن الوفد الذي كان أهل الطائف قد شكلوه لإرساله إلى المدينة. ولكن وحشي خاف أن يُنتقم منه. إلا أن الأعداء أنفسهم أكدوا له أن يذهب بلا خوف ولا فزع لأن محمـداً ﷺ لا يقتل السفراء لذا ذهب للنبي ﷺ وأعلن إسلامه.[5] وكان صفوان بن أمية (قبل إسلامه) من ألد أعداء الإسلام، وحينما فُتحت مكة، هرب ووصل جدة قاصداً اليمن. فحكى عمير بـن

---

[1] جامع الترمذي، تفسير سورة الإنعام.

[2] صحيح البخاري، تفسير سورة تبت. وهذا نص الحديث: (٤٨٥٢) حدَّثنا يوسفُ بن موسى حدَّثنا أبـو أسامةَ حدَّثنا الأعمشُ حدَّثنا عَمرُو بن مُرَّةَ عن سعيد بن جُبير «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نَزَلَت: وأنذر عشيرَتَكَ الأقربين، ورهطك منهُم المخلصين، خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم حتى صَعِدَ الصفا فَهَتَفَ: يا صباحَاه. فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتُم إن أخبرتُكم أنَّ خيلاً تخرُجُ من سَفحِ هذا الجَبَلِ أكنتم مُصدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: فإنِّي نذيرٌ لكم بـين يَـدَيْ عذاب شديد. قال أبو لهب: تبًّا لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزَلت: {تبت يَدا أبي لهبٍ وتَبَّ}. وقـد تبَّ. هكذا قرأها الأعمش يومئذ». (المترجم).

[3] صحيح البخاري، باب بدء الوحي.

[4] المرجع السابق.

[5] صحيح البخاري، غزوة أحد.(وردت في البخاري هذه الجملة "... فقيل لي (وحشـي) إنـه لا يهـيج الرسل). (البخاري، ج٣، ص٣٥.) (المترجم).

وهب قصته للنبي ﷺ. فتفضل النبي بعمامته وقال: هذه علامة أمان صفوان. فأخذ عمير العمامة ووصل لصفوان وقال له: لست في حاجة للهرب فأنت في أمان. فلما ذهب لرسول الله قال له: أأعطيتني الأمان يا رسول الله ﷺ؟ فقال النبي ﷺ: نعم.[1]

كان أبو رافع عبداً قدم المدينة قبل إسلامه كسفير من قبل قريش. فلما رأى وجه النبي ﷺ طاب الإسلام في قلبه. فقال: يا رسول الله إني والله لا أرجع إليهم أبداً. فقال النبي ﷺ : إني لا اخيس العهد ولا أحبس البرد، ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع. فعاد واعتنق الإسلام.[2]

كان من بين شروط صلح الحديبية أن يُردَّ من يسلم من مكة إذا طلب أهل مكة ذلك. وفي الوقت الذي كانت تكتب فيه شروط الصلح فر أبو جندل ﷺ هرباً، وجاء يستغيث برسول الله ﷺ. فلما رأى المسلمون هذا المنظر المؤلم فزعوا؛ لكن رسول الله ﷺ التفت إليه وقال له بيقين كامل: "يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم".[3]

قبل البعثة تعاقد عبد الله بن أبي العمساء على شيء مع رسول الله ﷺ. فأجلس النبي ﷺ ثم ذهب وقال له: سأعود لأتحاسب معك. وتصادف أنه لم يعد إلا بعد ثلاثة أيام، وكان النبي ما يزال جالساً في مكانه لم يتحرك. فلما رآه قال ﷺ: يا فتي، لقد شققت علي، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك.[4]

---

[1] ابن هشام. (ورد في ابن هشام قول صفوان هذا "... إن هذا (يعني عمير) يزعم أنك قد أمنتني. قال ﷺ: صدق...الحديث).(المترجم).

[2] أبو داود، باب الوفاء بالعهد.

[3] صحيح البخاري، كتاب الشروط، ووردت الجمل الأخيرة في ابن هشام. (ورد قول النبي ﷺ في ابن هشام هكذا" يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم). (ابن هشام، ج٣، ص٢٠٣). (المترجم).

[4] أبو داود، كتاب الأدب. باب فى العدة. وهذا نص الحديث: (٤٩٩٢) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى بنُ فَارِسٍ النَّيْسَابُورِيُّ أخبرنا مُحَمَّدُ بنُ سنانٍ أخبرنا إِبْرَاهِيمُ بنُ طَهْمَانَ عن بُدَيْلٍ عن عَبْدِ الْكَرِيمِ عن عَبْدِ الله بن شَقِيقٍ عن أَبِيهِ عن عَبْدِ الله بن أَبِي الْحَمْسَاءِ، قالَ: « بَايَعْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بِبَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا في مَكَانِهِ، فَنَسِيتُ فَذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلاَثٍ فَجِئْتُ، فَإِذَا هُوَ في مَكَانِه، فقَالَ يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هٰهُنَا مِنْذُ ثَلاَثٍ أَنْتَظِرُكَ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قَالَ مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى هٰذَا عِنْدَنَا

في غزوة بدر كان تعداد المسلمين أقل من ثلث عدد الكفار. ومن الطبيعي أن يتمنى النبي في هذا الموقف أن يكون العدد أكثر، لكنه ﷺ كان في ذاك الوقت أيضاً قمة في الوفاء، فقد قدم كل من حذيفة بن اليمان وأبا حسل، الصحابيان الجليلان من مكة، فاعترضهما الكفار في الطريق قائلين لهما: أنتما ذاهبان لمحمد ﷺ، فأنكرا. وفي النهاية أطلق الكفار سراحهما شريطة ألا يشتركان في الحرب مع النبي ﷺ. فلما جاء الصحابيان رسول الله وقصا عليه القصة قال النبي ﷺ: انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم.[1]

الزهد والقناعة

يسود اعتقاد لدى المستشرقين أن النبي كان نبياً طيلة مكوثه بمكة لكنه حينما وصل المدينة أصبح ملكاً بدلاً من رسول. والحقيقة أن النبي ﷺ ظل فقيراً دائماً؛ فقد رُوي في البخاري في باب الجهاد أن درع النبي ﷺ كانت مرهونةً عند وفاته ﷺ عند يهودي مقابل ثلاثة صياع شعير، وأن الثياب التي توفى فيها رسول الله ﷺ كانت كلها مرقعة. وكان هذا في وقت كان المسلمون فيه يسيطرون على المنطقة الممتدة من حدود الشام حتى عدن، وتمتلئ فيه أرض المدينة بالذهب والفضة.

لا ريب في أن القضاء على الرهبانية كان أحد مهام النبي ﷺ، تلك الرهبانية التي لامَ الله تعالى عليها النصارى فقال **"ورهبانية ابتدعوها"**. ومن ثم أكل النبي في بعض الأحيان طعاماً شهياً، ولبس ملابس فاخرة؛ لكنه لم يكن يميل للملذات وزخارف الحياة فيقول «لَيْسَ لابنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هذِهِ الخِصَالِ: بَيْتٍ يَسْكُنُهُ، وَ ثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفِ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ».[2] لذا تقول السيدة عائشة: **ولا يطوي له ثوب**؛ أي أنه لم يكن له إلا ثوب واحد لذا كان لا يطوي.

عَبْدُ الْكَرِيمِ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ شَقِيقٍ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: هَكَذَا بَلَغَنِي عَنْ عَلِيِّ بنِ عَبْدِ اللهِ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: بَلَغَنِي أَنَّ بِشْرَ بنَ السَّرِيِّ رَوَاهُ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ شَقِيقٍ. (المترجم).

[1] صحيح مسلم، باب الوفاء بالعهد، ج ٢، ص ٨٩ (المترجم).

[2] جامع الترمذي، أبواب الزهد. وهذا نص الحديث: (٢٣٧٩) حَدَّثَنَا عَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بنُ عَبْدِ الوَارِثِ،أخبرنا حُرَيْثُ بنُ السَّائِبِ، قَالَ سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ حدثني حُمْرَانُ بنُ أَبَانَ، عَنْ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، عَنْ النبيِّ قَالَ: «لَيْسَ لابنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هذِهِ الخِصَالِ: بَيْتٍ يَسْكُنُهُ، وَ ثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفِ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ» .

قال أبو عيسى: هَذَا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ وَهُوَ حديثُ الحُرَيْثِ بنِ السَّائِبِ. وَسَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ سُلَيْمَانَ بنَ سَلْمٍ البَلْخِيَّ يَقُولُ، قَالَ النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: جِلْفُ الْخُبْزِ يَعْنِي لَيْسَ مَعَهُ إِدَامٌ. (المترجم).

ذات مرة كان عبد الله بن عمر يرمم جدران البيت وتصادف أن جاءه رسول الله فسأله عم يشغله.قال: أرمم جدران البيت يا رسول الله. فاستفسر النبي ﷺ عن هل يوجد وقت لهذا؟.[1] وكثيراً ما كان الفقر يلازم بيت رسول الله ﷺ، فكان رسول الله وأهله يبيتون جوعى، **وكان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً هو وأهله لا يجدون عشاءً.**[2]

كانت النار لا تُشعل في بيت النبي ﷺ بالشهرين متواصلين. وحينما قالت ذلك السيدة عائشة ذات مرة، سألها عروة بن الزبير وقال: فعلى ماذا كنتم تعيشون؟ قالت: على مآء وتمر. إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله من أبياتهم فيسقيناه.[3] وما رأى رسول الله ﷺ طيلة حياته رغيفاً مرققاً.[4] ولا الميدة؛ التي يقال عنها في العربية الجوارى والنقى. وقد سأل سهل بن سعد راوي هذه الواقعة فقال: أولم تكن هناك غرابيل زمن رسول الله ﷺ؟ قال: لا. فقال الناس: فكيف كان الدقيق ينقى إذن؟ قال: كانوا يطيرون العصف بنفخهم عليه بالفم، ثم يعجنون ما تبقى ويخبزونه.[5] وتقول السيدة عائشة: ما أكل رسول الله طيلة حياته منذ قيامه بالمدينة حتى وفاته خبزاً لوقتين بعد ما يشبع.[6]

يكتب المحدثون وأرباب السير في حديثهم عن فدك وخيبر وغيرهما أن رسول الله ﷺ كان يأخذ من إيراداتهم مصاريف سنة كاملة. ويبدو هذا مخالفاً للروايات المذكورة أعلاه. ولكن الرأيين صحيحان في الحقيقة. فما من شك أن رسول الله ﷺ كان يأخذ قدر نفقته من الإيرادات، ويعطي الفقراء والمحتاجين ما تبقى. ولكن ما كان ﷺ يتركه لنفسه كان يعطيه منه أيضاً للمحتاجين. وتوجد وقائع كثيرة جداً تحكي عن فقر وعسر حال رسول الله ﷺ، نذكر منها هنا بعض الروايات فقط.

---

(1) ابن ماجة، كتاب اللباس.

(2) جامع الترمذي، معيشة النبي ﷺ.

(3) صحيح البخاري، كتاب الرقاق.

(4) المرجع السابق. عن أنس قال: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله). (البخاري، ج٤، ص١٨٨). (المترجم).

(5) الشمائل.

(6) المرجع السابق.

مرة جاء رسول الله ﷺ شخص وقال: إني جائع جداً يا رسول الله، فأرسل رسول الله لبيت إحدى أزواجه يسأل عن شيء يؤكل فقالوا له: لا شيء سوى الماء. فأرسل للبيت الثاني فجاءه نفس الجواب حتى أنه ﷺ لم يجد في بيوت أزواجه الثمان أو التسع غير الماء.[1]

يقول أنس ﷺ ذات مرة ذهبت لرسول الله ﷺ فرأيته رابطاً بطنه بقماش، فسألت عن السبب فقال أحد الجالسين: بسبب الجوع.[2] ويقول أبو طلحة: رأيت رسول الله يوماً متمدداً على الأرض في المسجد يتقلب من الجوع.[3]

ذات مرة اشتكى الصحابة لرسول الله ﷺ من الجوع، وأروه بطونهم مربوط على كل منها حجر، فكشف لهم النبي ﷺ عن بطنه وإذ عليها حجران وليس حجراً واحداً.[4]

كان صوت النبي ﷺ يضعف من كثرة الجوع لدرجة تجعل الصحابة يعرفون حالته ﷺ. ففي ذات يوم ذهب أبو طلحة وقال لزوجه: هل من شيء يؤكل فقد رأيت رسول الله ﷺ الآن وصوته قد ضعف.[5]

ذات يوم خرج رسول الله ﷺ من بيته وقت الظهر من شدة الجوع. فقابله في الطريق أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وكانا يضطربان من شدة الجوع. فاصطحبهما رسول الله لبيت أبي أيوب الأنصاري. وكان أبو أيوب معتاداً على أن يوفر لرسول الله ﷺ لبناً؛ لكن الرسول ﷺ جاءه متأخراً ذاك اليوم، بعد أن سقى أبو أيوب اللبن أولاده، فلما وصل رسول الله إليه كان قد ذهب لمزرعة النخيل. ولما علمت زوجه بمجيء النبي خرجت وقالت: أهلاً بك يا رسول الله. فسأل عن أبي أيوب؟ وكانت مزرعة النخيل قريبة، فلما سمع أبو أيوب الصوت عاد مهرولاً وقال :مرحباً بك يا رسول الله. ولأن الوقت لم يكن وقت مجيء النبي ﷺ؛ لذا أخبره النبي بحالهم، فذهب أبو أيوب لمزرعة النخيل وأحضر بعض التمور. وقال: سأطهى لكم لحماً يا رسول الله. ثم قام وذبح شاة. وطهى نصفها وأعد من النصف الأخر كباباً. ثم أحضر الطعام فأخذ رسول الله ﷺ قليلاً من اللحم ووضعه على رغيف وأشار عليه أن يرسله إلى فاطمة رضي الله عنها لأنها لم تأكل منذ

---

[1] صحيح مسلم، ج٢، ص، ١٩٨ طبعة مصر. وصحيح البخاري، ص ٥٣٥.

[2] المرجع السابق، ص ١٩٣.

[3] المرجع السابق.

[4] المرجع السابق.

[5] المرجع السابق، ص ١٩١.

بضعة أيام. ثم أكل رسول الله ﷺ مع أصحابه. ولما رأى أصناف الأكل العديدة أمامه فاضت الدموع من عينيه وقال: إن هذا هو النعيم الذي قال الله تعالى عنه: ثم لتسألن يومئذ عن النعيم.[1] (التكاثر: ٨)

كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يذهب صباحاً لأزواجه ويسألهن عن طعام فيقلن: لا يوجد طعام. فينوي النبي ﷺ الصيام.[2]

العفو والحلم

صرح أرباب السير أن كل الأحداث شاهدة على أن رسول الله ﷺ لم ينتقم قط من أي أحد، فقد روى في الصحيحين عن السيدة عائشة أن رسول الله ﷺ لم ينتقم لنفسه من أحد إلا إذا تعدى حدود الله.[3]

وقد كان تحقير وإهانة سادة الطائف أصعب على النبي ﷺ من هزيمة غزوة أحد؛[4] لكن بالرغم من ذلك وبعد عشر سنوات حينما كانوا يمطرون الحجارة والنبال على المسلمين. كان صاحب الحلم والعفو ﷺ في الجانب الآخر يدعو الله تعالى أن يهديهم إلى الإسلام. وحينما قدم وفدهم المدينة سنة تسع من الهجرة أنزلهم النبي ﷺ بصحن المسجد وقابلهم بكل إعزاز وترحاب.[5]

وكذا سبّته قريش وأرادت قتله، وفرشت الأشواك في طريقه، ووضعت القاذورات على جسده الشريف، ووضعت في عنقه حبلاً وشدته، وأساءت إليه وقالت عنه: إنه والعياذ بالله ساحر ومجنون وشاعر؛ لكن رسول الله ﷺ لم يغضب قط من هذا.

وكان حين يكذب رجل في مجلس ما، كان النبي ﷺ يرتعد من الغضب. يقول رجل إنه رأى النبي ﷺ يدعو للإسلام في سوق ذي المجاز، وكان رسول الله ﷺ يقول للناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وكان أبو جهل خلفه يقول وهو يطير التراب على النبي

---

[1] صحيح مسلم، ص ١٩١.

[2] الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٧٥، وتوجد هذه الواقعة في صحيح مسلم، جـ٢، ص ١٥٠ باختلاف بسيط.

[3] مسند أحمد بن حنبل، ج٢، ص ٤٩.

[4] صحيح البخاري، بدء الخلق.

[5] أبو داود، ذكر الطائف.(عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف لما قدموا على رسول الله أنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم). (أبو داود، ج٢، ص١٤٦). (المترجم). ومسند ابن حنبل، ج٤، ص٢٢٨.

ﷺ: لا يصدنكم كلام هذا الرجل عن دينكم، فإنه يريد أن تتركوا آلهتكم اللات والعـزى. يقول الراوي: وهنا لم يكن النبي ﷺ يلتفت إليه. (مسند أحمد، ج ٤، ص ٦٣).

كانت حادثة الإفك أكبر مواقف الغضب والثورة. ومع أن المشركين والعياذ بـالله رموا السيدة عائشة أحب نساء النبي ﷺ إليه، وبنت ثاني اثنين في الغار، أفضل الصحابة أبي بكر الصديق، وكانت المدينة تعج بالمنافقين الذين أشاعوا الخبر بسرعة فائقة في كل أرجاء المدينة. ومع أن شماتة الأعداء وإساءة سمعة الوحي وفضح النبي ﷺ أمور خارجة عن إمكان صبر وتحمل الإنسان؛ ولكن ماذا صنع رحمة الله للعالمين محمدﷺ في كل هذه الأمور؟ فمع أن أساس ومنبع هذه الفتنة كان عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وكان النبـي على دراية كاملة به. لكنه ﷺ على الرغم من ذلك لم يصنع له شيئاً، إلا أنه صعد المنبـر وخطب في جموع الناس قائلاً: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ فهب سعد بن معاذ ﷺ واقفاً وقال بغضب: أنا يا رسول الله، أخبرني عن اسمه وسأقطع عنقه، فاعترض على ذلك سعد بن عبادة الذي كان حليفاً لعبد الله بن أبي، ووقف الاثنان في وجه بعضهما، وكادا يستلان سيفيهما؛ لكن رسول الله ﷺ هدأهما، حيث أن الله تعالى كذب الواقعة وسن عقوبة شرعية للرامين. وقد ترك عبد الله بن أبي لأنه لم يعترف بأنه قد رمى السيدة عائشة، كما أنه لم تكن هناك أي شهادة شرعية تثبت عليه ذلك. ومن الذين عوقبوا مسطح بن أثاثة الذي كان أبو بكرﷺ ينفق عليه. وقد أوقف أبو بكر النفقـة عليه بعد ذلك. ولكن حينما نزلت الآية:

"ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم". (سورة النور:٢٢) استأنف أبو بكر الإنفاق عليه.

كان حسان ﷺ ممن اتهموا السيدة عائشة أيضاً (كما ورد في صحيح الترمـذي، كتاب التفسير، تفسير سورة النور). وكانت السيدة عائشة قد غضبت منه غضبا شـديدًا. ولكن كان من أثر صحبة النبي ﷺ أنه حينما بدأ عروة بن الزبير الإساءة إليه أمام السيدة عائشة منعته عن ذلك، وقالت: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ أمام الكفار.[1]

كان لبيد بن اعصم أحد اليهود المنافقين في المدينة قد سحر رسول الله ﷺ، إلا أنه ﷺ لم يصنع له شيئا.

---

[1] صحيح البخاري، قصة الإفك.

ولما حققت السيدة عائشة في الأمر أخبرها رسول الله ﷺ بأنه لا يريد أن يولد فتنة بين الناس.[1]

كان زيد بن سعفة يعمل بالتجارة أيام كان يهوديا، وكان قد اقترض منه رسول الله ﷺ، وكانت هناك بضعة أيام باقية على سداد الدين، لكنه جاء ليتقاضى دينه، وأمسك برداء النبي وجذبه وسبه ثم قال: أنتم يا آل عبد المطلب تماطلون دائماً في الحق. فانتفض عمر بن الخطاب غاضباً ونظر إليه وقال له: يا عدو الله كيف تسئ إلى رسول الله ﷺ؟ فتبسم رسول الله، وأشار إلى عمر بأنه كان يأمل منه شيئا آخر، إذ كان عليه أن يعلمه كيف يطلب دينه برفق، ويُخبر رسول الله كي يعطيه ﷺ دينه. ثم أمر ﷺ عمر بأن يؤدّ إليه دينه ويزد عليه عشرين صاعاً من التمر؟[2]

كان عند رسول الله ﷺ حلة واحدة في فترة ما. فكانت سميكة متسخة تزداد ثقلاً كلما جاء العرق. ومصادفة جاءت أقمشة من الشام عند يهودي، فقالت السيدة عائشة: لتقترض منه حلة. فأرسل رسول الله رجلاً لليهودي. فقال اليهودي له: فهمت أن محمداً يريد أن يضيع بضاعتي دون ثمن. فلما سمع النبي ﷺ كلامه القاسي هذا، أخبر ﷺ بأنه ﷺ أكثر الناس احتياطاً وأداءً للأمانة.[3]

ذات مرة كان رسول الله ﷺ سائراً في طريق ما، فرأى امرأة جالسة تبكي. فوقف وقال لها: "اتقي الله واصبري". ولم تكن المرأة تعرف رسول الله (فقالت بلا تأدب): إليك عني فإنك لا تعرف ما نزل بي. فلما انصرف رسول الله ﷺ قال الناس للمرأة: أما تعرفين أن هذا رسول الله ﷺ؟ فخرجت المرأة إلى رسول الله وقالت: لم أكن أعرفك يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: إنما الصبر عند الصدمة الأولى.[4]

ذات مرة مرض سعد بن عبادة، فذهب رسول الله ﷺ لزيارته. وكانت في الطريق جلسة توقف عندها رسول الله. وكان عبد الله بن أبي رأس المنافقين جالساً فيها. فلما تطاير غبار راحلة النبي ﷺ رفع ثوبه ووضعه على أنفه وقال لمحمد ﷺ: لا تغبّروا علينا. ولما اقترب رسول الله ﷺ قال: يا محمد، أبعد حمارك، فقد أزعجني ريحها. لكن النبي ﷺ

---

[1] صحيح البخاري، ص ٩٠٤.

[2] روى هذه الرواية كل من البيهقي وابن حبان و الطبراني وأبو نعيم. وقال السيوطي: إن سندها صحيح (شرح الشفاء لشهاب الخفاجي).

[3] جامع الترمذي، كتاب البيوع.

[4] البخاري، كتاب الجنائز.

سلم عليهم ثم نزل من على راحلته، ودعاهم للإسلام. فقال عبد الله بن أبي: يا أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا وارجع في رَحلك فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة الشاعر المشهور: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك. ثم تطور الحديث حتى أوشكت السيوف أن تُستل. لكن رسول الله ﷺ هدأ الفريقين. ثم قام من الجلسة وذهب لسعد بن عبادة وقال له: أي سعد ألم تسمع ما قال عبد الله بن أبي. فقال سعد: يا رسول الله أعف عنه واصفح فلقد أعطاك الله ما أعطاك ولقد اجتمع أهل هذه البحرة أن يتوجوه.[١]

حين كان رسول الله ﷺ يقسم مال الغنيمة في غزوة حنين، اعترض أحد الأنصار عليه وقال: إن هذا التقسيم ليس ابتغاء وجه الله. فلما سمعه النبي ﷺ قال: رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر.[٢]

ذات مرة جاء أعرابي إلى النبي ﷺ وهو جالس في المسجد. وكان الرجل يريد أن يقضي حاجته،[٣] ولم يكن يعرف آداب المسجد. لذا وقف وأخذ يقضي حاجته في المسجد. فهرول الناس من كل جانب لمعاقبته لكن النبي ﷺ قال لهم: دعوه وهريقوا على بوله سَجلا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين.[٤]

يقول أنس خادم النبي: ذات مرة أراد رسول الله ﷺ أن يرسلني في عمل فقلت: لن أذهب. فسكت رسول الله ثم خرجت. فجاءني رسول الله ﷺ من الخلف وأمسك بعنقي، فالتفت انظر إليه وإذا هو يضحك. ثم قال برفق ولين: يا أنيس، اذهب حيث أمرتك. فقلت: حسناً يا رسول الله سأذهب. يقول أنس وهو يحكي هذه الواقعة: خدمت رسول الله ﷺ سبع سنين لم يقل لي خلالها لما صنعت هذا ولما لم تصنع ذاك.[٥]

---

[١] صحيح البخاري، جـ٢، ص ٨٤٦.

[٢] المرجع السابق، غزوة حنين(ورد أن النبي ﷺ قال: رحم الله موسى قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر). (ج٣، ص٩٨). (المترجم).

[٣] كان يريد أن يتبول. (المترجم)

[٤] المرجع السابق، صـ ٣٥.(ورد في البخاري أن النبي ﷺ قال: دعوه وهريقوا على بوله سَجلا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين). (ج١، ص٩٩). (المترجم).

[٥] صحيح مسلم وأبو داود، كتاب الأدب.(يُروى عن أنس أنه قال: والله لقد خدمته سبع سنين أو تسع سنين ما علمت قال لشيء صنعت لم فعلت كذا وكذا، ولا لشيء تركت هلاّ فعلت كذا وكذا) (أبو داود، ج٢، ص٥٤٧.)(المترجم).

يقول أبو هريرة كانت عادة النبي ﷺ أن يجلس أمام الناس في المسجد ويخطب فيهم، وحين يعود للبيت نعود نحن أيضاً. وذات يوم خرج رسول الله ﷺ من المسجد حسب عادته فجاء أعرابي وجذب رداءه بشدة حتى احمرت رقبة للنبي ﷺ، فالتفت إليه، فقال الرجل: حمّل بعيري بالحبوب فليس المال الذي عندك مالك ولا مال أبيك، فقال له النبي ﷺ: "لا أُحمل لك حتى تقيدني من جذبتك التي جذبتني". فظل الرجل يكرر قسمه أنه لن يعطي العوض رسول الله. فقال النبي ﷺ: "احمل له بعيريه هذين على بعير شعيراً وعلى الآخر تمراً" ثم التفت إلينا فقال:" انصرفوا على بركة الله".[١]

كانت قريش والعياذ بالله تسب النبي ﷺ وتوبخه، وتقول له على سبيل التحقير: يا مذمّم بدلاً من أن تقول يا محمد (التي هي للمدح). ولكن النبي ﷺ كان يقول لأصحابه رداً على قريش: بأن الله تعالى يرد عنه ﷺ شتائم قريش. إنهم يشتمون المذمم ويلعنونه أما هو فمحمد ﷺ.[٢]

في الوقت الذي كان يعد فيه رسول الله ﷺ لفتح مكة كان يحتاط كثيراً حتى لا يتسرب الخبر لقريش. إلا أن أحد الصحابة وهوحاطب بن أبي بلتعة أراد أن يخبر قريشاً بذلك، لذا كتب لهم رسالة، وأرسلها خفية مع امرأة إلى مكة. فعرف النبي ﷺ ذلك. وأرسل علياً و الزبير رضى الله عنهما للإمساك بالمرأة والرسالة. واستدعى حاطب فاعترف بذنبه مباشرة. وأراد أن يعتذر فكان الموقف يستلزم من أي سياسي أن يعاقب المذنب؛ لكن رسول الله ﷺ سامحه لأنه كان ممن اشتركوا في بدر. كما لم يحدث للمرأة التي شاركته الذنب أي شيء.[٣] مع العلم بأن الرسالة لو وصلت الأعداء لواجه المسلمون مخاطر عديدة.

---

[١] أبو داود،كتاب الأدب، ورويت هذه الواقعة في البخاري ومسلم عن أنس باختلاف يسير.(ورد في الحديث أن النبيﷺ قال: "لا أُحمل لك حتى تقيدني من جذبتك التي جذبتني" والأعرابي يقول: والله لا أقيدكها. فقال النبيﷺ أحمل له بعيريه هذين على بعير شعيراً وعلى الآخر تمراً" ثم التفت إلينا فقال:" انصرفوا على بركة الله" (أبو داود، ج٢، ص٥٤٨.)(المترجم).

[٢] المشكاة، باب أسماء النبي ﷺ.

[٣] صحيح البخاري، فتح مكة.(ولقد ورد أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله دعني لأضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدر وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم). (البخاري، ج٣، ص٨٣). (المترجم).

كان ثمة شخص يدعى فرات بن حبان يعمل جاسوساً على المسلمين لصالح أبي سفيان. وكان يهجو رسول الله ﷺ بأبيات من الشعر، فأمر النبي ﷺ بالقبض عليه وقتله، فقبض الناس عليه. وحينما جاءوا به في إحدى ضواحي الأنصار قال: إني مسلم. فذهب أحد الأنصار وأخبر رسول الله أنه يقول: إني مسلم. فقال النبي ﷺ : إن منكم رجالاً نَكِلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حبان[1]. وقد ذكر المؤرخون أن فرات قد حسن إسلامه فيما بعد، وخصه رسول الله ﷺ بقطعة أرض في اليمامة كان إيرادها ٤٢٠٠ درهماً.[2]

العفو عن الأعداء وحسن المعاملة

أندر وأقل شيء وجوداً في ذخيرة أخلاق الإنسان هو العفو عن الأعداء والشفقة بهم. لكن هذا الشيء كان موجوداً بكثرة عند حامل الوحي والرسالة محمد ﷺ. ومع أن انتقام الإنسان من أعدائه شيء فطري في الإنسان إلا أن هذا الشيء محرم عند رسول الله ﷺ. حيث تتفق جميع الروايات على أن النبي ﷺ لم ينتقم من أحد قط. كان يوم فتح مكة هو أوضح وأجل مناسبة للانتقام من الأعداء، ولكن حين جاء هؤلاء الحاقدون ـ والذين كانوا متعطشين لشرب دماء النبي ﷺ، والذين لاقي على أيديهم ألوانا من العذاب ـ أمام النبي ﷺ عفا عنهم وقال : لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء.

كان "وحشي" قاتل حمزة ـ أسد الإسلام وأحب الأعمام إلى قلب النبي ﷺ ـ في مكة آنذاك وحين عم الإسلام مكة هرب وحشي إلى الطائف. ولما أذعنت الطائف للإسلام لم تعد مأمنا لوحشي، ولكنه سمع أن رسول الله ﷺ لا يقسو على السفراء، لذا لجأ العاجز (وحشي) إلى رحمة الله للعالمين محمد ﷺ واعتنق الإسلام. فلم يقل له ﷺ سوى: فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟[3]

جاءت هند زوج أبي سفيان ـ التي كانت قد شقت صدر حمزة وقطعت قلبه وكبده ـ يوم فتح مكة مستترة حتى لا يعرفها رسول الله ﷺ وحتى تبايعه على الإسلام دون أن يعرف وتحصل على الأمان، ولكنها في هذا الموقع أيضاً لم تلتزم الأدب. فقد

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد، باب الجاسوس الذمي. وقد روى سفيان الثوري هذا الحديث بطريقتين الأولى عن أبي همام الدلائل وهذه طريقة أبي داود. وهي ضعيفة والطريقة الثانية هي عن بشر بن سرى البصري وهي صحيحة. وقد نقل الإمام أحمد هذه الرواية في مسنده أيضاً.

[2] الإصابة ترجمة فرات.

[3] صحيح البخاري، قتل حمزة.(ورد أن النبي ﷺ قال لوحشي: فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟). (البخاري، ج٣، ص٣٥). (المترجم).

عرفها رسول الله ﷺ ولكنه لم يذكر لها شيئاً عن تلك الواقعة. فتأثرت من إعجاز النبي ﷺ وقالت له دون قصد: ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك[١].

كان عكرمة ابن عدو الإسلام أبي جهل قبل اعتناقه الإسلام مثل أبيه من أشد أعداء الإسلام. وقد فر يوم فتح مكة إلى اليمن. وكانت زوجه قد أسلمت وذهبت إليه في اليمن وطمأنته وجعلته يعتنق الإسلام. ثم جاءت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ نهض على الفور من فرط مسرته، وأسرع مهرولاً يستقبلهما حتى أن بردته الشريفة سقطت من على جسده[٢] وهو يقول له: **مرحباً بالراكب المهاجر.**[٣]

كان صفوان بن أمية، وهو من أكابر كفار قريش ومن ألد أعداء الإسلام قد استأجر عمير بن وهب لقتل رسول الله ﷺ، ولذا فر يوم فتح مكة إلى جدة خوفاً من الإسلام. ونوى أن يهرب إلى اليمن عن طريق البحر. فجاء عمير بن وهب رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله إن صفوان بن أمية سيد قبيلته، وقد هرب خوفاً منك ليلقى بنفسه في البحر. فأخبره النبي ﷺ بأن له الأمان. فقال: يا رسول الله أعطني علامة تأمينه حتى يثق بي إذا رآها. فأعطاه النبي ﷺ عمامته. فأخذها وذهب لصفوان. فقال صفوان: ولكني أخاف على نفسي من الذهاب هناك. فقال له عمير: إنك لم تعرف حتى الآن حلم وعفو رسول الله ﷺ فلما سمع هذا ذهب مع عمير إلى النبي ﷺ. وكان أول سؤال سأله لرسول الله ﷺ: يقول عمير إنك أعطيتني الأمان؟ فقال النبي ﷺ: نعم. قال صفوان: إذن فأمهلني شهرين. فقال النبي ﷺ: " أنت بالخيار أربعة أشهر". فأعلن إسلامه بعد ذلك بطيب خاطر. وقد وردت هذه الواقعة تفصيلاً في ابن هشام.

كان هبار بن الأسود قد آذى السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ كثيراً، فقد كانت حاملاً أثناء هجرتها من مكة إلى المدينة. وقد اعترضها الكفار فأسقطها هبار بن الأسود من على الراحلة فأصيبت بجرح عميق وسقط حملها. إضافة إلى أنه ارتكب بعض الجرائم الأخرى؛ لذا كان ضمن من أُحل دمهم يوم فتح مكة، فأراد الهروب إلى إيران. لكن النبي ﷺ استماله إليه فذهب لرسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله أريد أن أهرب إلى إيران

---

[١] صحيح البخاري، ذكر هند.

[٢] الموطأ، الإمام مالك، كتاب النكاح.

[٣] المشكاة، كتاب الأدب نقلاً عن الترمذي.

ولكني تذكرت حلم وعفو رسول الله ﷺ، وما سمعته عني فهو صحيح، واعترف بجهلي وذنبي، والآن جئت لأتشرف بالإسلام. وكان باب الرحمة مفتوح ولم يكن هناك تمييز بين حبيب وعدو.[1]

كان أبو سفيان قبل إسلامه ــ كما هو معروف ــ سبب أكثر الحروب التي خاضها المسلمون منذ بدر حتى فتح مكة. وكل حرف من أحرف الغزوات النبوية شاهد على هذا. لكنه حينما أُسر يوم فتح مكة وجاء به العباس رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ. قابله رسول الله ﷺ بكل حب ولين. وكان عمر رضي الله عنه قد نوى قتله جزاء جرائمه السابقة، لكن رسول الله ﷺ منعه. ليس هذا فحسب بل جعل بيته قبلة للأمن والأمان فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.[2] فهل فعل أي منتصر مع عدوه مثل هذا؟

كانت كل قبائل العرب تتجمع تحت راية الإسلام طوعاً. وإن كانت هناك قبيلة قد تمادت في طغيانها حتى النهاية فهي قبيلة بني حنيفة التي كان مسيلمة قد أدعى فيها النبوة. وكان ثمامة بن آثال واحد من سادة هذه القبيلة. ومصادفة سقط في أيدي المسلمين فأخذوه للمدينة، فأمر رسول الله ﷺ بربطه في سارية من سواري المسجد، ثم ذهب النبي ﷺ بعد ذلك إلى المسجد وسأله عم يقول؟ قال :يا محمد إن تقتلني ستكون سفاك، وإن تحسن فسيكون إحسان على ممنون أو شاكر، وإن تريد فدية فاطلب وسأعطيك ما تقول. فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك ظل صامتاً. وفي اليوم الثاني تكرر نفس الأمر. وفي اليوم الثالث حينما أجاب بنفس الجواب أمر رسول الله ﷺ أن يُفك قيده ويطلق سراحه. فكان أثر هذا الصنيع الذي لم يتوقعه ثمامة أن ذهب تحت شجرة واغتسل ثم عاد للمسجد وأعلن إسلامه. وقال: يا رسول الله ما كان أحد أبغض إلي منك في الدنيا والآن ما أحد أحب منك إلي في الدنيا. وما كان دين أبغض إلي من دينك والآن هو أحب الأديان إلي، ولم تكن هناك مدينة أبغض إلي من مدينتك ولكنها الآن أحب المدن إلي.

ليس ثمة داعٍ لتكرار الحديث عن ظلم وقسوة قريش، وربما نذكر كيف أن هؤلاء الظلمة قد حاصروا رسول الله ﷺ وأهله في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات. لدرجة أنه لم يصل الرسول ﷺ والمسلمين حبة قمح واحدة. فكان الأطفال يبكون ويتضورون، جوعا بينما القاسية قلوبهم يضحكون ويفرحون من سماع أصواتهم. ومعلوم كذلك ما

---

[1] ابن إسحاق. والإصابة، ذكر هبار.

[2] صحيح البخاري وصحيح مسلم، فتح مكة مع فتح الباري.

صنعه رسول الله لهم مقابل هذا؟ فقد كانت الحبوب تأتي مكة من اليمامة وكان ثمامة بن آثال سيد اليمامة. فلما أسلم وذهب مكة لامته قريش على إسلامه فقال من غضبه: والله لن تحصلوا على حبة قمح واحدة إلا أن يأذن رسول الله ﷺ. فحدث في مكة بسبب هذه الحصار مجاعة. وفي النهاية اضطرت قريش للرجوع لذلك الباب الذي لم يُرد عنه أي سائل. فعطف رسول الله عليهم وأرسل رسالة لثمامة: أن فك عنهم الحصار، فبدأت الحبوب تصلهم كما كان معتاد.[1]

سلوكه مع الكفار والمشركين

وردت وقائع كثيرة عن حسن سلوك النبي ﷺ مع الكفار، ولكن يدعي المستشرقون أن هذه الوقائع لم تكن إلا في وقت كان فيه الإسلام ضعيفا. ولم يكن لها مبررا سوى المجاملة والمودة. لذا لن نذكر تحت هذا العنوان سوى هذه الوقائع التي وقعت في وقت كانت فيه قوى المخالفين قد خارت واكتملت فيه قوة وسيطرة رسول الله ﷺ.

يقول أبو بصرة الغفاري أنه حينما كان كافراً نزل ضيفاً على رسول الله بالمدينة، وشرب لبن كل أغنام البيت ليلاً. ولم يقل له رسول الله ﷺ شيئا وبات كل أهل بيت رسول الله جياعا. وهذه واقعة أخرى من هذا النوع يرويها أبو هريرة فيقول: حل كافر ضيفاً على رسول الله ﷺ فقدم له رسول الله ﷺ لبن شاة فشربه، فقدم له النبي لبن الشاة الثانية فشربه أيضاً، ثم لبن الثالثة فلبن الرابعة حتى أن رسول الله ﷺ حلب له سبع شياه فشرب لبنها جميعاً. ومع ذلك لم يظهر من رسول الله أي تكدر. وربما كان من أثر هذا الخلق الحسن أن أسلم الرجل صباحاً واكتفى بلبن شاة واحدة.[2]

تقول السيدة أسماء رضي الله عنها أن أمها التي كانت مشركة وقت صلح الحديبية، جاءت المدينة تطلب المساعدة والعون، فلم تعرف أسماء كيف تتعامل معها وهي مشركة، فذهبت لرسول الله ﷺ وسألته، فقال لها النبي ﷺ: نعم صلي أمك.[3] وكانت أم

---

[1] وردت واقعة ثمامة في صحيح البخاري، ص ٦٢٧، باب وفد بني حنيفة، ووردت آخر جملة منها في ابن هشام.

[2] جامع الترمذي، باب إن المؤمن يأكل في معي واحد.

[3] صحيح البخاري، باب صلة الوالد المشرك.(ورد أن النبي ﷺ قال لأسماء:" نعم صلي أمك").(ج٤، ص٧٥). (المترجم).

أبي هريرة كافرة، وكانت تعيش مع ابنها في المدينة، وكانت تسب النبي ﷺ عن جهـل، ويقول أبو هريرة: إن رسول الله ﷺ دعا لها بدلاً من أن يغضب منها ويغتاظ.[1]

كانت نقود النبي ﷺ كلها مع بلال الذي يقوم بأعمال بيت الرسـول ﷺ، فكانـت النقود كلها معه. وفي حالة الإفلاس كان يقترض البضاعة من السوق وحين يأتيه المـال يسدد ديونه. وذات مرة كان ذاهباً للسوق فرآه مشرك فقال له: إن كنت مقترضاً فاقترض مني . فقبل بلال. وذات يوم وقف بلال يؤذن فجاءه ذاك المشرك مع نفر من التجار وقال له: أيها العبد الحبشي! فرد بلال على سؤاله الأحمق بقوله: لبيك. فقال المشرك :هل مـن جديد؟ فقد تبقت أربعة أيام على موعد الدين وإن لم تؤد القرض لن أتركـك إلا بعـد أن ارتعي منك الغنم. فصلى بلال العشاء ثم ذهب لرسول الله وحكى له كل ما جرى. ثم قال: ليس معي أي شيء يا رسول الله. وغداً يأتي المشرك ويفضحني، لذا ائذن لي أن أخـرج إلى أي مكان، ثم أعود حين يؤدى الدين. خلاصة القول أنه ذهب ونام ليلة بعد أن وضع أمتعة السفر من حقيبة ونعل وترس تحت رأسه، وفي الصباح نهض، وبينما هو يسـتعد للسفر جاءه شخص مهرولاً وقال له: رسول الله ﷺ يناديك. فذهب بلال فرأى أربعة جمال محملة بالحبوب واقفة على الباب. فقال له النبي ﷺ : أَبْشِرْ فَقَدْ جَاءَكَ الله تَعَالَى بِقَضَائِكَ، فذهب بلال إلى السوق وباع كل هذه الأشياء ثم عاد للمسجد النبـوي بعـد أن أدى ديـن المشرك وقال: قَدْ قَضَى الله تَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ.[2] وقد حدثت هذه الواقعة بعد فتح فدك فـي

---

[1] صحيح البخاري.

[2] أبو داود، ج٢، باب قبول هدايا المشركين.وهذا نص الحديث كاملا: (٣٠٥٧) حدثنا أَبُو تَوْبَةَ الرَّبِيـعُ بنُ نَافِعٍ أخبرنا مُعَاوِيَةُ يَعْنِي ابنَ سَلاَّمٍ عنْ زَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلاَّمٍ قالَ حدَّثَنِي عَبْدُ الله الْهَوْزَنِيُّ، قَالَ: « لَقِيتُ بِلاَلاً مُؤَذِّنَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِحَلَبَ، فَقُلْتُ يَابِلاَلُ حَدِّثْنِي كَيْفَ كَانَتْ نَفَقَةُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم؟ قَالَ: مَا كَانَ لَهُ شَيْءٌ كُنْتُ أَنَا الَّذِي أَلِي ذَلِكَ مِنْهُ مُنْذُ بَعَثَهُ الله تَعَالَى حَتَّى تُـوُفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، وكَانَ إِذَا أَتَاهُ الإِنْسَانُ مُسْلِماً فَرَآهُ عَارِياً يَأْمُرُنِي فَأَنْطَلِقُ فَأَسْـتَقْرِضُ فَأَشْتَرِي لَهُ الْبُرْدَةَ فَأَكْسُوهُ وَأُطْعِمُهُ حَتَّى اعْتَرَضَنِي رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فقَالَ: يَابِلاَلُ إِنَّ عِنْدِي سَعَةً فَلاَ تَسْتَقْرِضْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ مِنِّي، فَفَعَلْتُ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ تَوَضَّأْتُ ثُمَّ قُمْتُ لأُؤَذِّنَ بِالصَّلاَةِ فَإِذَا الْمُشْرِكُ قَدْ أَقْبَلَ فِي عِصَابَةٍ مِنَ التُّجَّارِ، فَلَمَّا أَنْ رَآنِي قَالَ: يَاحَبَشِيُّ، قُلْتُ: يَالَبَّاهُ، فَتَجَهَّمَنِي وَقَالَ لِي قَوْلاً غَلِيظاً وَقَالَ لِي: أَتَدْرِي كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّهْرِ؟ قَالَ قُلْتُ: قَرِيبٌ، قَالَ: إِنَّمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَرْبَعٌ فَآخُذُكَ بِالَّذِي عَلَيْكَ فَأَرُدُّكَ تَرْعَى الْغَنَمَ كَمَا كُنْتَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَأَخَذَ فِي نَفْسِي مَا يَأْخُذُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ حَتَّى إِذَا صَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ رَجَعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لِي، فَقُلْتُ يَارَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إِنَّ الْمُشْرِكَ الَّذِي كُنْتُ أَتَدَيَّنُ مِنْهُ قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا وَلَيْسَ عِنْدَكَ مَا تَقْضِي عَنِّي وَلاَ عِنْدِي وَهُـوَ فَاضِحِي فَأْذَنْ لِي أَنْ آبَقَ إِلَى بَعْضِ هؤُلاَءِ الأَحْيَاءِ الَّذِينَ قَدْ أَسْلَمُوا حَتَّى يَرْزُقَ الله تَعَالَى رَسُولَهُ صلى

السنة السابعة للهجرة. ومع أن بلال كان من المقربين لرسول الله ﷺ والمسئول عن أمور بيته، وناداه المشرك وقال له: أيها الحبشي لن أتركك إلا بعد أن ارتعي منك الأغنام. وأراد بلال الهرب خوفاً من ظلم اليهودي، وكان النبي ﷺ يسمع هذا الكلام. لكنه على الرغم من ذلك لم يتكلم في حق ذاك اليهودي ولو بلفظ واحد. وإذ كان النبي يدبر مخرجاً لبلال تأتي الحبوب فجأة ويؤدي دين المشرك. ويعفو عن سوء خلق وقسوة المشرك. فممن يصدر هذا الحلم والعفو سوى ممن بعثه الله رحمة الله للعالمين، محمد ﷺ؟

كانت قضية المنافقين أصعب قضية، إذ أنهم كانوا جماعة من الكفار يرأسهم عبد الله بن أبي. وكانت المدينة بأسرها قد اتفقت في الفترة التي هاجر فيها رسول الله ﷺ للمدينة أن يكون عبد الله سيداً للمدينة كلها. وقد أعلن عبد الله إسلامه بعد غزوة بدر، لكنه كان ما يزال كافر القلب، وهكذا أسلم متبعوه ظاهرياً وكونوا جماعة من المنافقين، فكانت هذه الجماعة تدبر كل المكائد ضد الإسلام، وتتآمر مع قريش ومع بقية القبائل ويخبرونهم بخفايا وأسرار المسلمين. وكانوا على الرغم من ذلك يؤدون شعائر الإسلام، فكانوا يشتركون في الجمعة والجماعة والغزوات. ومع أن النبي ﷺ كان واقفاً بكل حالاتهم وأسماءهم؛ لكن لأن الشريعة وأحكام القانون لا تتعلق بأسرار القلب بل بظاهر الأعمال؛ لذا لم يصدر النبي ﷺ عليهم أحكام الكفر. وهذا فيما يتعلق بالشريعة والقانون، أما فيما يتعلق بسعة القلب والحلم والعفو فقد كان النبي ﷺ يتعامل معهم بأخلاق حسنة دائماً.

الله عليه وسلم مَا يَقْضِي عَنِّي، فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا أَتَيْتُ مَنْزِلِي فَجَعَلْتُ سَيْفِي وَجِرَابِي وَنَعْلِي وَمِجَنِّي عِنْدَ رَأْسِي حَتَّى إِذَا انْشَقَّ عَمُودُ الصُّبْحِ الأَوَّلِ أَرَدْتُ أَنْ أَنْطَلِقَ فَإِذَا إِنْسَانٌ يَسْعَى يَدْعُو: يَابِلاَلُ أَجِبْ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ فَإِذَا أَرْبَعُ رَكَائِبَ مُنَاخَاتٍ عَلَيْهِنَّ أَحْمَالُهُنَّ، فَاسْتَأْذَنْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَبْشِرْ فَقَدْ جَاءَكَ الله تَعَالَى بِقَضَائِكَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ تَرَ الرَّكَائِبَ الْمُنَاخَاتِ الأَرْبَعِ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: إِنَّ لَكَ رِقَابَهُنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ، فَإِنَّ عَلَيْهِنَّ كِسْوَةً وَطَعَاماً أَهْدَاهُنَّ إِلَيَّ عَظِيمُ فَدَكَ، فَاقْبِضْهُنَّ وَاقْضِ دَيْنَكَ، فَفَعَلْتُ. فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. ثُمَّ انْطَلَقْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قَاعِدٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ مَا قِبَلَكَ؟ قُلْتُ: قَدْ قَضَى الله تَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ كَانَ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ. قَالَ: أَفَضَلَ شَيْءٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: انْظُرْ أَنْ تُرِيحَنِي مِنْهُ فَإِنِّي لَسْتُ بِدَاخِلٍ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي حَتَّى تُرِيحَنِي مِنْهُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم الْعَتَمَةَ دَعَانِي فَقَالَ: مَا فَعَلَ الَّذِي قِبَلَكَ؟ قَالَ قُلْتُ: هُوَ مَعِي لَمْ يَأْتِنَا أَحَدٌ، فَبَاتَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فِي الْمَسْجِدِ وَقَصَّ الْحَدِيثَ، حَتَّى إِذَا صَلَّى الْعَتَمَةَ - يَعْنِي مِنَ الْغَدِ - دَعَانِي قَالَ: مَا فَعَلَ الَّذِي قِبَلَكَ؟ قَالَ قُلْتُ: قَدْ أَرَاحَكَ الله مِنْهُ يَارَسُولَ الله، فَكَبَّرَ وَحَمِدَ الله شَفَقاً مِنْ أَنْ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ وَعِنْدَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ اتَّبَعْتُهُ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَزْوَاجَهُ فَسَلَّمَ عَلَى امْرَأَةٍ امْرَأَةٍ حَتَّى أَتَى مَبِيتَهُ. فَهَذَا الَّذِي سَأَلْتَنِي عَنْهُ». (المترجم).

ذات مرة لطم أحد المهاجرين أنصارياً في إحدى الغزوات. فقال الأنصاري: يـا للأنصار؛ أي أنه استعان بالأنصار. وكذا استغاث المهاجر بالمهاجرين. وأوشك الفريقان أن يستلا سيوفهما، لكن النبي ﷺ قال: ما بالُ دعوَى جاهلية. فتوقف الفريقان. فلما سـمع عبد الله بن أبي ذلك قال: لَئِنْ رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وقال رفاقه: الأمر هين سنكف عن مساعدة المهاجرين حتى يهلكوا بأنفسهم. لذا وردت هذه الواقعة في القرآن :

"هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا" (المنافقون:٧)

"يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل" (المنافقون:٨)

فأرسل رسول الله ﷺ يستدعي عبد الله بن أبي فسأله؟ فأنكر. وكان عمر موجوداً فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: دعه لا يتحـدث الناس إن محمداً يقتل أصحابه.[1] وفي غزوة أحد ولى عبد الله بن أبي هو وثلاثـة مائـة رجل أدبارهم وقت وطيس المعركة. فلحقت بقوة المسلمين صدمة كبيرة من جراء ذلـك. لكن رسول الله ﷺ عفا عنهم (وحينما مات عبد الله بن أبي أعطاه العباس قميصه إحسـاناً عليه، وأعطاه النبي ﷺ قميصه وكفنه فيه رغم اعتراض المسلمين).[2]

سلوكه مع اليهود والنصارى

ليس هناك أي تمييز بين الكافر والمسلم، ولا بين الصديق والعدو، ولا بين القريب والبعيد في الأخلاق. ويشبه هذا تماماً هطول المطر على الصحارى والحدائق على السواء

---

[1] صحيح البخاري، تفسير سورة المنافقون.وهذا نص الحديث: (٤٧٨٥) حدَّثنا عليٌّ حدَّثنا سفيانُ قـال عمرو: سمعتُ جابر بن عبد الله رضي اللّهُ عنهما قال: «كنَّا في غَزاة ــ قال سفيان مَرة في جيش ــ فكَسعَ رجلٌ من المهاجرينَ رجلاً منَ الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصار، وقال المهـاجريُّ: يـا لَلْمهاجرين. فسمع ذاك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما بالُ دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رَسـولَ الله كَسعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دَعُوهَا فإنها مُنْتِنَةٌ. فسمع بذلك عبدُ الله بن أُبيّ فقال: فَعَلوها؟ أما والله لئن رَجَعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَن الأعزُّ منها الأذلّ. فبلغ النبيَّ صلى الله عليـه وسلم فقامَ عُمرُ فقال: يا رسولَ الله دَعني أضربْ عُنقَ هذا المنافق، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسـلم: دَعْهُ، لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمداً يقتلُ أصحابَه وكانت الأنصارُ أكثرَ منَ المهاجرين حينَ قَدموا المدينة، ثم إنَّ المهاجرين كثرُوا بَعْدُ». قال سفيانُ: «فحفظته من عَمرو، قال عَمرو: سمعتُ جابراً كنَّا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم..». (المترجم).

[2] وردت هذه الواقعة في البخاري بطرق وروايات عديدة.(ورد أن ابنه عبد الله جاء إلى النبيﷺ وقال: أعطني قميصك أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له، فأعطاه النبيﷺ قميصه)(ج١، ص٣٣٩.)(المترجم).

(والعداوة الشديدة التي كانت عند اليهود ضد رسول الله تشهد بها كل الوقائع حتى غزوة خيبر)، لكن النبي ﷺ ظل يقلدهم حتى فترة ما في الأمور التي لم يتنزل فيها حكم خاص.[١]

قال يهودي ذات مرة في مجمع من الناس: والذي فضل موسى على كل الأنبياء، وكان في الجمع صحابي يسمع كلامه فغضب وسأله: وهل فضله حتى على محمد ﷺ؟ فقال اليهودي: نعم. فغضب الصحابي ولطمه لطمة. ولكن لأن الأعداء أنفسهم كانوا يثقون في عدل وحسن خلق النبي ﷺ، لذا ذهب هذا اليهودي للنبي ﷺ مباشرة وقص عليه الواقعة. فاستدعى النبي ﷺ الصحابي وعنفه.[٢]

ذات مرة مرض ولد ليهودى فذهب النبي ﷺ لعيادته ودعاه إلى الإسلام. فنظر الطفل لوالده وكأنه يريد أن يعرف رأيه. فقال له أبوه: أطع أبا القاسم ﷺ فاسلم الطفل.[٣] وذات مرة مرت جنازة يهودي في الطريق فهب رسول الله ﷺ واقفاً.[٤]

مرة جاء نفر من اليهود رسول الله ﷺ وقالوا له بدلاً من السلام عليكم السام عليكم (أي عليكم الموت) فغضبت السيدة عائشة وأجابتهم إجابة قاسية أيضاً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مَهلاً يا عائشة، إن اللّه تعالى يحب الرفقَ في الأمرِ كلِّه.[٥] كان النبي ﷺ يلتزم العدل مع اليهود ويتحمل مطالبهم غير العادلة وشتائمهم. ولو حدث خلاف بين اليهود والمسلمين في المعاملات فلا يتحيز بلا حق للمسلمين. ووردت أمثلة كثيرة من مثل هذا الأمر تحت عناوين مختلفة. فذات مرة جاء يهودي واشتكى وقال: يا محمد انظر فقد لطمني مسلم. فاستدعى النبي ﷺ ذاك المسلم وزجره. وحينما قدم وفد النصارى المدينة من

---

[١] البخاري.

[٢] المرجع السابق.

[٣] صحيح البخاري، كتاب الجنائز.

[٤] صحيح مسلم، كتاب الأدب، جـ٢، ص ٢٣٩، طبعة مصر.

[٥] وهذا نص الحديث: (٦٢٤٨) ـــ حدَّثنا عبدُ اللّه بن محمد حدثنا هشامٌ أخبرنا مَعمرٌ عنِ الزهري عن عروةَ عن عائشة رضيَ اللّهُ عنها قالت: «كان اليهودُ يُسلِّمون على النبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولون: السامُ عليكم. ففطنت عائشة رضي اللّه عنها إلى قولهم فقالت: عليكمُ السامُ واللعنة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مَهلاً يا عائشة، إن اللّه تعالى يحب الرفقَ في الأمرِ كلِّه. فقالت: يا نبي اللّه أولمْ تَسمعْ ما يقولون؟ قال: أوَ لم تسمعي أني أردُّ ذلك عليهم فأقول: وعليكم». (المترجم).

نجران، قام النبي ﷺ على خدمتهم وأنزلهم المسجد النبوي، بل وأجاز لهم أن يصلوا على طريقتهم في المسجد. وحينما أراد المسلمون منعهم من ذلك اعترضهم الرسول ﷺ.[1]

وكان النبي ﷺ قد أجاز الأكل والشرب والزواج والعيش مع اليهود والنصارى. وكان يجري لهم أحكاماً خاصة بهم في الشريعة الإسلامية.

حب الرسول ﷺ وشفقته على الفقراء

كان من المسلمين الغني والفقير، لكن سلوك النبي ﷺ كان متساوياً مع الجميع، بل إنه كان يقابل الفقراء بطريقة لا تجعلهم يتأثرون بسبب حرمانهم من الثروة الدنيوية. وذات مرة صدر بطبيعة البشر من النبي ﷺ فعل مخالف لهذا. فقد حدث أن جاء النبي بعض أكابر قريش وهو في مكة. وكان النبي يدعوهم للإسلام. وفجأة جاء عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الفقير، فدخل عليهم وجلس معهم وأخذ يتكلم مع رسول الله ﷺ، ولأن سادة قريش كانوا متكبرين مغرورين لذا غضبوا من المساواة بينهم وبين ابن أم مكتوم، لكن النبي ﷺ لم يهتم بأمر ابن أم مكتوم وظل يتكلم مع سادة قريش على أمل أنهم سيعتنقون الإسلام وتتعرف قلوبهم على لذته. لكن الله تعالى لم يرضه هذا التمييز وأنزل الآيات التالية: "عبس وتولى۞ أن جاءه الأعمى۞ وما يدريك لعله يزكى۞ أو يذكر فتنفعه الذكرى۞ أما من استغنى۞ فأنت له تصدى۞ وما عليك ألا يزكى۞ وأما من جاءك يسعى۞ وهو يخشى۞ فأنت عنه تلهى۞ كلا إنها تذكرة۞ فمن شاء ذكره۞". (عبس:١-١٢)[2]

هكذا كان هؤلاء الفقراء والمفلسين أوائل الفدائيين في الإسلام. وكان النبي ﷺ يصحبهم ويصلي معهم في الحرم. وحينما يراهم سادة قريش يهزءون من شكلهم وفقرهم ويقولون كما ذكر القرآن: أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا"، لكن النبي ﷺ كان يقابل استهزاءهم بصدر رحب. وكان سعد بن أبي وقاص عالي الطبع يعتبر نفسه أعلى من الفقراء، فأعلمه النبي ﷺ بأن ما تيسر له من العزة والثروة هو بفضل هؤلاء الفقراء.[3] وأخبر ﷺ أسامة بن زيد بأنه ﷺ وقف على باب الجنة فرأي أن أكثر داخليها من الفقراء والمساكين.[4]

---

[1] زاد المعاد.

[2] الترمذي، تفسير سورة عبس.

[3] المشكاة، باب فضل الفقراء برواية صحيح مسلم.

[4] ذكر الاقتباس براوية البخاري ومسلم.

يروى عبد الله بن عمرو بن العاص: كنت ذات مرة جالساً في المسجد النبوي وفقراء المهاجرين جالسين في شكل حلقة في ناحية أخرى. فجاء النبي ﷺ في تلك الأثناء وجلس معهم، فلما رأيت ذلك قمت من مكاني وذهبت فجلست معهم. فأخبر النبي بأن فقراء المهاجرين سيدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين سنة. يقول عبد الله بن عمرو رأيت وجوه المهاجرين قد برقت بعد ما سمعوا هذه البشرى، وتحسرت أنا على أنني لست منهم.[1]

كان النبي ذات مرة جالساً في مجلس ومر عليه رجل، فسأل النبي ﷺ عنه شخصاً بجواره. فقال: إنه من الأمراء يا رسول الله وإنه لأهل إذا تقدم لزواج أن يُقبل، وإن شفع لأحد أن تُقبل شفاعته. فلما سمع النبي ﷺ هذا سكت. وبعد قليل مر رجل آخر في الطريق فسأل النبي ﷺ عنه، فقال له المسئول: يا رسول الله إنه رجل من فقراء المهاجرين يا رسول الله، وإنه إن تقدم لخطبة رُد، وإن شفع لأحد لا تُقبل شفاعته، ولو أراد قول شيء لا يُسمع منه. فأخبر النبي ﷺ بأنه لو أن أغنياء الدنيا جميعا مثل ذاك الغني، فإن هذا الفقير الواحد أفضل منهم جميعاً.[2]

كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يدعو ويقول: اللهم أحييني مسكيناً وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين. فسألته السيدة عائشة وقالت: لماذا يا رسول الله؟ فأخبر النبي ﷺ بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء. ثم قال يا عائشة: لا تردي مسكيناً عن بابك حتى وإن لم يكن عندك إلا شق تمرة. يا عائشة أحبي المساكين وأدنيهم منك يُدنيك الله منه.[3]

ذات مرة جاء فقراء من المسلمين إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل سيفضلنا الأغنياء في الآخرة أيضاً؟ فهم يصلون ويصومون كما نصلي ونصوم. ولكنهم يثابون على الصدقات ونحن محرومون من ذلك. فقال النبي ﷺ : " ألا أحدثكم إن أخذتم أدرتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله ". فقالوا: بلى يا رسول الله. فقال النبي: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين". ولكن بعد بضعة أيام جاء نفر من الفقراء للنبي ﷺ وقالوا له: يا رسول الله

---

[1] نقلاً عن الدارمي.

[2] نقلاً عن صحيحي البخاري ومسلم.

[3] المشكاة، باب فضل الفقراء نقلاً عن الترمذي وابن ماجة.

لقد سمعنا الأغنياء وبدءوا يقولون كما نقول. فقال النبي ﷺ: **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.**[1] أما الزكاة التي كانت تؤخذ من المسلمين فقد قال فيها رسول الله ﷺ: **تؤخذ من أمرائهم وترد على فقرائهم.**

وكان الصحابة يلتزمون بذلك بشدة ولا يرسلون زكاة مكان لمكان آخر.[2]

وقد وردت هذه الواقعة تفصيلاً في الحديث عن المساواة. وهي أن أبا بكر ذات مرة اغضب سلمان وبلال رضي الله عنهما، واللذين يعدان من فقراء المهاجرين وذلك بسبب شيء ما، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: إنك ما أغضبت هؤلاء الناس؟[3] فلما سمع أبو بكر هذا ذهب إليهما وطلب منهما السماح والعفو فعفا عنه.

كانت هناك امرأة تعيش في عوالي، وقد مرضت لدرجة لم يكن هناك أي أمل في شفاءها، وكان يتوقع أن تموت في أي وقت من النهار، فأخبر النبي ﷺ الناس بأنه إذا ماتت هذه المرأة فسيصلي هو عليها صلاة الجنازة قبل أن تدفن. وتصادف أن توفيت المرأة ليلاً. وحينما أعدت الجنازة كان رسول الله ﷺ نائماً. فرأى الصحابة عدم إزعاجه في مثل هذا الوقت ودفنوا المرأة ليلاً. فلما أصبح رسول الله ﷺ سأل عنها فقال له الناس ما جرى. فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك نهض واصطحب معه أصحابه ثم ذهب إلى قبرها وصلى عليها صلاة الجنازة مرة ثانية.[4]

يقول جرير: ذات يوم كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ في أول النهار، فجاءته قبيلة مسافرة. وكانت حالتها سيئة للغاية، فلم يكن على أجساد أهل تلك القبيلة أي رداء فكانت أجسامهم شبه عارية. وأقدامهم حافية ملفوفة أبدانهم بالجلد. معلقة سيوفهم في أعناقهم. فلما رأى النبي ﷺ حالتهم هذه تأثر تأثراً بالغاً حتى تغير لون وجهه الشريف. ومن كثرة اضطرابه دخل ثم خرج ثم طلب من بلال أن يؤذن للصلاة. وبعدها خطب في المسلمين، ودعاهم جميعاً إلى مساعدة هذه القبيلة بأسرها.[5]

---

(1) صحيح البخاري ومسلم، باب استحباب الذكر بعد الصلاة.

(2) أبو داود، الزكاة.

(3) يشير هنا إلى أن إغضابهما يغضبه ﷺ، (المترجم).

(4) وردت هذه الواقعة في البخاري وغيره. ولكنها نقلت من سنن النسائي، كتاب الجنائز، باب الصلاة في الليل.

(5) صحيح مسلم، باب الصدقات.

العفو عن الأعداء

لا نجد العدل والعفو والسماح عن الأعداء والمتآمرين إلا في صحيفة أخلاق الأنبياء. ففي الليلة التي هاجر فيها رسول الله ﷺ كان كفار قريش قد أجمعوا أمرهم على قتله صباحاً، ومن ثم حاصرت كتيبة منهم بيت رسول الله ﷺ ليلتها، ومع أن النبي ﷺ لم يكن يملك القوى المادية للانتقام منهم حينذاك، لكن جاء بعد ذلك وقت كانت رقبة كل واحد منهم خاضعة تحت سيف الإسلام، وكانت روح كل واحد منهم رهينة كرم وعطف النبي ﷺ، ولكن بالرغم من ذلك كان كل واحد منهم يعرف أن النبي ﷺ لن يقتل منهم أحد جراء ما ارتكبوه.

لقد قررت قريش يوم هجرة النبي ﷺ قيمة لرأس رسول الله ﷺ، وقالت: سيُعطي لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً مائة ناقة. وكان سراقة بن جعشم أول شخص خرج راكباً فرسه ماسكاً رمحه بيده باحثاً عن رسول الله ﷺ حتى دنى منه. ولما رأى في النهاية إعجاز رسول الله ﷺ أقلع عن قصده، وطلب أن تعطى له وثيقة الأمان، فأعطى له سند الأمان.[١] وبعد ذلك بثمان سنوات دخل في الإسلام يوم فتح مكة ولم يسأل قط عن أي جرم ارتكبه.[٢]

كان عمير بن وهب من أشد أعداء النبي ﷺ. فحينما هرعت قريش جميعها للانتقام لقتلى بدر استأجر صفوان بن أمية عميرًا ووعده بجائزة كبرى، وأرسله إلى المدينة كي يتخفى ويقتل ــ نعوذ بالله ــ النبي ﷺ، فغمس عمير سيفه في السم ثم ذهب إلى المدينة، ولكن الناس هناك عرفوه بمجرد أن رأوا نظراته، وأراد عمر؄ قتله لكن رسول الله ﷺ منعه من ذلك، ثم أجلسه بجانبه وتكلم معه حتى عرف منه سبب مجيئه، فاعترى عمير الخوف، لكن رسول الله لم يأذه ولم يتعرض له. فلما رأى عمير ذلك أسلم وعاد ينشر الإسلام في مكة. حدث ذلك سنة ٣ هـ.[٣] وذات مرة كان رسول الله ﷺ عائداً من غزوة، وفي الطريق كانت هناك مزرعة استراح الجند تحت الأشجار بسبب الحر الشديد . وكذلك نام النبي ﷺ تحت شجرة بعد أن علق سيفه في فرع الشجرة، وكان الكفار يتربصون بالمكان، فلما رأوا الناس قد ناموا خرج أعرابي من إحدى النواحي ونزع سيف رسول

---

[١] صحيح البخاري، باب البخرة.

[٢] انظر في حال سراقة بن مالك بن جشعم المديحي في الاستعاب والإصابة وغيرهم.

[٣] تاريخ الطبري، برواية عروة بن زهر

الله. فتيقظ رسول الله فجأة ورأى الأعرابي واقفا على رأسه والسيف مسلول في يده. فلما رأى الأعرابي أن النبي ﷺ قد تيقظ قال له: يا محمد من يعصمك مني، فقال النبـي: الله. فلما سمع الرجل صوت النبي المؤثر أغمد السيف. وفي أثناء هذا جاء الصحابة، فقص النبي عليهم القصة ولم يؤذ الأعرابي.[١]

ذات مرة أراد رجل قتل رسول الله ﷺ. فقبض الصحابة عليه وذهبوا به إلى رسول الله ﷺ. فلما رأى الرجل النبي ﷺ خاف فهدأه النبيﷺ وأخبره ﷺ بأنه إن كان يريد قتله ﷺ ما كان ليستطيع.[٢]

نزلت كتيبة مكونة من ثمانين رجلاً متخفين على جبل التنعيم إبّان صلح الحديبية، وأرادوا قتل رسول الله ﷺ خفية. وتصادف أن تم القبض عليهم، ولكن النبـي ﷺ أطلق سراحهم ولم يؤذهم. وقد نزلت الآية الكريمة هذه بهذه المناسبة:[٣]

"وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم" (الفتح:٢٤).

وفي خيبر دست يهودية السم لرسول الله في الطعام. فلما أكل رسول الله ﷺ شعر بتأثير السم. فاستدعى اليهودية وسألها، فأقرت بفعلتها، لكن النبي ﷺ لم يصنع لها شيئاً. ولكن حينما توفى أحد الصحابة بتأثير السم، اقتص الرسول من اليهودية فقط. (على الرغم من أنه ﷺ ظل متأثراً بالسم حتى الوفاة).[٤]

الدعاء للأعداء

الدعاء على الأعداء شيء فطري في الإنسان، لكن الأنبياء أسمى من هذا بمراحل، فهم يدعون بالخير لمن يسبونهم ويحسنون لمن يريدون قتلهم، فقبل الهجرة كان الظلم والجور متواصلاً على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، ونحتاج لقسوة قلب حتى نستطيع تكرار هذه المظالم. وفي تلك الفترة قال الصحابي خباب بن الأرت: يا رسول الله

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الجهاد، ص ٢٠٨.

[٢] ابن حنبل، جـ ٣، ص ٤٧١.

[٣] الترمذي، تفسير الفتح.

[٤] البخاري، وفاة النبي ﷺ.(ورد عن عائشة أن النبيﷺ تُوفي وهو ابن ثلاث وستين). (ج٢، ص٤٠١). (المترجم).

ﷺ ألا تدعوا الله؟ فلما سمع النبي هذا غضب وأحمر وجهه.[1] ومرة طلب بعض الصحابة من رسول الله ﷺ هذا فأخبرهم النبي بأنه أرسل رحمة للعالمين.[2]

وهاهي قريش التي حاصرت رسول الله ﷺ ثلاث سنوات ومنعت وصول حبة قمح واحدة إليه ﷺ. قد دعا لها النبي ﷺ متناسياً كل ما صدر منها. فحينما ألم القحط بمكة وأخذ الناس يأكلون العظام والميتة ذهب أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وقال لـه: أي محمـد إن قومك قد هلكوا، فادع الله أن يكشف عنهم، فدعا لهم النبي ﷺ في الحال فنجاهم الله تعالى من هذا البلاء.[3]

في غزوة أحد ألقي الأعداء بالحجارة على النبي ﷺ وأمطروا عليـه وابـلاً مـن السهام والسيوف، وحاربوه وكسروا رباعيته، ولطخوا جبينه بالدم. وكان كل ما فعله النبي ﷺ لوقف هذا أن دعا لهم وقال: **اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.**

وتلك هي الطائف التي قابلت دعوة النبي ﷺ للإسـلام بالسـخرية والاسـتهزاء، ورفضت إيواء النبي ﷺ، وأسالت الدم من قدمه الشريفة حتى جاءه ﷺ جبريل وقال له: أن أردت لطبقت عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ له: بل أرجو أن يخرج الله عز وجـل مـن أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا.[4] وهاهي الطائف نفسها تستجيب لدعوة النبي ﷺ لها للإسلام بعد عشر أو اثنتي عشرة سنة بالسيف حتى أن الجثث كانـت تتساقط فوق بعضها وقال الصحابة: يا رسول الله ادع عليهم دعاء سوء. فرفع النبـي ﷺ يده وأخذ يدعو الله، واعتقد المسلمون أن النبي ﷺ يدعو عليهم بالسوء؛ ولكنـه ﷺ كـان يقول: اللهم اهد ثقيف (أهل الطائف للإسلام) وأت بهم. فكان هذا الدعاء بمثابة السهم الذي لم يصب في المعركة، لكنه أصاب الهدف حينما جاء أهل الطائف المسجد النبوي ونزلوا على رسول الله ﷺ ضيوفاً وأعلنوا إسلامهم.[5]

كانت قبيلة دوس تعيش في اليمن. وكان سيدها الطفيل بن عمرو قد أسلم منذ فترة وظل يدعو قبيلته للإسلام لفترة طويلة، لكن قومه كانوا يصرون على كفـرهم. فـذهب الطفيل إلى رسول الله ﷺ وأخبره عن حال قبيلته وطلب منه ﷺ أن يدعو عليهم دعاء سوء.

---

[1] صحيح البخاري، مبعث النبي ﷺ.

[2] المشكاة، أخلاق النبي نقلاً عن صحيح مسلم.

[3] صحيح البخاري، تفسير سورة الدخان، جـ٢.

[4] صحيح البخاري.

[5] ابن سعد، غزوة الطائف.

فلما سمعه الناس قالوا: لا ريب في هلاك دوس عاجلاً. لكن النبي ﷺ دعا وقال [1]: **اللهم اهد دوساً وأت بهم.**

كانت أم أبي هريرة مشركة. وبقدر ما كان أبو هريرة يدعوها للإسلام كانت تنكر. وذات يوم دعاها أبو هريرة للإسلام فأخطأت في حق رسول الله ﷺ. فصدم أبو هريرة لدرجة أنه أخذ يبكي وذهب لرسول الله ﷺ وهو في هذه الحالة وقص عليه ما حدث. فدعا رسول الله ﷺ وقال: اللهم اهد أم أبي هريرة فعاد أبو هريرة لبيته فرحاً. وحينما وصل البيت رأى بابه مغلقاً ووالدته تغتسل. فلما فرغت من الغسل فتحت الباب ونطقت بالشهادة.[2]

كانت لعبد الله بن أبي ابن سلول- ذلك الرجل الذي عاش عمره كله منافقاً ولم يضع فرصة تفوته في التآمر على رسول الله ﷺ والاستخفاف به وإهانته علانية ــ صلات بقريش عن طريق الرسائل، وكان قد ترك المسلمين في غزوة أحد مع بعض أصحابه، وكان أول من اتهم السيدة عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك. ولكن بالرغم من كل هذا ظل رسول الله ﷺ يسامحه ويعفو عن جرائمه. وحينما مات صلى رسول الله ﷺ عليه. فقال عمر: يا رسول الله أ تصلي عليه مع أنه قال كذا وكذا. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخر عني ياعمر. فلما ألح عمر قال له رسول الله ﷺ: إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها.[3]

الشفقة بالأطفال

كان رسول الله ﷺ يشفق إشفاقاً كبيراً على الأطفال. إذ كان من عادته ﷺ حين يعود من السفر أن يُجلس على راحلته أمامه أو خلفه أي طفل من الأطفال الذين يلقاهم في الطريق، كما كان يلقي السلام على الأطفال في الطريق.[4]

---

[1] صحيح مسلم، مناقب دوس.

[2] صحيح مسلم، فضائل أبي هريرة. (ورد أنها فتحت الباب وقالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله). (مسلم، ج١٦، ص٥٢). (المترجم).

[3] صحيح البخاري، كتاب الجنائز.

[4] أبو داود، كتاب الأدب. (عن أنس قال: أتى رسول الله على غلمان يلعبون فسلم عليهم). (أبو داود، ج٢، ص٦٤٢). (المترجم). كما ورد فى صحيح مسلم: (٥٩٧٩) حدثنا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ (وَاللَّفْظُ لِزُهَيْرٍ) قَالاَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ (وهُوَ ابْنُ عُلَيَّةَ) عَنْ أَيُّوبَ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، . قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللّه . قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعاً لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ. فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ. فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ. وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْناً.

ومرة جاءه خالد بن سعيد مع ابنته الصغيرة، والتي كانت ترتدي ثوباً أحمراً. فقال لها النبي ﷺ: سَنَاه سَنَاه ؛ وَسَنَاه في كَلَامِ الْحَبَشَةِ الْحَسَنُ. ولأن البنت كانت قد ولدت في الحبشة لذا كلمها النبي ﷺ بالحبشية. وكان ختم النبوة الذي كان على كتف رسول الله ﷺ بارزاً. ولأن الأطفال معتادين على أن يلعبوا في أي شيء غريب؛ لذا أخذت البنت تلعب في ختم النبوة. فزجرها أبوها خالد. لكن رسول الله ﷺ منعه وقال له: دعها.[1]

مرة أرسل للنبي ﷺ قماش فيه رداء أسود في طرفيه شريطان. فقال النبي ﷺ للحضور مَنْ تَرَوْنَ أَحَقَّ بِهَذِهِ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فقال: ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ.[2] فلما جاءت ألبسها النبي ﷺ إياه وقال لها " أَبْلِي وَأَخْلِقِي مَرَّتَيْنِ " ثم أراها الشريطين اللذين كانا فيه، وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى عَلَمٍ فِي الْخَمِيصَةِ أَحْمَرَ أَوْ أَصْفَرَ وَيَقُولُ: سَنَاه سَنَاه يَا أُمَّ خَالِدٍ، وَسَنَاه في كَلَامِ الْحَبَشَةِ الْحَسَنُ».[3] وكما قلنا أن أم خالد كانت قد ولدت في الحبشة وعاشت هناك بضع شهور لذا خاطبها النبي ﷺ باللغة الحبشية.[4]

يقول أحد الصحابة: كنت في طفولتي أذهب لمزارع نخل الأنصار وأرمي النخل بالحجارة، فجاء بي الناس لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: يا غلام، لمَ ترمي النخل؟ فقلت: لآكل التمر يا رسول الله. فقال النبي: فلا ترم النخل وكل مما يسقط في أسفلها. وبعدها مسح بيده على رأسي ودعا لي.[5]

فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ. ثُمَّ يَرْجِعُ. قَالَ عَمْرٌو: فَلَمَّا تُوُفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي. وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ».(المترجم).

[1] البخاري، جـ ٢، ص ٨٨٦.

[2] ورد في الإصابة أنها كانت صغيرة لدرجة أن الناس كانوا يحملونها في حجورهم ويحضرونها. (الإصابة: ترجمة أم خالد رضي الله عنها).

[3] وهذا نص الحديث: (٤٠٢٣) حدثنا إِسْحَاقُ بنُ الْجَرَّاحِ الأَذَنِيُّ أخبرنا أَبُو النَّضْرِ أخبرنا إِسْحَاقُ بنُ سَعِيدٍ عن أَبِيهِ عن أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدِ بنِ سَعِيدِ بنِ الْعَاصِ، : «أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بِكِسْوَةٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ صَغِيرَةٌ، فقال مَنْ تَرَوْنَ أَحَقَّ بِهَذِهِ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فقال: ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ، فَأُتِيَ بِهَا فَأَلْبَسَهَا إِيَّاهَا ثُمَّ قال: أَبْلِي وَأَخْلِقِي مَرَّتَيْنِ، وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى عَلَمٍ في الْخَمِيصَةِ أَحْمَرَ أَوْ أَصْفَرَ وَيَقُولُ: سَنَاه سَنَاه يَا أُمَّ خَالِدٍ، وَسَنَاه في كَلَامِ الْحَبَشَةِ الْحَسَنُ». (المترجم).

[4] ورد في البخاري، كتاب اللباس أن سنة في الحبشية تعني الحسن والجمال.

[5] أبو داود، كتاب الجهاد.(ورد أن النبي ﷺ دعا له وقال:" اللهم أشبع بطنه") (أبو داود، ج٢، ص٣٨.). (المترجم).

وكان النبي ﷺ يتأثر كثيراً من وقائع حب الأم لأولادها، فذات مرة جاءت امرأة فقيرة للغاية إلى السيدة عائشة ومعها طفلتان صغيرتان، ولم يكن عند السيدة عائشة أي شيء في ذلك الوقت سوى تمرة واحدة ملقاة على الأرض، فأخذتها وأعطتها تلك المرأة، فقسمتها شقين وأعطت كل طفلة شق. فلما عاد النبي من الخارج حكت له السيدة عائشة ما حدث فأخبر النبي ﷺ بأن من يلق الله في قلبه حب أولاده ويؤدي حقوقهم ينجو من جهنم.[1]

يقول أنس: كان رسول الله ﷺ يقول: إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطيل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه.[2]

لم تكن محبة وشفقة النبي للأطفال قاصرة على أطفال المسلمين فحسب؛ بل كان يشفق ويحب أولاد المشركين أيضاً، ففي غزوة مات بعض الأطفال، فلما علم النبي بهذا حزن حزناً شديداً. فقال رجل: يا رسول الله إنهم أولاد مشركين. فأخبره النبي ﷺ بأن أطفال المشركين أفضل منه. ونهى عن قتل الأطفال، وقال: كل مولود يُولد على الفِطْرة.[3]

كان النبي ﷺ معتادا إذا جاءته فاكهة الموسم الجديد أن يعطي أول ما يعطى الأطفال الصغار.[4] وكان يقبل الأطفال ويحبهم. ذات مرة كان ﷺ يقبل الأطفال فجاء أعرابي وقال: أتقبل الأطفال وأنا عندي عشرة أطفال لم أقبل أحدهم حتى الآن. فقال النبي: «إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ»..[5]

يحكي الصحابي جابر بن سمرة حادثة وقعت في صباه، وهي أنه كان يصلى خلف النبي ﷺ، وبعد الانتهاء من الصلاة أخذ النبي ﷺ يسير نحو بيته، ثم خرج علينا بعض الأطفال الآخرين فقبلهم رسول الله ﷺ جميعاً ثم قبلني.[6]

---

[1] صحيح البخاري، ص ٨٤.

[2] البخاري، كتاب الصلاة.

[3] مسند ابن حنبل، جـ٣، ص ٤٣٥.

[4] المعجم الصغير، للطبراني، باب الميم محمد.

[5] صحيح البخاري ومسلم، كتاب الأدب. وهذا نص الحديث كما ورد في مسلم، كتاب الفضائل: (٥٩٨١) وحدثني عَمْرٌو النَّاقِدُ وَ ابْنُ أَبِي عُمَرَ. جَمِيعاً عَنْ سُفْيَانَ. قَالَ عَمْرٌو : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أَبْصَرَ النَّبِيَّ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ. فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِداً مِنْهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ». (المترجم).

[6] صحيح مسلم، باب طيب رائحة النبي ﷺ.

حين دخل النبي ﷺ المدينة وهو مهاجر من مكة إليها، خرجت بنات الأنصار الصغيرات من خلف الأبواب تغنين فرحاً برسول الله ﷺ. فلما مر عليهن رسول الله ﷺ فسألهم هل يحبونه؟ قلن جميعاً نعم يا رسول الله. فأخبرهم ﷺ بأنه يحبهم أيضا.[1]

كانت السيدة عائشة قد تزوجت النبي ﷺ وهي لا تزال صبية، فكانت تلعب مع بنات الحي. وحينما كان رسول الله يعود للبيت تختبئ البنات منه. فكان ﷺ يلاطفهن ويدعوهن للعب.[2]

الرفق بالعبيد

كان رسول الله ﷺ يرفق رفقاً خاصاً بالعبيد. وكان يقول: إنهم إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون. وكان النبي ﷺ دائماً يعتق العبيد الخاصين به. لكنهم لم يكونوا يتحررون من كرم وإحسان النبي ﷺ. بل كانوا يتركون آباءهم وأمهاتهم وقبائلهم وأقاربهم ويعيشون كل حياتهم خدماً لرسول الله ﷺ. وقد اعتق رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وجاء والده ليأخذه لكنه ضحى بعاطفة الأبوة في سبيل رسول الله ورفض الذهاب مع والده. لذا كان رسول الله يحب ابنه أسامة ويقول: لو كان أسامة بنتاً لألبسته حُلي. وكان ﷺ ينظف له أنفه بيده الشريفة.

كان رسول الله ﷺ يشعر بالمهانة عند سماع كلمة عبد، وكان يتأذى من ذلك؛ لذا قال: لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي؛ ولكن ليقل غلامي أو جاريتي. ولا يقل العبد لسيده مولاي، فإن المولى هو الله؛ ولكن ليقل سيدي. وكان النبي ﷺ يعطف على العبيد لدرجة أن آخر وصية أوصاها في مرض الموت كانت: "اتقوا الله في العبيد".

كان أبو ذر من السابقين للإسلام، وكان رسول الله ﷺ يمدح صدقه، لكنه ذات مرة شتم عبداً عجمياً، فذهب العبد واشتكاه لرسول الله ﷺ. فزجره رسول الله وقال: يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، إنهم إخوانكم، فضلكم الله عليهم، فمن لم يلائمكم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله، وأطعمه مما تأكل وأكسه مما تلبس، ولا تكلفه ما لا يطيق، وإن كلفته ما يغلبه فساعده أيضاً.[3]

---

[1] السيرة، جـ١، الهجرة.

[2] أبو داود، كتاب الأدب، باب اللعب. (عن عائشة: كنت ألعب بالبنات فربما دخل عليّ رسول الله وعندي الجواري، فإذا دخل خرجن، وإذا خرج دخلن). (ج٢، ص٥٨٠). (المترجم).

[3] البخاري، باب المعاصي من أمر الجاهلية. وأبو داود، كتاب الأدب.

وذات مرة كان أبو مسعود الأنصاري يضرب عبده، فسمع صوتاً من الخلف يقول : اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه. فالتفت أبو مسعود ونظر فرأى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد أعتقته لوجه الله. قال النبي ﷺ : أما إنك لو لم تفعل لمستك النار.

جاء رجل للنبي ﷺ وقال يا رسول الله: كم مرة أعفو عن العبيد؟ فسكت رسول الله. فكرر الرجل سؤاله فسكت رسول الله أيضاً. فلما كرر الرجل سؤاله ثالثة قال النبي ﷺ: اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة.

في حياة رسول الله ﷺ كانت هناك أسرة مكونة من سبعة أفراد تملك جارية واحدة، وذات مرة رمى أحد أفراد تلك الأسرة الجارية بحجر. فلما علم رسول الله ﷺ قال: اعتقوها. فقال له أفراد الأسرة: يا رسول الله نحن سبعة وليس لنا خادم غيرها. فقال النبي ﷺ: فلتخدمهم حتى يستغنوا، فإذا استغنوا فليعتقوها.[1]

مرة كان لرجل عبدان، وكان يشتكي منهما ويضربهما ويسبهما. ولكنهما لم يتأثران. فذهب الرجل لرسول الله ﷺ واشتكاهما. وسأل النبي ﷺ عن طريقة لتقويمهما. فأخبره النبي ﷺ بأنه لو كان عقابه على قدر تقصيرهم لكان خيرا. وإلا سيعاقبه الله بما زاد من عقابه لهما. فلما سمع الرجل هذا خاف وأخذ يبكي. فقال النبي ﷺ: أما قرأ قول الله تعالى: "**ونضع الموازين القسط ... الخ**" فلما سمع الرجل هذا قال: يا رسول الله الأفضل لي أن أبعدهما عني وأشهدك أني قد عتقتهما.[2] وكان الناس يزوجون العبيد ويطلقونهم رغماً عنهم حيثما أرادوا هم. فقد زوج رجل عبداً له أمة، ثم أراد تطليقهما. فاشتكى العبد لرسول الله ﷺ فصعد رسول الله المنبر وخطب خطبة قال فيها«يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يُزَوِّجُ عَبْدَهُ أَمَتَهُ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا؟ إِنَّمَا الطَّلاَقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ». [3]

---

[1] وردت هذه الأحداث كلها في أبى داود، كتاب الأدب، باب حق المملوك. (وردت هكذا في أبي داود، ج٢، ص٦٣٤ "فلتخدمهم حتى يستغنوا، فإذا استغنوا فليعتقوها"). (المترجم).

[2] مسند ابن حنبل، جـ٢، ص ٢٨٠.

[3] سنن ابن ماجة، كتاب الطلاق. وهذا نص الحديث: (٢١٣٩) ـــ حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى. حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُكَيْرٍ. حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَيُّوبَ الْغَافِقِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ سَيِّدِي زَوَّجَنِي أَمَتَهُ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، قَالَ، فَصَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يُزَوِّجُ عَبْدَهُ أَمَتَهُ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا؟ إِنَّمَا الطَّلاَقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ». (المترجم).

كان من أثر شفقة ورحمة النبي ﷺ بالعبيد أن كان عبيد الكفار يفرون هرباً لرسول الله ﷺ. فكان رسول الله يعتقهم.[1] فقد كان رسول الله ﷺ يدخر جزءاً من المال عند تقسيم الغنائم ليعتق منه العبيد.[2] وكان يعطي العبيد حديثي العتق من بيت المال لأنهم لم لا يملكون شيئاً.

معاملته ﷺ للنساء

لأن الصنف الضعيف (النساء) دائماً مهان في الحياة، لذا لا يُذكر عند الحديث عن حالات أي شخصية مشهورة سلوكه مع هذا الصنف الضعيف. والإسلام هو أول دين أعز المرأة وكرمها وأعطاها مكانة تساوي مكانة الرجال في العزة والاحترام. لذا نريد أن نلقي الضوء هنا على هذا الجانب في حياة النبي ﷺ وكيف كان يتعامل مع النساء.

نقل في الروايات التي وردت في صحيح البخاري عن إيلاء (انفصال الرسول ﷺ لبضعة أيام عن نساءه) النبي ﷺ هذا القول لعمر: كنا في مكة لا نهتم بالنساء إطلاقاً. أما في المدينة فكانت النساء تحترم إلى حد ما، ولكن ليس بالقدر الكاف، لكن النبي ﷺ أرسى لهن حقوقهن من خلال تعليماته وإرشاداته، ووضح تعامله هو ﷺ معهن تلك الحقوق. ولقد وردت حالات زوجات النبي ﷺ في فصول مستقلة، أما هنا فنحن نكتب عن الأحداث العامة.

لأن جموع الرجال كانوا دائماً عند رسول الله ﷺ: لذا لم تكن هناك فرصة للنساء ليستمعن لوعظ وإرشاد النبي ﷺ وسؤاله. لذا طلبن أن يكون لهن يوماً خاصاً بهن. فخصص النبي لهن يوماً خاصاً بهن.[3]

وكانت السيدة أسماء بنت عميس من اللاتى هاجرن إلى الحبشة في بداية الإسلام. وأثناء فتح خيبر قدم المهاجرون من الحبشة إلى المدينة. فجاءت هي معهم. وذات يوم ذهبت للقاء السيدة حفصة رضي الله عنها. وتصادف أن كان عمر موجوداً عندها حينذاك. فلما رآها قال لحفصة: من هذه؟ فأخبرته حفصة عن اسمها فقال عمر: الحبشية هذه

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد. ومسند ابن حنبل، جـ١، ص ٢٤٣.

[2] أبو داود، باب قسمة الفيء.(عن عبد الله بن عمر: رأيت رسول الله أول ما جاءه شيء بدأ بالمحررين). (أبو داود، ج٢، ص١٢٣). (المترجم).

[3] صحيح البخاري، كتاب العلم، هل تجعل للنساء يوماً على حدة... الخ.(قالت النساء للنبي ﷺ : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن). (البخاري، ج١، ص ٧١). (المترجم).

البحرية هذه. فقالت أسماء بنت عميس: نعم أنا. فقال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم. فغضبت أسماء وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة ونحن كنا نؤذى ونخاف. وفي أثناء الحديث جاء رسول الله ﷺ. فقالت له أسماء: يا رسول الله يقول عمر ﷺ كذا وكذا. فقال النبي ﷺ : فما قلتِ له. فقالت للنبي ﷺ ما قالته لعمر، فقال النبي ﷺ :ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان. فذاع ما قاله رسول الله ﷺ فكان مهاجرو الحبشة يذهبون أفواجاً وجماعات لبيت أسماء ليسمعوا منها مراراً ما قاله رسول الله ﷺ لها. تقول السيدة أسماء: ما من الدنيا شيء هم أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبيﷺ.[١]

كانت خالة أنس ــ خادم النبي ﷺ ــ تسمى بأم حرام (وكانت هي أيضاً خالة النبي ﷺ في الرضاع) كانت معتادة حين يذهب رسول الله ﷺ إلى قباء أن تذهب إليه وتقدم له الطعام، فيأكل رسول الله ﷺ ثم ينام فتقوم هي بإخراج القمل من شعره.[٢]

كان رسول الله ﷺ يحب أم سليم والدة أنس كثيرا، وكثيراً ما كان يتردد على بيتها. فكانت تفرش لرسول الله ﷺ فينام وحين يقوم تجمع عرقه في زجاجة، وحين موتها أوصت أن يخلط هذا العرق مع الحنوط في الكفن.

ذات مرة دعت والدة أنس رسول الله ﷺ إلى طعام؛ فطهت الطعام وأكل رسول الله ﷺ ثم قال: قوموا كي أصلي لكم. ولم يكن في البيت سوى حصيرة واحدة؛ كانت قد اسودت من شدة قدمها، لذا غسلها أنس ثم فرشها. فأمهم رسول الله ﷺ واصطف خلفه أنس وجدته و(غلام) يتيم. فصلى رسول الله ﷺ ركعتين ثم عاد.[٣]

كانت السيدة أسماء أخت السيدة عائشة من الأب متزوجة من الزبير، قدمت المدينة ولم يكن عند الزبير حينذاك سوى فرس. فكانت السيدة أسماء تحضر له الحشيش بنفسها من الصحراء، وتطهي لزوجها الطعام في البيت. وتحضر نوى البلح للفرس من تلك الأرض التي أعطاها رسول الله ﷺ للزبير، والتي تبعد عن المدينة مسافة ميلين. وذات يوم كانت أسماء عائدة بعد أن أحضرت النوى، فرآها رسول الله ﷺ وكان راكباً

---

[١] صحيح البخاري، غزوة خيبر.

[٢] البخاري، كتاب الجهاد، ص ٣٩١.

[٣] البخاري، باب الصلاة على الحصير.

على راحلة؛ فأقعد الراحلة وأراد أن يُركب أسماء. لكنها استحيت. فلم يقل لها النبي ﷺ شيئاً حينما رأى استحياءها، وتركها وسبق. تقول السيدة أسماء أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني.[١]

ذات مرة كان بعض النساء ذوات القربى جالسات يتحدثن مع رسول الله ﷺ، فلما دخل عمر قمن جميعا. فضحك رسول الله ﷺ. فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. قال: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. فقال لهن عمر: يا عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله، فقلن جميعاً: نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ.[٢]

وذات مرة غطى رسول الله ﷺ وجهه ثم نام في بيت السيدة عائشة، وكان ذلك ليوم يوم العيد. وكانت الجواري تغنين وتضربن الدف. فدخل أبو بكر من الخارج فزجرهن. فقال له النبي ﷺ: دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد[٣]

كانت النسوة تستفسر من رسول الله بجرأة عن بعض المسائل. وكان الصحابة يتعجبون من جرأتهن، لكن رسول الله ﷺ لم يكن يظهر لهن استياءه. ولأن النساء عامة تكون رقيقة الطبع وضعيفة القلب؛ لذا كان رسول الله ﷺ يراعي اللين معهن. وكان أنجشة عبداً حبشياً يحدو؛ أي يتقدم الجمال ويغني لها حاثاً إياها على المشي. ومرة كانت أمهات المؤمنين في سفر وكان أنجشة يحدو. فأخذت الجمال تجري فقال رسول الله ﷺ له: رفقاً بالقوارير يا أنجشة.

الرفق بالحيوان

كان رسول الله ﷺ غاية في الرفق بالحيوان. فقد أنهى كل الظلم الذي كان ينصب على الحيوان منذ زمن بعيد. فمنع رسول الله ﷺ القلادة التي كانت تعلق في رقبة

---

[١] البخاري، ص٧٨٦، كتاب النكاح.

[٢] صحيح البخاري، مناقب عمر بن الخطاب.

[٣] مسلم، كتاب العيدين. وهذا نص الحديث: ٤٧٩ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ قَالَتْ وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا .(المترجم).

الجمال.[1] (ومنع القطع من لحم الحيوان الحي وطهيه، وحرم قطع أذناب ومعارف الحيوانات فقال: إن أذناها مدابها ومعارفها دفاؤهم. ومنع أيضاً ربط الحيوانات وتركها واقفة في الحظيرة لفترة طويلة ونهي عن جعل ظهورها مقاعد وأرائك. كما حرم أيضاً عقد مباريات مصارعة بين الحيوانات. ومن العادات القاسية أيضاً أنهم كانوا يربطون الحيوانات ويجعلونها هدفاً يجربون عليه رمايتهم. وهذا أيضاً نهى عنه رسول الله ﷺ).

ذات مرة رأى رسول الله ﷺ في الطريق حماراً مكوي الناصية، فقال: من كوى ناصيته لعنه الله. وكان يتحتم أيضاً كي الجمال والغنم كي لا تضل. فحدد رسول الله ﷺ الأعضاء القوية لتلك العملية. يقول أنس: ذهبت مرة لحظيرة الغنم فرأيت رسول الله ﷺ يَسِمُ آذنها.[2]

ذات مرة كان رسول الله ﷺ ذاهبًا في سفر، فنزل هو ومن معه منزلاً وضع فيه طائر بيضه، فأخذ شخص البيضة، فاضطرب الطائر وظل يخفق بأجنحته. فسأل النبي ﷺ عمن أخذ بيضته وآذاه؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله. فأمره النبي ﷺ أن يعيدها مكانها.[3]

جاء رجل للنبي ﷺ وفي يده رداء يختبئ فيه صغار طائر. فسأله النبي ﷺ عنهم. فقال: سمعت صوت يأتي من شجرة. فذهبت ونظرت وإذ بتلك الصغار فأخذتهم. فلما رأت أمهم ذلك أخذت تحلق فوق رأسي. فأمره النبي بأن يرجع ويعيدهم مكانهم.[4]

كان رسول الله ﷺ ماشياً ذات مرة في طريق، فرأى جملاً بدت بطنه وظهره كأنهما شيء واحد من شدة الجوع، فقال النبي ﷺ: اتقوا الله في البهائم.[5]

وذات مرة ذهب رسول الله ﷺ إلى حديقة أحد الأنصار فوقع نظره على جمل جائع. فلما رأى رسول الله الجمل يتضور مسح عليه بيده الشريفة، ثم سأل الناس عن

---

[1] صحيح مسلم، باب اللباس والزينة (روى عن بشير الأنصاري أنه قال: قال رسول الله: لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة ألا قطعت). (مسلم، ج١٤، ص٩٥). (المترجم).

[2] وردت هذه الأحاديث في الترمذي وأبي داود وغيرهما.

[3] الأدب المفرد، الإمام البخاري، باب رحمة البهائم.

[4] المشكاة نقلاً عن أبي داود باب رحمة الله.

[5] أبو داود، كتاب الجهاد. (وهذا نص الحديث: "اتقوا الله في هذا البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة"). (ص٢٢). (المترجم).

صاحبه فقالوا: إنه لأحد الأنصار. فقال له النبي ﷺ: أفلا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها.[١]

رحمة النبي ﷺ

بُعث النبي ﷺ رحمة للعالمين، ومع أن السيد المسيح قال إنني "أمير السلام"، لكن لا توجد مأثرة واحدة لحكومته الأخلاقية تؤيد ذلك؛[٢] في حين أن الله تعالى خاطب ملك السلام محمد ﷺ فقال له: "**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**".

لقد قرأنا آلاف الأحداث عن حلم وعفو وتسامح وصفح رسول الله ﷺ. ورأينا أن العدو والصديق والكافر والمسلم والعجوز والشاب والمرأة والرجل والسيد والعبد والإنسان والحيوان **كانوا جميعا على السواء** متمتعين برحمة النبي ﷺ. فذات مرة طلب رجل من رسول الله ﷺ **أن يدعو بالسوء على شخص ما، فغضب النبي** ﷺ وأخبر بأنه ما بعث إلى الدنيا لعانا.[٣] **وإنما بعث رحمة؛ لذا خاطب النبي ﷺ الدنيا** كلها وقال:[٤] "**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا**" **وقال في** حديث آخر: "**أحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما**"[٥] **ويقول في** حديث آخر رواه أنس بن مالك: "**لا يؤمن أحدكم حتى يحب للناس ما يحب لنفسه. وحتى يحب المرء لا يحبه إلا الله عز وجل.**" (مسند أحمد جـ٣ ص ٢٧٢).

ذات مرة ذهب رجل للمسجد النبوي ثم دعا وقال: اللهم اغفر لي ولمحمد. فقال النبي ﷺ: **لقد ضيق رحمة الله.**[٦] وفي رواية أخرى أن أعرابيا جاء المسجد النبوي وصلى خلف النبي ﷺ، وبعد الصلاة ركب راحلته وقال: اللهم ارحمني ومحمد ﷺ ولا تشرك معنا أحد.

---

[١] المرجع السابق.

[٢] ــ يشير المؤلف هنا إلى أن المسيحيين أضاعوا أو حرفوا كتابهم السماوي، ولم يتمسكوا بما جاء فيه. (المترجم).

[٣] الزرقاني، جـ٩، ص ٢٨٩.

[٤] صحيح البخاري، باب الهجرة، ص ٨٩٧.

[٥] جامع الترمذي، باب الزهد بسند غريب.

[٦] صحيح البخاري، كتاب الأدب، وربما تكون الواقعتان واقعة واحدة.(وردت في البخاري هكذا "لقد حجرت واسعاً"). (البخاري، ج٤، ص٨٢). (المترجم).

فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُه، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى ما قَالَ: قالُوا: بَلَى»[1].يعني أن النبي ﷺ كره هذا النوع من الدعاء.

رقة القلب

كان رسول الله ﷺ غاية في رقة القلب والرحمة. يقول مالك بن حويرث الذي كان أحد أعضاء وفد زار النبي ﷺ ورافقه لمدة عشرين يوما: كان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقا.[2] كان أحد أطفال السيدة زينب يحتضر، فأرسلت للنبي ﷺ وأقسمت عليه أن يحضر، فجاء النبي ﷺ رغماً عنه وكان معه سعد بن عباده ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله عنهم، فجاء الناس بالطفل بين أيديهم وأعطوه لرسول الله ﷺ وهو يلتقط أنفاسه الأخيرة. فلما رآه رسول الله أخذ يبكي. فتعجب سعد وقال: ما هذا يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: لا يرحم الله من عباده إلا الرحماء.[3] وحينما عاد النبي ﷺ للمدينة بعد غزوة أحد كانت بيوت الشهداء تعج بالمآتم. وكانت النسوة تنوح على شهدائهن. فلما رأى النبي ﷺ هذا رق قلبه وقال: أما حمزة (عم رسول الله ﷺ) فلا بواكي له.[4]

كان أحد الصحابة ذات مرة يحكي إحدى قصصه في الجاهلية ويقول: كانت لي بنت صغيرة، ولأن وأد البنات كان عادة عند العرب، لذلك دفنت ابنتي حية أنا أيضاً في التراب، وكانت تصرخ وتقول وأنا أسدل التراب عليها أبتاه أبتاه فلما سمع النبي ﷺ هذه

---

[1] وهذا نص الحديث: (٤٨٨١) ـــ حدثنا عَلِيُّ بنُ نَصْرٍ أخبرنا عَبْدُ الصَّمَدِ بنُ عَبْدِ الْوَارِثِ مِنْ كِتَابِه قال حدَّثني أَبِي قال أخبرنا الْجُرَيْرِيُّ عن أَبِي عَبْدِ الله الْجُشَمِيِّ قال أخبرنا جُنْدُبٌ، قال: « جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ ثُمَّ عَقَلَهَا ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ فصَلَّى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَتَى رَاحِلَتَهُ فأَطْلَقَهَا ثُمَّ رَكِبَ ثُمَّ نَادَى: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّداً وَلا تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِنَا أَحَداً، فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُه، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى مَا قَالَ: قالُوا: بَلَى». (المترجم).

[2] المرجع السابق.

[3] صحيح البخاري، باب المرضى، ص ٨٢٢. (وهذا قول النبي ﷺ كما ورد في البخاري، ج٤، ص٦." هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء"). (المترجم).

[4] سيرت النبي، ج١، أحد.

القصة المؤثرة سالت الدموع من عينيه، وطلب من الصحابي أن يكرر هذه القصة. فكررها الصحابي ثانية فأخذ رسول الله ﷺ يبكي ويبكي حتى ابتلت لحيته ﷺ.[1]

في غزوة بدر أُسر العباس فقيَّد الناس يديه ورجليه. فكان يتأوه من الألم. وكان رسول الله يسمع صوت تأوه. ولكنه لم يفك يديه حتى لا يقول الناس إن محمدًا لا يعدل على أقرباءه. ولكنه أيضاً لم يأته النوم فكان يتقلب من الاضطراب، فلما فهم الناس سبب اضطراب النبي ﷺ أرخوا قيود العباس فسكت فنام النبي.

كان الصحابي مصعب بن عمير صحابيًا ينعم برفاهية قبل الإسلام. وكان والداه يلبسانه ملابس غالية باهية، فلما أسلم ورأى أهله أنه ترك دين آباءه، تبدلت محبتهم له إلى عداوة. وذات مرة دخل على رسول الله ﷺ لابساً بدل الحرير ثوباً لا يخلو جزء منه من الرقع، فلما رأى النبي ﷺ ذلك بكى.[2]

عيادة المريض والتعزية والمواساة

كان رسول الله ﷺ لا يفرق في عيادته للمريض بين عدو وصديق، ولا بين كافر ومؤمن (فقد ورد في سنن النسائي في باب التكبير على الجنازة هذا القول: **كان أحسن شيء للنبي ﷺ عيادة المريض**. وروى (في البخاري وأبي داود وغيرهما) أن رسول الله ﷺ عاد طفلاً يهودياً في مرضه الأخير.[3]

حينما مرض عبد الله بن ثابت وذهب النبي ﷺ لعيادته أُغمي عليه. فنادوا عليه؛ ولكنه لم يفق. فقال النبي ﷺ: غُلبنا عليك يا أبا ربيع. فلما سمع النسوة ذلك أخذن يصرخن ويبكين، فمنعهن الناس. فقال النبي ﷺ: دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية. فقالت ابنة عبد الله بن ثابت: والله إن كنت لأرجو أن تكون شهيداً فإنك قد كنت قضيت جهازك. فقال النبي ﷺ: إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته.[4]

ولما مرض جابر، كان النبي ﷺ يذهب مترجلاً لعيادته رغم بعد بيته.[5] فمرة مرض فاصطحب الرسول أبا بكر وذهب لعيادته، وحين أُغشي عليه، طلب النبي ﷺ الماء

---

[1] مسند الدارمي، ص١.

[2] الترغيب والترهيب، جـ٢، ص ٢٤٧، نقلاً عن الترمذي ومسند أبي يعلى.

[3] صحيح البخاري، باب عيادة المشرك.

[4] أبو داود، باب الجنائز.

[5] المرجع السابق.(يروى جابر ويقول: كان رسول الله يعودني ليس براكب بغل ولا برذون)(أبو داود، ج٢، ص ١٦٤). (المترجم).

وتوضأ ثم رش ما تبقى من الماء على وجهه فأفاق وقال: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله. فنزلت الآية الكريمة يوصيكم الله في أولادكم.[1] ومرض أحد الصحابة فعاده النبي ﷺ أكثر من مرة، فلما توفى دفنه الناس دون أن يخبروا رسول الله ﷺ. لأن الليل كان قد دخل فلم يريدوا إزعاج النبيﷺ. وحين علم بهذا في الصباح اشتكى النبي ﷺ من صنيعهم هذا ثم ذهب وصلى صلاة الجنازة على قبره.[2]

استشهد عبد الله بن عمرو في غزوة أحد، وقطع الكفار يديه وقدميه، وأُحضر جسده أمام رسول الله وقد غطى برداء، فلما جاء ابنه جابر، أراد من شدة حبه لأبيه أن يكشف الرداء ويرى والده؛ لكن الحضور منعوه من هذا. فمد يده ثانية فمنعه الناس أيضاً. فأمر رسول الله ﷺ عطفاً ورفقاً بحاله أن يرفع الرداء. فلما رفع الرداء، أطلقت أخته صرخة دون إرادة منها. فقال النبي ﷺ: فلم تبك، فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفع.[3]

ذهب رسول الله ﷺ مرة لعيادة سعد بن عبادة وهو مريض، فلما رآه ﷺ رق قلبه وبكى ﷺ. فلما رأى الناس رسول الله ﷺ يبكي بكوا.[4]

مات حبشي كان يقوم بكنس المسجد،[5] ولم يخبر الناس رسول الله ﷺ بوفاته. وذات يوم سأل رسول الله ﷺ عنه فقال الناس: لقد مات يا رسول الله. فقال النبي ﷺ: أفلا آذنتموني ؟ لكن الناس استصغروه (قالوا إنه لا يستحق أن تخبر بوفاته يا رسول الله) فسأل رسول الله الناس عن قبره ثم ذهب وصلى عليه صلاة الجنازة.[6]

---

[1] صحيح البخاري، جـ٢، ص ٦٥٨، تفسير الآية المذكورة.

[2] البخاري، كتاب الجنائز.(عن أبي هريرة: أن أسود رجلاً أو امرأة كان يقمُّ المسجد فمات ولم يعلم النبي بموته فذكره ذات يوم فقال:"ما فعل ذلك الإنسان؟" قالوا: مات يا رسول الله. قال:" أفلا آذنتموني". فقالوا: إنه كذا وكذا قصته. قال فحقروا شأنه قال: فدلوني على قبرهً" فأتى قبره فصلى عليه.(البخاري، ج١، ص٣٥٤). (المترجم).

[3] البخاري، كتاب الجنائز، ص ١٧٢.

[4] المرجع السابق، ص ١٧٤. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، ج١، ص٣٤٨. عن عبد الله بن عمر قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له فأتاه النبي يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله، فقال: "قد قضى" قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبيﷺ فلما رأى القوم بكاء النبي بكوا). (المترجم).

[5] وقد شكك راوي رواية أبي هريرة في البخاري باب الصلاة على القبر، في كون الميت رجلاً أم امرأة. لكن ورد في روايات أخرى بالتحقيق أنها كانت امرأة، وكان اسمها أم محجن.

[6] البخاري، ص ١٢٨، كتاب الجنائز.

كان رسول الله ﷺ يقف حين تمر جنازة. فقد روى في البخاري أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا حتى تخلفكم.[1] ومع أن رسول الله ﷺ كان رقيق القلب ليناً، وكان يصدم بوفاة أحباءه خاصة؛ لكنه لم يكن يحب العويل ولا النواح. فمع أنه كان يحب جعفر (أخا علي) لكن حينما سمع خبر شهادته وجلس في مجلس عزاءه، جاءه شخص وقال: يا رسول الله إن النسوة يبكين فقال ﷺ: اذهب وامنعهن. فذهب الرجل ثم عاد وقال: لم يمتنعن يا رسول الله. فأرسله النبي ﷺ ثانية لمنعهن فعاد الرجل ثانية وقال: لم يمتنعن يا رسول الله. فلما أراد منعهن ثلاث مرات ولم يمتنعن قال رسول الله ﷺ: فأحث في أفواههن التراب.[2]

مزاحه ﷺ

كان رسول الله ﷺ يمزح أحياناً، فمرة نادى على أنس وقال له: يا صاحب الأذنين[3] وفي ذلك إشارة إلى أن أنس كان مطيعاً، وكان يصغى لرسول الله دائماً. وكان شقيق أنس الأصغر يدعى أبو عمير، ولأنه كان صغير السن؛ لذا كان معتاداً على أن يضع طائر النغير فوق رأسه، فلما مات الطائر حزن عليه أبو عمير كثيراً. فلما رآه رسول الله ﷺ حزيناً قال له: **يا أبا عمير ما فعل النغير.**

وجاء شخص النبي ﷺ وقال: يا رسول الله: أعطني جملاً. فأخبره النبي ﷺ بأنه سيعطيه ولد الناقة. فقال الرجل: يا رسول الله ماذا أصنع بولد الناقة؟ فأخبره النبي ﷺ بأن ما من بعير إلا وأمه بعير. وجاءت عجوز للنبي ﷺ وقالت: يا رسول الله أدع الله لي أن يدخلني الجنة. فقال النبي ﷺ: إن العجائز لا يدخلون الجنة. فغضبت المرأة وعادت باكية. فقال النبي ﷺ لصحابته: إذهبوا وقولوا لها إن العجائز ستدخل الجنة بعد أن يرد إليها شبابها.[4]

كان هناك صحابي أعرابي يدعى زاهر، كان يرسل أشياء البادية تحفاً لرسول الله ﷺ، وذات يوم قدم المدينة وكان يبيع في السوق أشياء أحضرها من البادية، وتصادف أن مر رسول الله فأمسك به من الخلف فقال الرجل: من؟ اتركني. فلما التفت رأى رسول الله

---

[1] البخاري، ص ١٧٥.
[2] كتاب الجنائز، باب الصبر عند المصيبة.
[3] شمائل الترمذي.
[4] المرجع السابق.

ﷺ. وكان ظهره مواجهًا لصدر النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: من يشتري هـذا العبـد. فقـال الرجل: سيخسر من يشتري غلاماً مثلي. فأخبره النبي ﷺ بأن قيمته عند الله غالية.[١]

ذات مرة جاء رجل وقال: يا رسول الله، أخي يشتكي بطنه. فقال النبـي: اسـقه عسلاً، فعاد الرجل ثانية لرسول الله ﷺ وقال: سقيته يا رسول الله ولكن الألم لم يزل. فقال النبي ﷺ: اسقه عسلاً، وبعد المرة الثالثة حينما عاد الرجل وقال نفس الكلام قال النبـي: صدق الله (إن في العسل شفاء) وكذب بطن أخيك. اسقه عسلاً. فسقاه فبـرأ.[٢] إذ كانـت المادة الفاسدة متركزة في المعدة بكثرة فحينما زالت زال الألم.

حب الأولاد

كان رسول الله ﷺ يحب أولاده حباً جماً. وكان معتاداً حين يخرج إلى سـفر أن يذهب بعد زيارته للجميع إلى السيدة فاطمة فيودعها، ثم يلتقي بها قبل الجميع بعد عودته من السفر. في ذات مرة ذهب في غزوة. وأثناء غيابه ألبست السيدة فاطمة كل واحد من ولديها (الحسن والحسين) إسورة فضية وعلقت على الباب ستارة. فلما عاد النبي لم يذهب إليها خلافاً لعادته. ففهمت السيدة فاطمة سبب ذلك ومزقت الستارة ونزعت الأساور مـن أيدي ولديها. فلما جاء أولادها يبكيان لرسـول الله ﷺ، أرسـل رسـول الله الإسـورتين الفضيتين إلى السوق ليُحضر بدلهما اسورتين من العظم.

حينما كانت السيدة فاطمة تذهب لرسول الله، كان رسول الله يقف لها ويقبل جبينها ويجلسها مكانه، يقول أبو قتادة ﷺ: كنا في المسجد النبوي فدخل رسول الله وأمامه رضي الله عنها (حفيدة رسول الله) راكبة على كتفه، وكان رسول الله يصلي وهو في حالته هذه. وحينما كان يركع ينزلها، وحينما يقف يرفعها. وهكذا أتم رسول الله ﷺ صلاته.[٣]

ويقول أنس ما رأيت أحداً يحب أهله بقدر ما كان رسول الله ﷺيحب أهله. وكان ابنه إبراهيم يحتضن في العوالي التي تبعد عن المدينة مسافة ثلاثة أو أربعة أميال. فكان

---

[١] المرجع السابق.

[٢] صحيح البخاري، ص ٤٨، باب الدواء بالعسل. وهذا نص الحديث: ١٢٧٨ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ فَقَالَ رَسُـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسقه عَسَلاً فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلاً فَلَمْ يَزِدْهُ إِلا اسْتِطْلَاقًا فَقَالَ لَـهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقَالَ اسقه عَسَلا فَقَالَ لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلا اسْتِطْلَاقًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ فَسَقَاهُ فَبَرَأَ .(المترجم).

[٣] النسائي، ص ١٢٠، باب إدخال الصبيان في المساجد. كما ورد هذا الحديث أيضاً في البخاري.

رسول الله ﷺ يذهب من المدينة مترجلاً ليراه، وكان البيت مليئاً بالدخان على الدوام. فحينما كان رسول الله ﷺ يذهب، كان يأخذ ابنه من يد الحاضنة ويقبله ثم يعود للمدينة.(١)

ومرة جاء الأقرع بن حابس أحد سادة العرب لرسول الله ﷺ وهو يقبل الحسين فقال: يا رسول الله عندي عشرة من الولد ما قبلت أحدهم قط. فقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ». (يعني لا يرحمه الله).

كان رسول الله ﷺ يحب الحسنين كثيراً ويقول إنهما ريحانتاي، وحينما كان يذهب لبيت السيدة فاطمة يقول لها: أحضري أولادي فتحضرهما فيقبلهما رسول الله ﷺ ويضمهما لصدره الشريف.

ذات مرة كان رسول الله يخطب في المسجد، فدخل الحسن والحسين فجأة وهما مرتديان ملابس حمراء وتهتز خطواتهما بسبب صغر سنهما، فلما رآه النبي ﷺ لم يستطيع الانتظار، فنزل من على المنبر وحملهما في حجره وأجلسهما أمامه ثم قال صدق الله تعالى إذ يقول: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة". وكان النبي ﷺ يقول: أنا من حسين وحسين مني، أحب الله من أحب حسيناً.

ذات مرة كان الإمام الحسن أو الإمام الحسين راكباً على رسول الله ﷺ فقال قائل: ما أحلى الراحلة. فقال له النبي ﷺ: وما أحلى الراكب هو الآخر.(٢)

وذات مرة كان الحسن أو الحسين (لا يذكر الراوي بالضبط) يضع قدمه فوق قدم رسول الله ﷺ ويقف، فقال له النبي ﷺ: اصعد. فوضع قدمه على صدر النبي. فقبله النبي ﷺ ثم قال: اللهم إني أحبه فأحبه.(٣)

وذات مرة كان رسول الله ﷺ ذاهبا إلى دعوة، وكان الإمام الحسين يلعب في الطريق، فاقترب منه رسول الله ومد يده، فكان الحسين يضحك ويقترب من يد النبي ثم يجري، وفي النهاية أمسك به النبي ﷺ ووضع إحدى يديه على ذقنه والأخرى على رأسه، وضمه لصدره ثم قال: حسين مني وأنا من حسين.(٤)

---

(١) صحيح مسلم، جـ٢، ص ٢٩١.

(٢) وردت كل هذه الروايات في شمائل الترمذي. وكتب الترمذي في شأن راوي الحديث الأخير أن بعض أهل العلم قالوا إنه كان ضعيف الذاكرة.

(٣) الأدب المفرد، البخاري، ص ٥١.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٣.

كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يُجلس الإمام الحسين في حجره، ويضع فمه على فمه ويقول: اللهم إني أحبه فأحبه وأحبب من يحبه.

حينما أُسر صهر رسول الله ﷺ ؛ زوج السيدة زينب في غزوة بدر ولم يستطيع دفع الفدية، أرسل رسالة للسيدة زينب فخلعت عقداً كان في رقبتها وأرسلته له. وكان هذا العقد قد أعطته السيدة خديجة رضي الله عنها للسيدة زينب في جهازها. فلما رأى النبي ﷺ العقد اضطرب وسالت الدموع من عينيه، ثم اقترح على أصحابه رد العقد للسيدة زينب فوافق الجميع.

كان رسول الله ﷺ يحب حفيدته أمامة ابنة السيدة زينب كثيرا. وكان يأخذها معه حين يذهب للصلاة، فكان حين يصلي يصعدها فوق ظهره، وينزلها من على كتفه حين يركع، ثم يرفعها حين يقوم. ويتضح من الروايات أن رسول الله كان ينزلها ويصعدها بنفسه. لكن ابن القيم قال: إن هذا العمل كثير. وربما كانت أمامة تركب بنفسها ورسول الله ﷺ لم يكن يمنعها.

كانت إحدى حفيدات النبي ﷺ في حالة النزع فأرسلت أمها لرسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ وضعها الناس في حجره، فلما رآها رسول الله ﷺ في تلك الحالة سالت الدموع من عينيه، فقال له سعد: ما هذا الذي تفعله يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده.(١)

حين توفى إبراهيم قال رسول الله "إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا".(٢) ولم تكن محبة النبي ﷺ للعيال قاصرة على عياله فقط؛ بل كانت شاملة كل الأطفال.

---

(١) البخاري، كتاب المرض، ص ٨٤٤.(وهذا نص الحديث: "هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء). (المترجم).

(٢) البخاري، كتاب الجنائز، ص ١٤٤.(وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: "إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون". (المترجم).

حياته ﷺ مع أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن

السيدة خديجة رضي الله عنها

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، تلتقي في نسبها عند قصي مع رسول الله ﷺ، وكانت تلقب بالطاهرة قبل بعثة النبي ﷺ. أمها هي فاطمة بنت زاهدة. وكان والدها من سادة قبيلته، جاء مكة وسكن فيها وحالف بني عبد الدار[١] وتزوج بفاطمة بنت زاهدة من عائلة عامر بن لؤي، وأنجب منها السيدة خديجة. في البداية تزوجت السيدة خديجة من أبي هالة بن زراه التميمي وأنجبت منه ولدين هند[٢] والحارث. وبعد وفاة أبي هالة تزوجت من عتيق بن عايذ المخزومي وأنجبت منه بنتاً كان اسمها هند أيضاً. لذا كانت تنادي بأم هند. وقد قبل هند الإسلام وهو الذي نقلت عنه رواية حلية النبي ﷺ. حيث أنه كان فصيحاً بليغاً، اشترك مع علي ﷺ في موقعة الجمل واستشهد.[٣] وبعد وفاة عتيق تزوجت السيدة خديجة برسول الله ﷺ. وقد مر ذكر ذلك تفصيلاً، وكان للنبي ﷺ منها ستة أولاد ولدين توفيا في الصغر، وأربعة بنات هن السيدة فاطمة الزهراء، والسيدة زينب، والسيدة رقية، والسيدة أم كلثوم. وسيرد ذكر أحوالهن فيما بعد. وكان للسيدة خديجة لأخت اسمها هالة أيضاً، وقد أسلمت وظلت على قيد الحياة بعد وفاة السيدة خديجة.

كان رسول الله ﷺ يحب السيدة خديجة حباً جماً، وكان عمرها حين تزوجها رسول الله ﷺ أربعين عاماً، وعمر النبي ﷺ خمس وعشرون سنة. عاشت مع النبي ﷺ بعد النكاح خمسة وعشرون عاماً، ولم يتزوج النبي ﷺ من أخرى طيلة حياتها. وبعد وفاتها كان رسول الله ﷺ معتاداً على ذبح أي حيوان بالبيت، وأن يبحث عن صديقاتها ويرسل إليهن لحماً، لذا تقول السيدة عائشة: مع أنني ما رأيت السيدة خديجة لكني ما غرت من زوجة

---

[١] طبقات ابن سعد، ذكر خديجة، كتاب النساء.

[٢] طبقات ابن سعد.

[٣] الإصابة، ذكر هند.

أخرى أكثر منها، لأن رسول الله ﷺ كان دائم الذكر لها. وفي ذات مرة أغضبت رسول الله ﷺ بسببها فقال النبي ﷺ: إني قد رقت حبها.[1]

وذات مرة بعد وفاتها جاءت أختها هالة للقاء النبي ﷺ. فطلبت الإذن في الدخول كما هو متعارف عليه، ولأن صوتها كان قريب من صوت السيدة خديجة؛ لذا تذكر النبي ﷺ السيدة خديجة حين سمع صوتها، فنهض مسرعاً وقال: اللهم هالة بنت خويلد. وكانت السيدة عائشة موجودة حينذاك فغارت وقالت: يا رسول الله تذكر عجوزاً ماتت وقد أبدلك الله بزوجات أجمل منها. وردت هذه الرواية كما هي كهذا في صحيح البخاري أما في الاستيعاب زاد عليها أن رسول الله ﷺ قال لها: أبداً والله، لقد صدقتني حين كذبني الناس، وآمنت بي حين كفر الناس، وأعانتني حين تخلى عني الناس.

السيدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها

حصلت السيدة سودة من بين كل أزواج النبي ﷺ على شرف السبق بالزواج من النبي ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة. وكانت قد شرفت بالإسلام في بداية البعثة. فحصلت أيضاً على شرف السبق في الإسلام. تزوجت في البداية من سكران بن عمرو. فكانت السيدة سودة قد أسلمت وهاجرت معه للحبشة (الهجرة الثانية) ثم قدمت مكة من الحبشة ثم توفي سكران بعد فترة وترك ولداً له اسمه عبد الرحمن استشهد في معركة جلولاء.

كان رسول الله ﷺ قد حزن واضطرب كثيراً بعد وفاة السيدة خديجة فلما رأت ذلك خولة بنت حكيم قالت: إنك لفي حاجة إلى مؤنس ورفيق يا رسول الله. فأجاب النبي ﷺ بنعم، وذكر بأن السيدة خديجة كانت تتولى أمور البيت والعيال. فذهبت خولة بإيماء من رسول الله ﷺ إلى والد السيدة سودة، وسلمت عليه سلام الجاهلية قائلة: **أنعم صباحاً**. ثم أخبرته خبر النكاح. فقال: نعم، إن محمداً لشريف وكفؤ؛ ولكن اسألي سودة. المهم تمت المراسم وجاء النبي ﷺ بنفسه لبيتهم وعقد له والد سودة عليها.[2] وحدد لها أربعمائة درهم مهراً، وكان عبد الله بن زمعة (أخو السيدة سودة) في ذاك الوقت ما يزال على كفره، فلما علم بذلك ألقى التراب على رأسه وقال: ما هذا الغضب. لذا كان يبدى أسفه دائماً بعد إسلامه على فعلته هذه. ولأن خطبة السيدة عائشة والسيدة سودة تمتا في وقت واحد، لذا

---

[1] صحيح مسلم، فضائل خديجة. (وردت هكذا في صحيح مسلم " إني قد رزقت حبها")(المترجم).

[2] ورد في طبقات ابن سعد أن الزواج بها تم في رمضان سنة ١٠ هـ. أما الزرقاني فقال: إنه تم سنة ٨ هـ . وقد تولد هذا الاختلاف لأنه يوجد اختلاف في وفاة السيدة خديجة.

يختلف المؤرخون في أيهما أسبق. فيرى ابن إسحاق أن السبق كان للسيدة سودة. ويقول عبد الله بن محمد بن عقيل: إن النبي ﷺ عقد على السيدة عائشة أولاً.

حليتها

كانت السيدة سودة طويلة بدينة، لذا كانت لا تستطيع الإسراع في المشي، لذا طلبت من النبي وقت مغادرة المزدلفة أن تغادر قبل الجميع حتى لا تتأذى من المشي في الزحام.

كانت أمهات المؤمنين قبل نزول آية الحجاب تذهبن لقضاء الحاجة في الصحراء. فكان عمر يتأذى من ذلك؛ لذا تكلم مع رسول الله ﷺ في موضوع الحجاب. ولكن لأن الأمر لم يكن قد نزل حتى ذاك الحين؛ لذا كانت السيدة سودة تخرج لقضاء الحاجة ليلاً. ولأنها كانت طويلة القامة قال لها عمر: لقد عرفناك يا سودة. فنزلت آية الحجاب بعد هذه المرة.[1]

أخلاقها وصفاتها

كان الجود والكرم من أبرز صفات وأخلاق النبي ﷺ، ومن ثم تأثر به ﷺ كل صحابي بقدر قربه من رسول الله ﷺ . وهنا قد تيسر لأمهات المؤمنين الفرصة الأكبر للتمتع بالتأثر من أخلاق وصفات النبي ﷺ، ومن ثم يتصفن عمومًا بوصفه هذا. وقد امتازت السيدة سودة عن جميع أمهات المؤمنين عدا السيدة عائشة في هذه الصفة. فذات مرة أرسل لها عمر كيساً فسألت محضره عما فيه؟ فقال: دراهم. فقالت يرسل عمر الدراهم في كيس التمر. وبعد أن قالت هذا وزعت الدراهم جميعها. كما أنها كانت تمتاز بالطاعة وتسبق كل أمهات المؤمنين في هذه الصفة.

روايتها للحديث:

روى عن السيدة سودة خمسة أحاديث فقط. ورد أحدها في البخاري. وقد روى عنها من الصحابة كل من عبد الله بن عباس ويحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة رضى الله عنهم أجمعين.

وفاتها:

يوجد اختلاف في السنة التي توفيت فيها السيدة سودة فيرى الواقدي أنها توفيت سنة٥٤هـ في عهد خلافة معاوية. ويقول الحافظ ابن حجر إنها توفيت سنة ٥٥هـ.

---

[1] البخاري، جـ١، ص، ١٢٦. ويوجد اختلاف كبير في شأن نزول آية الحجاب؛ فالرواية الأولى هي المذكورة. أما الرواية الثانية فتقول إن عمر قال لرسول الله ﷺ: إن كل أصناف الناس من جيد ورديئ يأتون إلى هنا فليتك تأمرهن بالحجاب. وروى ابن جرير في تفسيره عن مجاهد أن رسول الله ﷺ كان يأكل مع أصحابه وكانت السيدة عائشة أيضاً تأكل معهم فلمستها يد أحد الصحابة. فغضب رسول الله ﷺ فنزلت الآية. والمشهور أن آية الحجاب نزلت في شأن دعوة وليمة السيدة زينب. وقد وردت هذه الواقعة بالتفصيل في الصحاح. وقد وفق الحافظ بن حجر بين هذه الروايات فقال: إن ثمة أسباب عديدة لنزول آية الحجاب، وقد كانت واقعة السيدة زينب آخر سبب لنزولها، وهذا سبب نزولها لأنه يوجد في الآية إشارة لتلك الواقعة. (فتح الباري جـ ١ ص ٢١٩)

وأورد البخاري بسند صحيح في تاريخ وفاتها وهو أنها توفيت في عهد خلافة عمر وأضاف الذهبي في التاريخ الكبير على ما قاله البخاري أنها توفيت في آخر خلافة عمر، وقد توفى عمر سنة ٢٣هـ. لذا يرجح أن تكون قد توفيت سنة ٢٢هـ. ورد في الخميس بأن هذه هي أرجح الروايات.[١]

السيدة عائشة[٢]

كان اسمها عائشة. لم تنجب ولكنها كانت تكنى بأم عبد الله نسبة لابن أختها عبد الله بن الزبير. كان اسم أمها ولقبها أمر رومان. ولدت بعد البعثة بأربع سنين. وتزوجت النبي ﷺ سنة عشرة هجرية وهي بنت ست سنين وكانت مخطوبة قبل النبي ﷺ لابن جبير بن مطعم. وبعد وفاة السيدة خديجة عرضت خولة بنت حكيم على رسول الله الزواج منها فقبل رسول الله ﷺ. فقالت خوله لام رومان، التي حكت لأبي بكر، فقال أبو بكر: إنني وعدت جبير بن مطعم ولن أنقض عهدي معه. ولكن مطعم نفسه رفض أن تأتي السيدة عائشة بيته حتى لا يدخله الإسلام على أثرها. وعلى كل حال عقد أبو بكر مع رسول الله ﷺ عن طريق خولة. وكان المهر أربعمائة درهم. لكن روى في مسلم عن السيدة عائشة أن مهر أمهات المؤمنين كان خمس مائة درهم.

وبعد النكاح أقام رسول الله ﷺ في مكة ثلاث سنين ثم هاجر سنة ١٣ من البعثة برفقة أبي بكر، وترك أهله وعياله في مكة. ولما تحسنت الأوضاع في المدينة أرسل أبو بكر عبد الله بن اريقط ليحضر أم رومان وأسماء وعائشة رضي الله عنهن. وأرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع رضى الله عنهما ليحضرا السيدة فاطمة وأم كلثوم والسيدة سودة وغيرهن. فلما قدمت السيدة عائشة المدينة أصابتها حمى شديدة حتى أن شعر رأسها سقط من شدة المرض. ولما تحسنت صحتها رأت أم رومان أن تتم الزواج وكان عمر السيدة عائشة حينذاك تسع سنين فكانت تلعب مع صديقاتها، فنادت عليها أم رومان دون أن تعرف بالأمر. فجاءت أمها فغسلت لها وجهها ومشطت شعرها وذهبت بها للبيت. وكانت نساء الأنصار تنتظرن فلما دخلت عائشة البيت هنأها الجميع. ثم جاء النبي ﷺ

---

[١] ورد هذا تفصيلا في الزرقاني، جـ٣، ص ٢٦. وقد وردت الرواية الأولى فقط في طبقات ابن سعد.

[٢] نحتاج لكتاب مستقل للوقوف على حالات وكمالات السيدة عائشة. أما هنا فقد كتبت الأمور الضرورية عن حياتها. وقد أكمل شبلي وعده، وكتب كتابا عن السيدة عائشة باسم "سيرة عائشة" ويوجد هذا الكتاب في مكتبة لاهور.

وقت الضحى، وتمت مراسم العرس. وكان النكاح قد تم في شوال، ولأن شوال كان شهر يأتي فيه مرض الطاعون لذا كانت العرب تكره الزواج في هذا الشهر. فربما تم زواج النبي ﷺ في هذا الشهر ليقضي على هذا الاعتقاد.

وفاتها:

عاشت مع رسول الله ﷺ تسع سنين. فقد تزوجت النبي ﷺ وهي في التاسعة من عمرها. وكانت تمت ثمان عشرة سنة حين توفى رسول الله ﷺ. عاشت بعد وفاة النبي ﷺ ثمان وأربعين سنة. وتوفيت سنة ٥٧هـ عن ٦٦ سنة. ودفنت طبقاً لوصيتها ليلاً في جنة البقيع، دفنها قاسم بن محمد وعبد الله بن عبد الرحمن وعبد الله بن أبى عتيق وعروة بن الزبير. وفي ذلك الوقت كان أبو هريرة الحاكم المفوض للمدينة من قبل مروان بن الحكم، لذا أم المسلمين في صلاة الجنازة عليها.

وقد كان رسول الله ﷺ يحب السيدة عائشة كثيراً. لذا استأذن رسول الله ﷺ من كل أزواجه في مرض الموت أن يقيم آخر أيامه في حجرة السيدة عائشة.

وتوجد وقائع كثيرة في الأحاديث والسير تظهر طرق حب رسول الله ﷺ لها.

حياتها العلمية

تحمل الحياة العلمية للسيدة عائشة مكانة كبيرة. إذ أنها كانت تقوم بالفتوى في عهد خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم. وأبدت اعتراضات دقيقة على أكابر الصحابة، جمعها الإمام السيوطي في رسالة.[١] وروى عنها ٢٢١٠ حديث. منهم ١٧٤ حديث اتفق عليهم الشيخان. وروى البخاري عنها ٥٤ حديث، وروى مسلم ٦٨ حديث. ويقول البعض: إن ربع الأحكام الشرعية مروية عنها، ورد في الترمذي أن الصحابة كانوا إذا واجههم أي سؤال صعب ودقيق، كانوا يجدون حله عن طريق السيدة عائشة. ويقول تلامذتها: لم نر أفصح ولا أفوه منها. كما أنها كانت بارعة في التفسير والحديث والشريعة والخطابة والأدب وعلم الأنساب، وكانت تحفظ أطول قصائد الشعر. كتب عن هذا تفصيلاً الحاكم في المستدرك، وابن سعد في الطبقات، ويوجد في مسند ابن حنبل وغيره أدلة وشواهد على فضلها وكمالها.

---

[١] وردت هذه الرسالة في آخر سيرة عائشة.

السيدة حفصة رضي الله عنها

هي السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنهما. أمها هي السيدة زينب بنت مظعون. ولدت قبل البعثة بخمس سنين في نفس العام الذي كانت قريش تبني فيه الكعبة. تزوجت من خنيس بن حذافة وهاجرت معه للمدينة. جرح خنيس في غزوة بدر ثم أستشهد متأثر بجراحه بعد عودته من هذه الغزوة.[1] ولم تنجب منه السيدة حفصة.[2] وبعد أن ترملت، شغل والدها بأمر زوجها، ولسوء الحظ توفيت في الوقت نفسه السيدة رقية؛ لذا عرض عمر على عثمان أولاً الزواج منها، فقال عثمان: سأنظر في أمري.[3] فعرض عمر الأمر على أبي بكر فسكت. فحزن عمر كثيراً من رفضهما. ولكن بعد ذلك طلب النبي ﷺ بنفسه الزواج منها فقابل أبو بكر عمر وقال له: لعلك وجدت عليّ حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً، فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله، ولو تركها رسول الله قبلتها.[4] ولأن السيدة حفصة كانت بنت عمر؛ لذا كانت قاسية الطبع قليلاً. فيقول عمر نفسه في البخاري فيما يتعلق بحديث الإيلاء:[5] كنا في الجاهلية نعتبر النساء لا شيء،

---

(1) الزرقاني، جـ ٢ ص ٢٧٠، وهذه هي الرواية المشهورة لكن ورد في الإصابة أنه استشهد في غزوة أحد. وكتب الحافظ ابن حجر في فتح الباري أن عمر كان قد طلب من عثمان الزواج منها بعد وفاة السيدة رقية. ومن المسلم به أن السيدة رقية توفيت بعد غزوة بدر؛ لذا لم يتمكن عثمان من الاشتراك في غزوة بدر، وثبت من ذلك أن خنيس توفى بعد غزوة بدر. وورد في رواية ثانية أن عثمان كان جالسا حزينا فمر عليه عمر وقال له: أتتزوج حفصة؟ فقد أنقضت عدتها. فإن كان خنيس قد استشهد في أحد لكانت عدتها حتى سنة ٤هـ، لكن النكاح تم في سنة ٣هجرية. فتح الباري ص١٥٢.

(2) الطبري جـ ٤ ص ١٧٧١.

(3) البخاري، ج٢، ص٦٨.

(4) البخاري، جـ٢، ص٦٨

(5) (٨٤٠) حَدِيثُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالْحِجَابِ فَقَالَ عُمَرُ فَقُلْتُ لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ بِعَيْبَتِكَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهَا يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُحِبُّكِ وَلَوْلَا أَنَا لَطَلَّقَكِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ فَقُلْتُ لَهَا أَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ هُوَ فِي خِزَانَتِهِ

وذات يوم كنت أفكر في موضوع ما واتفق أن أشارت علي زوجتي في الأمر، فقلت لها: وما شأنك في تلك الأمور.[1] قالت: ولم تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه. يقول عمر: فنهضت وذهبت لحفصة وقلت لها: أي حفصة، أتغاضب إحـداكن

فِي الْمَشْرُبَةِ فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدًا عَلَى أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ مُدَلٍّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَهُوَ جِذْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْحَدِرُ فَنَادَيْتُ يَـا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ وَاللَّهِ لَـئِنْ أَمَرَنِـي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا وَرَفَعْتُ صَوْتِي فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنْ ارْقَهْ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ قَالَ مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُـكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا قُلْتُ بَلَـى قَـالَ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللَّهَ بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ) (وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيـلُ وَصَـالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) (وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ قَالَ لَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّـهِ إِنِّـي دَخَلْـتُ الْمَسْـجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ قَالَ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ وَكَانَ مِـنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَزَلْتُ فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجِذْعِ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ فِي الْغُرْفَـةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ قَالَ إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَـوْتِي لَـمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَـوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ *(المترجم).

[1] الترمذي، ص٤٧٨، كتاب المناقب.

النبي ﷺ حتى الليل. قالت: نعم نفعل هذا. فقلت لها: احذري، فأنا أحذرك من عــذاب الله ولا يغرنك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ[1] (أي عائشــة). وورد فــي الترمذي أن السيدة صفية كانت تبكي ذات مرة فجاء رسول الله ﷺ وســألها عــن سـبب بكاءها، فقالت: قالت لي حفصة " يا بنت اليهودي" فقال النبي ﷺ: إنك لابنــة نبــي، وإن عمك لنبي وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك.[2]

ذات مرة قالت السيدة عائشة والسيدة حفصة للسيدة صفية نحن أكثر عزة منك عند رسول الله، فنحن أزواجه وبنات أعمامه. فغضبت السيدة صفية واشتكت لرســول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ألا قلتِ: فكيف تكونان خيرا مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى.

ولأن السيدة عائشة والسيدة حفصة كانتا بنات أبي بكر وعمر أقــرب الصــحابة للنبي؛ لذا كانتا تتحدان مع بعضهما ضد بقية أزواج النبي ﷺ. ولكن أحياناً كان يقع بــين الاثنتين غيرة وغبطة أيضاً. فذات مرة ذهبت السيدة عائشة والسيدة حفصة في سفر مــع رسول الله ﷺ، فكان النبي ﷺ يركب ليلاً جمل السيدة عائشة ويحادثها. وذات يوم قالــت السيدة حفصة للسيدة عائشة: تعالى الليلة على جملي وسأجيء أنا على جملك حتى نشاهد مشاهد مختلفة. فقبلت السيدة عائشة. فجاء النبي ﷺ على جمل السيدة عائشة التي كانــت السيدة حفصة تركبه. وحينما وصلوا المكان ولم تجد السيدة عائشة رسول الله شاكت قدمها وقالت: إلهي، أي عقرب أو حية أرسلت لتلدغني.[3]

وفاتها

توفيت السيدة حفصة سنة ٤٥ هجرية في عهد خلافة معاوية، وكانت قبل وفاتهــا قد أوصت أخيها عبد الله بن عمر نفس الوصية التي كان عمر قد أوصى بها؛ وهــي أن تُوقف بعض التركة يُتصدقُ ببعضها. ولقد أم صلاة جنازتها مروان بن الحكم حاكم المدينة آنذاك. وحملت جنازتها من بيت بني حزم حتى بيت المغيرة بن شعبة. ثم حمل جنازتهــا

---

[1] صحيح البخاري، جـ١،ص٣٠.

[2] الترمذي، ص ٤٧٨، كتاب المناقب.

[3] يجب مراعاة أن هذا النوع من الروايات فقط فيما يتعلق بالسيدة عائشة والسيدة حفصة. ويجب البحث عن أسباب ذلك. فقد كانت عداوة أبي بكر وعمر للمنافقين جديرة بالذكر وملحوظة.

من بيت المغيرة حتى القبر أبو هريرة. ودفنها أخوها عبد الله وأولاده عاصم وعبد الله وحمزة.[1]

السيدة زينب أم المساكين رضي الله عنها

اسمها زينب ولأنها كانت تطعم المساكين والفقراء بكرم شديد؛ لذا لقبت بأم المساكين. تزوجت قبل النبي ﷺ من عبد الله بن جحش. وقد استشهد عبد الله في غزوة أحد سنة ٣هـ فتزوجها رسول الله ﷺ في السنة نفسها. وبعد زواجها بالنبي ﷺ عاشت شهرين أو ثلاثة ثم توفيت. وكانت الزوجة الوحيدة بعد السيدة خديجة التي توفيت في حياة النبي. فصلى عليها رسول الله الجنازة بنفسه ثم دفنت في جنة البقيع، وقد توفيت وهي في الثلاثين من عمرها.

السيدة أم سلمة رضي الله عنها

اسمها هند وكنيتها أم سلمة. اسم ابيها سهيل، واسم أمها عاتكة. وأول من تزوجت هو عبد الله بن عبد الأشد، والذي كان يعرف بأبي سلمة ابن عمها، وشقيق رسول الله في الرضاعة. أسلمت مع زوجها وهاجرت معه إلى الحبشة، وأنجبت ولدها سلمة في الحبشة. ثم رجعت من الحبشة إلى مكة ومنها هاجرت إلى المدينة. وقد حصلت على شرف أنها كانت أول امرأة تهاجر إلى المدينة كما يقول أصحاب السير. وكان زوجها أبو سلمة فارس شجاع. اشترك في غزوة بدر وأحد. وجرح في غزوة أحد ثم مات متأثراً بجراحه في جمادى الثاني سنة ٤هـ. صليت جنازته باهتمام كبير. فقد كبر فيها رسول الله تسع تكبيرات وبعد الصلاة سأل الناس رسول الله فقالوا: هل سهوت يا رسول الله. قال: لا، وأخبر بأنه يستحق ألف تكبيرة. وكانت أم سلمة حاملاً وقت وفاة زوجها أبي سلمة، وبعد ما وضعت حملها وانقضت عدتها أراد رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فقدمت له بعض

---

[1] وهناك اختلاف في سنة وفاتها، فورد في رواية أنها توفيت في جمادى الأولى سنة ٤١ هـ وكان عمرها آنذاك ٥٩ سنة. لكن لو افترضنا أنها توفيت سنة ٤٥هـ سيكون عمرها ٦٢ سنة. ووردت رواية أنها توفيت في خلافة عثمان سنة ٢٧هـ. وقد اعتمدت هذه الرواية على ما رواه وهب ابن مالك أنه قال: إن حفصة توفيت في نفس السنة التي فتحت فيها أفريقيا. وقد فتحت أفريقيا سنة٢٧هـ زمن خلافة عثمان. ولكن هذا خطأ فادح حيث فتحت أفريقيا مرتين. وتم الفتح الثاني على يد معاوية بن خديج، وكان هذا في سنة ٥٠هـ، وهي نفس السنة التي اعتبرها وهب بن مالك سنة وفاة السيدة حفصة.

الأعذار، وهي: ١- إنها امرأة غيور للغاية. ٢- إنها صاحبة عيال. ٣- إنها مسنة. لكن رسول الله ﷺ قبل كل هذه الأعذار.

وفاتها

يتفق أهل السير على أن السيدة أم سلمة كانت آخر من توفى من نساء رسول النبي. لكنهم يختلفون في سنة وفاتها. فقال الواقدي أنها توفيت سنة ٥٩هـ. وقال إبراهيم حربى سنة ٦٢هـ، وقال في التقريب: إن هذا هو التاريخ الصحيح. وكتب البخاري في التاريخ الكبير أنها توفيت سنة ٥٨هـ. وورد في بعض الروايات أنها توفيت سنة ٦١هـ حين جاء خبر شهادة الحسين. وقد صحح ابن عبد الله هذه الرواية.

يصعب تحديد سنة الوفاة بسبب اختلاف الروايات هذه. ولكن المؤكد أنها كانت حية أثناء واقعة الحرة. فقد ورد في مسلم أن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة وعبد الله بن صفوان جاءا السيدة أم سلمة وسألاها عن حال الجيش الذي سيقتحم الأرض. وقد استفسر عن هذا السؤال حين أرسل يزيد مسلم بن عقبة إلى المدينة مع جيش الشام وحديث واقعة الحرة. فقد وقعت واقعة الحرة سنة ٦٣هـ ؛ لذا فكل الروايات التي ذكرت أنها توفيت قبل هذا التاريخ خاطئة. كتب ابن عبد البر أن سعيد بن زيد هو من صلى عليها الجنازة تنفيذاً لوصيتها. لكن هناك شك في صحة هذه الرواية إذ أن سعيد بن زيد قد توفى سن ٥١ أو ٥٢ هـ حسب اختلاف الروايات، ومن المؤكد أن أم سلمة كانت حية وقت وفاته. وكتب الواقدي أن أبا هريرة هو الذي صلى عليها. فإن كان سعيد حياً وقت وفاتها فكيف لأبي هريرة أن يصلي هو الجنازة. ومع كل فإن أم سلمة كانت آخر من توفيت من أمهات المؤمنين. وقد توفيت عن ٨٤ سنة.

فضلها وكمالها:

اشتهرت أم سلمة بالفضل والكمال من بين كل نساء النبي ﷺ بعد السيدة عائشة كما صرح بذلك ابن سعد في طبقاته. ولقد امتازت على كل نساء النبي ﷺ عدا السيدة عائشة في رواية الحديث ونقل الأحكام. ففي صلح الحديبية حين تردد الصحابة في الحلق والفداء خارج مكة، حلت لهم السيدة أم سلمة تلك المسألة بتدبر. وهذا مثال جيد لفطانتها ونكاءها. وقد وردت تلك الواقعة تفصيلاً في صحيح البخاري.

السيدة زينب رضي الله عنها

كانت السيدة زينب من أزواج النبي ﷺ اللائي يدعين تساويهن مع السيدة عائشة. فتقول السيدة عائشة نفسها عنها: "**كانت تساميني**" وكان لها الحق في ذلك. فكانت من ناحية النسب بنت عمة رسول الله ﷺ. وكانت فريدة في الجمال وكان رسول الله ﷺ يحبها كثيراً. كما أنها كانت زاهدة ورعة، فحينما اتهمت السيدة عائشة في حادثة الإفك، وكانت أخت السيدة زينب "حمنه" ممن اشتركن في هذه التهمة. سأل رسول الله السيدة زينب عن أخلاق عائشة فقالت صراحة: **ما علمت إلا خيراً**. وبسبب صدقها هذا وإقرارها للحق آمنت السيدة عائشة بفضلها.

كانت السيدة زينب مشغولة دائما بالعبادة بكل خضوع وخشوع. فحين أراد رسول الله ﷺ أن يتزوج بها قالت: إني لا أعطي رأيا دون أن استخير. وذات مرة كان رسول الله ﷺ يقسم بعض الأموال على المهاجرين فقالت السيدة زينب شيئاً في هذا الأمر فزجرها عمر. فقال له رسول الله: اصفح عنها يا عمر فإنها اداه (أي خاشعة متضرعة)، وكانت غاية في القناعة والكرم. كانت تكتسب بنفسها وتنفق في سبيل الله ذات مرة أرسل لها عمر نفقتها السنوية فوضعت قماشة على النفقة ثم قالت لبرزة بنت رافع: قسمي هذا على أقاربي وعلى اليتامى. فقالت برزة: ألِيَّ حق. قالت: خذي القماش. فنظرت برزة تحت القماشة فوجدت خمسين درهما. ولما قسمت المال دعت وقالت :اللهم لا تجعلني استفيد من عطية عمر بعد عامي هذا. فقبل دعاءها وتوفيت في العام نفسه.

وفاتها:

قال رسول الله ﷺ لأمهات المؤمنين: "**أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يدا**".

وكان هذا إشارة إلى الجود، لكن أمهات المؤمنين فهمن الأمر على ظاهره وأخذن يقسن أيديهن؛ لكن هذا القول صدق على السيدة زينب لكرمها وجودها. فلحقت بالنبي ﷺ قبل بقية أزواجه. وكانت قد جهزت كفنها بنفسها وأوصت أن يرسل عمر كفنا ثم يُتصدق بأحد الكفنين. وقد نفذت وصيتها وصلى عليها عمر الجنازة ثم سأل بقية أمهات المؤمنين عمن يدخل معها القبر؟ فقلن: من كان يتردد على بيتها. (لذا دفنها أسامة بن محمد بن عبد الله بن جحش وعبد الله بن أبي أحمد بن جحش) وقد توفيت سنة ٢٠هـ عن ٥٣ سنة. وكتب الواقدي أن رسول الله ﷺ تزوجها وهي في سن ٣٥ سنة.

السيدة جويرية رضي الله عنها

هي السيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار سيد قبيلة بني المصطلق. تزوجت من مسافع بن صفوان الذي قتل في غزوة المريسيع، وهي تلك الغزوة التي أسر فيها المسلمون كثيرًا من الجواري والعبيد فكانت السيدة جويرية إحداهن. وحينما قسم مال الغنيمة كانت من نصيب ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري.

يجيز الإسلام للسيد أن يعتق عبده أو جاريته بعد أخذ مبلغ معين منه. وهذا ما يطلق عليه الفقهاء في الإصطلاح "المكاتبة" وقد كاتبت السيدة جويرية شريطة أن تدفع تسع أوقيات من الذهب. لكن كان هذا فوق استطاعتها فذهبت لرسول الله ﷺ وقالت له: يا رسول الله، إني امرأة مسلمة اسمي جويرية بنت الحارث سيد قومه ولا يخفى عليك ما حل من المصائب. وقد كنت من نصيب ثابت بن قيس وقد كاتبته على تسع أوقيات من الذهب، ولكن لا أستطيع أن أؤدي هذا له. لكني قبلت هذا اعتماداً عليك وجئت الآن أسألك. فقال النبي ﷺ: «فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «اقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ» قالت: نعم يا رسول الله قال: «قَدْ فَعَلْتُ». فاستدعى رسول الله ﷺ قيس فرضي هو الآخر. فأعطاه النبي ﷺ الذهب ثم أعتقها النبي وتزوج بها. وذاع الخبر فاعتق الناس كل العبيد والجواري الذين اسروا من قبيلة بني المصطلق بسبب مصاهرة الرسول لهم. وقيل في بعض الروايات أن عدد العبيد الذين عتقوا كان قد بلغ سبعمائة. لذا تقول السيدة عائشة: لقد عُتقت أسر كثيرة بفضل السيدة جويرية[1].

---

[1] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في مسند أحمد: (٢٥٩٦٦) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا يعقوب قال: حدثنا أبي، عن ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين قالت: « لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة وملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: «فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «اقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ» قالت: نعم يا رسول الله قال: «قَدْ فَعَلْتُ» قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله

وقد ورد في بعض الروايات أن السيدة جويرية هي التي طلبت هذا من رسول الله فحرر رسول الله كل الأسرى إكراماً لها. وقد توفيت السيدة جويرية سنة ٥٠هـ، ودفنت في جنة البقيع عن ٦٥ سنة.

السيدة أم حبيبة رضي الله عنها

اسمها رملة وكنيتها أم حبيبة، ولدت قبل البعثة بـ ١٧ سنة. اعتنق عبيد الله ابن جحش النصرانية، لكنها ظلت على إسلامها. لذا طلقها عبيد الله بسبب اختلاف الدين. فحان لها أن تشرف – إضافة للإسلام والهجرة – بأن تكون من أمهات المؤمنين.

لذا أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري للنجاشي بهدف النكاح. فلما وصل عمرو عند النجاشي أرسل النجاشي جاريته ابرهة لأم حبيبة فقالت لها: إن رسول الله ﷺ يريد الزواج بك. فوافقت ثم وكلت عنها خالد بن سعيد الأموي. وأعطت الجارية ابرهة خاتمين واسورتين ذهبيتين مقابل تلك البشرى وفي المساء جمع النجاشي جعفر بن أبي طالب والمسلمين الذين كانوا هناك واقر الزواج.[1] ثم أعطى أم حبيبة عن رسول الله ﷺ أربعمائة درهم مهرا.[2]

أعطى المهر لخالد بن سعيد أمام الناس جميعاً. فأراد الناس الانصراف بعد العقد لكن النجاشي قال: إن دعوة الوليمة سنة كل الأنبياء. فيجب عليكم الجلوس. ثم جيء بالطعام فأكل الناس ثم انصرفوا. وحينما أعطى المهر لأم حبيبة أعطت الجارية أبرهة خمسين ديناراً. لكن الجارية أعادت لها الدنانير والخواتم والأساور التي أخذتها من قبل وقالت: إن الملك منعني أن آخذ شيئاً. ثم جاءتها في اليوم الثاني ومعها عود وزعفران وعنبر وغيره من الأشياء التي أخذتها أم حبيبة معها لرسول الله ﷺ. ولما تمت كل مراسم

صلى الله عليه وسلم، فأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه اياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها. (المترجم).

[1] هناك اختلاف في سنة الزواج والمشهور أن الزواج تم سنة ٧هـ، ولكن ورد في بعض الروايات أنه تم سنة ٦هـ ومن الممكن أن يكون رسول الله ﷺ قد أرسل عمرو بن أمية بهدف الزواج، وأن الزواج تم فعلاً سنة ٧هـ. وهناك اختلاف في مكان النكاح أيضاً وفيمن عقده. لكن الصحيح أن النكاح تم في الحبشة وأن النجاشي هو الذي أتمه.

[2] هذه هي الرواية الصحيحة ولكن هناك اختلاف في الرقم، فورد في بعض الروايات تسعمائة دينار. ويرى البعض أربعة آلاف دينار. وورد في أبي داود أربعة آلاف درهم بدلاً من دينار. وورد في رواية الزهري أربعين أوقية، لذا فإن كانت فضة فتكون قيمتها ألف وست مائة درهم.

الزواج ودعها النجاشي مع شرحبيل بن حسنة إلى رسول الله ﷺ. وقد توفيت أم حبيبة سنة ٤٤هـ،[1] ودفنت بالمدينة.

السيدة ميمونة رضي الله عنها

اسمها ميمونة، واسم والدها الحارث، وأمها هند تزوجت في البداية من مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي، وحين طلقها مسعود، تزوجت من أبي رهم بن عبد العزى، وبعد وفاته تزوجت من رسول الله ﷺ. وهناك روايات مختلفة عن زواجها. ففي رواية أنها وهبت نفسها للنبي ﷺ، وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ وكل مولاه أبا رافع وأرسله من المدينة مع أوس بن خوالى إليها، فوافقت. ولكن الرواية الصحيحة هي أن العباس هو الذي تولى أمر هذا الزواج وهو من عقد العقد.

وفاتها

من المفارقات الغريبة أن السيدة ميمونة توفيت في نفس المكان الذي تزوجت فيه، وصلى عليها عبد الله بن عباس ﷺ ودفنها. ورد في الصحاح أنه حين حملت جنازتها قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إنها زوجة رسول الله فلا تحركون الجنازة كثيراً، وامشوا بأدب وبتأني. وهناك اختلاف في سنة وفاتها والصحيح أنها توفيت في سنة ٥١هـ.

السيدة صفية

اسمها صفية، وكتب الزرقاني :أن العرب كانوا يطلقون على أفضل أسهم الغنيمة، والذي يخصص للإمام أو الملك مسمى صفية. وفي غزوة خيبر حين جاءت في عقد النبي ﷺ وفقا لهذه الطريقة، لذا اشتهرت باسم "صفية"، واسمها الحقيقي زينب، واسم أبيها حيي بن أخطب، وأمها ضرة. وكانت السيدة قد فازت بالسيادة من قبل أبيها وأمها، فكان أبوها سيد بني النضير، ولأمها ابنة سيد قريظة. تزوجت السيدة صفية من قبل بسلام بن مشكم القرظي، وحين طلقها ابن مشكم، تزوجها كنانة بن أبي الحقيق، قتل كنانة في غزوة خيبر، كما قتل أيضاً أبوها وأخوها، ووقعت هي في أسر المسلمين. وحين جمع أسرى خيبر كطلب دحية الكلبي جارية من الرسول ﷺ، فأعطاه الرسول ﷺ حق الاختيار، فاختار السيدة صفية، ولكن جاء صحابي وقال للنبي ﷺ: إنك بهذا أعطيت دحية سيدة بني النضير

---

[1] كتب البعض أنها توفيت في سنة ٤٢هـ. ويرى ابن أبي خشيمة أنها توفيت سنة ٥٩هـ. ويرى البعض أنها سنة ٥٠هـ وبعض آخر سنة ٥٥هـ. كما ورد في رواية أنها دفنت في دمشق.

. ي قريظة في حين أنها لا تستحق أحد دونك، فأمر النبي ﷺ بمجئ دحية مع هذه المرأة.
فجاءه دحية ومعه صفية، وأعطاه النبي ﷺ جارية ثانية وأعتق صفية ثم تـزوج بهـا ﷺ.
وحين غادر خيبر تمت مراسم العرس في الصهباء، وجمع الناس ما معهـم مـن أمتعـة وأقيمت وليمة، وحين غادر النبي ﷺ هذا المكان، أجلسها على ناقتها وسـترها بعباءتـه، وكأن هذا إعلان على أنها أصبحت من بين أزواجه المطهرات.

كان النبي يحب السيدة صفية حباً كثيراً، وكان يواسيها إذا ألم بها ما لا ترضـاه، ففي ذات مرة كان النبي ﷺفي سفر، وبرفقته أزواجه المطهرات، ولسوء الطالع مـرض جمل السيدة صفية، وكان عند السيدة زينب إبل تفيض عن الحاجة. فقال لها النبـي ﷺ : أعط صفية جملا. فقالت: أأعطى جملي لهذه اليهودية؟ فغضب النبي ﷺ منها غضبا جعله لا يذهب إليها لمدة شهرين. وذات مرة ذهب النبي ﷺ إلى السيدة صفية، فرأهـا تبكـى، وسألها عن سب بكاءها، فقالت :إن السيدة عائشة والسيدة زينب تقولان: إننا أفضل أزواج النبيﷺ. وقالت السيدة زينب: فأنا زوجته وابنة عمته معا. فقال النبي ﷺ: ألا قلت: فكيف تكونان خيرا مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى.؟

توفيت السيدة صفية في سنة ٥٠ هـ في جنة البقيع.

الأولاد

يوجد اختلاف كبير في عدد أولاد النبي ﷺ، لكن الرواية المتفق عليها هي أنه كان للنبي ﷺ ستة أبناء هم القاسم وإبراهيم وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وقد عاصرت كل البنات الإسلام وشرفن بالهجرة، لكن ابن إسحاق ذكر اسم ولدين آخرين هم الطاهر والطيب. وعلى هذا يكون للنبي ﷺ ستة أولاد وست بنات وثبت من جميع الأقوال في هذا الأمر أن النبي ﷺ كان له اثنا عشر ولدا. ثمان أولاد وأربع بنات. ولا يوجد اختلاف في عدد البنات. لكن الاختلاف في عدد الأولاد فيصل عددهم إلى ثمان. ولا تختلف الروايات على القاسم وإبراهيم. كما يتفق الرواة جميعاً على أن إبراهيم كان ابن السيدة ماريا القبطية، والبقية أبناء السيدة خديجة.[1]

القاسم ؓ

هو أسبق أولاد النبي ﷺ مولداً. ويحتمل أن يكون قد ولد قبل البعثة بإحدى عشرة سنة تقريباً. ويرى مجاهد أنه عاش سبعة أيام فقط. ويتضح من رواية ابن سعد أنه عاش عامين. وكتب ابن فارس أنه بلغ سن الرشد.

كما كان القاسم أسبق أبناء النبي ﷺ مولداً، كذا كان أسبقهم وفاة. والرواية المشهورة هي أنه توفى قبل البعثة وقد كني رسول الله بأبي القاسم نسبة إليه. فكان رسول الله يحب هذه الكنية كثيراً وكان الصحابة ينادونه بها. وذات يوم كان رسول الله ﷺ ماراً في السوق فنادى رجل وقال: يا أبا القاسم. فلما التفت النبي ﷺ قال الرجل: كنت أنادي على رجل آخر يا رسول الله. فقال النبي ﷺ لرفع هذا الالتباس: «تَسَمَّوا باسْمي، ولا تَكْتَنوا بكُنْيَتي»[2].

---

[1] الزرقاني، ص ٢٣.

[2] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في البخاري: (١١٠) ــــ حدَّثنا موسى قال: حدَّثنا أبو عَوانةَ عن أبي حَصينٍ عن أبي صالحٍ عن أبي هُرَيرَةَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «تَسَمَّوا باسْمي، ولا تَكْتَنوا بكُنْيَتي. ومَنْ رآني في المَنامِ فقدْ رآني، فإنَّ الشيطانَ لا يَتمثَّلُ في صُورتي. ومَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ منَ النار» (المترجم).

السيدة زينب رضي الله عنها

اتفق أهل السير على أن السيدة زينب كانت كبرى بنات النبي ﷺ، فيقول زبير بن بكار أنها ولدت بعد القاسم. لكن ابن الكلبي يرى أنها أول مولود ولد للنبي. وقد ولدت قبل البعثة بعشر سنين حين كان عمر النبي ﷺ ثلاثين عاماً. وحينما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ترك أهله وأولاده في مكة. تزوجت السيدة زينب من ابن خالتها أبي العاص بن ربيع بن لقيط. وقد أُسر في غزوة بدر وحينما أطلق سراحه وعد أن يذهب لمكة ويرسل السيدة زينب، فلما عاد لمكة ودعها مع أخيه كنانة صوب المدينة. وقد حمل كنانة سلاحه لأنه كان يخاف من أن يتعرض الكفار له. وحينما وصل ذي الطوى، تعقبه بعض كفار قريش، فأسقط هبار بن الأسود السيدة زينب من على الراحلة، وكانت السيدة زينب حامل فسقط حملها. لذا أخرج كنانة سهامه من الجعبة وقال: سأجعل من يتقدم منكم هدفاً لسهامي. فابتعدوا جميعاً. فجاء أبو سفيان مع سادة قريش وقال لكنانة أنزل السهم فإنا نريد أن نتحدث إليك، فلما وضع كنانة سهامه في الجعبة قال أبو سفيان: تعلم ما حل بنا من مصائب على يد محمد، ولو تركنا ابنته الآن تخرج من بيننا علانية لقال الناس إننا ضعفاء. ولا حاجة لنا في أن نعترض زينب، لذا خذها واذهب بها خفية بعد أن يهدأ الأمر. فوافق كنانة على عرض أبي سفيان ثم غادر معها بعد بضعة أيام. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل زيد بن حارثة لإحضارها. فتركها له كنانة في البطن أو في الجج. فأخذها زيد واتجه إلى المدينة .

لما جاءت السيدة زينب المدينة تركت زوجها أبا العاص على شركه. ولما أُسر مرة ثانية في سرية[1] آوته السيدة زينب. فعاد إلى مكة وأعاد الأمانات التي كانت عنده لأصحابها ثم أسلم وهاجر للمدينة. ولأن السيدة زينب كانت قد تركته بسبب شركه، فلما عاد إلى المدينة وهو مسلم عادت إليه. وقد روي في الترمذي وغيره عن ابن عباس أنها عادت إليه دون عقد جديد؛ لكن صرح بعقد جديد في رواية أخرى. ومع أن رواية عبد الله بن عباس تُرجح على الثانية من حيث سندها إلا أن الفقهاء أخذوا بالرواية الثانية

---

[1] ورد في الإصابة أن أبا العاص غادر سنة ٦هـ في شهر جمادى الأولى مع قافلة لقريش. فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة مع ١٧٠ فارساً فالتقوا بالقافلة في مكان يسمى عيض. فأسر بعض الناس وأخذت أمتعتهم وكان أبو العاص من بينهم. فلما جاء أبو العاص آوته السيدة زينب وأعاد إليه الرسول ﷺ ما له بشفاعة من السيدة زينب.

وأولوا رواية عبد الله بن عباس على أنه لم يكن هناك أي تغير في المهر ولا في الشروط ولا في غيرها في النكاح الجديد؛ لذا اعتبره عبد الله بن عباس عقداً واحداً.

وكان أبو العاص حسن العشرة مع السيدة زينب. وقد مدح رسول الله ﷺ علاقاتهما. وقد عاشت السيدة زينب بعد النكاح الثاني فترة بسيطة جداً. فقد أسلم أبو العاص سنة ٧ أو ٦هـ (حسب اختلاف الروايات)، وتوفيت السيدة زينب سنة ٨هـ وغسلتها أم أيمن والسيدة سودة بنت زمعة وأم سلمة رضي الله عنهن وصلى عليها رسول الله ﷺ صلاة الجنازة. ثم دفنها هو ﷺ وأبو العاص. ولقد خلفت السيدة زينب ولدين امامة وعلي. وقد روي أن علي مات في طفولته، لكن الراجح أنه وصل لسن الرشد وكتب ابن عساكر أنه استشهد في معركة اليرموك.

لقد كان رسول الله ﷺ يحب أمامة كثيراً ولا يفترق عنها حتى في أوقات الصلاة. فقد ورد في الصحاح أن رسول الله ﷺ كان يصعدها على كتفه وهو يصلي وينزلها حينما يركع. وحينما يقوم من سجوده يصعدها ثانية. وذات مرة أرسل شخص بعض الهدايا لرسول الله ﷺ كان فيها عقداً ذهبياً. وكانت امامة تلعب في ناحية فقال النبي ﷺ: سأعطي هذا العقد لأحب الناس إليَّ فاعتقدت زوجات النبي ﷺ أن عائشة هي التي ستأخذه. لكن النبي ﷺ نادى على أمامة وألبسها إياه، ولقد أوصى أبو العاص الزبير بن العوام بتزويج أمامة. فلما توفيت السيدة فاطمة زوَّجها الزبير من علي، ولمَّا استشهد علي، أوصى المغيرة أن يتزوجها فتزوجها وأنجب منها طفلاً يسمى يحيى. ولكن ورد في بعض الروايات أنه لم يكن لأمامة أي أولاد وقد توفيت عند المغيرة.

السيدة رقية رضي الله عنها:

كتب الجرجاني أنها كانت أصغر بنات النبي ﷺ. لكن الرواية الشهيرة تقول أنها ولدت بعد السيدة زينب قبل البعثة بثلاث وثلاثين سنة. تزوجت في البداية من عتبة بن أبي لهب. وقال ابن سعد أن هذا الزواج كان قد تم قبل البعثة وكانت السيدة أم كلثوم بنت رسول الله قد تزوجت هي الأخرى من عتيبة الابن الثاني لأبي لهب. فلما بُعث النبي ﷺ وجهر بالدعوة جمع أبو لهب أولاده وقال: إن لم تطلقوا بنات محمد فسيحرم علي العيش معكم. فاستجاب أولاده لطلبه. فزوج النبي ﷺ السيدة رقية من عثمان.

كتب الدولابي أن زواجها من عثمان تم قبل البعثة. ولكن رويت رواية عن عثمان نفسه والتي صرح فيها بأن الزواج تم بعد البعثة. وبعد الزواج بها هاجر عثمان

إلى الحبشة برفقتها. وظلت أخبارهما منقطعة عن رسول الله ﷺ لفترة حتى جاءت امرأة لرسول الله ﷺ وقالت: لقد رأيتهما كلاهما يا رسول الله. فدعى رسول الله ﷺ وأخبر بأن عثمان هو أول من هاجر مع زوجته بعد إبراهيم ولوط.

أنجبت السيدة رقية وهي في الحبشة طفلاً يدعى عبد الله. ولكنه ما عاش سوى ست سنوات. وقد عاد عثمان من الحبشة إلى مكة ثم منها إلى المدينة. وهنا مرضت السيدة رقية، وكان هذا في أثناء وقت غزوة بدر؛ لذا لم يستطع عثمان المشاركة في الجهاد في بدر سبب تمريضه لها. وقد توفيت في نفس اليوم الذي جاء فيه زيد بن حارثة وأذاع بشرى النصر. ولم يستطع النبي ﷺ المشاركة في تشيع جنازتها بسبب غزوة بدر.

السيدة أم كلثوم رضي الله عنها:

معروفة بكنيتها، وقد نزوجها عثمان في ربيع الأول سنة ٣هـ عام غزوة بدر. وقد ورد في البخاري أنه حين ترملت السيدة حفصة، أرسل عمر لعثمان يعرض عليه الزواج من حفصة فتردد عثمان. لكن ورد في روايات أخرى أن رسول الله ﷺ أخبر عمر حين علم بذلك بأن رجلا خير من عثمان سيتزوج حفصة وأن عثمان سيتزوج من هي خير من حفصة، وطلب منه أن يزوجه ابنته حفصة، وزوج النبي ابنته أم كلثوم لعثمان. وعلى كل حال فقد تم الزواج وعاشت السيدة أم كلثوم بعد زواجها من عثمان ست سنوات. ثم توفيت في شعبان سنة ٩هـ . فصلى عليها رسول الله ﷺ الجنازة ثم دفنها هو وعلي والفضل ابن العباس و أسامة ابن زيد[1].

السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها

اسمها فاطمة، والزهراء لقبها. أُختلف في سنة ميلادها. فروى أنها ولدت في سنة واحد من البعثة، ولكن ابن إسحاق كتب: إن كل أبناء النبي ﷺ علاوة على إبراهيم ولدوا

---

[1] ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (٢٦٧٢٩) ـــ حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يعقوب قال: ثنا أبي عن ابن إسحاق قال: حدثني نوح بن حكيم الثقفي ــ وكان قارئاً للقرآن ــ عن رجل من بني عروة بن مسعود ــ يقال له: داود، قد ولدته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم ــ عن ليلى ابنة قانف الثقفية قالت: «كنت فيمن غسل أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاتها، وكان أول ما أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحقاء ثم الدرع ثم الخمار ثم الملحفة ثم أدرجت بعد في الثوب الآخر، قالت: ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند الباب معه كفنها يناولناه ثوباً ثوباً» (المترجم).

قبل البعثة. وقد بُعث النبي ﷺ وهو في الأربعين من عمره. وعليه، وفق البعض بين كلا الروايتين على أساس أن السيدة فاطمة ربما تكون قد ولدت في بداية البعثة سنة واحد، ويحتمل أن يكون هذا الاختلاف قد نشأ للبعد الزمني بين كلتا الروايتين. وقال ابن الجوزي: إنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين وقت بناء الكعبة. وفي بعض الروايات ورد أنها ولدت قبل البعثة بعام واحد تقريباً. ولو سلمنا أن السنة الأولى للبعثة هي السنة الصحيحة لميلاد السيدة فاطمة، فقد زوجها رسول الله سنة ٢هجرية من علي، وهي بنت خمس عشرة سنة وخمسة شهور ونصف. وكان عمر علي وقتها واحد وعشرين عام.[1]

وَلقد طلب الزواج منها في البداية أبو بكر ثم عمر لكن رسول الله ﷺ لم يرد عليهما. فلما أبدى علي رغبته في الزواج منها فسأله رسول الله ﷺ عمّ يملكه من مهر يدفعه لها؟ فقال: ليس عندي غير فرس ودرع يا رسول الله. فأخبره النبي ﷺ بأن الفرس ضروري للجهاد. وأمره ببيع الدرع، فاشتراه عثمان بـ ٤٨ درهماً. فأخذ علي الثمن وذهب لرسول الله ووضعه أمامه فنادى رسول الله على بلال ليذهب للسوق ويحضر بعض الطيب. وتم النكاح. ثم أعطاها رسول الله في جهازها سريراً وفراشاً. وقد ورد في الإصابة أن رسول الله ﷺ أعطاها رداءً ورحى وسقاء. وقد ظلت هذه الأشياء عندها طيلة حياتها.

وبعد العقد حين حان وقت الزفاف طلب النبي ﷺ من علي أن يستأجر بيتاً، فاستأجر منزل الحارث بن النعمان، وأقام فيه مع السيدة فاطمة. ولقد كان النبي ﷺ يسعى دائماً لتحسين العلاقات بين علي وفاطمة، فقد كان رسول الله ﷺ يصلح بينهما حينما يتعكر صفو أمورهما في بعض الأحيان. فذات مرة تصادف أن ذهب وأصلح بينهما. ثم خرج مسرورا. فسأله الناس وقالوا: يا رسول الله حينما دخلت البيت لم تكن سعيدا، ولكن لماذا حينما خرجت كنت مسروراً؟ فأخبر النبي ﷺ بأنه سُرّ لأنه أصلح بين شخصين يحبهما.

مرة قسى علي ؓ على السيدة فاطمة، فذهبت لتشتكي لرسول الله فجاء علي خلفها أيضاً. فلما اشتكت السيدة فاطمة لرسول الله ﷺ أخبرها رسول الله بأنه يجب عليها أن تعي من هو الزوج الذي يأتي عقب زوجته صامتاً . فتأثر علي بهذا القول تأثرا كبيراً وقال للسيدة فاطمة: لن أصنع لك شيئاً يغضبكِ من الآن.

[1] ورد في رواية عن علي أنه أسلم وهو ابن ثمان سنين. وقد ورد هذا التاريخ بناءاً على هذه الرواية لكن الراجح أنه أسلم وهو في العاشرة من عمره. وطبقاً لهذه الرواية فقد كان عمره ٢٤ سنة وشهر ونصف.

ذات مرة أراد علي أن يتزوج ثانية. فلما علم رسول الله ﷺ غضب غضباً شديداً وألقى خطبة في المسجد أعلن فيها عن غضبه وقال: فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها. فأقلع علي عن إرادته ولم يتزوج من ثانية أبداً طيلة حياة السيدة فاطمة.[1]

كان للسيدة فاطمة خمسة أولاد هم الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم وزينب. توفى محسن ﷺ في طفولته. أما السيدة زينب والإمام الحسين وأم كلثوم فمشهورين في تاريخ الإسلام بسبب الأحداث الهامة.

توفيت السيدة فاطمة في شهر رمضان سنة ١١هـ بعد وفاة أبيها ﷺ بستة أشهر،[2] وكان عمرها آنذاك ٢٩ عاماً. ويوجد اختلاف حول عمرها وقت وفاتها. فالبعض يقول أنها ماتت عن ٢٤ سنة، والبعض الأخر عن ٢٥ سنة، وآخرون يقولون أنها توفيت عن ٣٠ سنة، لكن الزرقاني كتب أن الرواية الأولى هي الأصح لأنه لو سلم بأنها ولدت وعمر أبيها ٤١ سنة، فلا يمكن أن يكون هذا عمرها في هذا الوقت، ولكن لو سلم أن عمرها كان ٢٤ سنة فيعتبر هذا التاريخ هو تاريخ الميلاد. وأن سُلم أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنوات فيمكن أن يكون عمرها كان ٢٩ سنة وقت وفاتها.

إبراهيم ﷺ

كان آخر أولاد النبي ﷺ: ولد في شهر ذي الحجة سنة ٨ هـ بمكان اسمه عالية، حيث كانت تعيش مارية القبطية، لذا أطلق الناس على مكان عالية اسم مشربة إبراهيم. وكانت سلمة زوجة أبي رافع جارية النبي أو جارية عمته صفية هي حاضنة إبراهيم. وحينما زف أبو رافع بشرى ولادة إبراهيم لرسول الله ﷺ، أعطاه النبي ﷺ عبداً له. ثم صنع لإبراهيم عقيقة في اليوم السابع وتصدق بوزن شعره فضة. وأسماه إبراهيم على اسم أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. وقد أبدى كل الأنصار رغبتهم في إرضاعه لكن النبي ﷺ أعطاه لأم بردة خولة بنت زيد الأنصارية لترضعه مقابل بعض أشجار النخيل. وقد روى

[1] صحيح البخاري، ذكر أصهار النبي ﷺ.

[2] فيه اختلاف أيضاً فقد كتب البعض أنها عاشت ثلاثة أيام فقط بعد رسول الله ﷺ . وقال آخرون: بل عاشت أربعة أشهر. وقال فريق ثالث:إنها توفيت بعد شهرين. وقال أحدهم: شهر واحد. وقال آخر: ثلاثة أشهر. وقال آخرون: ثلاثة أشهر وخمسة أيام. لكن وردت في الصحاح رواية أنها ماتت بعد ستة أشهر من وفاة النبي ﷺ.

في البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ كلف أم سيف هذه المهمة. لكن القاضي عياض قال إن أم سيف وأم بردة اسمان لامرأة واحدة. ولا يستبعد هذا التأويل. لكن قيل أن زوجها هو البراء بن أوس وهو لم يكن معروفاً بكنية أبو سيف. وكانت أم سيف تعيش في ضواحى المدينة. فكان رسول الله ﷺ يذهب إلى هناك من فرط حبه لولده ويحمله في حجر ويقبله، ولأن زوج أم سيف كان حداداً، لذا كان بيتهم ممتلئ بالدخان، ومع ذلك كان رسول الله ﷺ يتحمل ذلك لحسن أخلاقهم.

توفي إبراهيم عند أم سيف، فلما علم النبي ﷺ بذلك ذهب إليه مع عبد الرحمن بن عوف وهو ما يزال في حالة النزع فحمله في حجره ثم سالت الدموع من عينيه. فقال عبد الرحمن بن عوف : ما هذا يا رسول الله؟ فقال النبي: إنها الرحمة.

وكان العرب يعتقدون أن القمر يخسف والشمس تكسف عند موت أي عظيم. وصدفة أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم ﵁، فاشتهر بأن هذا الكسوف بسبب موت إبراهيم. وحين علم النبي ﷺ بهذا، قال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته". وقد حملت الجنازة على نعش صغير. وصلى النبي ﷺ بنفسه على الجنازة. ثم دفنوه في قبر متصل بعثمان بن مظعون ﵁. وقد وضع جسده المبارك في القبر الفضل بن العباس وأسامة بن زيد وكان النبي ﷺ واقفاً بجوار القبر. ثم رش ماء على القبر ووضعت عليه علامة لتميزه.

طبقاً لما رواه أبو داود والبيهقي فقد توفى إبراهيم وهو ابن شهرين وعشرة أيام. فقد ولد في ذى الحجة سنة ٨هـ. وعليه، توفى سنة ٩هـ. ويرى الواقدى أنه تُوفى في شهر ربيع الأول سنة ١٠هـ وطبقاً لهذا الراوي يكون إبراهيم قد عاش خمسة عشر شهراً تقريباً. وورد في بعض الروايات أنه عاش ستة عشر شهراً وثمانية أيام. ويقول آخرون أنه عاش سنة وعشر شهور وستة أيام. لكن روي في الصحاح عن السيدة عائشة أنه عاش ١٧ أو ١٨ شهراً.

حياة النبي ﷺ مع أمهات المؤمنين:

وصل عدد أزواج النبي ﷺ إلى تسع. وكن كبقية النساء تغار وتنافس بعضهن البعض. ولأن رسول الله ﷺ كان يعيش حياة متقشفة ولا يهتم بالصورة الكافية بمأكلهن وملبسهن. لذا كن يشتكين أيضاً. ومع كل هذه الأمور لم يكن النبي ﷺ يقضب وجهه منهن. وكان ﷺ يحب السيدة خديجة، فحين تزوجها كان في ريعان شبابه وكانت تكبره

بخمس عشرة سنة، ولكن مع ذلك لم يتزوج النبي ﷺ طيلة حياتها. حتى بعد ما توفيت كان النبي ﷺ يضطرب حينما يأتي ذكرها (وقد مر تفصيل ذلك).

كانت السيدة عائشة أحب أزواج النبي ﷺ إليه بعد السيدة خديجة. ولكن يجب أن تعرف أن الرسول ﷺ لم يكن يحبها لتلك الأسباب التي يحب الرجال لها النساء. فقد كانت السيدة صفية تفوقها في الجمال، كما كانت تصغرها سناً، إضافة إلى أن نساء النبي ﷺ الأخريات لم يكن أقل منها في المحاسن الظاهرية، لكن كانت حذاقتها وذكاءها وقوة اجتهادها ودقة نظرها وسعة معلوماتها هي ما ميزها (السيدة عائشة) عن بقية أمهات المؤمنين.

مرة أرسلت نساء النبي ﷺ السيدة فاطمة الزهراء كسفيرة لهن إلى رسول الله ﷺ. فلما ذهبت السيدة فاطمة لرسول الله طلبت الأذن في الدخول أولاً كما هو متعارف عليه. ثم دخلت بعد أن أذن لها. فسألها النبي: عمّ إذا كانت تبغي ما يبغيه هو ﷺ ؟ وكانت هذه المقولة كافية للسيدة فاطمة، لذا رجعت وقالت لأمهات المؤمنين: لن أتدخل في هذا الأمر.

وقع الاختيار على السيدة زينب لهذه المهمة، لأنها كانت تضاهي السيدة عائشة من بين بقية أمهات المؤمنين، لذا كانت الأكثر مناسبة لهذه المهمة. فحاولت بكل شجاعة أن تثبت للسيدة عائشة أنها ليست أهلاً لتلك المنزلة. وكانت السيدة عائشة تسمع لها وهي صامتة وتنظر لرسول الله ﷺ. فلما سكتت السيدة زينب وقفت السيدة عائشة وتكلمت بحماس جعل السيدة زينب لا تقدر على الرد. فقال النبي: واه يا بنت أبي بكر،[١]

يقول النبي ﷺ تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك.[٢] إذ أن رسول الله ﷺ كان يقدم الدين على كل شيء في كل الأمور، ويبرز هذا الشيء بوضوح في أزواج النبي اللائى يخدم بهن الدين، حيث تيسر لهن القرب من رسول الله ﷺ. فكن معه في الخلوة والجلوة، لذا كان يمكنهن الإطلاع أكثر من غيرهن على أحكام وأمور الدين لكنهن كن أيضاً في حاجة لفهم المسائل والخوض في غمار خفايا الشريعة. ولقد كانت السيدة عائشة تتمتع بذهن وعقل حاذق. فاستفادت من صحبة النبي ﷺ كثيراً، لذا كانت تخالف أكابر الصحابة في أدق وأخطر المسائل وتصيب

---

[١] ذكرت هذه الواقعة بالتفصيل في البخاري وفي كتب الأحاديث الأخرى. ويتبادر للذهن من ظاهر ألفاظ الرواية أن الاثنين انتقدتا بعضهما كما يحدث عامة بين الضرر. ولكن ليس هذا تحقير. فربما تكون السيدة عائشة قد بينت دليلين لفضلها. وأنه لم يكن هناك جواب عليها سوى السكوت.

[٢] البخاري، كتاب النكاح.

في رأيها. ويبرز فهمها ودقة نظرها في أكثر المسائل (وقد مر ذكر ذلك عند الحديث عنها).

وقد كان النبي ﷺ معتاداً على أن يذهب لبيوت أزواجه فيجلس عند كل واحدة منهن قليلاً ثم يقضي الليل عند صاحبة الليلة. وهذا ما رواه أبو داود. أما الزرقاني فقال في حديثه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كانت يبدأ بأم سلمة حين يحين وقت العصر. وورد في بعض الروايات أن أمهات المؤمنين كن يجتمعن عند من كانت الليلة لها فيجلسن مع رسول الله ﷺ حتى الليل ثم يعدن ليلاً لحجراتهن. ويتضح من ذلك أن زوجات النبي ﷺ كن يتنافسن أحياناً. لكن كانت قلوبهن صافية، لذا كن يستمتعن بالجلوس مع بعضهن. فلقد نقى شرف صحبتهن لرسول الله ﷺ قلوبهن. ويبدو هذا في حادثة الإفك، حين اتهم المنافقون السيدة عائشة. فكانت هذه أوضح فرصة للانتقام منها. ومع أن بعض الناس كانوا قد اشتركوا في اتهام السيدة عائشة إلا أن أمهات المؤمنين كن بعيدات تماماً عن هذا الأمر، فمع أن السيدة زينب رضي الله عنها كانت تنافس السيدة عائشة، لكن حين سألها رسول الله ﷺ عن السيدة عائشة آنذاك قالت بعدما وضعت يدها على أذنيها: ما علمت إلا خيراً. لذا كانت السيدة عائشة حين تتكلم عن واقعة الإفك تبدى شكرها لنقاء سريرة السيدة زينب (وقد ورد تفصيل ذلك في روايات عديدة للبخاري).

كان رسول الله ﷺ من جانبه يرضي أزواجه ويتحمل ضيق مزاجهن، وسيتضح هذا من الأحداث التالية:

ذات مرة كانت أمهات المؤمنين في سفر، وأخذ الراعي يحس الإبل على الإسراع في المشي فقال النبي ﷺ: رفقاً بالقوارير. وكانت السيدة صفية تجيد الطهي. وذات يوم طهت طعاماً وأرسلت منه لرسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ في ذاك الوقت عند السيدة عائشة فأخذت السيدة عائشة إناء الطعام من الخادم وقذفت به على الأرض، فجمع النبي ﷺ أجزاء الإناء ولأمه، ثم طلب إناء آخر وأعاده.[1]

ذات مرة كانت السيدة عائشة تتكلم مع رسول الله ﷺ بصوت عال وهي غاضبة، فتصادف أن جاء أبو بكر فأمسك السيدة عائشة وأراد أن يلطمها لأنها ترفع صوتها على رسول الله ﷺ، فمنعه النبي وحال بينهما فخرج أبو بكر مغتاظاً. فقال رسول الله ﷺ للسيدة

---

[1] وردت هذه الرواية في البخاري، كتاب النكاح، دون ذكر لأسماء أمهات المؤمنين لكن صرح بأسماهن في النسائي ويوجد اختلاف إلى حد ما بين الروايتين.

عائشة: كيف رأيتني أنقذتك من الرجل. وبعد بضعة أيام جاء أبو بكر رسول الله ﷺ بعدما هدأ الوضع. وقال: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما. فقال النبي ﷺ: قد فعلنا، قد فعلنا.[١]

مرة قال رسول الله ﷺ للسيدة عائشة: إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت غضبى. فقالت: من أين تعرف ذلك؟ قال رسول الله ﷺ: أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم. فقالت السيدة عائشة: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك.[٢]

حينما تزوج رسول الله السيدة عائشة كانت صغيرة جداً فكانت تلعب مع الفتيات. وإن تصادف ومر بهن رسول الله تهرب الفتيات. فيناديهن رسول الله ويرسلهن ليلعبن مع السيدة عائشة.[٣]

كان الأحباش يضعون رمحاً صغيراً يقال له حربة. كما هو الحال في بلادنا بالنسبة للعبة الطوق. فكان الأحباش يلعبون به وذات مرة كان الأحباش يلعبون به يوم العيد فأرادت السيدة عائشة أن تتفرج عليهم فوقف رسول الله ﷺ أمامها واستترت السيدة عائشة خلفه وأخذت تنظر، وظلت تنظر لفترة طويلة حتى قال لها رسول الله ﷺ: أما اكتفيت. قالت: لا. فظل النبي ﷺ صامتاً واقفاً حتى تعبت هي واكتفت.

ذات مرة كانت السيدة عائشة تلعب بالدمى، فجاء الرسول الله ﷺ من الخارج وكان ضمن الدمى فرساً له جناحان من رقاع. فقال النبي ﷺ: ما هذا؟ فقالت عائشة: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة فتبسم رسول الله.[٤] وقد ذاع بين العوام أن الخيول كانت لها شعر في البداية ثم قصها سليمان لأنه كان قد قضى الصلاة. وهو يتنزه عليها. ومنذ ذلك الحين وشعرها يخف حتى لم يتبقى منها إلا القليل فكان كلام السيدة عائشة إشارة لتلك القصة.

---

(١) أبو داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) المرجع السابق.

(٤) أبو داود، كتاب الأدب.

ذات مرة طلب رسول الله ﷺ من السيدة عائشة أن يستبقا في المشي. ولأن السيدة عائشة كانت نحيفة في ذاك الوقت لذا سبقت النبي ﷺ. ولكن حينما تقدم بها السن وامتلأ جسدها واستبقت مع رسول الله ﷺ سبقها رسول الله. وقال: هذه بتلك.[1]

حياة أزواجه وأولاده ﷺ البسيطة

يمكن للإنسان أن يجوع، ويتحمل الفقر وكثيرا من الصعاب، كما يمكن له أيضاً، أن يزهد في زخارف الدنيا تماما، ولكنه لا يقدر على جبر أهله وعياله على مثل هذه الحياة البسيطة والمتقشفة، وكان هذا هو السبب الذي جعل الناس الزاهدين في الدنيا يبتعدون بأنفسهم عن بيوت أهلهم وعيالهم ويعيشون عيشة رهبانية. وفي تاريخ الأديان نجد حياة النبي ﷺ مستثناة من هذا كلية، فقد كان للنبي ﷺ تسع زوجات، بعضهن كان قد تربى في عز ورفاهية وأكثرهن كان ينتمي إلى أسر عريقة، لذا كان من الممكن والطبيعي أن يملن إلى أشهى الأطعمة وأفخر الملابس، كما كان الأطفال صغار السن والذين يشتهون كل الأطعمة والملابس وكل شيء فاتن يمكن لهم أن يجذبنه ناحيتهم هم وما يريدونه، ومما ذكر سابقاً يتضح منه أن النبي ﷺ كان يحب أولاده وأزواجه حبا جما، وقد قمع الرهبانية، وبالرغم من كثرة الفتوحات وعموم الرخاء في المدينة إلا أن النبي ﷺ كرّه إليهم مثله الزخارف الدنيوية، وكان يمنعهم من الافتتان بالدنيا، ومن ثم أصبحت أزواجه وأهله وعياله خير أسوة حسنة له ﷺ.

كانت السيدة فاطمة أحب الأولاد إليه، ولكنها لم تستغل حبه الجم لها استغلالا دنيويا، إذ كانت تقوم بنفسها بأعمال بيتها، وكانت تطحن الدقيق بالرحى، حتى تورمت يداها، وتحضر الماء، وتكنس البيت، وتغسل الملابس، وتطهى الطعام، لدرجة أن الملابس كانت تسود بسبب الجلوس أما التنور، وبالرغم من هذا رفض الرسول ﷺ رفضا قطعياً توفير جارية لها حين طلبت منه ذات مرة جارية تعينها على أعباء البيت، وأظهرت له ما بأيديها من جروح نتيجة كثرة أعمال البيت، وأخبرها النبي ﷺ أن هذا حق الفقراء واليتامى.[2]

---

[1] أبو داود.

[2] الإشارة هنا إلى الجارية، إذ كانت من بين غنائم المسلمين في غزوة من الغزوات. (المترجم).

ذات مرة ذهب النبي ﷺ إلى السيدة فاطمة، ورآها تستر نفسها برداء صغير بسبب الإفلاس، لدرجة أنها لو غطت رأسها لانكشفت قدماها، ولو غطت قدماها لانكشفت رأسها.[١]

ليس هذا فحسب بل لم يكن يعطيها أي شيء من أشياء الزينة خلافا لطريقة إظهار الحب، بل كان لا يحب هذا النوع من الأشياء التي كانت تحصل عليها عن طريق آخر، فذات مرة أعطاها علي ؓ عقدا ذهبيا، وحين علم النبيﷺ بهذا فاعترض، وسألها أتريد أن يقول الناس أن ابنة رسول الله ترتدي عقدا من النار؟ وهنا باعت السيدة فاطمة هذا العقد في الحال واشترت بثمنه عبدا.[٢]

ذات مرة عاد النبي ﷺ من غزوة، وكانت السيدة فاطمة قد علقت ستائر على أبواب المنزل استقبالا له ﷺ كما ألبست الحسن والحسين أساور من فضة، وحين جاء ﷺ حسب عادته[٣] ورأى مثل هذه الزينة الدنيوية رجع، فعلمت السيدة فاطمة سبب رجوعه، فأزالت هذا الستار، وخلعت الأساور من يد الأطفال، فذهب الحسن والحسين إلى الرسولﷺ يبكيان. فأخبر النبي ﷺ: أنهما من أهل بيته، ولا يريد أن يلوثا بزخارف الدنيا هذه، وبدلا منها اشترى عقدا من عظم لفاطمة وإسورتين من عظم (للحسن والحسين).[٤] لم يُظهر النبي ﷺ حبه أبدا لأزواجه المطهرات بطريقة دنيوية، ومن ثم حين أظهرن رغبتهن في أشهى الطعام وأفضل اللباس، ابتعد عنهن وكان الإيلاء. وكانت السيدة عائشة أحب أزواجه إليه، ولكنه ﷺ لم يظهر هذا الحب عن طريق اللباس والزينة الذهبية، فكان لباسها هو لباس بقية الأزواج رضى الله عنهن. تقول بنفسها: **ما كان لإحدانا إلا ثوب واحد** (البخاري، ج١،ص٤٥).

---

[١] المرجع السابق.

[٢] النسائي، كتاب الزينة.

[٣] ذكر المؤلف سابقا أن السيدة فاطمة كانت هي آخر من يلقاها قبل خروجه في أي سفر، كما كانت هي أيضاً أول من يلقاها حين يرجع.(المترجم).

[٤] النسائي، كتاب الزينة. وهذا نص الحديث: (٥١٢٧) أَخْبَرَنا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ، : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَأَى عَلَيْهَا مَسَكَتَيْ ذَهَبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا لَوْ نَزَعْتِ هَذَا وَجَعَلْتِ مَسَكَتَيْنِ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ صَفَّرْتِهِمَا بِزَعْفَرَانٍ كَانَتَا حَسَنَتَيْنِ». قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: هَذَا غَيْرُ مَحْفُوظٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (المترجم).

وحين كان يبدو أي شيء من الزينة الدنيوية على جسدها، كان النبي ﷺ يمنعه. فذات مرة لبست أسورة من ذهب، فقال النبي ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هذَا لَوْ نَزَعْتِ هذَا وَجَعَلْتِ مَسَكَتَيْنِ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ صَفَّرْتِهِمَا بِزَعْفَرَانٍ كَانَتَا حَسَنَتَيْنِ».(كان أهل بيت النبي ﷺ ممنوعين من استخدام زينة الذهب ولباس الحرير وأي تكلف في الحياة، فكان النبي ﷺ يخبرهن: إن كن يردن هذه الأشياء فسوف يجدونها في الجنة، لذا يجب أن يبتعدن عنها في الدنيا).

تدبير شئون بيته ﷺ

بالرغم من أن عدد أزواج النبي ﷺ، وصل في وقت إلى تسع أزواج، ولذا كان هناك صعوبة في تدبير شئون البيت، إلا أن النبي ﷺ لم يكن ليهتم بهذه الأشياء بنفسه، فقد كان من سنته ﷺ في حياته أن ينفق ما يأتيه في يومه، وإذا تبقى أي شيء كان ينفقه في سبيل الله، أما عن طعام وشراب زوجاته ﷺ وضيوفه؛ فكان من مهام بلال ﷺ. ورد في أبي داود رواية عن عبد الله الهوزني: سألت بلال كيف تدبر شئون بيت رسول الله ﷺ ؟ قال: كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله إلى أن توفى رسول الله ﷺ وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً يأمرني(بقضاء حاجته)، [١] فأقترض وأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه.[٢]

تدبير نفقات الأهل والأولاد

كان قد حدد نصيب من نخيل بني النضير لينفق على أزواج النبي ﷺ فكان يبتاع، وينفق ثمنه عليهن طوال السنة.[٣] وحين فتحت خيبر حدد لهن ثمانين وسقا مـن التمـر، وعشرين وسقا من الشعير سنويا. والوسق ستون صاعا. وفي عهد عمر ﷺ أخذت بعض أمهات المؤمنين ــ ومن بينهن عائشة أيضاً ــ أرضاً بدلا من المحصول.[٤]

---

[١] المترجم.

[٢] ج٢، باب في الإمام يقبل هدايا المشركين.

[٣] البخاري، ص٨٠٦.

[٤] البخاري، كتاب المزارعة، ج١، ص٢١٣. (كان ﷺ يعطي أزواجه مائة وسق ثمانون وسق من تمـر وعشرون وسق من شعير. فقسم عمر خيبر، فخير أزواج النبي ﷺ أن يقطع لهن من الماء والأرض أو يمضي لهن. فمنهن من اختار الأرض ومنهن مـن اختـار الوسـق، وكانـت عائشـة اختـارت الأرض). (البخاري، ج[illegible]، ص[illegible]). (المترجم).

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس